تغريدات الصالحين

ألف حكمة رائعة في ميادين التربية الإيمانية

جمع و شرح
فريق من الباحثين

بإشراف و مشاركة
الأستاذ الدكتور مصطفى مخدوم

المجلد الثاني

دار طيبة الخضراء
للنشر والتوزيع | علم ينتفع به

تغريدات الصالحين

ألف حكمة رائعة في ميادين التربية الإيمانية

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

سليمي ، محمد حسن

تغريدات الصالحين ألف حكمة رائعة في ميادين التربية الإيمانية

محمد حسن سليمي - ط ١، مكة المكرمة ، 1444 هـ

2186 ص؛ 17×24 سم

ردمك: 2-81-8350-603-978

1- الوعظ و الإرشاد 2- الحسنات و السيئات أ. العنوان

ديوي 213 1444/2820

رقم الإيداع: 1444/2820

ردمك: 2-81-8350-603-978

الطبعة الأولى (1444هـ - 2023م)

دار طيبة الخضراء للنشر والتوزيع | علم ينتفع به

dar.taibagreen123

dar.taiba

@dar_tg

dar_tg

dartaibagreen@gmail.com

yyy.01@hotmail.com

012 556 2986

055 042 8992

مكة المكرمة - العزيزية - خلف مسجد فقيه

تغريدات الصالحين

ألف حكمة رائعة في ميادين التربية الإيمانية

جمع و شرح

فريق من الباحثين

بإشراف و مشاركة

الأستاذ الدكتور مصطفى مخدوم

المجلد الثاني

دار طيبة الخضراء

للنشر والتوزيع - علم ينتفع به

بسم الله الرحمن الرحيم

باب الستر

والتحذير من المجاهرة بالمعاصي

٣٤٨

مهتوك الستر

قال أبو إدريس الخولاني[(١)] رحمه الله: «لا يهتك الله سترَ عبدٍ في قلبه مثقال ذرةٍ خيراً»[(٢)].

المعنى الإجمالي

من رحمة الله بعباده ستره لهم؛ لأن الستر يغطي عيوب العباد وذنوبهم، ولولا ستر الله ولطفه بعباده لما استطاع أحد أن يجلس بجوار أحد لما هُتِكَ من ستره.

والذين يحفظهم الله فلا يهتك لهم سترًا، ولا يكشف لهم عيبًا، هم أولئك الذين يجعلون لله هيبة ووقارًا في قلوبهم؛ فهم يراقبونه ويخشونه في السر والعلن، كما قال النبي ﷺ: «ثلاث منجيات؛ وهن: العدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفاقة، وخشية الله في السر والعلن»[(٣)].

(١) أبو إدريس عائذ بن عبد الله الخولاني الدمشقي، الفقيه، عالم أهل الشام، قاضي دمشق وواعظها، ولد عام الفتح، التابعي الكبير وأبوه صحابي، ثقة، حديثه في الكتب الستة، حدَّث عن كبار الصحابة وغيرهم، وحدث عنه كبار التابعين وصغارهم، مات سنة ٨٠هـ. ينظر: الطبقات لابن سعد (٧/ ٣١٢)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٢٧٢).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ١٢٤).

(٣) أخرجه البزار في مسنده (١٣/ ١١٤) برقم: (٦٤٩١)؛ والطبراني في المعجم الأوسط (٥/ ٣٢٨) برقم: (٥٤٥٢).

والله لا يظلم أحدًا من عباده لا في الدنيا ولا في الآخرة، فقد قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء:٤٠]، فإذا كان هذا هو جزاؤه لعباده، فإنه لا يهتك ستر عبد وهو يعلم أن في قلبه مثقال ذرة من خير، وإنما يكشف الستر ويهتكه عمن لا يؤمنون به، ولا يعظمونه.

٣٤٩

أعظم الذنب عند الله

قال إبراهيم بن يزيد النخعي رحمه الله: «أعظم الذنب عند الله: أن يُحَدِّث العبدُ بما ستر الله تعالى عليه»(١).

المعنى الإجمالي

المجاهرة بالمعاصي وكشف المستور منها من أقبح الذنوب وأشنعها؛ إذ إن صاحبها يرىٰ ستر الله يجلله من كل جانب، فيرفض ذلك ويكشف ما ستره الله من قبيح أفعاله، ويصبح يحدث الناس بما عمله من ليله. قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي معافىٰ إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملًا، ثم يصبح وقد ستره الله عليه، فيقول: يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه»(٢).

ومما يجب أن يستر فلا يكشف منه شيء ما يحدث بين الرجل وزوجه، ولخطورة هذا الأمر نبَّه النبي ﷺ عليه، فقال: «هل فيكم رجل إذا أتىٰ أهله أغلق بابه وأرخىٰ ستره، ثم يخرج فيحدث فيقول: فعلت بأهلي كذا، وفعلت بأهلي كذا؟» فسكتوا فأقبل علىٰ النساء فقال: «هل منكن من تحدث؟»، فجثت فتاة كعاب

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٤/ ٢١٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٢٠) برقم: (٦٠٦٩)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٢٢٤) برقم: (٢٩٩٠).

علىٰ إحدىٰ ركبتيها، وتطاولت ليراها رسول الله ﷺ ويسمع كلامها، فقالت: إي والله إنهم ليحدثون، وإنهن ليحدثن، قال: «هل تدرون ما مثل من فعل ذلك؟ إن مثل من فعل ذلك مثل شيطان وشيطانة لقي أحدهما صاحبه بالسكة، قضىٰ حاجته منها والناس ينظرون إليه»[1].

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦/ ٥٧٤) برقم: (١٠٩٧٧).

٣٥٠

الخطيئة في الإسرار والإعلان

قال بلال بن سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الخطيئة إذا أُخْفِيَت لم تَضرَّ إلا أهلها، وإذا أُظْهِرت فلم تُغَيرَّ ضرت العامة»[١].

المعنى الإجمالي

الخطايا مصائب تجتمع على الفرد حتى تهلكه، وعلى الأمة حتى تمحق بركتها، وتُديلُ عزها ومكانتها؛ فكم من أمة سادت رَدْحًا من الزمن، فلما بدلت أمر ربها استحال عزها ذلًا، ومجدها وعلوها تسفلًا وانحدارًا، وما ذلك إلا لشؤم وقبح المعاصي والسيئات.

ولا شك أنَّ المعاصي عندما تكون فردية ومخفية لن تضر إلا صاحبها وفاعلها، وليس هذا تشجيعًا لها، ولكنه من باب الموازنة بين المفاسد، بينما المعصية إذا ظهرت وجاهر الناس بها، فإنها تشجع العامة على انتهاك حرمات الله، والتعدي على حدوده وأحكامه.

إن صاحب الذنب والخطيئة مستور بستر الله تعالى، وضرر ذنبه وخطيئته يعود عليه دون غيره، أما إن أعلن وأحب شيوعها فإنه ممن يستحقون وعيد الله وعقابه،

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ٢٢٢).

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور:١٩].

ولقد حذر الرسول ﷺ من إعلان الخطايا والمعاصي؛ لما يترتب عليها من أخذ الله العباد بعقوباته لهم في الدنيا، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ، فقال: «يا معشر المهاجرين! خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتىٰ يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم»(١).

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٣٣٢) برقم: (٤٠١٩).

٣٥١

الشقي المجاهر بالمعاصي

قال أبو علي الجوزجاني[(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الشقي مَن أظهر ما كتم الله عليه من معاصيه»[(٢)].

المعنى الإجمالي

مِنْ حلم الله علىٰ عباده أنه لم يعجلهم بعقوبته، بل جعل لهم أجلًا مسمىٰ ومنحهم في فسحتهم أملًا ليتوبوا إليه؛ فلم يقنطهم وييأسهم من رحمته وعفوه.

وستر الله علىٰ عباده معاصيهم دليلٌ واضحٌ علىٰ حلم الله ولطفه؛ لأنه يعلم ضعفهم، ويحب أن يعودوا إليه دون أن يعلم الناس عن حالهم شيئًا، وقد كان من هدي النبي ﷺ ستر أهل المعاصي، ودرأ معاصيهم بالشبهات؛ كما ورد في الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «أتىٰ رجلٌ من المسلمين رسول الله ﷺ وهو في المسجد، فناداه فقال: يا رسول الله، إني زنيت، فأعرض عنه، فتنحَّىٰ تلقاء وجهه، فقال له: يا رسول الله، إني زنيت، فأعرض عنه، حتىٰ ثنىٰ ذلك عليه أربع مرات، فلما شهد

(١) الحسن بن علي أبو علي الجوزجاني، من كبار مشايخ خراسان، له التصانيف المشهورة في الرياضيات، صحب محمد بن علي الترمذي ومحمد ابن الفضل، تكلم في علوم الرياضات والمجاهدات، توفي في أوائل القرن الرابع للهجرة. ينظر: طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص ١٩٦)؛ طبقات الأولياء لابن الملقن (ص ٣٣٣).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ١٩٧).

علىٰ نفسه أربع شهادات، دعاه رسول الله ﷺ فقال: «أبك جنون»؟ قال: لا، قال: «فهل أَحْصَنْتَ»؟ قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: «اذهبوا به فارجموه»[(١)].

وعلىٰ المسلم أن يوقر الله في سره وعلانيته، وألا يهتك سترا ستره الله به، فإن من هتك هذا الستر الإلهي، وأبدىٰ للناس سوءته، وكشف عن معاصيه، فإنه من المجاهرين بالمعاصي الداعين لها، الذين لا يرجون لله وقارًا، وهذه علامة من علامة الشقاء والخذلان.

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٦٧) برقم: (٦٨٢٥)؛ ومسلم في صحيحه (٥/ ١١٦) برقم: (١٦٩١).

٣٥٢

ستر العوام وستر الخواص

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «السِترُ على قسمين: سترٌ عن المعصية، وسترٌ فيها؛ فالعامة يطلبون من الله تعالى السترَ فيها؛ خشيةَ سقوط مرتبتهم عند الخلق، والخاصة يطلبون الستر عنها؛ خشية سقوطهم من نَظَرِ المَلِكِ الحقِّ»[١].

بيان المفردات

الستر: هو الحفظ والتغطية، وهو في الحسِّ من الآفات والبَلِيَّات التي تُوجِب هلاكَه، وفي المعنىٰ من الفضيحة والمقت وسقوط المرتبة. وهو باعتبار المعصية علىٰ قسمين: قسم يقع الستر فيها فلا يُفضَح صاحبُها، وقسم يقع الستر عنها فلا يقع العبد فيها ولو طلبها، لِما شمله من حفظ الله ورعايته[٢].

المعنى الإجمالي

العامة يطلبون السترَ في المعصية خوفَ اطلاعِ الناسِ عليهم، فهم كما قال تعالىٰ: ﴿ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ ﴾ [النساء:١٠٨]. وهذا

(١) الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٨٤).

(٢) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ٣١٠).

شأن المرائين الذين يستخفون بنظر الجبَّار، ويهابون الناس أن يطلعوا عليهم فيما يرتكبونه من الأوزار. وأما الخاصة فهم يطلبون من الله السترَ عنها، بأن يجعل بينهم وبينها حاجبًا، حتىٰ لا تخطر بقلوبهم؛ خشية سقوطهم مِن نَظَرِ المَلِكِ الحق[1].

قال ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر:١٩]: «هو الرجل يكون في القوم، فتمرُّ به المرأةُ، فيُرِيهم أنه يغُضُّ بصرَه عنها، فإذا رأىٰ من القوم غفلةً لَحَظ إليها، وإذا نظروا غضَّ بصرَه عنها، وقد اطلع اللهُ مِن قلبِهِ أنه وَدَّ أنه ينظُر إلىٰ عورتِها»[2].

وقال الله تعالىٰ عند كلامه علىٰ المنافقين، حيث كانوا يحرصون علىٰ رضا الناس بظواهرهم، ولا يخافون من تعريض أنفسهم لمقت الله وغضبه، قال: ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة:٦٢].

---

(١) شرح الحكم العطائية للشرنوبي (ص: ١٠٥).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٢٦٥).

باب الهمة والإرادة

٣٥٣

همم الأبرار

قال يزيد الرقاشي رَحِمَهُ اللَّهُ: «للأبرار هِمَمٌ تُبَلِّغُهم أعمال البِرّ، وكفاك بِهِمَّةٍ دعَتْك إلى خيرٍ خيراً»[(١)].

المعنى الإجمالي

إن الأبرار لديهم همم عالية، وعزائم صادقة، وإرادات متينة، يبتغون بها الوصول إلى رضا الله تعالى، وبلوغ أعمال البر التي يريدها الله تعالى. ولا يرتضون لأنفسهم أن يسبقهم إلى الله أحد؛ لأنهم يعرفون ثمن هذا السباق، وهو رضا الله تعالى وجنته، والجزاء على قدر العمل.

وخير مثال على هذه الهمة العظيمة همة النبي ﷺ التي أيقظت وأحيت الأمة من الضياع إلى الحضور، ومن الهامشية في الحياة إلى الفاعلية، ومن ذيل الأمم إلى أن تكون قائدة رائدة شاهدة على غيرها من الأمم.

ومن القوم مَن خلقت لهم همم قاصرة في الدنيا عن طلب الفضائل، ويتفاوت قصرها: فمنهم من يحفظ بعض القرآن، ولا يتوق إلى التمام، ومنهم من قد رضي من كل شيء بيسيره، ولو علت بهم الهمم، لجدَّتْ في تحصيل كل الفضائل.

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٥١).

ويدل علىٰ تفاوت الهمم أن في الناس من يسهر في سماع سمر، ولا يسهل عليه السهر في سماع القرآن! والإنسان يحشر، ومعه تلك الهمة، فيعطىٰ علىٰ مقدار ما حصلت في الدنيا، فكما لم تتق إلىٰ الكمال، وقنعت بالدون، قنعت في الآخرة بمثل ذلك[1].

(١) ينظر: صيد الخاطر لابن الجوزي (ص: ٣٢١).

٣٥٤

الإرادة الابتدائيــة

قال أبو عثمان الحيري[(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من لم تَصِحّ إرادته ابتداءً، فإنه لا يَزيده مرور الأيام عليه إلا إدبارًا»[(٢)].

بيـان المفردات

الإرادة: المشيئة، يقال: أراد يريد إرادة، والريدة الاسم من الإرادة. والإرادة ضد الكراهة وأصلها من: راودته علىٰ كذا. وفرَّق بعضهم بين الإرادة والمشيئة بأن: الإرادة هي العزم علىٰ الفعل، أو الترك بعد تصور الغاية، المترتبة عليه من خير، أو نفع، أو لذة ونحو ذلك، وهي أخصُّ من المشيئة؛ لأن المشيئة ابتداءُ العزم علىٰ الفعل، فنسبتها إلىٰ الإرادة نسبة الضعف إلىٰ القوة، والظن إلىٰ الجزم[(٣)].

(١) سعيد بن إسماعيل بن سعيد النيسابوري الحيري الصوفي، الإمام، المحدث، الواعظ، ولد سنة ٢٣٠هـ بالري نشأ بها ثم انتقل إلىٰ نيسابور، كان أوحد المشايخ في وقته، ومنه انتشرت طريقة التصوف في نيسابور، أخذ الطريقة عن أبي حفص النيسابوري وتزوج ابنته، وصحب شاها الكرماني، توفي سنة ٢٩٨هـ. ينظر: مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (١٦/ ٣٨٢)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (١٤/ ٦٢).

(٢) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (٢/ ٣٥٣).

(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٢/ ٤٧٨)؛ ولسان العرب لابن منظور (٣/ ١٩١)؛ وشمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم لنشوان الحميري (٤/ ٢٦٨٥)؛ ومعجم الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري (ص: ٣٥).

المعنى الإجمالي

المحققون من أهل السنة يقولون: الإرادة في كتاب الله نوعان: إرادة قدرية كونية خلقية، وإرادة دينية أمرية شرعية، فالإرادة الشرعية هي المتضمنة للمحبة والرضا، والكونية هي المشيئة الشاملة لجميع الموجودات(١).

والإيمان بعموم مشيئة الله عزو جل وأنها الموجبة لكل ما في الوجود؛ فما وقع في الوجود من عمل فإنما وقع بمشيئة الله، وما لم يقع إنما لم يقع لأن الله عزو جل لم يشأ وقوعه، ولو شاء وقوعه لوقع، وهذا معنىٰ قول المسلمين: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن(٢). قال ﷻ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان:٣٠].

إن البدايات الصحيحة القائمة علىٰ أساسٍ مكينٍ من تقوىٰ الله ورضوانه، هي التي تجعل العبد المؤمن ثابتًا علىٰ دينه ومبادئه مقبلًا غير مدبر، يسارع في الخيرات حتىٰ يصل إلىٰ ما قدره الله له من الخير في حياته، ولكن إن كانت البدايات فيها دَخَنٌ وضعف التزام فإن الابتلاءات والمواقف تُظهِر ما يخبِّئه العبد من ضعف لم يتداركه، وبدايات ناقصة لم يستكمل فيها نقصه، فيغلب عليه الإدبار والتشتت بعد الاجتماع والضعف بعد القوة.

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (ص: ١١٤).
(٢) الانتصار في الرد علىٰ المعتزلة القدرية الأشرار للعمراني (١/ ٤٨).

٣٥٥

الهمّةُ العاليةُ وقوةُ الإرادة

قال ابن الجوزي رحمه الله: «كواكِبُ هِمَم العارفين في بُروجِ عَزائمِهِم سيّارةٌ، ليس فيها زُحَلٌ»(١).

بيـان الـمفردات

الكواكب: جمعُ كوكب، وهو في اللغة: النَّجم، منه قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ﴾ [الصافات:٦]، وقد يأتي لمعانٍ أخرىٰ كشدّة الحَرّ، ومعظم الشيء، ولكنّ أشهر معانيه كوكب السماء وهو النَّجم(٢).

البُروج: جمع برجٍ، ويأتي بمعنىٰ بروج السماء، وبمعنىٰ بروج الأرض؛ فمن الأول قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ﴾ [البروج:١]، ومن الثاني قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ ﴾ [النساء:٧٨]، والأول هو المراد هنا، وهي منازل النّجوم والكواكب في السَّماء(٣).

---

(١) المدهش لابن الجوزي (ص: ١٦٥)؛ الفوائد لابن القيم (١/ ٥٧)، مع زيادة لفظ: العارفين.
(٢) ينظر: لسان العرب لابن منظور (١/ ٧٢١)؛ تاج العروس للزبيدي (٤/ ١٥٧).
(٣) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (١١/ ٣٩)؛ لسان العرب لابن منظور (٢/ ٢١٢)؛ تاج العروس للزبيدي (٥/ ٤١٥).

زُحَل: ثاني أكبر كوكب في المجموعة الشمسيّة، وهو من أبرد الكواكب السماوية، تصل برودته إلىٰ ١٤٠ درجة تحت الصفر، وذلك بسبب بُعده عن الشمس[(١)].

المعنى الإجمالي

معنىٰ الحكمة هو الثناء علىٰ العارفين بالله تعالىٰ بأنَّ هممهم عالية، وعزائمهم مستمرة في طريق السّير إلىٰ الله تعالىٰ لا يدركها البَرْدُ والفُتور.

فشَبَّه عزائمَهم بالكواكب السيّارة في علوّها واستمرار حركتها، كما استعار لفظ «زُحَل» للتعبير به عن البُرود والفُتور والانقطاع عن السّير، فإنَّ زُحَل من أشدّ الكواكب برودةً لبُعدها عن الشمس.

(١) ينظر: الموسوعة الحرة ويكيبيديا:
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B2%D8%AD%D9%84.

٣٥٦

من طمع في الوصول جَدَّ في المسير

قال ابن الجوزي رحمه الله: «لا تطمعوا في وُجْدان حلاوة الذكر وقلوبكم مشغولة بوسواس الفكر، كيف يكون حبيب الرحمن من هو للشيطان سمير؟ كيف يطمع في الوصول من لا يَجِدّ في المسير؟ لا ينال العُلى رَخِيُّ البال، إنما تلك رتبة الأبطال»[(١)].

بيان المفردات

سمير: مُتحدَّثٌ إليه بالليل[(٢)].

يجِدّ: يُسرع[(٣)].

رَخِيُّ البال: إذا كان في نعمة وسَعَةٍ من العيش، والبال: الحال[(٤)].

المعنى الإجمالي

ذكر الله عز وجل من أفضل الأعمال وأسهلها على العبد، ولكن حتى يكون للذكر أثرٌ على القلب لا بد أن يرافقه حضور قلب، فالذكر مع انشغال الفكر أثره ضعيف،

(١) التذكرة في الوعظ لابن الجوزي (ص: ١١٨).
(٢) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٢/ ٦٨٨).
(٣) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (١/ ٢٤٤).
(٤) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٤/ ١٦٤٢).

ولا يمكن للقلب أن يتذوق حلاوته.

ثم إن الذي يطلب محبة الله ورضاه عليه أن تكون سيرته وسلوكه بهذا الاتجاه؛ وسبيل الوصول إلىٰ رضا الله ومحبته بينه رسول الله ﷺ في الحديث القدسي: «وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبَّه»(١)، شتان بين من يقوم بالليل صافًّا قدميه بين يدي مولاه يناجيه، وبين من يُمضي ليله يقوده الشيطان غارقًا بالمعاصي والمنكرات! فكيف يكون حبيب الرحمن؟!

طريق الوصول إلىٰ رضا الله ومحبته طويل، ولا يستطيع الوصول من شغلته زخارف الطريق عن الهدف الذي يرنو الوصول إليه، فإن لم يَجِدّ في المسير فاتته القافلة وتاه، قال تعالىٰ: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ ﴾ [آل عمران:١٣٣].

والوصول إلىٰ المراتب العليا من درجات الصالحين لا يُنال بطلب العيش الرغيد، والبحث عن الحياة المُترَفة، فلو كان الوصول سهلًا لرأيت كل الناس صالحين وأولياء، ولكن جعل الله دون ذلك عقبات ومفاوز لا يجوزها إلا كل ضامرٍ مهزول، قادر علىٰ ضبط نفسه والسيطرة علىٰ شهواته، ولذلك ورد في الحديث: «حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات»(٢). وفي حديث آخر: «ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا»(٣).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٥) برقم: (٦٥٠٢).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٤٢) برقم: (٢٨٢٣).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٤٦) برقم: (٢٦٦٢). وإسناده حسن، ينظر: خلاصة الأحكام للنووي (٢/ ٨٩٤).

٣٥٧

العزيمة وقوة الإرادة

قال ابن الجوزي ﵀: «يا مُخَنَّثَ العزم! أقَلُّ ما في الرُّقْعَةِ البَيْذَقُ، فلمَّا نَهَضَ تفَرْزَنَ»(١).

بيان المفردات

المُخنّث: هو الرجل الذي يتثنّىٰ في مشيَته، ويتشبّه بالنّساء في حركاته، وأصله من الانخناث، وهو التّكسّر والتّثني والميل، تقول: خَنَثتُ السّقاءَ، إذا ثنيتَ فمَه إلىٰ الخارج لتشرب منه(٢).

الرُّقعة: المراد بها رقعة الشطرنج.

البيذق: بالذّال المعجمة والدّال المهملة أيضًا، هو الجندي في رقعة الشطرنج، كلمة فارسية الأصل(٣).

(١) المدهش لابن الجوزي (ص: ١٧٦)؛ الفوائد لابن القيم (١/ ٦٠).

(٢) ينظر: العين للخليل بن أحمد (٤/ ٢٤٨)؛ جمهرة اللغة لابن دريد (١/ ٤١٨)؛ تهذيب اللغة للأزهري (٧/ ١٤٥)؛ القاموس المحيط للفيروز آبادي (ص: ١٦٨).

(٣) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (٩/ ٧٦)؛ لسان العرب لابن منظور (٣/ ٩٧) و(١٠/ ١٤).

تفرزن: من الفَرْزَان، وهي كلمة فارسية تُطلق علىٰ الوزير والحكيم(١)، والمراد هنا الوزير في رقعة الشطرنج، **قال ابن الهبّارية:**

وإذا البيادق في الدسوت تفرزنتْ   فالرأيُ أن يتبيدق الفَرْزانُ(٢).

المعنى الإجمالي

يا مكسورَ العزم، وضعيفَ الهمّة والإرادة، خُذْ عبرة من الجندي في الشطرنج، فإنّه لما قويتْ عزيمتُه ونهض حتىٰ بلغ الخطَ الأخيرَ من الرقعة صار وزيرًا كما هو المعروف في قوانين لعبة الشطرنج، فاجعل همّتَك عالية، وعزيمتَك قويّة وواصل السّيرَ حتىٰ تحوز أعلىٰ الرُّتب في نهاية الأمر.

(١) ينظر: العين للخليل بن أحمد (٧/ ٣٦٢)؛ تهذيب اللغة للأزهري (١٣/ ١٣٢)؛ لسان العرب لابن منظور (١٣/ ٣٢٢).

(٢) ينظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٣٥/ ٢٣٤)؛ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لأحمد العدوي (١٥/ ٧١٤).

٣٥٨

من أراد الوصول فليُعِدّ العدّة لوعورة الطريق

قال ابن الجوزي رحمه الله: «يَا مخنث الْعَزْم، أَيْن أَنْت وَالطَّرِيق سَبِيلٌ نَصِب فِيهِ آدم، وناح لأَجله نوح، ورُمِيَ فِي النَّار إِبْرَاهِيم الْخَلِيل، وأُضْجِع للذبح إِسْمَاعِيل، وَبِيع يُوسُف بِدَرَاهِم، وَذَهَبت من الْبكاء عينُ يَعْقُوب، وَنُشِر بِالْمِنْشَارِ زَكَرِيَّا، وَذُبح الحصور يحيى، وضَنِيَ بالبلاء أَيُّوب، وَزَاد على الْمِقْدَار بكاءُ دَاوُد، وتَنَغَّص فِي الْمُلك عَيْش سُلَيْمَان، وتحيرَّ بِرَدِّ ﴿ لَن ﴾ مُوسَى، وهام مَعَ الوحوش عِيسَى، وعالج الْفقر مُحَمَّد ﷺ؟»[(١)].

بيان المفردات

مُخَنّث العزم: أي: يا خائر العزم، والْمُخَنّث: هو المتشبّه بالنساء[(٢)].

نَصِب: أعيا وتعب[(٣)].

ضَنِيَ: اشتدَّ مرضه[(٤)].

وتحيَّر بِرَدِّ ﴿ لَن ﴾ مُوسَى: أي عندما سأل ربه أن يراه، فأجابه: ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾.

(١) المدهش لابن الجوزي (ص: ٢٩١).
(٢) ينظر: تاج العروس للزبيدي (٥/ ٢٤١).
(٣) ينظر: لسان العرب لابن منظور (١/ ٧٥٨).
(٤) ينظر: الأفعال لابن القوطية (٢٤٧).

المعنى الإجمالي

إن الدنيا دار ابتلاء، والإنسان معرض فيها للمحن والمصائب؛ ليمحص الله الخبيث من الطيب، ويعلم الصادق من الكاذب، قال تعالىٰ: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢-٣].

والذي يظن أن الدنيا دار فرح وينتظر الراحة فيها، فهو مخدوع، إنما وضعت للبلاء، فينبغي للعاقل أن يُوَطِّن نفسه علىٰ الصبر، وأن يعلم أن ما حصل من المراد فلطف، وما لم يحصل فعلىٰ أصل الخَلْق والجِبِلَّة، **كما قال علي بن محمد التهامي:**

طُبِعَت علىٰ كدرٍ وأنت تُريدها ... صفْوًا من الأقذار والأكدارِ
ومُكَلِّفُ الأيام ضدَّ طباعِهَا ... مُتَطَلِّب في الماء جَذْوَةَ نَارِ[١].

ولو كانت الدنيا دار راحة، لكان أولىٰ الناس بالراحة فيها هم الأنبياء والصالحون، ولكننا نجد أن الأنبياء هم أشد الناس معاناة وتعَرُّضًا للمحن والبلاء؛ فالبلاء دليل اصطفاء ورفعة منزلة؛ ولذلك جاء في الحديث عندما سئل رسول الله ﷺ: أيُّ الناس أشدُّ بلاء؟ قال: فقال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبْتَلىٰ الرجل علىٰ حسب دينه، فإن كان دينه صُلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رِقَّة ابْتُلي علىٰ حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتىٰ يتركه يمشي علىٰ الأرض ما عليه خطيئة»[٢].

---

(١) ينظر: صيد الخاطر لابن الجوزي (ص: ٤٠٠)؛ وشرح مقامات الحريري لأحمد القيسي الشُّريشي (٣/ ٢٣٢).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٠٣) برقم: (٢٣٩٨)، وقال: حديث حسن صحيح.

فمن سار في طريق الحق والهداية سيلقىٰ المتاعب والمشاقّ؛ لأن طريق الجنة محفوف بالمكاره، فلْيِوَطِّن نفسه علىٰ ذلك، ففي الحديث: «حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات»[1].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٤٢) برقم: (٢٨٢٣).

٣٥٩

المطلوب موجود

قال ابن غانم المقدسي رحمه الله: «إن طلبتَ ما طلبوا وجدتَ ما وجدوا، وإن وَرَدْتَ ما وَرَدوا شهِدتَ ما شَهِدوا، فالباب مفتوحٌ للطلاب، لا حاجبَ عليه ولا بوّاب»[١].

المعنى الإجمالي

إن من الناس مَن نمت أجسادُهم بنموِّ الأقوات وصفتْ أحوالُهم بصفاء الأوقات، فمن كانت عين بصيرته منطمسة، ومنابع فكرِه مندثرة، وقواه ضعيفة عن الالتحاق بأولئك الأقوام الصالحين، فلا ينبغي له أن يتطاول عليهم ويعترض علىٰ ما رأىٰ منهم بجهله وقصور فهمه، بل يجب أن يقف منهم مواقف الأصاغر ويتأدب معهم بآداب الأكابر، وإذا اعترض فبالحجة والأدب؛ فهم حصَّلوا ما عجز هو عنه، ووصلوا إلىٰ ما لم يستطع أن يصل إليه، فلا يلوم إلا نفسه الأمارة بالسوء، لأنه لو فعلوا ما فعلوا لوصل إلىٰ ما وصلوا[٢].

فإذا تأدب الإنسان بتلك الآداب التي حافظ عليها أولئك الأقوام، وبذل ما بذلوا، وصبر كما صبروا، تيسَّرت له الأسباب، وفُتِحت له الأبوابُ، لأنه لا حاجب

(١) حل الرموز ومفاتيح الكنوز لابن غانم المقدسي (ص: ١٦٥).
(٢) حل الرموز ومفاتيح الكنوز ابن غانم المقدسي (ص: ١٦٣).

علىٰ باب الله تعالىٰ ولا بوَّاب، بل بابه مفتوح لكل من دخل، ولا يُرَدُّ عنده أحدٌ.

قال الله تعالىٰ في الحديث القدسي: «من عادىٰ لي وليًّا فقد آذنتُه بالحرب، وما تقرَّب إلي عبدي بشيءٍ أحب إليَّ مما افترضتُ عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتىٰ أُحبَّه»(١)، وفيه إنذار من الله تعالىٰ لمن يعادي عبادَه المقرَّبين إليه بإعلان الحرب لهم، وفي السياق نفسه بيَّن تعالىٰ السبيلَ الذي وصل به أولئك الأولياء إلىٰ ذلك المقام الذي تولَّاهم فيه ربُّ العزَّة، وهو القيام بالفرائض، ويدخل فيه فعل المأمورات وترك المنهيات، ثم يترقَّىٰ العبدُ في المقام عند الله بالقيام بنوافل العبادات، حتىٰ يكون من أحبابه وأوليائه ﷻ؛ فمن أراد أن يلحق بهم فليسلكْ سبيلَهم، ويعملْ عملَهم.

وقال تعالىٰ في القرآن الكريم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾[يونس: ٦٢-٦٣]. وفيه بيان من الله لركني الولاية: الإيمان والعمل الصالح بمعناهما الواسع، فمن لم يعمل بعملهم ثم نصبَ العداء لهم، فقد جمع بين التقصير والظلم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٥) برقم: (٦٥٠٢).

٣٦٠

النوعية في السير

قال ابن القيم ﷺ: «أرباب العزائم في السَّير لا يقنعون برسوم الأعمال وظواهرها، ولا يعتدُّون منها إلا بأرواحها وحقائقها»(١).

المعنى الإجمالي

علو الهمة صفة نبيلة وخلق رفيع، دعا إليه ربنا سبحانه، وندب إلى فعل الخيرات ونيل القربات فقال: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣]. وحث عليه نبينا ﷺ فقال: «إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها، ويكره سفسافها»(٢).

وأبرز ما يمتاز به أصحاب العزيمة والهمة العالية هو الطموح إلى المعالي، وعدم التوقف عند هدف واحد، بل السعي عند الوصول للهدف إلى هدف أعلى وأسمى، فهم يشعرون أنفسهم دائما أنهم ما زالوا في حاجة إلى التقدم والارتقاء نحو الأعلى والأفضل.

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ١١٩).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٦/ ١٨١) برقم: (٥٩٢٨).

ومن الطموح إلىٰ المعالي وصف ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أصحاب العزائم والهمم العالية من السائرين بأنهم لا يرضون في سيرهم إلىٰ الله بصور الأعمال وظواهرها، ولا يكتفون بأداء الطاعات شكلا فقط، وإنما همُّهم الاعتناء بأعمال القلوب؛ لأنها هي أرواح الأعمال الظاهرة وحقيقتها، وبها يتذوق العبد طعم الإيمان الحقيقي، ويشعر بالنعيم الدنيوي الموصل إلىٰ النعيم الأبدي.

٣٦١

المنزلـة على قدر الهمـة

قال ابن القيم رحمه الله: «إنَّما تفاوَتَ القومُ بالهِمَم لا بالصُّوَرِ»(١).

بيـان المفردات

الهمم: جمع هِمَّة، هي الإرادة(٢).

الصور: جمع صورة، وهي الهيئة والشكل(٣).

المعنى الإجمـالي

أي إنما تتفاوت مراتب الناس ومنازلهم بتفاوت هممهم لا باختلاف صورهم وأشكالهم، والهمة عمل قلبي يحلِّق بالإنسان إلىٰ أعالي الآفاق كما يحلِّق بالطائر جناحاه، وإنما يتفوَّق المؤمن بهمته العالية وبقليل عمله، ما لا يتفوَّق غيره بكثرة عمله وضعف همته، وإنما يقطع السالك منازل السير إلىٰ الله بقلبه وهمته لا ببدنه، فالهمة العالية هي التي ترفع صاحبها وتعلي شأنه، لا صورته ولا مظهره ولا مجرد عمله، قال رسول الله ﷺ: «من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، ومن همَّ

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٦٧).

(٢) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٥/ ٢٠٦١).

(٣) القاموس المحيط للفيروزآبادي (ص: ٤٢٧).

بحسنة فعملها كتبت له عشرا إلىٰ سبعمائة ضعف، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب، وإن عملها كتبت»(١). فمجرد الهمِّ بالعمل الصالح فضيلة.

قال ابن النطاح يمدح أبا دلف:

لـــه هِمَـــمٌ لا منْتَهَـــىٰ لكِبارهـــا وهمَّتُـه الصُّـغْرَىٰ أجـل مـن الـدهر
أبـا دُلَـفٍ بُورِكْـتَ في كـلّ وِجْهـةٍ كمـا بوركـت في شـهرها ليلـة القـدر(٢).

وإنَّ عمل العبد يكون علىٰ قدر همته، وهمته ترقىٰ برقيِّ تطلعه، فمن تطلع إلىٰ الآخرة أرادها، ومن أرادها علت همته بعلو منزلتها، وعمل لها بقدر إرادته إياها، وبذل قصارىٰ جهده للفوز فيها، وزهد في دنيا وما فيها، كحال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ﵀، فقد ذكر عن وزيره رجاء بن حيوة أنه قال: كنت مع عمر بن عبد العزيز -لما كان واليًا علىٰ المدينة- فأرسلني لأشتري له ثوبًا فاشتريته له بخمسمائة درهم، فلما نظر فيه قال: هو جيد لولا أنه رخيص الثمن، فلما صار خليفة للمسلمين بعثني لأشتري له ثوبًا فاشتريته له بخمسة دراهم فلما نظر فيه قال: هو جيد لولا أنه غالي الثمن. فبكىٰ رجاء، فقال له عمر: ما يبكيك؟ قال: تذكرت ثوبك قبل سنوات وما قلت عنه، فقال له عمر: يا رجاء إن لي نفسًا تواقة، وما حققت شيئًا إلا تاقت لما هو أعلىٰ منه، والآن قد تاقت نفسي إلىٰ الجنة، أرجو أن أكون من أهلها(٣).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٨٢) برقم: (١٣٠).
(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (١٦/ ٣٣٣).
(٣) موسوعة الأخلاق والزهد والرقائق لياسر عبد الرحمن (١/ ٦٢).

٣٦٢

معركــة الحق والباطل

قال ابن القيم ﵀: «الحربُ قائمةٌ، وأنت أعْزَلُ في النَّظَّارَةِ؛ فإن حرَّكْتَ رِكابَكَ فللهزيمةِ»[١].

بيـان المفردات

النَّظَّارة: هم القوم ينظرون إلىٰ شيء[٢]. والنظَّارة في الحرب: هم الذين يُكثِّرون السواد، والمعينون علىٰ القتال بالصياح. وفي المثل: ما أهون الحرب علىٰ النظارة[٣]. فالنظارة يشاهدون القتال من بعيد، ولا يقاتلون.

المعنى الإجمـالي

الحرب قائمة عليك من نفسك وهواك وشيطانك، وزينةِ الحياة الدنيا والجواذبِ حولك، وأنت أعزل، أي: ضعيفٌ مسكينٌ، لا سلاح لك، فأنت لا تقوىٰ علىٰ كل هذه الأشياء مجتمعة عليك. وأنت أعزل في النظارة: مراده واقف مع النظارة، تكتفي بالنظر والتفرُّج ولا تشارك في معركة الحق والباطل، فإذا صدرتْ

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٥٧).
(٢) مختار الصحاح للرازي (ص: ٣١٣).
(٣) ينظر: الأمثال المولدة لأبي بكر الخوارزمي (ص: ٥٧٥)؛ وتجارب الأمم وتعاقب الهمم لابن مسكويه (٤/ ٤٦٥).

منك حركةٌ فللفرار والهزيمة، وليس للإقبال والمواجهة.

ومراد ابن القيم من هذا الكلام، هو التذكير بالصراع القائم بين بني آدم وإبليس، وقد بدأ هذا الصراع منذ أن خلقَ اللهُ تعالىٰ أبانا آدمَ ﷺ، حيث حسده إبليس وتوعد بمعاداته من لحظة ولادته حتىٰ آخر لحظات حياته. وقد أخبرنا الله ربنا عما قاله إبليس حين أخرجه من الجنة، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١٨-١١٩]، ثم توجه سبحانه بالخطاب إلىٰ بني آدم، وقال: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١١٩]. فالذي اتخذه وليًا ومتبوعًا هو الذي وقع في الهزيمة التي حذَّر منها ابن القيم.

وبعد أن بيَّن اللهُ تعالىٰ عداء إبليس للإنسان وما وعد به أن يفعل ببني آدم، حذَّر عبادَه منه ومن الوقوع فريسة له فيُغوِيَه ويُهلِكه. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

ومن أقوىٰ الجنود التي يعتمد عليها الشيطان لإغواء الإنسان هو نفسه الأمارة بالسوء: فإن ربَّاها الإنسانُ وزكَّاها تكون عونا له علىٰ الشيطان وسببا لدخول الجنان، وإن تركها ودسَّاها فإن الشيطان يركبها ويتخذها عونا له لإيقاع صاحبها في الهلاك.

وفيه إشارة إلىٰ أن الإنسان إذا لم يكن ذا عزمٍ صادقٍ وهمةٍ عاليةٍ في إدراك المطالب العالية، فإن مآله إلىٰ الهزيمة[1].

---

(١) مقتبس من شرح كتاب الفوائد لابن القيم، شرح صوتي للشيخ خالد المصلح، رقم الدرس: (١٨).

٣٦٣

قيمة المـرء ما يطلبه

قال ابن القيم رحمه الله: «قيمة المرء همته ومطلبه»(١).

بيـان المفردات

همته: الهمة بالكسر: أول العزم، وقد تطلق على العزم القوي، والهم بالفتح: أول العزيمة أيضًا، واهتم الرجل بالأمر: قام به(٢).

المعنى الإجمـالي

الهمة منزلة من منازل السائر إلى الله عز وجل، وهي التعبير عن نهاية وقمة الإرادة، فالهم هو مبدأ الإرادة، أما الهمة فهي نهاية الإرادة، وهي: توجه القلب بجميع قواه الروحانية إلى الحق سبحانه بغرض الوصول إلى الكمال.

الناس في هذه الحياة لهم مطالب مختلفة، وأغلبها مطالب دنيوية، ولكن قيمة الإنسان تعرف بحسب ما يسعى إليه ويطلبه، فكلما سما المطلب زادت قيمة الشخص، وأسمى المطالب هي تلك التي تربطك بالله وتوصلك إلى مرضاته، فمن كان مقصوده ومطلبه هو الله وحده في كل حركة، وأصبح رضا الله تعالى طلبا خالصا صادقا له، فذلك هو صاحب الهمة العالية التي ينال بها أعلى المقامات، فهو

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٣٦٠).

(٢) ينظر: المصباح المنير للفيومي (٢/ ٦٤١).

سريعٌ وصوله وظفره بمطلوبه، ما لم تعقه العوائق، وتقطعه العلائق.

وعوام الناس مقاييسهم أن قيمة الإنسان هي ما يحسنه، أما الخواص فإنهم يقولون: قيمة الإنسان ما يصبو إليه، وما يطمح إليه ويطلبه، فقيمة المرء هي همته ومطلبه.

والهمة طليعة الأعمال ومقدمتها، قال أحد الصالحين: «همتك فاحفظها فإن الهمة مقدمة الأشياء، فمن صلحت له همته وصدق فيها، صلح له ما وراءها من الأعمال»[(١)].

والهمة مولودة مع الآدمي، وإنما تقصر بعض الهمم في بعض الأوقات، فإذا حُثَّت سارت.

وهذا مثال لصاحب همة جاهد هوىٰ نفسه، فارتقت به همته إلىٰ أعز مطلب وهو الشهادة: عن عبد الله بن قيس؛ وهو أبو أمية الغفاري قال: كنا في غزاة لنا، فحضر عدوهم، فصيح في الناس فهم يثوبون إلىٰ مصافّهم، إذا رجل أمامي رأس فرسي عند عجز فرسه، وهو يخاطب نفسه ويقول: أيْ نفسُ ألم أشهد مشهد كذا وكذا؟ فقلت لي: أهلك وعيالك! فأطعتكِ ورجعت، ألم أشهد مشهد كذا وكذا؟ فقلت: أهلك وعيالك! فأطعتكِ ورجعت، والله لأعرضنّك اليوم علىٰ الله، أَخَذَكِ أو تركك. فقلت: لأرمقنّه اليوم، فرمقته، فحمل الناس علىٰ عدوهم فكان في أوائلهم، ثم إن العدو حمل علىٰ الناس فانكشفوا، فكان في حماتهم، ثم إن الناس حملوا فكان في أوائلهم، ثم حمل العدو وانكشف الناس فكان في حماتهم. قال: فوالله ما زال ذلك دأبه حتىٰ رأيته صريعا، فعددت به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة[(٢)].

---

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٢٤٤)؛ صفة الصفوة لابن الجوزي (٥/ ٥٢٨).
(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٥٢٠).

٣٦٤

استطالــة الطريق

قال ابن القيم رحمه الله: «مَن استطال الطريقَ ضَعُف مَشْيُه»(١).

المعنى الإجمــالي

من رأىٰ طريق سيره إلىٰ المطلوب طويلًا، ضعف مشيه إليه وتكاسل، وربما يتراجع وينتكس في وسط الطريق، لكن الطريق إذا كان مصاحَبًا بصدقٍ وإخلاصٍ لله تعالىٰ، سيسهل ولن يحس بالطول، وهذه حال مَن جعل الآخرة نُصبَ عينيه، فمن استحضر ذلك لا يستطيل الطريق ولا يستصعب الهدف، فلا يرىٰ صعوبةً أو عائقًا يحول بينه وبين الله تعالىٰ.

وهذه الحكمة إشارة إلىٰ معانٍ نفسيةٍ تؤثِّر في قوة سيرِ الإنسان، فاستطالة الطريق واعتقاد ذلك يُضعِف سيرَه، بينما استقصار الطريق يشحنه بالهمة والدوام علىٰ الطاعة لقرب الرحيل، وهو أمر وارد في كل حين، كما سبق: «يا أقدامَ الصبر تحمَّلي، فقد بقي القليل»(٢).

---

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ١١٢).

(٢) المدهش لابن الجوزي (ص: ٢٧٤).

٣٦٥

العبد إن لم يتقدم فهو في تأخُّر

قال ابن القيم رحمه الله: «من لم تكنِ همَّته التقدُّم فهو في تأخُّرٍ ولا يشعر؛ فإنَّه لا وقوف في الطبيعة ولا في السَّير»(١).

المعنى الإجمالي

إنما مثل الدنيا كمثل طريق السفر، والعبد فيها سائر إلى الله تعالى، والسائر ليس له إلا التقدم الموصل إلى الغاية، أو التأخر المضيِّع للغاية، فمن لم يكن صاحب همة عالية تبعثه إلى التقدم، وتحثه على السعي للوصول إلى غايته، فهو في تأخر وإن كان لا يشعر بتأخره.

وحياة الإنسان هي زمنه الذي يصل به، ولا يدري متى ينتهي ذلك الزمن، فإما أن يتقدم بعمله ويستثمر زمنه ويصل إلى الله ويفوز بالجنة، أو يتأخر بكسله وضعفه فلا يصل إلى ربه فيخيب ويدخل النار.

وفي هذا المعنى روي عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، قال: «ما مِن صباح ولا مساء إلا ومنادٍ ينادي: يا أيها الناس، الرَّحيلَ الرَّحيلَ. وإنّ تصديق ذلك في كتاب الله:

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ١٢٥).

﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ ﴾ [المدثر: ٣٥-٣٧] قال: في الموت، ﴿ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ قال: في الموت»[1].

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في قِصر الأمل (ص: ١٣٥)؛ موسوعة التفسير بالمأثور لمركز الدراسات والمعلومات القرآنية (٢٢/ ٤٢٣).

٣٦٦

الاهتمام بالدنيا يورث الهمّ

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الناس في الدنيا مُعَذَّبون على قدر هِمَمِهم بها»(١).

المعنى الإجمالي

خلقنا الله عَزَّ وَجَلَّ في هذه الدنيا لنعمل على إعمارها، ولنعبده ونطيعه، ولم يتعهد الله لنا فيها بالسعادة والراحة، وإنما بين لنا أن هذه الدنيا دار للعمل وليست دار جزاء، ومن أراد الراحة الأبدية، فعليه أن يعمل ويكد ويخلص لله في أعماله.

وبما أن الدنيا دار تعب ومشقة، فإن من انشغل فيها ازداد همه، فالإكثار منها هو إكثار من الهم.

يقول أبو العتاهية:

أرى الدنيا لمن هي في يديه ... عذابًا كلما كَثُرت لديه
تُهين المكْرَمين لها بصُغر ... وتُكْرِم كلَّ من هانت عليه
إذا استغنيتَ عن شيء فدَعْه ... وخُذ ما أنت مُحتاجٌ إليه(٢).

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ١٤٤).

(٢) أدب الدنيا والدين للماوردي (ص: ١١٦).

وقد ذم النبي ﷺ من جعل نفسه عبدًا لمتاع الدنيا وشهواتها، فقال: «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة؛ إن أُعْطِي رضي وإن لم يُعْطَ سخِط، تعس وانتكس، وإذا شِيْك فلا انتقش»[١]. ومعنىٰ: وإذا شيك فلا انتقش؛ أي: إذا أصابته شوكةٌ فلا وجد من يخرجها، وإذا وقع في شرٍّ فلا تَخَلَّص منه، وذَكَر الشوكَ مثلًا[٢].

وأما أهل الإيمان فإنهم يرون الدنيا علىٰ حقيقتها، فهم يعلمون أن كل الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، فيرونها صغيرة حقيرة لا تستحق الاهتمام بها، فإنهم لا يبالون بفوات شيء منها، فلذلك لا يهمهم من أمرها إلا بقدر ما يُعينُهم علىٰ طاعة ربهم والوصول إلىٰ مرضاته، والفوز بالنعيم المقيم يوم القيامة.

وأهل الإيمان أصحاب الهمة العالية يتعبون في الدنيا، ولكن تعبهم فيها تعبٌ في سبيل مرضاة الله وخدمة دينه، فهم يتلذذون بهذا التعب؛ لأنه يقربهم من ربهم.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٣٤) برقم: (٢٨٨٧).

(٢) ينظر: مشارق الأنوار للقاضي عياض (٢/ ٢٦١)؛ والإبانة في اللغة العربية لسلمة العوتبي (٢/ ٣٢٦).

باب المبادرة إلى الطاعات

٣٦٧

من خاف النار ورغب في الجنة لم ينم

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لم أر كالجنة نام طالبها، ولا كالنار نام هاربها»(١).

المعنى الإجمالي

الخوف من الشيء يوجب الفرار منه، لا القرار والغفلة، فإنَّ من استهوته نفسه وغرَّته بالتساهل عن المخوِّفات فقد يجره ذلك التساهل والتغافل وثِقَلُ النوم وانعدام اليقظة إلىٰ حتفه ونهايته في نار جهنم، لكنْ من أخذ بأسباب الحيطة والحذر، وأبعد نفسه عن مواطن العطب والهلاك فإنه الفائز الذي لم يستقر له قرارٌ حتىٰ يرىٰ نجاته من عقاب الله وعذابه.

لقد جعل الله الزحزحة عن النار ودخول الجنة فوزًا عظيمًا، فقال تعالىٰ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥].

إن الله عز وجل قد ذكر لنا من أوصاف الجنة وأصناف النعيم فيها ما يأخذ بالألباب، من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا

(١) البيان والتبيين للجاحظ (٢/ ٣٥)؛ عيون الأخبار لابن قتيبة (٢/ ٢٥٦)؛ العقد الفريد لابن عبد ربه (٤/ ١٦٠).

خَٰلِدُونَ ﴾ [الزخرف:٧١]، وكذلك ورد من الأحاديث في وصف الجنة ونعيمها ما يجعل الإنسان يحتقر معها كل نعيم في الدنيا، ومن ذلك قوله ﷺ: «يقول الله تعالىٰ: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، مصداق ذلك في كتاب الله: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٧][(١)].

كما أن الله ﷻ قد ذكر لنا من جحيم جهنم وعذابها ما تشيب من هوله الولدان، من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [الحج: ١٩-٢٢].

فكيف للمؤمن بعد أن علم وصف الجنة ونعيمها والنار وأهوالها أن يطمئن وينام! كيف له أن يترك العمل للنجاة من النار والفوز بالجنة!

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٤٣) برقم: (٢٨٢٤).

٣٦٨
مطالب الأمور

قال الحارث بن قيس[(١)] رحمه الله: «إذا كنت في أمر الآخرة فتَمَكَّث، وإذا كنت في أمر الدنيا فَتَوَخَّ، وإذا هَمَمت بأمرٍ خيرٍ فلا تُؤَخِّرْه»[(٢)].

بيان المفردات

تَمَكَّث: المكث: اللبث والانتظار[(٣)].

المعنى الإجمالي

العبد المؤمن يوازن بين الأمور، ويعرف لكل أمر متطلباته وأساسياته، ولا يجعلها تتساوىٰ في أهميته ومتطلباته، وبدون المعرفة الصحيحة بقيمة الأمور واحتياجها يكون الاضطراب والفوضىٰ في التعاطي مع هذه الأمور. ومن ذلك الدنيا والآخرة وأفعال الخير.

---

(١) الحارث بن قيس، الجعفي، الكوفي، العابد، الفقيه، صحب عليا وابن مسعود، قليل الرواية، توفي سنة ٤٨هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٧٥)؛ الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (١١/ ١٨٥).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٤/ ١٣٢).

(٣) مختار الصحاح للرازي (ص: ٢٩٦).

فالعبد العارف بالله تعالىٰ الذي نور الله قلبه وبصيرته، يعرف الفقه الصحيح مع كل قول وفعل وأمر، فأمور الآخرة لا ينبغي العجلة فيها والسرعة في أدائها، بل التلبث والتمهل والاطمئنان، حتىٰ تُؤدىٰ العبادات والطاعات علىٰ أتم وجه وأكمله وأحسنه، ثم الوقوف علىٰ المعاني والحكم من كل أمر من أمورها، والتمكُّث في الطاعة والتلبُّث والبقاء عليها يكون سبب الخشوع والحضور بالقلب، بخلاف الإنسان الذي يتعجل فيها فيقرأ الأذكار بسرعة ولم يتفكر في شيء مما قرأه، ويقرأ القرآن يسرده سردا بلا تدبر وتفكر، همه الصفحات وإكمال الأجزاء، وليس الوقوف علىٰ معاني الآيات.

وفي أمور الدنيا لا ينبغي للعبد التلبث حتىٰ لا تجره الدنيا إلىٰ قعرها السحيق؛ ولذا فإن الفقه في أمور الدنيا توخي الحذر، وأخذ الحيطة، والتخَفُّف من الأعباء والأثقال؛ حتىٰ يكون السير إلىٰ الله صحيحًا لا يشوبه شائبٌ يعطله أو يعرقل مسيره؛ ولذا فقد توجب علىٰ العبد التحري في كل ما يكون من أحوال الدنيا ومتاعها، والتدقيق فيه أمن حلال أم من حرام، وهل تطلب الدنيا لذاتها؟ أم لتكون طريقا سالكًا وعابرًا يعبر به العبد إلىٰ الله، ويستعين بها علىٰ طاعة الله تعالىٰ.

وفي أفعال الخير يكون فقه الأمر بالمسارعة والمبادرة والمسابقة، وترك التأخير والتسويف؛ فإنهما لم يعينا العبد أن يبلغ مراتب السابقين، بل يجعلانه يتأخر حتىٰ لا يبقىٰ له حظ في أن يكون من المتسابقين في مضمار الطاعات والقربات.

٣٦٩

المسارعة إلى أبواب الخير قبل إغلاقها

قال خالد بن معدان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا فُتِح لأحدكم بابُ خيرٍ فليُسرع إليه؛ فإنه لا يدري متى يُغْلَقُ عنه»(١).

المعنى الإجمـالي

فتْحُ الله وتوفيقه لمن يشاء من عباده بأن يفتح لهم أبوابًا من الخير المتعدي نفعه للآخرين؛ فمن الناس من يفتح الله له في باب التعليم، ومنهم من يكون ذا وجاهة يصلح بين الناس، ومنهم من يكون ذا مال فيسعىٰ بماله للإنفاق علىٰ اليتيم والأرملة والمسكين وغيرهم من المحتاجين، ومنهم من يكون داعية رزقه الله الحضور والتأثير ببيانه وقوة حجته في المدعوين، فيتوب ويهتدي علىٰ يديه كثيرٌ من البشر.

هذه الأبواب الخيرية وغيرها من فتح الله له منها بابًا فليلزمه، وليداوم عليه، فإنه لا يدري لعل عارضًا من مرض أو تغير وضع يمنعه من مواصلة هذا الخير، فيندم علىٰ تفريطه وتقصيره.

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ٢١١). وذكر في مسند الشهاب القضاعي (١/ ٢٦٨) برقم: (٤٣٥) من رواية حكيم بن عمير أن النبي ﷺ قال: «من فتح له باب من الخير فلْيَنْتَهزه، فإنه لا يدري متىٰ يغلق عنه».

٣٧٠

ميدان التنافس

قال الحسن البصري رحمه الله: «مَن نافَسَك في دينك فنافِسْه، ومَن نافسكَ في دنياك فألقِها في نَحْرِه»(١).

بيان المفردات

التنافس: التسابق والتحاسد، والمنافسة الرغبة في الشيء، يقال: نافست في الشيء منافسة ونفاسا إذا رغبت فيه على وجه المباراة في الكرم(٢).

النحْر: موضع القلادة من الصدر، والجمع نُحور مثل فَلسٍ وفُلوس(٣).

المعنى الإجمالي

تشتمل الحكمة على بيان ما الذي يستحق فيه التنافس والتسابق وما لا يستحق لذلك، وأن الإنسان إذا نافسه أحد في أمور الدين وسبيل الخير فذاك شيء ممدوح، وينبغي أن ينافسه ليتقدم أكثر ويفعل أكثر، وأما التنافس في أمور الدنيا فلا ينبغي للمرء الخوض فيه، ولا أن يضيع وقته فيه بل يترك المنافسة فيها ويلقيها في نحره،

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٢٠٧).

(٢) لسان العرب لابن منظور (٦/ ٢٣٨).

(٣) المصباح المنير للفيومي (٢/ ٥٩٥).

لأن الدنيا وأعراضها وزينتها زائلة، والتنافس فيها دليل على جهله بحقيقتها وما يترتب عليها، لأنه متى عظمت رغبة العبد في الدنيا وتعلق قلبه بها ضعفت رغبته للآخرة، وخسارته فيها لا تقارن بخسارته في الدنيا.

والشرع قد أمر الإنسان بالتسابق في الخير كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦]، ومدح الله تعالى المتنافسين في الخيرات قائلا: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٤]. والتنافس في الدنيا يأتي بالتباغض والتحاسد، وكل ذلك نهى النبي ﷺ عنه قائلا: «ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا»(١).

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦/ ٦٠) برقم: (١٠٠٠١).

٣٧١

المبادرة قبل فوات الأوان

قال شُمَيط بن عَجْلان رحمه الله: «بادروا بالصحة السَّقَم، وبالفراغ الشُّغْل، وبادروا بالحياة الموت»(١).

المعنى الإجمالي

في هذا القول حذف للظرف (قبل)، والتقدير: بادروا بالصحة قبل السقم، وبالفراغ قبل الشغل، وبالحياة قبل الموت.

لقد كان النبي ﷺ يزود الصحابة رضوان الله عليهم بمواعظه حتى تستجد لديهم معاني الإيمان والعمل الصالح بين فترة وأخرى؛ ففي الحديث: «اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابَك قبل هرَمِك، وصحَّتَك قبل سَقَمِك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شُغْلك، وحياتك قبل موتك»(٢).

فالعاقل من يبادر ويسارع قبل فوات الأوان، فهي فرص ممنوحة قد تضيع على العبد، فيأتيه السقم بعد قوة وامتلاء جسم، ويأتيه الشغل الكثير بعد فراغ كان يتمنى في أي شيء يقضيه، ويأتي الموت وحينها يحال بينه وبين ما يشتهيه ويتمناه.

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ١٢٧).

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١٠/ ٤٠٠) برقم: (١١٨٦٠)؛ وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٧٧) برقم: (٣٤٣١٩)؛ والحاكم في المستدرك برقم: (٧٩٤١)؛ والشهاب القضاعي في مسنده (١/ ٤٢٥) برقم: (٧٢٩).

٣٧٢

السباق إلى الله

قال وُهَيب بن الورد[١] رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن استطعت أن لا يسبقك إلى الله أحدٌ فافعل»[٢].

المعنى الإجمالي

أمر الله تعالىٰ عباده بأن يسارعوا إلىٰ جنة عرضها السموات والأرض وأن يتسابقوا فيها وأن يستبقوا الخيرات قال الله تعالىٰ: ﴿ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾ [البقرة:١٤٨]، وإن خير ما سعىٰ إليه الساعون، وتنافس فيه المتنافسون هو طاعة الله وابتغاء مرضاته، يقول الله تعالىٰ: ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ [المطففين:٢٦]، وإذا كان الحال هو هذا في الأمر بالمسارعة والمسابقة والاستباق والتنافس فإن المؤمن الحق من لا يرضىٰ بالتأخر، أو أن يسبقه إلىٰ الله أحدٌ.

(١) وهيب بن الورد بن أبي الورد القرشي المكي، أبو عثمان، كان من العباد المتجردين لترك الدنيا والمنافسين في طلب الآخرة، توفي سنة ١٥٤هـ. ينظر: الثقات لابن حبان (٧/ ٥٥٩) تهذيب الكمال لجمال الدين المزي (٣١/ ١٦٩).

(٢) لطائف المعارف لابن رجب (ص: ٢٤٤)؛ وتاريخ الإسلام للذهبي (٤/ ٢٤٩).

قال الحسن البصري ﷺ: «إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة»[١]. وقال بعض السلف: «لو أن رجلًا سمع بأحد أطوع لله منه كان ينبغي له أن يحزنه ذلك، وقال غيره: لو أن رجلًا سمع برجل أطوع لله منه فانصدع قلبه فمات لم يكن ذلك بعجب»[٢].

لقد كان أبو بكر وعمر ﷺ يتنافسان في الطاعات تنافسًا عظيمًا؛ فعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: أمرنا رسول الله ﷺ يومًا أن نتصدق، فوافق ذلك مالًا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟»، قلت: مثله، قال: وأتىٰ أبو بكر ﷺ بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أُسابقك إلىٰ شيء أبدًا[٣].

---

(١) لطائف المعارف لابن رجب (ص: ٢٤٤)

(٢) لطائف المعارف لابن رجب (ص: ٢٤٤).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٣/ ١٠٨) برقم: (١٦٧٨)؛ والترمذي في جامعه (٦/ ٥٢) برقم: (٣٦٧٥)، وقال: حسن صحيح.

٣٧٣

العاقل بين العمل والأمل

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «الكيِّسُ مَن بادَرَ بعملِهِ، وسوَّف بأمَلِه، واستعدَّ لِأجَلِه، وبَذرَ لِنُزُلِه»[١].

بيان المفردات

الكيّس: العاقل الظريف، ضد الأحمق والأخرق، والكاف والياء والسين أصل يدل علىٰ ضم وجمع، من ذلك الكِيْس سمي به لضمه الشيء وجمعه، ومن بابه الكَيْس في الإنسان؛ لأنه مجتمع الرأي والعقل، يقال رجل كَيِّسٌ ورِجَالٌ أَكْيَاسٌ[٢].

سوّف: أي أخّر، والتسويف التأخير، يقال: سَوَّفْتَهُ إذا أخّرتَه، وفيه قول: سَوْفَ أفْعَل كذا[٣].

البَذر: نثر الحَبّ وزرعه، يقال: بذرتُ البَذر: زرعْتُه، وبذرَتِ الأَرضُ تبذُر بَذْرا: خرج بَذْرُها؛ ويأتي بمعنىٰ التفريق، وفيه يقال: بَذَّرَ مالهُ أي أفسده وفرّقه في السَّرَفِ، وتفرّق القوم شَذَرَ بَذَرَ[٤].

---

(١) تهذيب خالصة الحقائق للفاريابي (٢/ ٧٩٣)، نسبها إلىٰ يحيىٰ؛ ونسبها أبو نعيم في حلية الأولياء إلىٰ ذي النون، بلفظ مختصر.

(٢) مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ١٤٩)؛ لسان العرب لابن منظور (٦/ ٢٠٠ - ٢٠١).

(٣) مقاييس اللغة لابن فارس (٣/ ١٧٠).

(٤) لسان العرب لابن منظور (٤/ ٥٠).

النُزُل: المَنزِل والدار، والنُّزول: الحلول، والنُّزْل: ما يهيأ للنزيل والضيف، والأول هو المراد هنا[١].

المعنى الإجمالي

تشتمل الحكمة علىٰ بيان صفات العاقل الكيّس وعلاماته، فالكيس هو من بادر بعمله الصالح واستعجل في إنجازه وأخّر بأمله، لأن العمر يمضي والأجل قريب وطول الأمل يسبب الكسل. وكذلك الكيس من استعد لأجَله بفعل الخيرات وزرع بذورا طيبة لمنزله الأبدي فيجد الثمار فيه ناضجة عند قدومه، وإلا ينزل نُزله ولا يجد شيئا يفيده فيه، وذاك ليس من شيم العاقل.

ومفهوم الحكمة وارد في كثير من الآيات والأحاديث، ومنها قوله ﷺ: «الكيّس من دان نفسَه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنىٰ علىٰ الله»[٢]، حيث بيّن فيه النبي ﷺ خصال العاقل والعاجز، والكيس لا يريد الاتصاف بصفات العاجز.

(١) المصدر السابق (١١/ ٦٥٦)؛ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٥/ ١٨٢٩).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٦٣٨) برقم: (٢٤٥٩)، وقال: حديث حسن.

٣٧٤

استغلال الفرص

قال ابن الجوزي رحمه الله: «المُكْنَةُ مُزْنَةُ صَيفٍ، الفُرصةُ زَوْرَةُ طَيْفٍ، الصِّحَّةُ رَقْدةُ ضَيفٍ، الغِرَّة نَقدةُ زَيفٍ، الدنيا معشوقةٌ وكَيفَ؟ البدارَ البدارَ! فالوقتُ سَيفٌ»(١).

بيان المفردات

المكنة: هي التمكُّن، وكذا القدرة والاستطاعة والقوة(٢).

المُزْنَة: هي السحاب عامة، وقيل: السحابة البيضاء أو ذات الماء، مأخوذ من: مزن مزونًا، أي: مضىٰ مسرعا في طلب الحاجة، مزنةً: مبالغة في المزن(٣).

الزّورَة: المرة من الزيارة والبعد، ويطلق علىٰ الناقة الشديدة(٤).

طَيف: هو خيال الشيء وصورته المترائي للإنسان في المنام أو اليقظة(٥)، وكذا يطلق علىٰ الجنون، وقيل للغضب: طيفٌ، لأن عقل من استفزَّه الغضبُ يعزب حتىٰ

(١) المدهش لابن الجوزي (ص: ٣٧٠).
(٢) لسان العرب لابن منظور (١٣/ ٤١٢)؛ والمعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة (٢/ ٨٨٢).
(٣) لسان العرب لابن منظور (١٣/ ٤٠٦)؛ والمفردات للراغب الأصفهاني (ص: ٧٦٦)؛ والمعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة (٢/ ٨٦٧).
(٤) لسان العرب لابن منظور (٤/ ٣٣٤)؛ والمعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة (١/ ٤٠٦).
(٥) المفردات للراغب الأصفهاني (ص: ٥٣١).

يصير في صورة المجنون الذي زال عقله[١].

رَقدة: من الرقد، وهو النوم، والرقدة: أن يصيبك الحَرُّ بعد أيام ريحٍ وانكسارٍ من الوهج، أو هي أن يدوم نصف شهرٍ أو أقلّ، ولعل المراد هنا: المرة من النوم، إشارة إلىٰ قِلَّته[٢].

الغِرة: هي الغفلة، والغارّ هو الغافل، وقد اغترّ[٣].

نقدة: من النقد، وهو في البيع خلاف النسيئة، والنقود هي العملة من الذهب أو الفضة وغيرهما مما يُتعامل به، وهو أيضا فن تمييز جيد الكلام من رديئه وصحيحه من فاسده، والنقد كذلك ضرب من الشجر له نور أصفر ينبت في القيعان، واحدته نقدة[٤].

المعنى الإجمالي

التمكن والاستطاعة والقدرة علىٰ الطاعة، مثل مزنة صيف، أي: السحاب الذي يأتي في الصيف علىٰ الندرة، وإذا أتىٰ ينكشف عن قرب، فليس مثل السحاب الذي يكون في الخريف أو الربيع ويستمر مطره لأيام عديدة، وكذلك القدرة والاستطاعة، لا تدوم علىٰ الإنسان، فإذا جاءت فعليه أن يستغلها.

والفرَصُ مثل زورة طيف، أي: زيارة واحدة من الخيال الذي يأتي الإنسانَ، فكما أن الخيال لا يطول ولا يأتي إلا قليلًا أو نادرًا، كذلك الفرص تأتي في وقت دون وقت، وتكون قليلة، فعلىٰ العبد أن يحسن استغلالها.

---

(١) لسان العرب لابن منظور (٩/ ٢٢٦).

(٢) المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة (١/ ٣٦٤).

(٣) لسان العرب لابن منظور (٥/ ١٦).

(٤) المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة (٢/ ٩٤٤).

والصحة التي يتمتع بها الإنسان مثل رقدة، أي: نومة واحدة من الضيف في بيت المضيف، فكما أن مكوث الضيف في بيت مستضيفه لا يطول ولا يدوم، كذلك الصحة التي أنعم الله تعالىٰ بها الإنسانَ، لا تدوم، فينبغي للعاقل أن يستفيد من أوقات صحته قبل أيام المرض والسقم، لأن المرض عائق يمنع الناس عن القيام بمهماتهم، فعليهم أن يستغلوا أيام الصحة قبل فوات الأوان.

والغرة والغفلة مثل نقدة زيف، أي: النقد المزيَّف، كما أنه لا ينبغي للبائع أن يغتر بشكل النقد وظاهره، بل ينظر إلىٰ حقيقته وينقده حتىٰ لا يُخدَع بالزائف، كذلك العاقل لا ينبغي أن يغتر بالدنيا وزخارفها الزائفة التي عما قليل ستزول وتفنىٰ، بل يعمل للآخرة، لأن الآخرة خير وأبقىٰ. فالدنيا معشوقة، وكيف لا تُعشَقُ وهي مزيَّنة مزخرفة[1]؟ لكن علىٰ الإنسان أن يدرك أن وقته يمضي، وأيامه معدودة، فإن بقي يتمتع بنعم الدنيا ألهاه ذلك عن العمل للآخرة، لذلك قال بعده: البدارَ! أي: بادِرْ أيها الإنسان لما فيه خلاصك ونجاتك، واستعجلْ، لا تؤخِّر الأعمالَ ولا تُؤجِّل الطاعات، فالوقت سيف قاطع يقطع الأوقات، فإن لم تقطع الأوقات بالطاعة والعبادة، قطعك الوقتُ باللهو والمعصية.

وهذه الحكمة تتحدث بشكل عام عن زوال الدنيا وفنائها، وتدعو إلىٰ عدم الاغترار بها. ومصداق هذا الكلام في القرآن والسنة قد مر ضمن شروح الحكم الأخرىٰ، والله أعلم.

---

(١) وقيل: معناه: معشوقة الوكيف الذي فسد عقله ونقص إدراكه، ولا يعشقها من أكرمه الله بالعقل السليم والفهم الصحيح، من الوَكْف، وهو العيب والنقص والفساد. ينظر: لسان العرب لابن منظور (٩/ ٣٦٣).

٣٧٥

السابقون والمتأخرون

قال ابن الجوزي رحمه الله: «النَّجائبُ في الأوَّل، وحاملات الزاد في الأخير»[(١)].

بيان المفردات

النجائب والنُّجُب: هي الإبل العتيقة التي يُسابق عليها[(٢)].

الزاد: الطعام الذي يُتخذ للسفر والحضر[(٣)].

المعنى الإجمالي

للإبل أنواع مختلفة، وبحسب اختلاف أنواعها تختلف مرتبتها ومقاماتها، وتبعا لذلك يختلف موقعها في القافلة أثناء سيرها، فالإبل النجيبة ذات المرتبة العالية تتسم بالقوة والسرعة والنشاط، لذلك فهي تكون في مقدمة القافلة، وأما الإبل ذات المرتبة الأقل من ذلك فتكون وظيفتها هي حمل الزاد والمتاع، وتكون في آخر القافلة أثناء السير.

---

(١) المدهش لابن الجوزي (ص: ٤٦٢).

(٢) مختار الصحاح للرازي (١/ ٢٦٩).

(٣) العين للخليل بن أحمد (٧/ ٣٧٧).

وللإنسان عِبرةٌ في عالَم الحيوان؛ فكما أن للإبل مقامات مختلفة بحسب اختلاف أنواعها، فكذلك تختلف مقامات الناس بحسب هممهم وغاياتهم وسعيهم، وكما أن الإبل المثْقلة بالأحمال تكون في الآخر فكذلك الإنسان حين يتثاقل إلىٰ الأرض ويكثر من فضول المتاع والانغماس في الملذات، فصاحب الهمة العالية المتخفف مما لا ينفعه في دنياه ولا آخرته، فهذا في أعلىٰ المراتب، ولا يكون إلا سباقا في الخير، يسابق إلىٰ المراتب الأولىٰ دائما، والإنسان المتشاغل بالدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، فهو بالكاد يستطيع أن يجرجر نفسه ليلحق قافلة المجتهدين في العبادة والطاعة.

والله ﷻ أمرنا بالمسابقة نحو الخيرات، قال تعالىٰ: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [البقرة:١٤٨]، وهذا الأمر يتضمّن المبادرة والاستعجال إلىٰ جميع الطاعات، ومن أمثلة ذلك المبادرة إلىٰ الصلاة؛ قال رسول الله ﷺ: «من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فكأنما قرَّب بَدَنة[(١)]، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرَّب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرَّب كبشًا أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرَّب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرَّب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر»[(٢)].

---

(١) البدَنة: هي الناقة السمينة الضخمة، سميت بذلك لعظم بدنها. لسان العرب لابن منظور (١٣/ ٤٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٣) برقم: (٨٨١)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ٤) برقم: (٨٥٠).

٣٧٦

السير إلى الله في جميع الأحوال

قال أبو عبد الله القرشي[(١)] رحمه الله: «سيروا إلى الله تعالى عُرْجًا ومَكاسير؛ فإن انتظار الصحة بَطالة»[(٢)].

بيان المفردات

العَرَجُ والعُرْجة: مَوْضِعُ العَرَج مِنَ الرِّجْل، والعَرَجان: مِشْية الأَعرج، عَرِج يعرَج فهو أعرجٌ إذا كان من علة لازمة، وعرَج يعرُج فهو عارِج إذا كان من علة غير لازمة[(٣)].

مكاسير: جمع مكسور، وهو الليّن الضعيف[(٤)].

بَطالة: تعطُّل وضياع وهزل، يقال: بَطَل الأَجيرُ يَبْطُل بَطالة وبِطالة أَي تَعَطَّل فهو بَطَّال. والتبَطُّل: فعل البطالة، وهو اتباع اللهو والجهالة[(٥)].

(١) محمد بن أحمد بن إبراهيم أبو عبد الله القرشي الهاشمي، الزاهد الصالح من أهل الجزيرة الخضراء، كانت له كرامات، وكان من السادات الأكابر، مغربي، صحب بالمغرب أعلام الزهاد، سافر إلى الشام لزيارة البيت المقدس فأقام به إلى أن مات سنة ٥٩٩هـ. ينظر: وفيات الأعيان (٤/ ٣٠٦)؛ وتاريخ الإسلام (١٢/ ١١٨١).

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان (٤/ ٣٠٦).

(٣) لسان العرب لابن منظور (٢/ ٣٢٠)؛ المصباح المنير (٢/ ٤٠١).

(٤) لسان العرب لابن منظور (٥/ ١٣٩).

(٥) المصدر السابق (١١/ ٥٦-٥٧).

المعنى الإجمالي

تبين الحكمة أهمية السير إلىٰ الله والسعي في سبيل الطاعة دائما ولو كان الإنسان ناقصًا في وضع سَيِّئ وحاله ضعيف أو مصاب بمرض وجروح أو محاط بمشكلات، مع ذلك يجب عليه أن يسير ويسلك سبيل الخير، لأن انتظار الصحة والفراغ والكمال بطالة وتعطل وضياع للوقت، والحياة الدنيا مليئة بالأمور والهموم والمشاغل، فلو ينتظر المرء التفرغ التام للإقبال علىٰ الله لا يجده أبدا، وبه يدخل الشيطان ويجعل الإنسان في دوائر الكسل والأمل حتىٰ تنتهي الحياة ويجد نفسه أنه لم ينجز شيئا.

ولذلك حث الشرع علىٰ العمل الدائم المستمر ولو كان قليلا، فإن الخير والبركة في الدوام والاستمرار، والله تعالىٰ يحب هذا النوع من العمل كما وورد في الحديث: «أحبّ الأعمال إلىٰ الله تعالىٰ أدوَمُها، وإن قَلّ»(١).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٥٤١) برقم: (٧٨٣).

٣٧٧

التسويف رعونـة

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس»(١).

بيـان المفردات

الرعونة: الحمق والاسترخاء(٢).

المعنى الإجمـالي

المسارعة إلىٰ الخيرات من صفات الأنبياء عليهم السلام؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠]، كما أننا مأمورون بالمبادرة بالأعمال الصالحة قبل فوات الأوان؛ قال رسول الله ﷺ: «بادروا بالأعمال ستًّا؛ ما تنتظرون إلّا غنىٰ مُطْغيا؟! أو مرضا مُفْسدا؟! أو كبَرا مُفَنِّدا؟! أو موتا مُجْهزا؟! أو الدجال؟! فشرٌّ منتظر، أو الساعة؟! والساعة أدهىٰ وأمر»(٣).

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٢٨).

(٢) لسان العرب لابن منظور (١٣/ ١٨٢).

(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه (٤/ ٣٢٠) برقم: (٨٠٠١)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ١٤١) برقم: (٢٣٠٦)؛ وأبو يعلىٰ في مسنده (١١/ ٤٢١) برقم: (٦٥٤٢)؛ والطبراني في الأوسط (٤/ ١٩٢) برقم: (٣٩٤٥).

والمسلم مأمور بإيثار الآخرة علىٰ الدنيا، وأنْ لا ينهمك فيها انهماكا يمنعه من القيام بالطاعات وعمل الصالحات التي هي وظيفته الأولىٰ؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:٣٢]، وقال تعالىٰ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلىٰ: ١٦-١٧]، فالمسلم ليست الدنيا أكبر همّه وغايته؛ ومما ورد من دعاء النبي ﷺ: «ولا تجعل الدنيا أكبرَ همّنا ولا مَبْلغَ عِلْمنا»(١).

فإذا كان عند العبد أشغال دنيوية تمنعه من القيام بالعمل الصالح، ثم أحال ذلك العمل وأجله إلىٰ حين وجود الفراغ والوقت المناسب، فإن هذا التسويف نوع من الحماقة من وجوه(٢):

- الأول: أنه آثر الدنيا علىٰ الآخرة، وهذا خلاف ما ينبغي للمسلم القيام به.
- الثاني: أنه لا يضمن أن يستمر به العمر حتىٰ يجد وقت الفراغ للقيام بالعمل الصالح.
- الثالث: أنه قد يعجز مستقبلا عن القيام بالعمل الصالح.
- الرابع: أنه قد تعرض له الفتن والملهيات وتصده عن العمل الصالح.

لذلك يجب علىٰ العبد أن يبادر للقيام بالأعمال الصالحة مستعينا بالله الذي لا حول ولا قوة إلا به، وأن يترك التسويف والتأجيل والأماني الكاذبة، وأن يجعل هدفه الأول هو القيام بالوظيفة التي خلق من أجلها وهي عبادة الله تعالىٰ.

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٤٨١) برقم: (٣٥٠٢).
(٢) شرح الحكم للنفزي (١/ ٢٢).

٣٧٨

الحِميـة قبل الدواء

قال ابن عطاء الله السكندري: «أول الدواء الحِمْية، فمن عجَز عن الحِمْية كان عن الدواء أعجزَ وأعجز»(١).

بيـان المفردات

الحِمْية: منْعُ ما يضرّ من الطعام والشراب(٢).

المعنى الإجمـالي

المعاصي والذنوب سبب للخسران في الدنيا والآخرة؛ ففي الدنيا تنزع البركة في الرزق والعمر، وتضعف القلب والبدن، وتجلب الوحشة، وتعيق سير الإنسان إلىٰ الله، وتدفعه نحو المزيد من المعاصي، وتسبب التكاسل عن الطاعات، وفي الآخرة هي سبب لتثقيل ميزان السيئات، ويخشىٰ علىٰ صاحبها من سوء الحساب ومن دخول جهنم.

وأول الطرق لعدم الوقوع في وبال المعاصي هو الاحتماء عن أسبابها، وتجنب دواعيها قبل وقوعها، ويدل علىٰ هذا ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية من

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١٢٨).

(٢) انظر: تاج العروس للزبيدي (٣٧/ ٤٧٧).

النصوص التي تأمر باجتناب المعاصي وعدم الاقتراب منها؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأنعام:١٥١]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ [الأنعام:١٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٢]، وقال ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات»(١).

والإمام ابن عطاء الله رحمه الله يشبه تجنب الأسباب المؤدية إلىٰ المعاصي بالحمية الغذائية عن الزائد عن الحاجة من الطعام؛ فكما أن الحمية عن الطعام الزائد سهلة التطبيق ولا تتطلب من صاحبها جهدا كبيرا وتحميه من شر أمراض الجسم قبل وقوعها، فكذلك شأن الحمية عن المعاصي قبل وقوعها في سهولتها ونجاعة مفعولها.

أما إذا لم يتورع الإنسان عن أسباب المعاصي، واقترب منها حتىٰ تلبس فيها؛ فإن التخلص منها حين ذاك يكون أصعب بكثير؛ لأن المعصية تجرّ إلىٰ معصية ثانية، وكلما وقعت معصية نكتت في القلب نكتة سوداء وتسببت في قسوة القلب وامتراء المعاصي.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٠) برقم: (٢٧٦٦)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٦٤) برقم: (٨٩).

٣٧٩

اشترنفسك قبل فوات الأوان

قال ابن القيم رحمه الله: «اشترِ نفسَك؛ فالسوقُ قائمةٌ، والثمنُ موجودٌ»(١).

المعنى الإجمـالي

الدنيا هي مرحلة اختبار وامتحان استعدادا للدار الآخرة،، ولا يكون الإنسان فائزا يوم القيامة إلا إذا نجا من عذاب جهنم؛ قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥]، ويحتاج الإنسان أن يسعىٰ في إعتاق نفسه من النار حتىٰ يكون من الناجين يوم القيامة؛ قال ﷺ: «كل الناس يغدو، فبائعٌ نفسَه فمعتِقُها أو موبِقُها»(٢)، قال المظهري رحمه الله: «قوله: «كل الناس يغدو»؛ أي: يصبح، يعني: كل أحد إذا أصبح يبيع نفسه؛ أي: يعطي نفسه، ويأخذ عوضها، وهو عمله وكسبه، فإن عمل خيرا فقد باع نفسه، وأخذ الخير عن ثمنها، وهو معتقها من النار، وإن عمل شرا فقد باع نفسه، وأخذ الشر عن ثمنها، وهو موبقها؛ أي: مهلكها»(٣).

---

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٥٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ١٤٠) برقم: (٢٢٣).

(٣) المفاتيح في شرح المصابيح للمظهري (١/ ٣٤٧).

وحتىٰ يصح هذا البيع وتكتمل أركانه لا بد له من تحقق شرطين اثنين؛ أولا: لا بد من وجود السوق التي يكون فيها البيع والشراء، وثانيا: لا بد أن يملك المشتري ثمن السلعة التي يريد أن يشتريها، وفي هذه الصفقة السوق هي الدنيا أو مدة حياة الإنسان، والمطلوب شراؤه هو خلاص الإنسان ونجاته، ويتمثل هذا الخلاص بالبعد عن الذنوب في الدنيا، والنجاة من النار، والفوز بالجنة، فإذا حصل الإنسانِ علىٰ هذا يكون قد اشترىٰ نفسه وأعتقها، والثمن الذي سيقدمه في مقابل ذلك هو الأعمال الصالحة.

فما دام الإنسان علىٰ قيد الحياة فإن السوق قائمة والمجال مفتوح لإتمام هذه الصفقة، والثمن الذي يجب تقديمه موجود ومتوافر، فما علىٰ الإنسان إلا أن يقبل بقلبه وجوارحه علىٰ طاعة الله، ويبتعد عن المعاصي والآثام.

٣٨٠

التسويف يمنع الثواب

قال ابن القيّم رحمه الله: «كم جاء الثواب يسعى إليك، فوقف بالباب، فردّه بوّاب (سوف) و(لعل) و(عسى)»[(١)].

المعنى الإجمالي

كثيرا ما يتاح للإنسان أن يفعل الخير وينال الثواب، بأن يكون بمقدوره فعل الخير وتنتفي عنه العوائق التي تمنعه من فعله، كأن يملك الصحة وينتفي عنه المرض، أو أن يملك المال وسعة ذات اليد، أو يتيسر له الوقت والفراغ ويسلم من الشواغل، فعند ذلك يكون الباب مفتوحا أمام الإنسان ليعمل الطاعات ويحصل على ثوابها، ففي مثل هذه الحال يكون الحصول على الثواب ميسورا سهلا كأنّ الثواب يسعى نحو الإنسان سعيا.

ومن الخسران والخذلان والتعاسة أن يتحجّج الإنسان ويتذرّع بحجج وأعذار واهية، فيضيّع هذه الفرصة السانحة لاكتساب الحسنات والثواب لأجل عوائق كاذبة مخترعة ليست بمانع في الحقيقة، قال ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»[(٢)]، فهذان الأمران إذا لم يُستعملا فيما ينبغي فقد غُبِن

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٨٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٨) برقم: (٦٤١٢).

صاحبهما فيهما أي: باعهما ببَخْس لا تُحمد عاقبته أو ليس له في ذلك رأي البتة، فإن الإنسان إذ لم يعمل الطاعة في زمن صحته ففي زمن المرض بالطريق الأولىٰ، وعلىٰ ذلك حكم الفراغ أيضا فيبقىٰ بلا عمل خاسرًا مغبونا، هذا وقد يكون الإنسان صحيحا ولا يكون متفرغا للعبادة لاشتغاله بأسباب المعاش، وبالعكس فإذا اجتمعا في العبد وقصر في نيل الفضائل فذلك هو الغبن له كل الغبن، وكيف لا والدنيا هي سوق الأرباح وتجارات الآخرة؟![1]

ومن أمثلة الحجج الواهية التسويف، فيقول الإنسان أنني في المستقبل سأحجّ وأصلي وأتصدّق وأقرأ القرآن وأفعل الخير، ومن الأمثلة كذلك أن يقول الإنسان لعله تتاح فرصة أفضل، أو عسىٰ أن يكون لديّ وقت أنسب، ويستمر علىٰ هذا الحال حتىٰ تعترضه العوائق الحقيقية من مرض أو فقر أو كِبَر أو ضعف فيتعذّر عليه ما كان سهلا في السابق، ويندم بعد فوات الأوان.

(١) عمدة القاري للعيني (٢٣/ ٣١).

باب التحذير من العجب

٣٨١

آفة العجب

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الإعجاب آفة الألباب»[(١)].

بيان المفردات

الإعجاب: من العُجب، وهو ظن الإنسان في نفسه استحقاق منزلة هو غير مُستَحقٍّ لها[(٢)].

المعنى الإجمالي

إن أحق من كان للكبر مجانبًا وللإعجاب مباينًا مَن جَلَّ في الدنيا قدرُه، وعَظُم فيها أثرُه؛ فإن الإعجاب بكل أحد قبيح وهو بالعلماء أقبح؛ لأن الناس بهم يقتدون، وكثيرًا ما يُداخلهم الإعجاب لتوَحُّدهم بفضيلة العلم، ولو أنهم نظروا حق النظر وعملوا بموجب العلم لكان التواضع بهم أولىٰ، ومجانبة العُجب بهم أحرىٰ؛ لأن العجب نقص ينافي الفضل، فلا يفي ما أدركوه من فضيلة العلم بما لحقهم من نقص العُجب.

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ٥٦٩).

(٢) الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني (ص: ٢١٧).

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والحلم، وتواضعوا لمن تَعلَّمون منهم، ولْيَتَوَاضع لكم من تُعلِّمون، ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم»(١).

وعلة إعجابهم هو انصراف نظرهم إلىٰ كثرة مَن دونهم من الجهال، وانصراف نظرهم عمن فوقهم من العلماء فإنه ليس متناه في العلم إلا وسيجد من هو أعلم منه؛ إذ العلم أكثر من أن يُحيط به بشر، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف:٧٦].

عن أبي مسعود، قال: أتىٰ النبيَّ ﷺ رجلٌ، فكلمه فجعل تَرْعُد فَرَائِصُه(٢)، فقال له: «هوِّن عليك؛ فإني لست بملِك، إنما أنا ابن امرأةٍ تأكل القديد»(٣). وإنما قال ذلك ﷺ حسمًا لمواد الكبر، وقطعًا لذرائع الإعجاب، وكسرًا لأشر النفس، وتذليلًا لسطوة الاستعلاء(٤).

(١) الزهد لوكيع بن الجراح (ص: ٥٣٨).
(٢) **الفرائص**: جمع فريصة، وهي لحمةٌ عند نُغْضِ الكتف في وسط الجنب عند منبض القلب، ترعد وتثور عند الفزعة والغضب. ينظر: الفائق في غريب الحديث والأثر للزمخشري (٣/ ٩٨).
(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤/ ٤٣٠) برقم: (٣٣١٢).
(٤) ينظر: أدب الدنيا والدين للماوردي (ص: ٢٣٩).

٣٨٢

العُجب يُفسـد القلوب

روي عن علي بن أبي طالب ﷺ: «خفق النعال مفسدةٌ لقلوب نَوْكى الرجال»[(١)].

بيـان المفردات

نوكى: جمع أَنْوك، وهو الأحمق[(٢)].

المعنى الإجمـالي

إن إعجاب المرء بنفسه لهَ مداخل، ومن مداخله أن يكون الإنسان بليغًا فصيح اللسان، قد أعطاه الله من قوة الحجة وحُسْن الحديث ما يجذب إليه قلوب الناس، فيرفعونه ويعظمونه، ويسيرون وراءه إن خرج من المجلس، والنفس تهوىٰ ذلك، فإن لم يتداركها وقع في أكبر فتنة، وهي فتنة العجب والكبر، والعلماء هم أكثر الناس تعرضًا لهذه الفتنة؛ قال ابن عبدوس: «كلما توقر العالم وارتفع كان العجب إلىٰ صاحبه أسرع إلا من عصمه الله بتوفيقه ونزع حب الرياسة عن نفسه»[(٣)].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ٥٧٣).

(٢) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (١٠/ ٢٠٨).

(٣) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ٥٦٦).

عن حبيب بن أبي ثابت قال: «تبع ابنَ مسعود ناسٌ، فجعلوا يمشون خلفه، فقال: ألكم حاجة؟ قالوا: لا، قال: ارجعوا فإنها ذلة للتابع فتنة للمتبوع»(١).

وهل منزلة الإنسان عند الله ﷻ تكون بكثرة العلم؟! إن الله ﷻ لا يقبل إلا من كان سليم الصدر سالم القلب من الأهواء والفتن، فالخيرية بالمعاني لا بصورة العلم والعبادة.

قال ابن القيم: «إذا عزم العبدُ على السفر إلى الله تعالى وإرادته عرضَتْ له الخوادع والقواطع، فينخدع أولًا بالشهوات والرئاسات والملاذِّ والمناكح والملابس، فإن وقف معها انقطع، وإن رفضها ولم يقف معها وصدق في طلبه ابتُلِي بوطء عقبه وتقبيل يده والتوسعة له في المجلس والإشارة إليه بالدعاء ورجاء بركته ونحو ذلك، فإن وقف معه انقطعَ به عن الله وكان حظّه منه»(٢).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٤/ ٤١٨) برقم: (٢٦٨٣٩).
(٢) الفوائد لابن القيم (١/ ٢٥١).

٣٨٣

الخشية والعجب

قال مسروق بن الأجدع: «كفى بالمرء علمًا أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلًا أن يُعجَبَ بعمله»(١).

المعنى الإجمالي

إن العلم الذي يوصل إلىٰ معرفة الله تعالىٰ وخشيته ويدفع صاحبه إلىٰ العمل هو العلم الذي يستحق أن يوصف صاحبه بالعالم؛ لأن أعظم ثمرة ومقصد للعلم هو معرفة الله وخشيته، فمن أوصله علمه إلىٰ ذلك فقد حصل علىٰ الغاية منه، وأما العلم الذي لا يقود صاحبه إلىٰ شيء من ذلك فهو وبال وحجة علىٰ صاحبه يوم القيامة، مهما كان علمه غزيرا، ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ليس العلم بكثرة الرواية، ولكن العلم الخشية». وقال سفيان بن عيينة: «العالم بالله: الخائف من الله وإن لم يحسن: فلان عن فلان، ومن لم يحسن العلم والخوف من الله فهو جاهل وإن كان يحسن: فلان عن فلان»(٢).

فالعلم النافع إذا وقر في القلب خشع القلب لله وانكسر له وذل هيبة وخشية، قال الحسن البصري: «كان الرجل إذا طلب بابا من العلم لم يلبث أن يرىٰ ذلك في

(١) الطبقات الكبرىٰ لابن سعد (٨/ ٢٠٢).

(٢) إبطال الحيل لابن بطة (ص: ٣٤).

تخشعه وبصره ولسانه ويده وزهده وصلاحه وبدنه»[(١)]. قال تعالىٰ: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج:٥٤].

والجهل كل الجهل أن يعجب المرء بعمله، والمعجب يرىٰ أن طاعته بحوله وقوته، ويغفل عن حقيقة أن لله عليه منة في إحداث القوة لها، فالمعجب جهل قدر نفسه وجهل عظمة الله ﷻ وفضله عليه بتوفيقه للعمل وإعانته عليه، ولذلك قال مطرف بن عبد الله بن الشخير: «لأن أبيت نائما وأصبح نادما أحب إلىٰ من أن أبيت قائما وأصبح معجبا»[(٢)].

فحين اختارك الله لطريق هدايته ليس لأنك مميز أو لطاعة منك، بل هي رحمة منه شملتك، قد ينزعها منك في أي لحظة، لذلك لا تغتر بعملك ولا بعبادتك، ولا تنظر باستصغار لمن ضل عن سبيل الله، فلولا رحمة الله بك لكنت مع من ضل، إياك أن تظن أن الثبات علىٰ الاستقامة أحد إنجازاتك الشخصية.

إذا قال الله ﷻ لسيد البشر ﷺ: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٧٤] فكيف بك؟

---

(١) إبطال الحيل لابن بطة (ص: ٣٤).

(٢) الزهد والرقائق لعبد الله بن المبارك (ص: ١٥١).

٣٨٤

العجب بالطاعة

قال مُوَرِّق العِجْلِيّ[(١)] رحمه الله: «خيرٌ من العُجْب بالطاعة أن لا تأتي بطاعة»[(٢)].

بيان المفردات

العُجْب: لغة: الزُّهوّ، ورجل معجب: مزهوٌّ بما يكون منه، حسنًا أو قبيحًا[(٣)].

وشرعًا: رؤية العبادة واستعظامها من العبد[(٤)].

المعنى الإجمالي

إن وهب الله عبده علمًا، أو وفقه لطاعةٍ، أو رزقه جمالًا أو قوةً أو مالًا أو أولادًا فليتذكر أن ما هو فيه من تلك النعم هو عطاء من الله تعالىٰ، ولا يملك هو لنفسه من ذلك شيئًا، ولذلك فليس للعبد أن يتنكر للمنعم سبحانه وتعالى فيُعجب بما أعطاه الله وكأنه وهب نفسه تلك المواهب والعطايا.

(١) مورق بن المشمرج، أبو المعتمر، العجلي، البصري، ويقال: الكوفي، ويقال: ابن عبد الله، روىٰ عن أنس وجندب وسلمان وجماعة من الصحابة، وعنه جماعة التابعين، توفي سنة ١٠٥هـ. ينظر: الثقات لابن حبان (٥/ ٤٤٦)؛ تهذيب الكمال (٢٩/ ١٦)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٣٥٣).

(٢) البيان والتبيين للجاحظ (٢/ ١٣٨).

(٣) ينظر: المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (١/ ٣٣٩).

(٤) الفروق للقرافي (٤/ ٢٢٧).

إن العبد الذي يقوم بالطاعات ويعجب بها؛ كأن يقوم بين يدي ربه في ظلمة الليل والناس نائمون، أو يعجب من خشوعه وبكائه عند قيامه وقراءته للقرآن، أو يعجب بسعيه في أعمال الخير ووجوه البر كلها لا يجد أثرًا لتلك الطاعات في نفسه، ولا يؤجر عليها، ويعرض نفسه لمقت الله وغضبه.

وقد أثنىٰ الله علىٰ الذي يقوم بالعبادة وهو خائف من عدم قبولها، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠-٦١]. روي عن مطرف قوله: «لأن أبيت نائمًا وأصبح نادمًا، أحب إليّ من أن أبيت قائمًا، فأصبح معجبًا»(١).

(١) الزهد والرقائق لابن المبارك (ص: ١٥١).

٣٨٥

المَنُّ بالطاعة

روى وهب بن منبّه عن راهب من الرهبان قال: «إنك إنْ تضحَكْ وأنت معترفٌ لله بخطيئتكَ خيرٌ من أن تبكِيَ وأنت مُدِلٌّ بعملك؛ إنّ صلاةَ المُدِلّ لا تَصعَدُ فوقَه»(١).

بيان المفردات

المُدِلّ: أي المانّ، والدَّلَّة: المِنّة. يقال: دَلَّ يَدِلُّ إِذا مَنَّ بِعَطَائِهِ، والأَدَلُّ: المنَّان بعمله(٢).

المعنى الإجمالي

تبين الحكمة حاجة الإنسان إلى تذكُّر قصوره وتقصيره في طاعة الله وعبادته دائما، وعدم إدلاله بعمله واعتباره كافيا للنجاة بأنه عمل كذا وكذا فعلى الله أن يتقبله ويجزيه، لأن المقر بالخطيئة والتقصير والذنوب ولو كان ضاحكا خير من الباكي العامل الذي يعمل عملا صالحا ولكن في قلبه شيء من الغرور أو العجب والإدلال بسببه كأنه يمنّ بعمله على الله، ويقول في نفسه أنا عملت كذا فأنا أفضل من غيري وأستحق الجزاء، وهذا من الآفات المهلكة كما روي في الأثر أن داود عليه السلام

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنَّفه (٧/ ١٨٣) برقم: (٣٥١٦٧).
(٢) لسان العرب لابن منظور (١١/ ٢٤٨).

قال: «ثلاثٌ مَن كنّ فيه أهلكنَه: شحٌّ مُطاعٌ، وهَوىٰ مُتّبَعٌ، وإعجاب المرءِ بنفسه»(١).

والمدلّ بعمله لا يصعد عمله وصلاته فوق رأسه ولا ينفعه بشيء مع أنه يحسب أنه عمل عملًا حسنا، فلا يُقبل ولا يُلتفت إليه لعدم إخلاصه أو لعُجبه ومَنّه علىٰ ربه، وورد ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

وعلىٰ المرء أن يتذكر دائما بأن رحمة الله ومغفرته هي السبيل الوحيد للنجاة، كما روي عن النبي ﷺ يقول: «لا يُدخل أحدَكم الجنةَ عملُه ولا ينجيه عملُه من النار، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا برحمة الله»(٢).

(١) أخرجه ابن عبد الرزاق في مصنَّفه (١٠/ ٣٢٨) برقم: (٢١٦٨٢).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣/ ٣٩٦) رقم: (١٥٢٣٦).

٣٨٦

قبح المنِّ بالعمل

قال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفاجر الراجي لرحمة الله أقرب إلى الله من العابد الذي يرى أنه لا ينال ما عند الله إلا بعمله»(١).

المعنى الإجمالي

إن العبد العاصي إذا كان يفعل المعاصي بسبب ضعفه أمام شهواته، ثم بعد كل معصية يأتي منكسرًا بين يدي الله بين يدي الله تعالىٰ، راجيًا ما عنده من المغفرة خيرٌ من عبد مطيع عابد، ولكنه معجب بعبادته، لا يعترف بفضل الله عليه أن وفقه لتلك الطاعات.

والعاصي الذي يلتجئ إلىٰ الله بعد كل ذنب يطلب عفوه ومغفرته، يظفر بعفو الله ومغفرته ورضاه، وهذا ما بينه النبي ﷺ في الحديث، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ: «أن رجلًا أذنب ذنبًا، فقال: ربِّ، إني أذنبت ذنبًا - أو قال: عملت عملًا ذنبًا - فاغفره، فقال عَزَّ وَجَلَّ: عبدي عمل ذنبًا، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي. ثم عمل ذنبًا آخر - أو قال: أذنب ذنبًا آخر- فقال: ربِّ، إني عملت ذنبًا فاغفره، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: علِم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي. ثم عمل ذنبًا آخر -أو أذنب ذنبًا آخر- فقال: ربِّ، إني عملت ذنبًا فاغفره،

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٧/ ٣٨).

فقال: علِم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنبًا آخر -أو قال: أذنب ذنبًا آخر- فقال: ربِّ، إني عملت ذنبًا فاغفره، قال: عبدي علِمَ أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به، أُشهِدكم أني قد غفرت لعبدي، فليعمل ما شاء»(١).

وينبغي أن يعلم العبد أنه لا يستحق الجنة بعمله مهما بلغ من العبادة والطاعة؛ لأنه لا يستطيع أن يؤدي حق الله عليه في نعمة واحدة من النعم التي أنعم بها عليه، ولذلك قال ﷺ: «لن يُنجِيَ أحدًا منكم عملُه»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتَغَمَّدني الله برحمة، سددوا، وقاربوا، واغدوا، وروحوا، وشيء من الدُّلْجة، والقَصْد القَصْد تبلغوا»(٢).

ولا يفهم من هذا أن الأعمال لا أهمية لها، بل هي سبب من أسباب رحمة الله ورضاه، لكن ليست الأعمال وحدها التي تُدخل العبدَ الجنة، بل رحمة الله تعالىٰ وفضله قبل كل شيء.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣/ ٣٣٠) برقم: (٧٩٤٨)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٨٨-٣٨٩) برقم: (٦٢٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٩٨) برقم: (٦٤٦٣).

٣٨٧

الافتخار بالطاعة

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «ذَنْبٌ أفتقر به إليه أحب إليّ من طاعة أفتخر بها عليه»[(١)].

المعنى الإجمالي

إن الذنب الذي يُحْوِج العبدَ إلىٰ اللجوء إلىٰ الله والافتقار إليه، وطلب المغفرة منه خيرٌ من طاعة يعقبها فخر علىٰ العباد، وازدراء لحالهم؛ لأن الفخور بطاعته ينظر إلىٰ الناس نظرة ازدراء وتكبر، وهذا خطرٌ عظيم، وخلل واضحٌ في التربية الإيمانية؛ فالفضل كله لله في أيِّ طاعة يوَفَّق إليها العبد.

في الحديث: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولَجَاء بقوم يُذنبون فيستغفرون الله، فيغفر لهم»[(٢)]. إن لله تعالىٰ حكمة في إلقاء الغفلة علىٰ قلوب عباده أحيانًا؛ حتىٰ تقع منهم بعض الذنوب، فإنه لو استمرت لهم اليقظة التي يكونون عليها في حال سماع الذكر لما وقع منهم ذنب، وفي إيقاعهم في الذنوب أحيانًا فائدتان عظيمتان:

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٢٩٢).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٩٤) برقم: (٢٧٤٩).

إحداهما: اعتراف المذنبين بذنوبهم وتقصيرهم في حق مولاهم، وتنكيس رؤوس عُجبهم، وهذا أحب إلىٰ الله من فعل كثير من الطاعات؛ فإن دوام الطاعات قد توجب لصاحبها العُجب، قال الحسن: «لو كان الرجل كلما قال أصاب، وكلما عمل أحسن أوشك أن يُجَنّ من العُجب»(١). وقيل لعائشة رضي الله عنها: «متىٰ يكون الرجل مسيئًا؟ قالت: إذا ظنّ أنه محسن»(٢).

الفائدة الثانية: حصول المغفرة والعفو من الله لعبده؛ فإن الله يحب أن يعفو ويغفر، ومن أسمائه الغفار والعفو والتواب، فلو عصم الخلق فلِمَن يكون العفو والمغفرة(٣)؟

---

(١) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار للزمخشري (٤/ ١٧٩).

(٢) بحر الدموع لابن الجوزي (ص: ١٣٩).

(٣) ينظر: لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي (ص: ٢٠-٢١).

٣٨٨

نسيان رؤية المِنَّة مبدأ الإعجاب

قال يوسف بن الحسين رحمه الله: «يتولَّد الإعجاب بالعمل من نسيان رؤية المِنّة فيما يُجري الله لك من الطاعات»[١].

بيان المفردات

المِنَّة: مَنَّ عليه يمُنُّ منًّا: أحسن وأنعم، والاسم المِنَّة[٢].

المعنى الإجمالي

مبدأ العلاج للمرض هو النظر إلىٰ مسبباته، ثم النظر إلىٰ مظاهره وأعراضه، وبذلك يسهل توصيف العلاج الناجع، ومرض العُجب مبدؤه نسيان فضل الله تعالىٰ وإنعامه، والعلم أنه لولا توفيق الله ومعونته لما تحركت الأعضاء إلىٰ طاعة أبدًا، ولولا الله ما زكىٰ أحدٌ من العباد أبدًا.

وقد ذكَر سبحانه وتعالى فضله علىٰ عباده في أكثر من موضع في القرآن الكريم؛ من ذلك فضل الله عز وجل علىٰ عباده بهدايتهم، وتحذيرهم من إغواء الشيطان؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء:٨٣]. ومن ذلك

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ١٥٣).

(٢) ينظر: المحكم والمحيط الأعظم لابن سِيْدَه (١٠/ ٤٦٩).

مِنة الله على نبيّه ﷺ في تعليمه ما لم يكن يعلمه، ولا يستطيع فهمه لولا تيسير الله ذلك بفضله، قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣]. وفتح الله باب التوبة والرحمة لعباده، ولولاه لكنا من الخاسرين، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور:١٠].

وفضل الله ورحمته في تربية النفس علىٰ الخير وتزكيتها بمعاني الإيمان، وإبعادها عن كل الشرور والآفات؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور:٢١].

٣٨٩

نسيان النِّعَم

قال أبو الحسين الوراق[(١)] رحمه الله: «في رؤية النفس نسيان مِنَنُ الله تعالى عليك»[(٢)].

المعنى الإجمالي

من طبيعة الإنسان -مع إلفه وعادته- نسيان مِنَن الله ونعمه، فيرىٰ لنفسه حظًّا وجدارةً بهذه النعم، وينسىٰ الموجِد والمقَدِّر والميَسِّر لكل هذا النعم، بل يرىٰ أنه قد أوجدها بكَدِّه وتعبه وذكائه، ولكن الحقيقة أنه لولا فضل الله ومدده ومعونته لما استطاع أن يقوم بأي عمل، فما كان من فضل فمن صاحب الفضل سبحانه وتعالى؛ قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾ [غافر:٦١].

وقد تجلىٰ الاعتراف بالمنعم المتفضل في قول نبي الله سليمان عليه السلام بعد أن أمْكَنه الله من عرش بلقيس ملكة مملكة سبأ قبل أن تأتي إليه، فقال: ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴾ [النمل:٤٠].

---

(١) أبو الحسين محمد بن سعد الوراق النيسابوري، من كبار مشايخ نيسابور، ومن قدماء أصحاب أبي عثمان النيسابوري، وكتب بمصر عن الربيع بن سليمان، كان فقيهًا يتكلم علىٰ المعاملات، توفي في حدود سنة ٣١٩هـ. ينظر: طبقات الصوفية للسلمي (ص٢٢٩)؛ البداية والنهاية (١٥/ ٥٥).

(٢) طبقات الصوفية (ص: ٢٣١).

ومن النماذج في كفران نعم الله تعالىٰ، والتي نسبت الفضل في نعم الله إليها: نموذجًا فرعون وقارون، فقال الله عن فرعون: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الزخرف:٥١]، وقال عن قارون: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ﴾ [القصص:٧٨]، ومعروف ما هي النهاية التي انتهيا إليها؛ أغرق الله فرعون، وخسف بقارون الأرض.

إنَّ رؤية النفس بأنها سبب النعم فيها سوء أدب مع الله، ونسيان لنعمه التي أولاها وتفضل بها على الإنسان.

٣٩٠

العاقل يخاف ذنوبه ويحتقر عمله

قال الفاريابي رحمه الله: «أعقلُ الناسِ مَن خاف ذنوبَه وإن قلَّت، واستحقر أعمالَه وإن كثُرَت»(١).

المعنى الإجمالي

موضوع الحكمة يدور حول أثر الذنوب والطاعات ونظرة المؤمن لها، وأن الذنب لا ينبغي أن يتساهل في ارتكابه مهما كان يسيرًا، أما الطاعات فبالعكس ينبغي ألا يراها الإنسان كافية، فأعقل الناس من خاف من الوقوع في الذنوب والمعاصي وإن كانت قليلة يسيرة، لأن العبرة ليس بحجم المعصية، بل بكونها صدرت من العبد في مخالفة مولاه عز وجل، فالإنسان العاقل ينظر إلىٰ عظمة من عصاه ولا ينظر إلىٰ صغر معصيته، وكذلك العابد الناسك إن كان عاقلًا ذا فهمٍ في الدين لا يرىٰ أعماله وطاعتَه شيئًا كثيرا، لأنه مهما عبد الله تعالىٰ لن يستطيع أن يؤدي شكر نعمه سبحانه وتعالى.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن المؤمن يرىٰ ذنوبه كأنه قاعِدٌ تحت جبلٍ يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرىٰ ذنوبه كذُبابٍ مرَّ علىٰ أنفه، فقال به هكذا»، أي: بيده فوق أنفه(٢).

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٤٣).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٦٧) برقم: (٦٣٠٨).

قالت السيدة عائشة ﵂ مخاطبةً النبيَّ ﷺ وقد قام يصلي ليله حتىٰ تورمت قدماه، فقالت: لِمَ تصنعُ هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: «أفلا أُحِبُّ أن أكونَ عبدًا شكورًا»[(١)].

ولا يتعارض معنىٰ الحكمة مع ما ورد في حديث أبي ذرٍّ ﵁ الذي قال فيه: قال لي النبيُّ ﷺ: «لا تَحقِرَنَّ من المعروفِ شيئًا، ولو أن تلقَىٰ أخاك بوجهٍ طَلْقٍ»[(٢)]، لأن المراد في حديث أبي ذر هو الحثُّ علىٰ الخير والإحسان مهما كان قليلًا، ولا يترك الإحسان بحجة أنه ليس منه فائدة أو فائدته ضئيلة جدًّا.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ١٣٥) برقم: (٤٨٣٧)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ١٤١) برقم: (٢٨٢٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٣٧) برقم: (٢٦٢٦).

٣٩١

حاجتك إلى حلمه مع الطاعة

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «أنت إلى حلمه إذا أطعتَه أحوجُ منك إلى حلمه إذا عصيتَه»(١).

المعنى الإجمالي

أنت في حال الطاعة أكثر حاجةً إلىٰ حلم الله وعفوه عن جرائمك من حاجتك إلىٰ ذلك في حال المعصية، وقد علمتَ ما يصحب الطاعةَ من معاصي القلوب إن لم يتولَّ اللهُ حالةَ العبد فيُخلِّصه من ورطاتها؛ كالرياء والإعجاب والسمعة وحب الثناء ونحو ذلك، فلذلك يكون العبد أحوج إلىٰ حلمه لخوفه من أن يلتبس بخصلة من هذه الخصال(٢).

ظاهر هذا الكلام يوهِم خلافَ ما هو ثابت في الشرع من: أن الطائع هو الأقرب إلىٰ كرم الله وحلمه، وأن العاصي هو البعيد عنهما والمحتاج إليهما، ولكن ابن عطاء يُنبِّه في كلامه هذا إلىٰ الآفة الخطيرة التي قد تذهب بجدوىٰ الطاعة وتُحِيلها إلىٰ معصية في باطن الأمر وحقيقته(٣)؛ فكثيرا ما يُوفَّق الإنسانُ لأداء عبادةٍ أو طاعةٍ أو عملٍ مبرورٍ لله تعالىٰ، فينتابه من ذلك العُجبُ بنفسه، ويرىٰ أنه قد أحرز

(١) الحكم العطائية (ص: ١٧).

(٢) شرح الحكم العطائية للكندي الدوعني (ص: ٥٢٦).

(٣) كما يُنبِّه إلىٰ حالة كثيرا ما تنتاب العاصيَ فتذيب خطرَ عصيانِه وتُعرِّضه للرحمة والصفح من الله عز وجل.

لنفسه بذلك الدرجات العلا عند الله تعالىٰ، ويعلو بنفسه عن الآخرين في الرتبة والمكانة الاجتماعية، وينتظر منهم جميعًا تعظيمَه وتوقيرَه، فتتحول الطاعة من ذلك إلىٰ معصية، ولا يبقىٰ له من تلك الطاعة إلا غلافها(١).

وقد قال النبي ﷺ فيما روتْه عائشة، قال: «سدِّدوا، وقارِبوا، وأبشروا؛ فإنه لا يُدخِل أحدًا الجنةَ عملُه. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قال: ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني الله بمغفرة ورحمة»(٢).

وفي هذه الحكمة تحذير للعبد من الاغترار بالعمل الصالح، فربما تكون المعصية مصحوبةً بالخوف والافتقار ومقرونة بالذل والاحتقار، وذلك يوجب الشرفَ والرفعةَ عنده سبحانه، بخلاف الطاعة التي تكون مصحوبةً في الاستعظام للعمل والنفس(٣).

(١) الحكم العطائية شرح وتحليل (٣/ ٤٢٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٩٨) برقم: (٦٤٦٧)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ١٤١) برقم: (٢٨١٨).

(٣) تعليقات الشيخ يوسف الحاج أحمد علىٰ الحكم العطائية (ص: ١٧).

٣٩٢

أثْنِ على الله حين يُثني عليك الناس

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «إذا أَطْلَق الثناءَ عليك ولست بأهْلٍ فأثْنِ عليه بما هو أهله»(١).

بيان المفردات

الثناء: ما يوصف به الإنسان من مدح أو ذم، وخص بعضهم به المدح(٢)، والمقصود به في هذه العبارة الثناء الحسن.

بأهل: أهل لكذا؛ أي: مستَوْجِبٌ له(٣).

المعنى الإجمالي

ثناء الناس الحسن علىٰ الإنسان ناتج عن اطلاعهم علىٰ ظاهر حاله الطيب، وهذا الظاهر الطيب الجميل لا يكون إلا بفضل ستر الله علىٰ العبد حيث أظهر الله لهم محاسنه وأخفىٰ عنهم عيوبه، كما أن هذا الثناء ناتج عن محبة الناس لهذا الشخص، والمحبة لا تقع في قلوب الناس لشخص ما إلّا إذا وضعها الله في قلوبهم؛

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٤٤).

(٢) لسان العرب لابن منظور (١٤/ ١٢٤).

(٣) لسان العرب لابن منظور (١١/ ٢٩).

فالله هو مقلِّب القلوب يصرفها كيف يشاء، فثناء الناس الحسن على العبد هو في حقيقة الأمر نعمة من الله أطلقها الله على ألسنة الناس.

والمؤمن لا ينفك عن اتهام نفسه بالخطأ والتقصير، ويعتقد أنه ليس أهلًا ولا مستحقًّا للمدح والثناء، فالفضل من الله، والقصور من العبد، كيف لا وحَقُّ الله على العبد أن يُشكر فلا يُكفر وأن يُذكر فلا يُنسى وأن يطاع فلا يُعصى؟! وكيف يَضمن قَبول أعماله الصالحة مع أن الله لا يتقبل إلا من المتقين ولا يرضى العملَ إلا إذا كان خالصا لوجهه الكريم؟!

فإذا كان الثناء الحسن إنما هو من الله أجراه على ألسنة عباده، وإذا كان المسلم لا يرى نفسه أهلا لهذا الثناء، فماذا يفعل حين يسمع ثناء الناس عليه؟ إذا اغترّ بكلام الناس وصدق ما يقولونه عنه بأنه صاحب صلاح وتقوى فقد وقع عند ذلك في العُجب والغُرور، وهذا أمر خطير ينبغي على المسلم الحذر منه، ولذلك يجب عليه استحضار أن هذا الثناء هو نعمة من الله تعالى عليه وفضل من الله أكرمه به.

وفي هذه الحكمة يعطينا الإمام ابن عطاء ﷺ حلّا عمليّا وطريقة ناجعة للتعامل مع سماع ثناء الناس الحسن، يقول للمسلم: إذا أطلق الله ألسنة الناس بالثناء عليك، وأنت تعرف من نفسك أنك لا تستحق ذلك، فأطلِقْ أنت لسانك بالثناء على الله وشكره وحمده، فقُل مثلا: الحمد لك يا ربي أنْ سترت عليّ حتى ظنّ الناس بي خيرا، والحمد لك يا ربي أن هديتني للعمل الصالح الذي أكسبني محبة الناس، ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف:٤٣].

٣٩٣

عدم الاغترار بمدح الناس

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «الناس يمدحونك لما يظنونه فيك، فكن أنت ذامًّا لنفسك لما تعلمه منها»[(١)].

بيان المفردات

المدح: حُسْن الثناء[(٢)].

الذّم: اللوم في الإساءة[(٣)].

المعنى الإجمالي

يحكم الناس على الإنسان من خلال ظاهر حاله وما يطلعون عليه أو يسمعونه عن أعماله وتصرفاته، فإذا كان ما يظهر للناس من حال شخصٍ وتصرفاته حسنا وصالحا يحكم الناس عليه بالصلاح والتقوى، ويوجهون له عبارات المدح والثناء والإطراء.

وهذا المدح من الناس عندما يتلقاه الإنسان يتوهم عن نفسه أنه على مرتبة

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٤٣).
(٢) لسان العرب لابن منظور (٢/ ٥٨٩).
(٣) لسان العرب لابن منظور (١٢/ ٢٢٠).

عالية من الصلاح والتقوىٰ مثلما يقول عنه الناس، وفي هذا خطر عظيم؛ لأن هذا المدح قد يكون سببا يدفع الإنسان نحو العجب والاغترار، ولذلك حذّر النبي ﷺ من مدح الإنسان في وجهه ومن قبول سماع هذا المدح؛ فقد كان رجل يمدح ابن عمر فجعل ابن عمر يقول هكذا[1]، يحثو في وجهه التراب، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا رأيتم المدّاحين فاحثوا في وجوههم التراب»[2].

وفي هذه الحكمة يبين لنا الإمام ابن عطاء الله ﵀ طريقة ناجعة لعلاج ما يتوهمه الإنسان من أنه صاحب فضل وتقوىٰ جراء مدح الناس له، وهذا العلاج يكون من خلال عمل محاسبة ومكاشفة بين الإنسان ونفسه، فمدح الناس يستند إلىٰ الظن لا إلىٰ الحقيقة؛ فالناس لا يمكنهم الاطلاع إلا علىٰ ظاهر حال الإنسان، لكن في المقابل فإن هذا الإنسان يعرف حقيقة نفسه المقصّرة علىٰ الدوام، والخطّاءة باستمرار، والمليئة بالعيوب والنواقص، فينبغي علىٰ الإنسان أن يكون ذامّا لنفسه ومعاتبا لها.

وهذا الذمّ من الإنسان لنفسه هو ذمّ إيجابي يترتب عليه عدم الاغترار بمدائح الناس والتخلق بالتواضع دائما والسعي للاستمرار في التخلص من الأخلاق السيئة والترقي في مراتب الصلاح، وليس المقصود ذمّ النفس الهدام الذي يدفع الإنسان نحو اليأس أو ترك الدعوة إلىٰ الخير.

(١) أي يحرك بيده ويرمي التراب في وجه المدّاح.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ١٢٢٦) برقم: (٥٧٨٨).

٣٩٤

فضل الله في الطاعات

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «لا تُفْرِحْك الطاعة لأنها برزت منك، وافرح بها لأنها برزت من الله إليك ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾»(١).

المعنى الإجمالي

لا يكنْ فرحك بالطاعة لأجل كونها برزتْ منك، فإنك إذا فرحتَ بها من هذه الحيثية أورثتْك العجبَ المُحبِط لها، لأنك شاهدت أنها بحولك وقوتك، وإنما يكون فرحك بها لأجل كونها برزت من الله إليك، وتفضَّل بها عليك. قال تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات:٩٦]. ولذا استدل بآية: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس:٥٨](٢).

وفي هذه الحكمة يشير ابن عطاء الله إلىٰ نوعين من الفرح الذي يفرح به العبد بعد أداء العبادة:

النوع الأول: فرح محمود، ويتمثل في فرح العبد بتوفيق الله تعالىٰ إياه لأداء الطاعة، وشرح صدره لها، وصدّ العوائق والموانع عن سبيله إليها، ثم قبوله تعالىٰ

(١) الحكم العطائية (ص: ١٧).

(٢) شرح الحكم العطائية للشرنوبي (ص: ٦١).

لها منه على رغم ما فيها من النقائص والعيوب.

والنوع الثاني: فرح مذموم، ويتمثل في فرح العبد بما يُخيَّل إليه من القدرة التي يتمتع بها، وقوة الإرادة التي أكسبتْه المضيَّ فيها والثبات عليها، والتفوق بها على الأقران والأصحاب الذين لا ينهضون أو لا يستطيعون النهوض بمثل عمله.

والنوع الأول يزيد الطائعَ شعورًا بعبوديته لله تعالى، ويقينًا بعجزه الكلي أمام تدبير الله وسلطانه، ومن ثَمَّ يزيده شكرًا لله وشعورًا بعظيم منتِهِ عليه، كما أن الفرح الثاني لا يأتي إلا ثمرةَ لونٍ من ألوان الشرك بالله ﷻ، هيمَنَ على كيان هذا الطائع وفكره(١).

(١) الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٢/٢٩١-٢٩٢).

٣٩٥

الاستكبار بالطاعات

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «معصيةٌ أوْرثَتْ ذُلًّا وافتقارًا، خيرٌ من طاعةٍ أورثَتْ عِزًّا واستكبارًا»(١).

المعنى الإجمالي

أعمال البر، إن احتوتْ على التذلُّلِ والخشوعِ فذلك المطلوب، وإن خلتْ منهما، فالمعصية التي توجِب الانكسارَ خير للمرء من الطاعة التي توجب الاستكبارَ، لأن المقصود من الطاعة هو الخضوع والخشوع والانقياد والتذلُّل والانكسار. فإذا خلت الطاعة من هذه المعاني واتصفت بأضدادها، فالمعصية التي توجب هذه المعاني، وتجلب هذه المحاسن أفضل منها بالنسبة إلى العبد، إذ لا عبرة بصورة الطاعة ولا بصورة المعصية، وإنما العبرة بما ينتج عنهما. قال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صُوَرِكم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(٢).

فثمرة الطاعة هي الذلُّ والانكسار، وثمرة المعصية هي القسوة والاستكبار، فإذا انقلبت الثمرات انقلبت الحقائق، وصارت الطاعة معصية والمعصية طاعة(٣). وذلك لأن الذل والافتقار من أوصاف العبودية، والتحقق بهما موجِب للقرب من

(١) الحكم العطائية (ص: ٧٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١١) برقم: (٢٥٦٤).

(٣) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ٢٣٨).

الله تعالىٰ، وأما العزُّ والاستكبار، فإنهما من أوصاف الربوبية، والتعلق بهما مقتضٍ للخذلان والتباعد عن المراتب العلية[١].

وهذه الحكمة تأتي جوابا علىٰ سؤال: كيف تكون الطاعة عاملًا في إقصاء صاحبها عن الله تعالىٰ، وتكون المعصية عاملًا في إيصال صاحبها إلىٰ مرضاة الله تعالىٰ؟ وربما استعظم بعضُ الناسِ هذا الكلامَ فيقولون: كيف يتأتىٰ للمسلم أن يُفضِّل المعصيةَ أيًا كانت علىٰ الطاعة أيا كانت؟ وهل في الناس من يجهل أن هذا الكلام من شأنه أن يستهين الناسُ بالمعصية وأن يُيسِّروا لأنفسهم طريقًا إليها؟

والجواب عن هذا الوهم أن المقارنة هنا إنما هي بين معصية ساقت صاحبَها إلىٰ التذلُّل والانكسار لله ﷻ وطاعةٍ أورثتْ صاحبَها التباهيَ والانكسارَ. ومما لا شك فيه أن الطاعة التي تورث صاحبَها التباهيَ والاستكبارَ بها ليست طاعةً إلا من حيث المظهر والشكل، أما من حيث الحقيقة فهي معصيةٌ مقنَّعةٌ بصورةِ طاعةٍ[٢]. وقد قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة:٢٧].

(١) تعليقات الشيخ يوسف الحاج أحمد علىٰ الحكم العطائية (ص: ٧٦).

(٢) الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٣/ ١٤٩-١٥٠).

٣٩٦

الاعتماد على العمل

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «من علامات الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجودِ الزَّللِ»[(١)].

بيان المفردات

الاعتماد على العمل: الاعتماد على الشيء: هو الاستناد عليه والركون إليه. والعمل: حركة الجسم أو القلب[(٢)].

المعنى الإجمالي

لا ينبغي للإنسان أن يعتمد على نفسه ولا على عمله وحولِه وقوتِه، وإنما يعتمد على فضل ربه وتوفيقه وهدايته. قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [القصص:٦٨].

والاعتماد على النفوس من علامة الشقاء والبؤس، والاعتماد على الأعمال من عدم التحقق بالزوال.[(٣)] فيقول لنا ابن عطاء الله: إياك أن تعتمد في رضا الله عنك

(١) الحكم العطائية (ص: ١٢).
(٢) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ٢٥).
(٣) المصدر السابق (ص: ٢٦-٢٧).

وفي الجزاء الذي وَعَدك به علىٰ عملٍ قد فعلتَه ووُفِّقتَ له: كالصلاة والصوم والصدقات، بل اعتمِدْ في ذلك علىٰ لطف الله وفضله وكرمه.

والدليل علىٰ هذا قول رسول الله ﷺ: «لن يُدخِل أحدًا منكم عملُه الجنة»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة»(١).

ويقول: إن من أبرز الدلائل علىٰ اعتماد الإنسان علىٰ العمل، لا علىٰ فضل الله: نقصان رجائه بعفوه تعالىٰ عند تلبُّسه بالزلل وتورُّطِه في المعاصي والموبقات. إن هذا يعني: أنك عندما كنتَ ترجو كرمَ الله وعطاءَه إنما تعتمد في ذلك علىٰ عملك، فلما قلَّ العمل وكثرت الذنوب غاب الرجاء؛ فهذا هو المقياس الدال علىٰ أنك إنما تعتمد في رجائك علىٰ عملك، لا علىٰ فضل الله ﷻ(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ١٢١) برقم: (٥٦٧٣)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ١٤٠) برقم: (٢٨١٦).

(٢) الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (ص: ٢١-٢٢).

٣٩٧

استكثـارُ الخيرِواستصغـارُ الشَّرِّ

قال ابن القيم رحمه الله: «استقلالُ العبدِ المعصيةَ ذنبٌ، كما أنَّ استكثارَه الطَّاعةَ ذنبٌ»(١).

المعنى الإجمـالي

آفَتان عظيمتان تقطعان الطريقَ على السائرين إلى الله تعالى هما آفةُ استقلالِ المعصية وآفةُ استكثارِ الطاعة؛ ذلك لأنَّ استصغارَ العبدِ لمعصيته عينُ الجُرأةِ على الله، وجهلُه بقَدْرِ مَن عصاه وبقَدْرِ حقِّه، وهو نوعُ مبارزةٍ لله تعالى، لأنَّ مَنْ استصغرَ المعصيةَ هان عليه أمرُها وخفَّتْ على قلبه، وهو دليلٌ على قلةِ المبالاة بمَنْ عصاه وعدمُ الاكتراث بشهوده ومخالفته.

فاستقلالُ المعصيةِ ذنبٌ، لأنَّ من نظر إلى عظمة الله تعالى وتحقق بشهود جلاله وتفكر في سعةِ إحسانه وعظم مِنَّته، ولاحظ ما أسبغه عليه من نِعَمه من غير استحقاقٍ لشيء من ذلك، لا ينبغي له ينظر إلى صِغَر المعصيةِ وكِبَرها، بل كُلُّ مخالفة فهي عنده كبيرة.

إنَّ استعظامَ المعصية أنه يُشعر بشهودِ القلب شيئًا من عظمة الله وجلاله وكبريائه، ويدل على ندمٍ وكراهة في القلب، يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «إن المؤمن يرى

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٤١١).

ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرىٰ ذنوبه كذباب مَرّ علىٰ أنفه، فقال به هكذا»(١).

والآفة الثانية هي آفةُ رؤيةِ العمل وملاحظتِه والرضا به والسكون إليه، لأن استعظام الطاعات يورث المرءَ الإعجابَ بعمله وإدلاله به علىٰ الله، وهو محبطٌ للعمل، فإذا كثُرتْ الحسناتُ في عين العبد وعظُمتْ دلَّ علىٰ أنّه محجوبٌ عن الله، غيرُ عارفٍ به وبما ينبغي له، يقول الله تعالىٰ معاتبًا مَن اسْتعظمَ إسلامَه وغفل عن مشاهدة مِنَنه، فقال: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ [الحجرات:١٧](٢).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٦٧) برقم: (٦٣٠٨)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٩٢) برقم: (٢٧٤٤).

(٢) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٤١٢)؛ تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين لابن النحاس (ص: ٣٦٢ -٣٦٣).

٣٩٨

نظرُ العبد لحسناتـه وسيئاتـه

قال ابن القيم رحمه الله: «كُلَّما صَغُرتْ الحسناتُ في عينكَ كَبرُتْ عند الله، وكُلَّما كَبرُتْ وعظُمتْ في قلبك قَلَّتْ وصَغُرتْ عند الله، وسيئاتُك بالعكس»(١).

المعنى الإجمالي

إنَّ من الآفات التي تَعْرِضُ للعبد في عمله هي آفةُ رؤيةِ العمل وملاحظتِه والرضا به والسكون إليه، لأن استعظام الطاعات يورث المرءَ الإعجابَ بعمله وإدلاله به على الله، وهو محبطٌ للعمل، فالعارفُ العاقلُ هو من صغُرتْ حسناتُه في عينه، وعظمتْ ذنوبُه عنده، لأن الذنب كلما استعظمه العبد صغَّره عفوُ الله تعالىٰ، وكلما استصغره العبدُ عظَّمه جلال الله تعالىٰ.

بيان ذلك أنَّ مَن عرف اللهَ وحقَّه وما ينبغي لعظمته من العبوديّة تلاشتْ حسناتُه عنده وصغُرتْ جدًّا في عينه، وعَلِم أنّها ليستْ ممّا ينجو بها من عذابه، وأنَّ الذي يليق بالله ويصلحُ له من العبوديّة أمرٌ آخر، وبالتالي كلَّما استكثَر من الطاعات والعبادات استقلَّها واستصغَرها، لأنّه كلَّما استكثَر منها فُتِحَتْ له أبوابُ المعرفة بالله والقُرب منه، فشاهدَ قلبُه من عظمة الله وجلاله ما يستصغِرُ معه جميعَ أعماله،

(١) مدارج السالكين لابن القيم العلم (١/ ٤١١).

ولو كانت أعمالَ الثَّقَلَين. والعكس صحيحٌ، فإذا كثُرتْ الحسناتُ في عين العبد وعظُمتْ دلَّ علىٰ أنّه محجوبٌ عن الله، غيرُ عارفٍ به وبما ينبغي له، يقول الله تعالىٰ معاتبًا مَن اسْتعظمَ إسلامَه وغفل عن مشاهدة مِنَنه، فقال: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ [الحجرات:١٧].

وفيما يتعلق بالسيئات، فالعبد بحسب معرفته بربّه ومعرفته بنفسه يستكثر ذنوبَه وتعظُم في عينه، وذلك لمشاهدته الحقَّ ﷻ ومستحَقَّه، وتقصيرَه في القيامِ به وإيقاعِه علىٰ الوجه اللّائق الموافق لما يحبُّه الرَّبُّ ويرضاه من كلِّ وجهٍ، ولذلك فإنَّ الذنوب الكبيرة قد يقترن بها من الحياء والخوف والاستعظام لها ما يلحقها بالصغائر، وقد يقترن بالذنوب الصغيرة من قلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف ما يلحقها بالكبائر، بل يجعلها في أعلىٰ رُتبها(١).

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٤١١-٤١٢ و٥٠٥).

باب القلوب والتحذير من قسوتها

٣٩٩

إقبال القلوب وإدبارها

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إن لهذه القلوب إقبالًا وإدبارًا، فإذا أقبلتْ فخُذُوها بالنوافل، وإن أدبرتْ فألزِمُوها الفرائض»[1].

المعنى الإجمالي

تتقلب القلوب من حالٍ إلىٰ حالٍ؛ فتكون في حال إقبال فتُقْبلُ علىٰ الخير إقبالًا منقطع النظير، وتنحسر انحسارًا لا ترضىٰ بفعل أقل القليل مما كانت عليه من التزود بالطاعات فضلًا عن المسارعة والمسابقة.

وهذا التغير تغيرٌ طبيعيٌّ ما لم تطلْ فترة الإدبار فييأس صاحبها من الإقبال والعودة علىٰ الوضع المقبول. وقد أوضح النبي ﷺ الإقبال والإدبار في الأعمال وذلك من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل عمل شِرةٌ، ولكل شرة فترةٌ، فمن كانت فترته إلىٰ سنتي فقد أفلح، ومن كانت إلىٰ غير ذلك فقد هلك»[2].

---

(١) ذكره عن عمر ابن القيم في مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ١٢٢)، ولم نجد له مصدرًا أقدم من كتابه، وهناك عبارة لابن مسعود تشبه هذه العبارة قليلا إلا أن معناها مختلف، ذكرها ابن المبارك في كتاب الزهد (ص: ٤٦٩) برقم: (١٣٣١).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٤٢٠) برقم: (٦٩٥٨).

فإن كان القلب مقبلًا على الله فينبغي على العبد أن يفيد من إقباله بأداء الفرائض والنوافل معًا، ويقوم بالأعمال التي كان يؤجلها حين إدبار قلبه، وإن كان القلب مدبرًا فيكتُفَى منه بأداء الفرائض حتى لا ينقلب العبد على عقبيه فيترك الفرائض والنوافل عياذًا بالله.

٤٠٠

سياسة القلوب

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن للقلوب شهوةً وإدبارًا؛ فاغتنموها عند شهوتها وإقبالها، ودَعُوها عند فترتها وإدبارها»[١].

بيان المفردات

الشهوة: مصدر بمعنى الرغبة والحب للشيء، منه شهي الشيء يشهى شهوة أي أحبه ورغب فيه، وتطلق في كل ما يشتهيه الإنسان، وهو المراد هنا، والبعض خصصها بالمعصية[٢].

الإدبار: الرجوع، نقيض الإقبال، والإقبال: الميل إلى الشيء وهو نقيض الإدبار[٣].

فترة: من الفتور، الانكسار والضعف[٤].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٣٤)؛ وفي مصنف ابن أبي شيبة وسنن الدارمي وغيرهما بلفظ: «إن للقلوب لَنَشاطا وإقبالا، وإن لها لَتَوليةً وإدبارا، فحدِّثوا الناس ما أَقْبلوا عليكم».

(٢) لسان العرب لابن منظور (١٤/ ٤٤٥).

(٣) المصدر السابق (٤/ ٢٧٢) و(١١/ ٥٣٨، ٦٣٢).

(٤) نفس المصدر (٥/ ٤٣).

المعنى الإجمالي

تبين هذه الحكمة حالة القلب والنفس في أوقات مختلفة وتحث علىٰ اغتنام الفرص عندما يكون نشيطا ويكون في حالة الرغبة للعبادة والإقبال علىٰ الطاعة فيكثر منها ويستزيد ليتدارك بها ما فات ونقص. وأحيانا يكون القلب في حالة الانكسار والكسل فلا يجبر نفسه كثيرا في تلك الأوقات علىٰ النوافل والزوائد، بل يأخذ قسطا من الراحة ويلتزم بالفرائض والواجبات، ويجدد الهمة والنشاط ليبدأ من جديد. وهي حالات طبيعية تعتري النفس الإنسانية كما يعتريها جسمه، وفيها من الحكم ما لا يعلم تفصيله إلا الله، منها: تمييز الصادق من الكاذب، وتمييز المجدّ من المدّعي.

وأسباب الحث علىٰ العبادة والتطوع عند الإقبال واضحة لوجود الحرص والانبساط والشوق الذي يقربه إلىٰ الله أكثر، وأما الاكتفاء باللوازم فقط في حالة الفتور؛ فأولا قهر النفس فيما لا ترغبه لا يفيد، بل يبعده. وثانيا عدم التركيز اللائق قد يجعله عرضة لما يخالف المطلوب، وذلك كما ورد في الحديث: «إذا نَعَس أحدكم وهو يصلي فلْيرقد حتىٰ يذهب عنه النوم، فإن أحدكم إذا صلىٰ وهو ناعسٌ لا يدري لعله يستغفر فيَسُبّ نفسه»(١).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٥٣) برقم: (٢١٢).

٤٠١

آفة قسوة القلب

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «القلبُ إذا قَسى لا يبالي ما أتى»[١].

بيان المفردات

قَسى: قَسا يَقسو: إذا صلُب واشتدّ، فهو قاسٍ، وقَسِيٌّ على فَعِيلٍ والقسوة اسم منه[٢].

لا يبالي: أي لا يهتم، يقال: بَالَىٰ بِالشَّيءِ يُبَالِي به إذا اهتمَّ به، وقيل: اشتقاق باليتُ من البال، بالِ النفس، وهو الاكتراث[٣].

المعنى الإجمالي

تشير الحكمة إلىٰ أمر يغفل عنه الكثير وهو آفة قسوة القلب علىٰ الإنسان، بأن القلب إذا قسىٰ فلا يهتم ولا يكترث لما يفعل ولما يصدر منه، فيؤذي نفسه ويؤذي غيره لقساوة قلبه وجفافه، حيث يتعود علىٰ البعد عن الله تعالىٰ بسببه ويخالط أصحاب السوء ويألف الذنوب ويتبع سبيل الشيطان فيرتكب ما يؤذيه في الدنيا

(١) تهذيب خالصة الحقائق للفاريابي (١/ ٥٤٩).
(٢) المصباح المنير للفيومي (٢/ ٥٠٣).
(٣) لسان العرب لابن منظور (١٤/ ٨٥).

والآخرة، وأما إيذاؤه لغيره فلعدم شعوره بالرحمة والرأفة تجاههم، فلا يرق لهم قلبه ولا يهتم بهم بل يشتد عليهم ولا يبالي بظروفهم وأحوالهم.

وورد في النصوص مذمة قسوة القلب كما في قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الزمر:٢٢]، والقلب إذا يقسو يكون كالحجارة أو أشد كما جاء في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة:٧٤].

وأسباب قسوة القلب كثيرة، منها: التعلق بغير الله وحب الدنيا وكثرة اختلاط الناس وكثرة الأكل وكثرة النوم وكثرة الضحك، ودواءها كثرة البكاء وتقليل الضحك والملذات وتكثير ذكر الموت وحب الخير للناس والرفق بهم، واستحضار أحوال الآخرة التي لا ينفع فيها إلا الحضور بقلب سليم حيث وردت: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

٤٠٢

الترويح عن القلوب

قال قسامة بن زهير(١) رَحِمَهُ اللَّهُ: «رَوِّحُوا القلوبَ تَعِي الذكرَ»(٢).

المعنى الإجمالي

تستجمع القلوب نشاطًا وحماسًا، فتُقبل علىٰ الله إقبالًا منقطع النظير، وتكل كلالًا عظيمًا، فلا تكاد أن تقبل علىٰ شيء إلا بكسل وفتور، وعلاج ذلك ترويح القلوب، وعدم إملالها، فإنها إن ملت كلَّتْ، وتركت الطاعة. ولذا كان الهدي النبوي الترويح عن القلوب ساعة فساعة؛ فعن حنظلة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا مع رسول الله ﷺ فذكرنا الجنة والنار حتىٰ كانا رأيَ عينٍ، فقمت إلىٰ أهلي فضحكت، ولعبت مع أهلي وولدي، فذكرت ما كنت عند رسول الله ﷺ فخرجت، فلقيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر، نافق حنظلة. قال: وما ذاك؟ قلت: كنا عند رسول الله ﷺ فذكرنا الجنة والنار حتىٰ كأنا رأي عين، فذهبت إلىٰ أهلي، فضحكت، ولعبت مع ولدي وأهلي، فقال: إنا لنفعل ذاك. قال: فذهبت إلىٰ النبي ﷺ فذكرت ذلك له،

(١) قسامة بن زهير، المازني التميمي البصري، تابعي، ثقة، روىٰ عن أبي موسىٰ وأبي هريرة، وروىٰ عنه قتادة وهشام بن حسان وعوف الأعرابي، توفي في ولاية الحجاج علىٰ العراق. ينظر: تهذيب الكمال (٢٣/ ٦٠٢)؛ تاريخ الإسلام (٢/ ١١٥٩).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ١٠٤).

فقال: «يا حنظلة! لو كنتم تكونون في بيوتكم كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة وأنتم على فرشكم وبالطرق، يا حنظلة ساعة وساعة»(١).

ومن الترويح عن القلوب تخوُّلها بالموعظة، حتى لا تصاب بالسآمة والملل؛ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا»(٢).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٠٦) برقم: (٢٧٥٠).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه برقم: (٢٧٠٤٦). ينظر: أدب المجالسة وحمد اللسان لابن عبد البر (ص: ١٠٧).

٤٠٣

حلاوة الإيمان

قال الحسن البصري رحمه الله: «تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة وفي الذكر وقراءة القرآن، فإن وجدتم، وإلا فاعلموا أن الباب مغلَق»(١).

المعنى الإجمالي

الشعور بحلاوة العبادة، ولذة المناجاة والأنس بالقرب من الله، وانشراح الصدر واتساعه، يجعل العبد مستقرًا بالإسلام القائم على المحبة والخضوع والإيمان المتمثل في التصديق بكامل الأركان.

وهناك مواطن ثلاثة يجد بها المؤمن نفسه متذوقًا لحلاوة الإيمان:

الأول: الصلاة التي تمثل معراجًا وسلمًا واتصالًا بالله تعالى، فينسى العبد كل ما يكدر عليه صفو حياته من همومه وغمومه وكربه، وينصرف إلى صلاته ليجعل همه فيها التفكر في الآيات المتلوة، والإتيان بتسبيح الله وتعظيمه في الركوع، والدعاء في السجود، فيشعر بلذة تنسيه آلامه وجراحاته. وبين توحيد الله وإقامة الصلاة والذكر ارتباط وثيق من حيث تأكيد الإيمان بالعمل الصالح المتمثل بالصلاة والذكر؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه:١٤].

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٣٧٨).

الثاني: ذكر الله بحضور القلب واللسان في كل الأحوال والأوقات؛ فالذكر للعبد المسلم كالهواء لا يستغني عنه؛ فيه يذكر الله عبده كما قال تعالىٰ: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ [البقرة:١٥٢]، ويذكر الله عبده في نفسه، وفي ملأٍ خير من ملأ عبده، كما روىٰ أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ فيما يُحدِّث عن ربه قال: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ من الناس ذكرته في ملأ أطيب منهم، وأكثر»(١).

الثالث: قراءة القرآن وما فيه من الخير الكبير والنفع الكثير من الموعظة والهداية والرحمة والشفاء لما في الصدور من أمراضها ومتاعبها، قال تعالىٰ: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴾ [الإسراء:٨٢].

فهذه الثلاثة مواضع لا بد أن يكون لها أثر وتأثير، يجد بها العبد المؤمن حلاوة الإيمان، فإن وجد في نفسه ضعفًا فيها أو في أحدها، أو لم ير للإيمان أثرًا في زيادته، واستشعاره لعظمة ربه، فليعلمْ أن أبواب الخير والرحمة والمغفرة قد أغلقت دونه، فيراجع إيمانه، ويحاسب نفسه علىٰ تقصيره وتفريطه في جنب الله.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ١٢١) برقم: (٧٤٠٥).

٤٠٤

علاقة الذنوب برقة القلوب وقساوتها

قال مكحول الدمشقي[(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أرقُّ الناس قلوبًا أقلُّهم ذنوبًا»[(٢)].

المعنى الإجمالي

الذنوب تصيب القلوب بصدأ ورانٍ يطمس عليها نورها وضياءها، ويحيل ضياءها ظلمة، وإشراقها عتمة واسودادًا، فتصبح القلوب علىٰ قلبين، قلب أبيض لا تضره فتنة، وقلب أسود لا يعرف خيرًا ولا معروفًا، وقد جاء عن النبي ﷺ في الحديث الذي رواه حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «تُعرَض الفتن علىٰ القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأيُّ قلبٍ أُشْرِبَها نُكِتَ فيه نُكتةٌ سوداء، وأيُّ قلبٍ أنكرها نُكِتَ فيه نُكتةٌ بيضاء، حتىٰ تصير علىٰ قلبين: علىٰ أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنةٌ ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مُرْبادًّا كالكُوز مُجَخِّيًا، لا يعرف معروفًا، ولا يُنكِر مُنكرًا، إلا ما أُشْرِب من هواه»[(٣)].

---

(١) مكحول بن عبد الله أو ابن أبي مسلم واسمه شهراب بن شاذل، أبو عبد الله، فقيه أهل الشام، أصله من السِّند وسُبي بكابل وسكن بدمشق بعد عتقه، من أعلام التابعين، روي عن أنس وابن عمر وأبي أمامة، مات سنة ١١٢هـ. ينظر: الثقات (٥/ ٤٤٦)؛ وفيات الأعيان (٥/ ٢٨٠).

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل، (ص: ٣١٣).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ١٢٨) برقم: (٢٣١).

وكلما كان القلب صافيًا من الران والسواد الذي يطمس نور البصيرة والقرب من الله تعالىٰ كان رقيقًا خاشعًا متأثرًا بكلام الله وكلام رسوله، وكلما ازدادت ظلمته أصبح مستوحشًا قلقًا، لا يتأثر بأوامر الله ورسوله ونواهيهما، ولا بنداءات الفطرة السوية.

٤٠٥

أعمال الأبرار وأعمال الفجار

قال مالك بن دينار ﵀: «إن الأبرار تغلي قلوبهم بأعمال البر، وإن الفجار تغلي قلوبهم بأعمال الفجور، والله يرى همومكم، فانظروا همومكم يرحمكم الله»(١).

بيان المفردات

الأبرار: جمع بَرّ وبارّ، والبِرُّ: هو التوسع في فعل الخير، وبَرَّ العبدُ ربَّه؛ أي: توسع في طاعته(٢).

الفجار: مأخوذ من الفجور، وهو شَقُّ الشيء شقًّا واسعًا، وسموا بذلك مبالغة في هتكهم لحرمات الله وشقهم لستر الشريعة، فالفجور هو الانبعاث في المعاصي(٣).

المعنى الإجمالي

إن الأبرار يوفقهم الله تعالىٰ إلىٰ طاعته وعبادته، فتمتلئ قلوبهم حبًّا له ﷻ، وينعكس ذلك علىٰ أعمالهم، فلا يتحركون حركة إلا بنية صالحة، وأوقاتهم عامرة

(١) الهم والحزن لابن أبي الدنيا (ص: ٧٦).
(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ١١٤).
(٣) ينظر: جمهرة اللغة لابن دريد (١/ ٤٦٣).

بالطاعات وأعمال البر. عن يزيد الرقاشي ﷺ قال: «للأبرار همم تبلغهم أعمال البر، وكفاك بهمة دعتك إلىٰ خير خيرًا»(١).

وأما أهل الفسق والفجور، فإن كثرة المعاصي قد غطت علىٰ قلوبهم وغلفها الران، وتأثير الذنوب في القلوب كتأثير الأمراض في الأبدان، والقلب ينضح بما مُلِئ به، فتنطلق جوارحهم بالمعاصي والشرور والفساد.

قال داود الطَّائي ﷺ: «كل نفْس تُرَدُّ إلىٰ هِمَّتها، فمهمومٌ بخير، ومهمومٌ بشَرٍّ»(٢).

فلكل من الأبرار والفجار هممهم، فأين يختار العبد؟ وما هو همه؟ وما هي همته؟ فلينظر كل عبد أين يضع نفسه، وما الهم الذي يجعل قلبه يمتلئ به؟

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٥١).
(٢) حسن التنبيه لما ورد في التشبيه لنجم الدين الغزي (١/ ٩).

٤٠٦

عمارة القلب بالحزن

قال مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن القلب إذا لم يكن فيه حُزْنٌ خَرِب، كما أن البيت إذا لم يُسكن خَرِب»[(١)].

بيان المفردات

حُزْن: الحُزْن والحَزَن: ضد الفرح والسرور، وأصله من الخشونة والشدة، ومن ذلك الحَزْن: وهو ما غَلُظ من الأرض[(٢)].

المعنى الإجمالي

إذا حزن العبد وطال حزنه فإنه يبعد عما أراده الله من عباده من ترك الحزن، وعن هدي رسوله ﷺ الذي كان يجعل الحزن مستعاذًا منه.

والحزنُ منهيٌّ عنه ومستعاذٌ منه، وما جعل الشيطان العبد حزينًا إلا ليجثم على قلبه، ويبعده عن هدفه ومبتغاه، وقد جعل الله من أوصاف أوليائه الصالحين أنهم لا يحزنون، فقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]، وكان النبي ﷺ يكثر من الاستعاذة من الهم والحزن؛ عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(١) صفة الصفوة (٢/ ١٦٧).

(٢) المفردات للراغب الأصبهاني (١/ ٢٣١).

قال: كنت أخدم رسول الله ﷺ كلما نزل، فكنت أسمعه يكثر أن يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدين، وغلبة الرجال»(١).

إن الحزن الذي يعمر القلوب هو الحزن المصحوب بفكرة، المتبوع بعمل، المعزز بخوف ووجل، الحزن على فوات الطاعة، والحزن على التقصير فيها، والحزن على ضياع الأوقات في غير فائدة، والحزن على أحوال المسلمين التي تدمي القلوب وتحزنها، وتبكي العيون وتدمعها، وإلا فأصل الحزن جبلة في الإنسان يحصل له عند وجود الهموم ونزول المصائب، وهذا معنى يشمل المؤمنين أيضا، ولذا يقولون في الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر:٣٤]، وقال سيدنا يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٨٦].

قال الراغب: «فالحُزْن ليس يحصل بالاختيار، ولكن النهي في الحقيقة إنما هو عن تعاطي ما يورث الحزن واكتسابه»(٢).

وليس الحزن المؤدي إلى اليأس والقنوط من رحمة الله ورَوحه، وإنما الخوف- والله أعلم- حالةٌ شعوريةٌ تجمع شتات قلب العبد على الآخرة، فلا يفكر في دنياه، بل يفكر في عمله، كيف كان؟ وعلى أي صفة كان؟ وهل هو مقبولٌ أم مردود عليه؟ وحزنٌ على الخوف من سوء العاقبة والخاتمة. فالحزن حزنٌ مقترنٌ بخوفٍ، ومصحوبٌ بخشية من الله.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٧٨) برقم: (٦٣٦٣).

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٥/ ٢٠٩٨)؛ ومقاييس اللغة لابن فارس (٢/ ٥٤)؛ والمفردات للراغب الأصبهاني (١/ ٢٣١).

٤٠٧

قسوةُ القلبِ من أعظم العقوبات

قال مالك بن دينار رحمه الله: «ما ضُرِب عبدٌ بعقوبةٍ أعظمَ من قسوة القلب»(١).

بيـان الـمفردات

القسوة: اسمٌ من قَسا القَلْب يَقْسُو قَسْوة وقَساوة وقَساء، وهو غِلَظ القلب وشدَّته، وهو قاسٍ وقَسِي على فعيل، يقال: الذنبُ مقساةٌ للقلب، والقَسْوَةُ الصلابة واليُبس في كل شيء(٢).

ومعنى قسوة القلب: ذهابُ اللّين والرحمة والخشوع منه، والنُّبُوُّ عن سماع الحق، والميلُ إلىٰ مخالطةِ الخلق، وقلةُ الخشية، وعدمُ الخشوع والبكاء، وكثرةُ الغفلة عن دار البقاء، وخلُوُّ القلب من الإنابة والإذعان لآيات الله، مع وجود ما يقتضي خلاف هذه القسوة(٣).

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٥٩).

(٢) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس (١/ ٧٥٣)؛ لسان العرب لابن منظور (١٥/ ١٨٠)؛ المصباح المنير للفيومي (٢/ ٥٠٣).

(٣) ينظر: لسان العرب لابن منظور (١٥/ ١٨٠)؛ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لملا قاري (٤/ ١٥٥٦)؛ فتح القدير للشوكاني (١/ ١١٨).

المعنى الإجمالي

إنّ من أعظم الأمراض المهلكة للعبد في دنياه وآخرته هو قسوة القلب، وهي عبارة عن خلو القلب من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالىٰ، وهي أشدُّ عقوبات القلب علىٰ الإطلاق، ولذا ضُرِبتْ بها قلوبُ الكافرين والمنافقين. قال مالك بن دينار: «إنّ لله عقوباتٍ في القلوبِ والأبدان: ضَنْكٌ في المعيشة، ووَهَنٌ في العبادة، وما ضُرِب عبدٌ بعقوبة أعظمَ منْ قسوة القلب»(١).

فما أُصيب عبدٌ بمصيبة أعظمَ من قساوة قلبه(٢)، لأنّ القلب القاسي لا القرآن يُزكِّيه ولا النظر في آيات الله يحييه، قال تعالىٰ: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الزمر:٢٢].

وقسوة القلب هي أحد الأسباب الأربعة للشقاوة، يقول مالك بن دينار رحمه الله: «أربعٌ من علم الشَّقاوة: قسوةُ القلب، وجمودُ العَيْن، وطولُ الأمل، والحرصُ علىٰ الدنيا»(٣). وأصحاب القلوب القاسية هم أبعدُ الخلق عن الله عز وجل، وأبعدُ القلوب من الله هو القلبُ القاسي، وخلقتْ النار لإذابة القلوب القاسية، يقول النبي ﷺ: «لا تُكثروا الكلامَ بغير ذكرِ الله، فإنَّ كثرةَ الكلامِ بغيرِ ذكرِ الله قسوةٌ للقلب، وإنَّ أبعدَ الناس من الله القلبُ القاسي»(٤).

إنّ هذه القسوة التي تصيب القلوب هي في حقيقتها عقوبةٌ من الله تعالىٰ لبعض عباده جزاء ما اقترفوه، وقد ذهب بعض العلماء إلىٰ أنها أقسىٰ العقوبات التي يُبتلىٰ

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم (٦/ ٢٨٧).
(٢) ينظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم (٦/ ٢٦٩).
(٣) الزهد وصفة الزاهدين لابن الأعرابي (ص: ٤٧).
(٤) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢١١) برقم: (٢٤١١).

بها الإنسان في حياته، بل جعلها بعض العلماء في مقابل العقوبة المطهرة: «كلُّ عقوبةٍ طهارةٌ، إلا عقوبةَ القلب فإنها قسوةٌ»[١]، ولذلك قرّر مالك بن دينار أنَّ قسوةَ القلب هي أعظم عقوبة يبتلىٰ بها الناس، وأنها نذيرٌ من الله علىٰ فقد الرحمة، فيقول: «ما ضُرب عبدٌ بعقوبة أعظمَ من قسوة القلب، وما غَضب اللهُ علىٰ قومٍ إلا نزع الرحمةَ من قلوبهم»[٢].

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٢٠٨).
(٢) تفسير القرطبي (١٥/ ٢٤٨).

٤٠٨

صفاء القلب ورقته

قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: «إن النفس إذا جاعتْ وعطشتْ صفا القلبُ ورقَّ، وإذا شَبِعَتْ ورَوِيَتْ عمِيَ القلبُ وباد»[(١)].

المعنى الإجمالي

الجوع والعطش يصفيان ويرققان النفس والروح معًا؛ فلا يفكر الإنسان بنزواته، وشهواته، ولذا شرع الله صيام رمضان شهرًا كاملًا؛ لتتدرب النفس على تحمل المشاق، والتي منها الصبر على الجوع والعطش وعن الجماع.

وإن امتلأت النفس وارتوت فإن القلوب تقسو، وتذبُل، ولا تميل إلا إلى أهل الدنيا، وإلى من يماثلها في الطبائع والصفات، فلا اهتمام بما يرقي النفس والروح، وما يصلح من شأنهما، ولا تنافس في مكارم الأمور ومعاليها، بل التنافس على الترهات وإشباع شهوتي البطن والفرج.

وقد جاء في الحديث المروي عن المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما ملأ آدمي وعاءً شرًّا من بطن، حَسْب الآدمي لُقَيمات يُقِمْن صُلْبَه، فإن غلبت الآدمي نفسه؛ فثُلُثٌ للطعام، وثلثٌ للشراب، وثلثٌ لِلنَّفَس»[(٢)].

(١) الجوع لابن أبي الدنيا (ص: ١٨٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤/ ٤٤٨) برقم: (٣٣٤٩).

فإنَّ البطن إذا امتلأ من الطَّعام ضاق عن الشَّراب، فإذا ورد عليه الشَّراب ضاق عن النَّفس وعرَض له الكربُ والتَّعبُ بحمله، بمنزلة حامل الحمل الثَّقيل، هذا إلى ما يلزم ذلك من فساد القلب، وكسل الجوارح عن الطَّاعات، وتحرُّكها في الشَّهوات الَّتي يستلزمها الشِّبَع، فامتلاءُ البطن من الطَّعام مُضرٌّ للقلب والبدن[1].

(١) زاد المعاد لابن القيم (٤/ ٢٢).

٤٠٩

القلب يُريح الجوارح

قال أحمد بن عاصم الأنطاكي[(١)] رحمه الله: «إذا صارت المعاملة إلى القلب استراحت الجوارح»[(٢)].

المعنى الإجمالي

منزلة القلب مع الجوارح مثل منزلة القائد مع جنوده، والأمير مع رعيته، والأستاذ مع طلابه، فإن كان القلب صالحًا، والجوارح له مطيعة، فإن العبد يستريح من عناء جوارحه، وبحثها عن الحرام والشبهات.

إن من مظاهر انقياد الجوارح للقلب توافق الجوارح مع القلب؛ ذلك أن الإيمان إذا تحقق في القلب فإن الجوارح تنبعث بأعمال الإيمان، وتزداد تلك الأعمال بقدر قوة الإيمان، وتقلُّ وتضعف بقلة الإيمان وضعفه. وإن امتنعت الجوارح عن الانقياد للقلب، أصبحت كل جارحة تفعل ما تشاء، على وفق ما تهواه النفس الأمارة بالسوء، والشيطان الضَّالّ المُضِلّ.

---

(١) أحمد بن عاصم، أبو علي الأنطاكي، ويقال: أبو عبد الله، الزاهد الواعظ، من أقران بشر والسري والحارث المحاسبي، توفي سنة ٢٢١، وقيل: ٢٣٠هـ. ينظر: طبقات الصوفية (ص١١٨)؛ تاريخ الإسلام (٥/ ٥٠٨).

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٧٥)؛ وحلية الأولياء لأبي نعيم (٩/ ٢٨١).

وفي حديث النبي ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»(١). وفي ذلك إشارة إلىٰ أن صلاح حركات العبد بجوارحه، واجتنابه المحرمات واتقاءه للشبهات بحسب صلاح حركة قلبه، فإذا كان قلبه سليما، ليس فيه إلا محبة الله ومحبة ما يحبه الله، وخشية الله وخشية الوقوع فيما يكرهه، صلحت حركات الجوارح كلها، ونشأ عن ذلك اجتناب المحرمات كلها؟، وتوقٍّ للشبهات حذرا من الوقوع في المحرمات. وإن كان القلب فاسدًا، قد استولىٰ عليه اتِّباع هواه، وطلب ما يحبه، ولو كرهه الله، فسدت حركات الجوارح كلها، وانبعثت إلىٰ كل المعاصي والمشتبهات بحسب اتباع القلب(٢).

ولذا فقد اهتم الإسلام بالقلب اهتمامًا عظيمًا، من ذلك ما قاله النبي ﷺ في نظر الله إلىٰ القلوب: «إن الله ﷻ لا ينظر إلىٰ صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٢٠) برقم: (٥٢)؛ ومسلم في صحيحه (٥/ ٥٠) برقم: (١٥٩٩).
(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٢١٠).
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١١) برقم: (٢٥٦٤).

٤١٠

القلوب جوالـة

قال أحمد بن خضرويه البلخي رحمه الله: «القلوب جوَّالةٌ؛ إما أن تجول حول العرش، وإما أن تجول حول الحُشِّ»[(١)].

بيـان الـمفردات

الحُشُّ: البستان، وأيضًا: موضع الخلاء، وسميت حُشًّا؛ لقضاء حوائجهم في البستان[(٢)].

الـمعنى الإجمـالي

تختلف القلوب باختلاف همم أصحابها، في علوها، وأخذها لمعالي الأمور، وتركها لسفسافها ودَنَيَاها، فهذه القلوب إما أن تُحلقَ عاليًا حول عرش الرحمن، مسبحة بحمده، مثنيةً عليه الثناء كله، مخبتةً خاشعةً، تتنقل في أفياء الطاعات من طاعة إلىٰ طاعة أكبر، ومن تنافس في الخير علىٰ ما يعود نفعه علىٰ الإيمان بالنماء، والنفس بالعطاء، والروح بالارتقاء إلىٰ علو السماء.

وتسبيح القلب وذكره لله تعالىٰ وارتقاؤه في مدارج الكمال من الإيمان والتقوىٰ، يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية، وما أصعب هذا وأشقه

(١) طبقات الصوفية (ص: ٩٦)؛ وصفة الصفوة (٢/ ٣٤١).

(٢) ينظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض (٧/ ٤٢٦).

علىٰ النفوس، وإنه ليسير علىٰ من يسره الله عليه، فبين العبد وبينه أن يصدق الله ﷻ، ويديم اللجأ إليه، ويلقي نفسه علىٰ بابه طريحا ذليلا، ولا يعين علىٰ هذا إلا محبة صادقة، والذكر الدائم بالقلب واللسان، ولا يُنال هذا إلا بعدة صالحة ومادة قوة من الله ﷻ، وعزيمة صادقة، وفراغ من التعلق بغير الله تعالىٰ(١).

وإما أن تكون القلوب غارقة في مشتهيات النفوس ورغائبها، فما أن تنتهي رغبةٌ، حتىٰ تحلَّ أخرىٰ، فتلك القلوب تجول علىٰ العرش، وهذه حول الأنتان والحش.

إن القلب الذي يستبدل التحليق والعلو إلىٰ أن يكون حول العرش بالنزول إلىٰ الرغبات السفلية والدونية مثله كمثل من استبدل الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير، كما قال الله جل شأنه عن بني إسرائيل الذين كانوا يَطعمون مما لذ وطاب فاستبدلوا ذلك بالأدنىٰ من الطعام قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة:٦١].

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٤٥٤).

٤١١

سُقْم الأجساد وسُقْم القلوب

قال ذو النون المصري رحمه الله: «سُقْم الجسد في الأوجاع، وسُقْم القلوب في الذنوب»[(١)].

المعنى الإجمالي

تعتل الأجساد والقلوب وتسقم، وعلل الأجساد وأسقامها بيِّنٌ بالأوجاع التي يحس بها المريض، فيدعو ربه فيشفيه، كما قال تعالىٰ علىٰ لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء:٨٠]، ويشعر بها أهله وذووه، فيطلبون له الطبيب، فيصف له الدواء فيبرئه الله إن شاء.

والناس كلهم حريصون علىٰ التداوي من علل وأسقام وأوجاع أجسامهم؛ لأنهم يشعرون بالآلام والأوجاع، ويعلمون أن التأخر في علاجها قد يجعل المريض يشتد ويتطور إلىٰ ما هو أخطر منه، لكنهم لا يهتمون بأسقام القلوب من الذنوب والمعاصي، وهي أشد خطرًا وفتكًا من أسقام الأجسام؛ "وذلك لثلاث علل: إحداها: أن المريض به لا يدري أنه مريض، والثانية: أن عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم بخلاف مرض البدن فإن عاقبته موت مشاهد تنفر الطباع منه، وما بعد الموت

(١) صفة الصفوة (٢/ ٤٤٥).

غير مشاهد، وعاقبة الذنوب موت القلب وهو غير مشاهد في هذا العالم، فقلَّت النفرة عن الذنوب، وإن علمها مرتكبها؛ فلذلك يتكل علىٰ فضل الله في مرض القلب، ويجتهد في علاج مرض البدن من غير اتكال. والثالثة: وهو الداء العضال فقدُ الطبيب فإن الأطباء هم العلماء، وقد مرضوا في هذه الأعصار مرضًا شديدًا عجزوا عن علاجه، وصارت لهم سلوة في عموم المرض؛ حتىٰ لا يظهر نقصانهم فاضطروا إلىٰ إغواء الخلق والإشارة عليهم بما يزيدهم مرضًا، لأن الداء المهلك هو حب الدنيا، وقد غلب هذا الداء علىٰ الأطباء فلم يقدروا علىٰ تحذير الخلق منه(١).

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٥١).

٤١٢

دواء القلوب

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «دواء القلوب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتفكر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين»(١).

المعنى الإجمـالي

جعل الله لكل داء دواءً ولكل علة شفاء، قال رسول الله ﷺ: «لكل داءٍ دواءٌ، فإذا أُصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل»(٢).

ومن الأمراض التي قلما يدركها المرضىٰ مرض القلب، والذي إن أهمل صاحبه معالجته فإن قلبه يصدأ ويمتلأ بالران، ثم يموت. ومن الأدوية لأمراض القلوب قراءة القرآن الكريم بفهم وتدير ليصل قارئه إلىٰ الإيمان والعمل معًا، كما قال تعالىٰ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [الزخرف:٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤]. وليس شيء أنفع للعبد في

(١) صفة الصفوة (٢/ ٢٩٣)، وذكر نفس القول عن إبراهيم الخوَّاص، غير أن العبارة الأولىٰ فيها: قراءة القرآن بالتدبر، ينظر: الرسالة القشيرية (١/ ١٠٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ١٧٢٩) برقم: (٢٢٠٤).

معاشه ومعاده، وأقرب إلىٰ نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل فيه، وجمع الفِكَر علىٰ معاني آياته، فإنها تُطلع العبدَ علىٰ معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلىٰ طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما، ومآل أهلهما(١).

وحياة القلب بتدبر القرآن؛ فالقرآن الكريم روح تبعث الحياة في القارئ المتدبر، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورىٰ:٥٢].

ومن أدوية القلب: خلاء البطن، أي: أن يكون فيه ما يحمل الجسد علىٰ الطاعة، لا أن يصل به العبد حتىٰ يمتلأ؛ وترك فضول الطعام؛ فهو داع إلىٰ أنواع كثيرة من الشر، فإنه يحرِّك الجوارح إلىٰ المعاصي ويثقلها عن الطاعات(٢). فإن امتلاء البطن يؤدي إلىٰ التراخي والكسل عن الطاعة، والتفكير في الشهوات، والقعود عن معالي الأمور مثل طلب العلم وحفظه والنبوغ فيه.

ومن أدوية القلب: قيام الليل؛ فهو يعين العبد علىٰ التأمل في آيات الله تعالىٰ وتدبرها، والوقوف عند آيات الرحمة فيرجوها، ويقف علىٰ آيات العذاب فيخشاها، وهو بين ذلك يستزيد من تلاوة القرآن الكريم في قيامه، وتعظيم الله تعالىٰ والثناء عليه في ركوعه، والتذلل والبكاء والدعاء في سجوده لخير الدنيا والآخرة. قال الله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق:٤٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان:٢٦].

ومن أدوية القلوب: التضرع والانكسار بين يدي الله في الأسحار؛ ذلك أن الله

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٤٥٠).
(٢) بدائع الفوائد لابن القيم (٢/ ٢٧٣).

تعالىٰ ينزل إلىٰ السماء الدنيا نزولا يليق بجلاله، كما في حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مضىٰ شطر الليل، أو ثلثاه، ينزل الله تبارك وتعالى إلىٰ السماء الدنيا، فيقول: هل من سائل يعطىٰ؟ هل من داع يُستجاب له؟ هل من مستغفر يغفر له؟ حتىٰ ينفجر الصبح»[1].

وقد استحق المتقون جنات وعيون لبكائهم ودعائهم وتضرعهم في السحر، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات: ١٥-١٨].

ومن أدوية القلب: مجالسة الصالحين والصبر معهم، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف:٢٨]، ويعضُّ الكافر علىٰ يديه ندما وحسرة يوم القيامة-لما يرىٰ نفسه مخذولا- أنه لو اتخذ مع الرسول خليلا، ويود أنه لم يطع فلانا من الناس الذي أضله عن الذكر، أي الإسلام بعد إذ جاءه، قال تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

وإن صحبة الصالحين ومجالستهم غنيمة للعبد المؤمن؛ فهم يُذكِّرونه بالله إن غفل، ويعينونه علىٰ الطاعة والخير إن كان ذاكرا، وهم يتخيرون كلامهم وينتقونه كما تُنتقىٰ أطايب الثمر؛ فلا قول فاحش ولا غيبة ولا نميمة ولا قول زور، وغيرها من منكرات القول في مجالسهم، بل مجالسهم يزداد فيها الإيمان، ويرتقي العبد في مدارج الطاعة والبر.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٥٢٢) برقم: (٧٥٨).

٤١٣

قسوة القلوب تُقحِطُ العيون

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما جَفَّت الدموع إلا لقساوة القلوب، وما قَسَت القلوب إلا لكثرة الذنوب، وما كَثُرت الذنوب إلا من كثرة العيوب»(١).

المعنى الإجمالي

مدح الله أولي العلم الذين آمنوا بالقرآن الكريم بأنهم يبكون من تلاوته فقال تعالىٰ: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء:١٠٩]. وكان صحابة رسول الله ﷺ يبكون عند سماع الموعظة؛ فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، قال: «لو تعلمون ما أعلمُ لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا». قال: فغطَّىٰ أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم خنين»(٢).

وذكر رسول الله ﷺ أربع علامات لشقاوة العبد، فقال: «أربعةٌ من الشقاء: جمود العين، وقساءُ القلب، وطول الأمل، والحرص علىٰ الدنيا»(٣).

---

(١) تاريخ الإسلام (٦/ ٢٣١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ٥٤) برقم: (٤٦٢١). الخنين: هو دون الانتحاب في البكاء، والخنين: إذا ردد البكاء في الخياشيم. ينظر: العين (٤/ ١٤٢)؛ وتهذيب اللغة (٧/ ٦).

(٣) أخرجه البزار في مسنده (١٣/ ٨٧) برقم: (٦٤٤٢).

إن العين متصلةٌ بالقلب؛ فإن كان القلب نقيًا طاهرًا من الران، وحاله مع الله في اتصال دائم، وحضورٍ في الغيب والشهادة، من كان حاله كذلك فإن أثر تأثره يظهر بالبكاء من خشية الله تعالىٰ، فيما يقرأه من كتاب الله أو يقرأه أو يسمعه من أحاديث رسول الله ﷺ، وكذلك ما يخطر علىٰ قلبه من خوف الله وهو خالٍ بعيدٌ عن أعين الناس.

وأما من قسىٰ قلبه وغطَّىٰ عليه الران فإن لديه حُجُبا وموانع تمنع اتصال العين بمصدر بكائها وهو القلب؛ وذلك لكثرة عيوبه وذنوبه التي يغفل العبد عنها، فلا يسعىٰ لصلاح قلبه، ولا يتفقه فقه القلوب؛ ليعلم مخاطره وأضراره التي تبعده عن الله، وتجعله قاسيًا منتكسًا.

٤١٤

مفازات القلوب والأقدام

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «مفاوز الدنيا تُقطع بالأقدام، ومفاوز الآخرة تُقطع بالقلوب»(١).

بيان المفردات

المفاوز: جمع مفازة، قال ابن الأعرابي: سميتْ بذلك لأنها مهلكة، من فوَّز؛ أي: هلك. وقال الأصمعي: سميت بذلك تفاؤلًا بالسلامة والفوز(٢).

المعنى الإجمالي

لفظ المفاوز من الألفاظ التي تستعمل في الهلاك والنجاة، وقد جعل الله المفازات -وهي فضائل المتقين وأعمالهم الصالحة(٣)- سببًا لنجاتهم؛ فقال تعالى: ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الزمر:٦١].

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٥٢).
(٢) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٣/ ٨٩٠)؛ وشمس العلوم (٨/ ٥٢٧٥).
(٣) ينظر في معانيها تفسير الطبري (٢١/ ٣١٩- ٣٢٠).

إن ثمـة فرقًـا بـين مـا يسـلكه العبـد مـن مفـاوز للوصـول إلىٰ غايتـه في الـدنيا، وما يسلكه للوصـول إلىٰ رضـا الكـريم المنـان ﷻ؛ فالأقـدام سببٌ للوصـول إلىٰ غايات الدنيا وسبلها، والقلوبُ السليمة النقية التي تشرق ويسطع منها نور الإيمان سببٌ لوصول العبد المؤمن إلىٰ رضا ربه ومغفرته.

٤١٥

ذِكْرُ الصالحين نافعٌ للقلوب

قال محمد بن يونس[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما رأيت للقلب أنفع من ذكر الصالحين»[(٢)].

المعنى الإجمالي

إن ذِكْرَ الصالحين بأقوالهم، وأفعالهم، وأحوالهم، حياةُ القلوب؛ ذلك أنهم حين قالوا أقوالهم، كَتَبَ الله لها البقاء، والنفع للآخرين من بعدهم، وأفعالهم التي سطرتها كتب التاريخ؛ لتكون قدوة وضياءً للأجيال القادمة؛ فسيرة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وثباته على الأمر، وقضاءه على الردة ومدعي النبوة، يجعل قارئ سيرته يشعر بأن الإيمان ليس قولًا فحسب، بل هو قولٌ وعملٌ، وثباتٌ على المبدأ.

خاطب ابن الجوزي النفسَ وحالها عند ذكر الصالحين، فقال: «يا نفس! عند ذكر الصالحين تبكين، وعند شرح جِدِهم تأنين، وإذا تصورت طيب عيشهم تحنين،

---

(١) محمد بن يونس بن موسى، القرشي، السامي، الكُدَيمي، البصري، الضعيف، الشيخ الإمام، الحافظ الكبير، ولد سنة ١٨٣هـ، روى عن طائفة من المحدثين، وعنه جماعة، توفي سنة ٢٨٦هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٣/ ٣٠٢)؛ الوافي بالوفيات (٥/ ١٩٢).

(٢) صفة الصفوة (١/ ١٨).

فإذا عرفت قيامهم بالخدمة تنكبين»(١). وقال سفيان بن عيينة ﵀: «كان يقال: عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة، قيل: مَن ذكره؟ قال: بعضُ العلماء»(٢).

وكذا كل قارئ لتاريخ الخلفاء الراشدين، ومن سار علىٰ هديهم، من الأمراء والولاة، والعلماء والصالحين، الذين تركوا لمن خلفهم صفحاتٍ مضيئةً ومشرقةً، من متابعة النبي ﷺ في كل أحواله؛ في الإخلاص، وتربية النفوس وتزكيتها، وتعليم العلم، يشعر بنفعٍ للقلب؛ بإشراقه وضيائه، وإقباله علىٰ الله تعالىٰ، وتركه لكل ما يكدر القلب، وينغص عليه صفاءه وحياته.

ينبغي علىٰ المؤمن حين يذكر الصالحين أن يذكرهم بخير، ولا يذكرهم بشر، بل يجتهد أن يكون مثلهم، أو يلحق بهم، أو أن يذكرهم بالذم والانتقاص.

---

(١) المدهش لابن الجوزي (ص: ١٨٠).

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٦٤).

٤١٦

من قساوة القلب اتكال العبد على نفسه

قال أبو عمرو الدمشقي رَحِمَهُ اللَّهُ: «علامة قساوة القلب: أن يَكل اللهُ العبدَ إلى تدبيره؛ فيألفه ولا يسأله حُسْن الكلاءة والرعاية»(١).

بيـان المفردات

الكلاءة: يقال: كلأتُ الرجل: إذا حفظته، أكلؤه كلأ، والاسم الكلاءة. والكلاءة هي إمالة الشيء إلى جانب يسلم فيه من الآفة، ومن ثم يقال: كلأت السفينة إذا قربتها من الأرض، والكلاء مرفأ السفينة. فالحفظ أعم؛ لأنه جنس الفعل، فإن استعملت إحدى الكلمتين في مكان الأخرى فلتقارب معنييهما(٢).

المعنى الإجمـالي

إنَّ إِلْفَ العبد لتدبير شؤون نفسه التي يسرها الله له، وأقدره على فعلها، وترك التفكر في المعطي والواهب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ينتج عنه نسيان العبد لربه، وترك سؤاله بالتدبير والحفظ والكلاءة؛ وهذه علامة قسوة القلب وإعراضه عن ذكر الله تعالى والاستعانةِ به في كل شؤون حياته، فمن ذا الذي يملك أن يدبر العبد تدبيرًا في كل

---

(١) طبقات الصوفية (ص: ٢١٦).

(٢) ينظر: جمهرة اللغة (٢/ ١٠٨٣)؛ ومعجم الفروق اللغوية (ص: ٤٥٥).

تفاصيل حياته؟ ومن ذا الذي يجبر نقصه، ويستر عيبه، ويزيل همه وغمه، وينفس كربه؟ ومن الذي يجير ولا يجار عليه؟

فالله بيده مقاليد السماوات والأرض، وبيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون:٨٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الشورىٰ:١٢].

واتكال العبد علىٰ نفسه وتدبيره دليل علىٰ قساوة قلبه، وإحاطته بالران الذي غشيه، مما جعله بعيدًا عن ذكر الله ودعائه وسؤاله الخير والفضل والإعانة والحفظ والسلامة من كل آفة وبلاء.

٤١٧

مكاشفات الأعيـان والقلوب

قـال أبـو العبـاس الـدينوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «مكاشـفات الأعيـان بالأبصـار، ومكاشفات القلوب بالاتصال»[(١)].

بيـان الـمفردات

مكاشفات: جمع مكاشفة، وهي: ما يراه السالك الواقع في أثناء الذكر واستغراق حاله مع الله، بحيث يغيب عنه المحسوسات، وهو بين النوم واليقظة، وما يراه في حال اليقظة والحضور[(٢)].

الـمعنى الإجمـالي

المكاشفة نوعان: مكاشفة الأعيان المشاهدة التي تراها الأبصار والعيون، وهذه المكاشفة ينظر إليها جميع العباد، فينظرون إلىٰ خلق الله وملكوته، فمنهم المؤمن ومنهم الكافر، ومكاشفة القلوب وهي حالة رفيعة لا يصل إليها إلا من كان مجاهدًا لنفسه، قد اعتادت الطاعة سلوكًا لها، فلا تنفر منها، بل ألفتها، ورغبت

(١) طبقات الصوفية (ص: ٣٥٦).

(٢) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم للتهانوي (٢/ ١٧٥٢).

فيها، فالقلب دائم الوصل والاتصال بالله تعالىٰ، لا يُترك ذكره، ولا دوام الفكر في أمره ونهيه وشرعه.

والفرق بين المكاشفتين واضح فمن انكشفت له الحقائق ببصره ولما تنفذ الحقائق إلىٰ قلبه فإنه لا يزال بين مرحلتي التصديق والشك، والإيمان والجحود، ولقد سمىٰ الله عدم وصول الحقائق إلىٰ القلب عمىً، وأخبر بأن العمىٰ عمىٰ القلوب والبصائر لا البصر، قال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦].

٤١٨

كيف تدار القلوب

قال أبو سعيد بن الأعرابي ﵀: «القلوب إذا أقبلت رُوِّحَت بالأرفاق، وإذا أدبرت رُدَّتْ إلى المشاقِّ»[(١)].

المعنى الإجمالي

للقلوب نشاطها وانحسارها، قوتها وضعفها، رقتها وقسوتها، فإذا كانت القلوب مقبلةً راغبةً فتؤدي المشاق من خوف ورهبة، وتلزم بالإقبال على الله بكافة العبادات التي ترقيها وترققها وتزكي الأنفس.

وإن ضعفت القلوب وقلَّ نشاطها فتؤخذ بالرفق؛ فتؤدي الواجبات والفرائض وما يستطيع العبد فعله من النوافل؛ حتى يعاد للقلوب إلفها ومكانتها فتعود إلى نشاطها السابق، وهمتها المعروفة، وينبغي ألا تَطُول فترة إدبارها وقلة نشاطها.

عن شهر بن حوشب، قال: دخلت على أم سلمة، فقلت لها: أخبريني بأكثر ما كان يدعو به النبي ﷺ، فقالت: كان أكثر دعاء النبي ﷺ: يا مقلب القلوب، ثبِّتْ قلبي على دينك، فقلت: يا رسول الله إنك تكثر أن تدعوا بهذا؟ فقال: «إن قلب ابن آدم بين إصبعَي الرحمن ﷻ؛ ما شاء أقام، وما شاء أزاغ»[(٢)].

---

(١) طبقات الصوفية (ص: ٣٢١- ٣٢٢).

(٢) أخرجه أبو داود في مسنده (٣/ ١٨١) برقم: (١٧١٣)؛ وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٢٥) برقم: (٢٩١٩٧).

٤١٩

القلب كعبة

قال ابن الجوزي رحمه الله: «إِطْلاق البصر ينقُش في القلب صُورة المنظور، والقلب كعبة، وما يَرضى المعبود بمزاحمة الأصنام»(١).

المعنى الإجمـالي

إن إبليس يحاول النفاذ إلىٰ القلب ليُخزيه، ووسيلتُه في ذلك النظر المحرم، والعين أسهل باب يدخل منه الشيطان، وأكثر ما يدخل منه، فهي الباب الأكبر إلىٰ القلب، وأعمر طرق الحواسِّ إليه، ولذلك كثُر السُّقوط من جِهَتها، والنظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فالسهم المسموم إن نفذ إلىٰ القلب سرىٰ فيه السمّ، فإن بادر واستفرغه وإلا قتله، وكلَّما تواصلت النظرات كانت كالماء يسقي الشجرة، فلا تزالُ تَنْمي حتىٰ يفسدَ القلبُ، ويُعْرِض عن الفكر فيما أُمِر به.

والنَّظرة تفعلُ في القلب ما يفعلُ السَّهم في الرَّميَّة، فإن لم تقتله جرحتْه، وهي بمنزلة الشَّرارة من النَّار تُرْمىٰ في الحشيش اليابس، فإن لم تحرقْه كلَّه أحرقتْ بعضَه، كما قيل:

كـلُّ الحـوادث مَبْـداها مـن النَّظـر ... ومُعْظَـمُ النَّـار مـن مُسْتَصْـغَرِ الشَّـررِ

(١) المدهش لابن الجوزي (ص: ٣٦٣).

كم نظرةٍ فتكَتْ في قلبِ صاحبها ... فَتْكَ السِّهام بلا قَوْسٍ ولا وَتَرِ
والمرءُ ما دامَ ذا عينٍ يُقَلِّبُهَا ... في أعينِ الغيدِ موقوفٌ علىٰ الخطرِ
يَسُرُّ مقلتَه ما ضرَّ مهجتَه ... لا مرحبًا بسرورٍ عاد بالضَّرر[1].

وإن من آثار إطلاق البصر أن أثره يدوم في القلب، فيورثه الظلمة، وإذا ما نُقشت في القلب صورة المنظور تعلق بها قلبه، وإذا امتلأ القلب بشيء لم يبق فيه مُتَّسع لغيره، فيُحرم العبد لذة العبادة والخشوع، وأدىٰ ذلك به إلىٰ استثقال العبادات، وربما إلىٰ تركها.

وشبه ابن الجوزي القلب بالكعبة، التي أمر الله ﷻ سيدنا إبراهيم بتطهيرها فقال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج:٢٦]، والتي كسرها النبي ﷺ يوم فتح مكة تطهيرًا للكعبة وتصفية للعقيدة، فيجب أن يعتني المؤمن بتطهير قلبه، لأنه محطُّ نظر الله، فينبغي أن يكون لله، يُخلِص له في توجهه، ولا يزاحمه فيه حب أو قصد أو إرادة؛ لأن هذه المزاحمة مخالفة لعبودية العبد لربه، التي يجب أن تكون له لا لغيره.

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن القيم (ص: ١٥٤).

٤٢٠

أنوار الظواهر والسرائر

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «أنارَ الظواهرَ بأنوارِ آثارِه، وأنارَ السرائرَ بأنوارِ أوصافِهِ؛ لأجلِ ذلك أَفَلَتْ أنوارُ الظواهرِ، ولم تَأْفُلْ أنوارُ القلوبِ والسرائر»[(١)].

بيان المفردات

الظواهر: هي كل ما يبدو من المُكوَّنات.

آثاره: مخلوقاته التي تشعُّ عليها أنوارُه؛ كالشمس والقمر، وأنواع الضياء التي يستضيء بها الناس.

السرائر: بواطن القلوب.

أوصافه: أوصاف كماله؛ كرحمته وإحسانه وحكمته وجماله وعلمه وقدرته[(٢)].

---

(١) الحكم العطائية (ص: ٩٣).

(٢) ينظر: شرح الحكم العطائية للشرنوبي (ص: ٨٦)؛ والحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٣/ ٢١٥).

المعنى الإجمالي

إن الله سبحانه أنار المكوَّنات الظاهرة بأنوار الكواكب والشمس والقمر التي هي آثار قدرته، فنرىٰ المكوَّنات بذلك النور، ونأخذ منها ما ينفع، ونحترز عما يضُرُّ. وأنار قلوبَ أوليائه وأحبابه بأنوار أوصافه، أي: بالعلوم الربانية والمعارف، لأجل ذلك أفلتْ، أي: غابتْ أنوار الظاهر، فيذهب ضوء الشمس في الليل، ونور القمر في النهار، لكونها ناشئة عن الحادث. ولم تغب أنوار القلوب والسرائر، لكونها ناشئة عن الصفات الإلهية الأزلية[1].

وفي هذا الكلام تذكير بضرورة التأسِّي بموقف سيدنا إبراهيم عليه السلام إذ تجاوز الأجرامَ الكونية التي عَلِم أنها آيلةٌ إلىٰ الأفول والزوال، دون أن يغتر بالأنوار الساطعة عليها. قال تعالىٰ حكاية عن سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦-٧٩].

والقانون العلمي الذي يجب أن يُعتمَد في هذا، هو أن كلًا من التحول والتغيُّر من مستلزمات الحدوث، وما من شيء ثبت حدوثه، أي: وجوده بعد أن كان معدومًا، إلا ومآله إلىٰ الزوال والفناء، والمعبود بالحق أبعد ما يكون عن صفة الزوال أو الفناء.

---

(١) شرح الحكم العطائية للشرنوبي (ص: ٨٦).

وقد جعل الله تعالىٰ الأرواحَ والأفئدة والعقولَ مهبطًا لتجليات رحمته وإكرامه وحبه، فإذا استنارت العقولُ بالهداية والرشد، واستنارت الأفئدة بالخشية والحب لله تعالىٰ، فمن تلك التجليات تستنير. ونظرًا إلىٰ أن مصدر هذا النور هو صفات الله ﷻ، كالحب والرحمة والإنعام والإكرام، وهي صفات باقية لا زوالَ لها، وليس مصدرَها الآثارُ المخلوقةُ كالشمس والقمر ونحوهما، فقد كان الشأن فيما انعكس منها أن تظلَّ باقيةً ولا يلحقها زوال(١).

(١) الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٣/ ٢١٧-٢١٨).

٤٢١

صلاح القلب

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «كيف يشرق قلبٌ صُوَر الأكوان مُنْطَبعةٌ في مِرْآته؟ أم كيف يَرحل إلى الله وهو مُكَبَّلٌ بشهواته؟ أم كيف يَطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غَفَلاته؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هَفَواته»(١).

بيان المفردات

القلب: المدرِكُ العالِمُ العارفُ من الإنسان، وهو المخاطَب والمعاقَب والمعاتَب والمطالَب، وله علاقة مع القلب الجسماني(٢).

الأكوان: المُكَوَّنات والمخلوقات.

الحضرة: حضْرة الرَّجل: قُرْبه وفَناؤه، كلّمه بحضرة فلان وبمحضر فلان؛ أي: بمشهدٍ منه(٣)، وهي اصطلاحًا: المكان الذي يحضر فيه القلب، وهو طاعة الله وذكره ومناجاته.

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١٢).
(٢) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي (٣/ ٣).
(٣) مختار الصحاح للرازي (١/ ٥٩).

المعنى الإجمالي

هذه الأسئلة من الإمام ابن عطاء ﷺ لا يقصد بها الاستفهام وإنما يقصد إنكار ذلك ونفي إمكان تحققه؛ لأنه من باب اجتماع الضدين في موضع واحد وفي وقت واحد.

فإشراق القلب ونوره وامتلاؤه بمعرفة الله ومحبته، لا يمكن أن يجتمع مع انطباع صورةِ المكوَّنات فيه؛ لأن القلب هو كالمرآة التي ينعكس فيها صورة ما يقابلها؛ فإذا كان الإنسان متجها دائما برغباته إلى الدنيا ومتاعها، بحيث يصبح ويمسي وتلك هي آماله وأحلامه، فلا بد أن ينطبع ذلك على مرآة قلبه، ولا بد أن تتحول عواطفه إلى جنود مجندة في خدمته[١].

كذلك لا يمكن أن يرحل القلب إلى الله ويسير إليه وهو مكبَّلٌ ومقيَّدٌ بالشهوات والملذات؛ لأن اتباع الشهوات ينبغي أن يكون مقيدا في حدود الحلال وأن لا ينغمس فيها الإنسان كلَّ الانغماس فتملأ الشهوات وقته وتطغى على تفكيره، فإن الشهوات إذا طغت جلبت التكاسل عن الطاعات والتساهل في المعاصي.

وهذا الاجتماع غير ممكن أيضا بين الدخول على حضرة الله تعالى وبين عدم التطهر من الغفلة التي شبهها بالجنابة التي تصيب صاحبها، وكما يمنع من أصابته الجنابة الحسية من دخول المسجد يمنع كذلك من أصابته جنابة الغفلات من دخول حضرة الله. وعبارة «حضرة الله»[٢] هي إحالةٌ على قول النبي ﷺ وهو يعرِّف

(١) ينظر: الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (١/ ١٨٣).
(٢) ينظر: الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (١/ ١٩٠).

الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1]، قال ابن رجب ﷺ: «قيل: المراد أن نهاية مقام الإحسان أن يعبد المؤمن ربه كأنه يراه بقلبه، فيكون مستحضرا ببصيرته وفكرته لهذا المقام، فإن عجَز عنه وشَقّ عليه انتقل إلىٰ مقام آخر وهو أن يعبد الله علىٰ أن الله يراه ويطلع علىٰ سره وعلانيته، ولا يخفىٰ عليه شيء من أمره[2].

فحضرة الله المقصود بها طاعة الله؛ لأن الحضرة في الأصل هي مصْدر، لكن استعملها العلماء هنا بمعنىٰ المكان الذي يحضر فيه القلب، والإنسان يحضر قلبه في طاعة الله، فكما لا يستطيع الجنب دخول المسجد كذلك لا يستطيع المتلبس بالغفلة أن يكون قريبا من الله.

كذلك الحال في عدم إمكان اجتماع فهم الأسرار الدقيقة عن الله تعالىٰ وملكوته مع عدم التوبة من الهفوات والزلات، فالتوبة عن الهفوات أول مراتب التقوىٰ[3]، والهفوات أصغر من الزلات فأصل معنىٰ الهفو هو ذهاب الشيء بخفة وسرعة[4]، وهذا يدل علىٰ لزوم التوبة الشاملة من جميع الذنوب كبيرِها وصغيرها.

فترك التوبة عن الزلل حجاب يحجب الإنسان عن الفهم لدقائق العلوم الربانية، فالغفلة مانعة من مرتبة الإحسان، وقيود الشهوات مانعة من السير إلىٰ الله، والانغماس في أمور الدنيا حائل دون إشراق القلب ونوره.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٩) برقم: (٥٠)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٣٠) برقم: (٩، ١٠).
(٢) فتح الباري لابن رجب الحنبلي (١/ ٢١١).
(٣) شفاء السقم لباراس (ص: ١٧١).
(٤) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٦/ ٥٧).

٤٢٢

علامات موت القلب

قال ابن عطاء الله السكندري ﷺ: «مِن علاماتِ موتِ القلبِ عدمُ الحزنِ على ما فاتَكَ مِن الموافِقات، وتركُ الندمِ على ما فعلتَه مِن وجودِ الزلَّاتِ»[(١)].

بيان المفردات

الموافِقات: هي الطاعات الموافِقة للشرع.

الزلَّات: هي المعاصي[(٢)].

المعنى الإجمالي

عدم حزنِك على ما فاتك من الطاعات، وتركُ ندمك على ما فعلتَه من المعاصي، علامةُ موت قلبك. ويُفهَم منه أن سرور الإنسان بالطاعة، وحزنَه على المعصية، علامة حياة القلب[(٣)].

فإن الأعمال الحسنة علامةٌ على رضا الحق، ورضاه يقتضي السرورَ،

(١) الحكم العطائية (ص: ١٢).

(٢) شرح الحكم العطائية للشرنوبي (ص: ٥٧).

(٣) شرح الحكم العطائية للشرنوبي (ص: ٥٧).

والأعمال السيئة علامة علىٰ غضبه، وغضبه يقتضي الحزنَ. فمَن رضي الله عنه وفَّقه لِصالحِ الأعمالِ. ومَن غَضِب عليه، تركَه في زوايا الإهمال. فالقلب الحي يحس بما يُرضيه عند ربه فيفرح، وما يُسخِطه عليه فيحزن. والقلب الميت لا يحس بشيء، قد استوىٰ عنده وجود الطاعة والمعصية: لا يفرح بطاعة وموافقة، ولا يحزن علىٰ زلة ومعصية، كما هو شأن الميت في الحس(١).

قال النبي ﷺ: «مَن سرَّتْه حسنتُه وساءتْه سيئتُه فذلك المؤمنُ»(٢).

---

(١) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ١٤٠)؛ وشرح الحكم العطائية للشرنوبي (ص: ٥٧).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٣٨) برقم: (٢١٦٥)؛ والبيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٢٣٣) برقم: (٦٥٩٨)؛ والبزار في مسنده برقم: (٣٠٦٨). قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

٤٢٣

لذة الجسم ولذة القلب

قال ابن تيمية رحمه الله: «لذة القلب وألمه أعظم من لذة الجسم وألمه»[(١)].

المعنى الإجمالي

إن لذات الجسد المادية قصيرة الأمد، لها حدٌّ إذا بلغته وقفت عنده، وكذلك الآلام التي تصيب الجسد إذا ما قورنت بآلام القلب والروح فهي أقل إيلامًا؛ بدليل أن الغضبان الذي استولىٰ عليه الغضب في القتال تصيبه الجراحات وهو لا يشعر بها في الحال؛ والغضب هو نار في القلب، واحتراق الفؤاد أشد من احتراق الأجسام، والأشدّ يبطل الإحساس بالأضعف.

واللذة التي يصل إليها الإنسان في مناجاته لربه في لحظات التجلي لا تعدلها لذات الجسد كلها، كما قال إبراهيم بن أدهم: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه، لجالدونا عليه بالسيوف»[(٢)].

فاللذات درجات أدناها اللذات المادية، لذة المال والجاه، وفوقها لذة الصحة التي يكون بها بقاء الجسد، وفوقها لذة العاطفة التي تكون بها متعة النفس، وفوقها كلها لذة الروح التي تكون بها سعادة الدنيا والآخرة. وكل هذا مشاهَد محسوس،

(١) أمراض القلوب وشفاؤها لابن تيمية (ص: ٢٩).

(٢) صيد الخاطر لابن الجوزي (ص: ٤٥٧).

ولكن من الناس من يقف عند الدرجة الأولىٰ فلا يهمّه إلا المال، ومنهم من يرقىٰ درجة أخرىٰ فيهتم بالصحة، ومنهم من يرقىٰ الدرجة الثالثة فيكون من أهل العاطفة وأرباب القلوب، ومنهم صفوة قليلة مختارة تبلغ ذروة السلّم وتصل إلىٰ الدرجة العليا، وهؤلاء هم خِيار البشر(١).

فأين اللذات المادية من اللذة بأمرٍ إذا خالط بشاشته القلوب ذهل عن الأبناء والنساء والأوطان والأموال، ورضي بتركها كلها، وعرَّض نفسه لأنواع المكاره والمشاقِّ وهو منشرح الصدر به، حتىٰ قال حرام بن ملحان حين طُعن: «فزت ورب الكعبة»(٢)، ويستطيل عمير بن الحُمام حياته حتىٰ ألقىٰ التمرات من يده، وقال: لئن أنا حييت حتىٰ آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، ثم تقدم يقاتل حتىٰ قتل(٣).

---

(١) نور وهداية لعلي الطنطاوي (ص: ٧٣).

(٢) مصنف عبد الرزاق بن همام (٥/ ٥٠٦).

(٣) ينظر: السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٤٢١).

٤٢٤

القلب وسيلة السفر وقُوْتُه الذِّكْر

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «إذا حملتَ على القلب همومَ الدُّنيا وأثقالَها، وتهاونتَ بأورادِهِ التي هي قُوتُهُ وحياتُهُ؛ كنتَ كالمسافر الذي يُحمِّلُ دابَّتَهُ فوق طاقتِها، ولا يُوفيها عَلَفَها؛ فما أسرع ما تَقِفُ به!»(١).

بيــان الـمفردات

الأوراد: جمع وِرد، من معانيه ورود الماء للشرب، ويراد به هنا المقدار اليومي المعلوم المخصص للذكر وقراءة القرآن(٢).

القُوت: ما يمسك الرَّمَق من الرِّزق(٣).

العَلَف: ما تأكله الماشية(٤).

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٦٦).
(٢) تاج العروس للزبيدي (٩/ ٢٨٩).
(٣) تاج العروس للزبيدي (٥/ ٤٨).
(٤) تاج العروس للزبيدي (٢٤/ ١٨١).

المعنى الإجمالي

من سنن الله سبحانه أن جعل لجسد الإنسان وقلبه حقا عليه، وجعل لكل منهما غذاء وداء ودواء، ومن حقهما عليه أن يغذي كلًا منهما بما ينفعه من الأغذية، ويجنِّبه ما يضره من الأدواء، ويعالجه بما يفيده من الأدوية، وكما أن الجسد يتغذىٰ بالطعام والشراب، ويقوىٰ بما يفيده منهما، ويتضرر من الأحمال الثقيلة، كذلك القلب يتغذىٰ ويقوىٰ بذكر الله تعالىٰ، ويتضرر بحمل هموم الدنيا وأثقالها.

فإذا حمَّل الإنسان قلبه ما لا يطيق من هموم الدنيا، وأرهقه بأثقالها، وقصَّر في تغذيته بالأوراد والأذكار النافعة التي تمنحه الراحة والطمأنينة، قطعه قلبه عن الوصول إلىٰ مبتغاه؛ لأن القلب وسيلة له لاجتياز الدنيا بسلام والفوز بالجنة دار المقام، وعندما يقصِّر علىٰ الوسيلة في قوتها ستنفد طاقتها، وتضعف همتها، وتتوقف عن المسير، كما أن دابة المسافر إذا حمَّلها فوق طاقتها ولم يعلفها توقفت عن السير.

لذلك إذا أراد عبد أن يصل إلىٰ الله، ويحظىٰ بلقائه، ويسكن جنته، فعليه أن يهتم بقلبه، ويغذيه بذكر الله تعالىٰ وقراءة القرآن، ولا يحمله ما لا يطيق من الهموم والأحزان غير المجدية، ليستعين بذلك علىٰ تحقيق هدفه ومطلبه.

٤٢٥

دمع العين مرتبط بالقلب

قال ابن القيم رحمه الله: «إذا قسا القلب قَحَطَت العين»[١].

بيان المفردات

قحَطَت: القحْط: احتباس المطر[٢]. والمراد هنا: احتباس الدمع وعدم البكاء من خشية الله.

المعنى الإجمالي

إن بكاء العين دليل على حياة القلب، وقلة الخطايا، ودمع العين يجلو عن القلب الغشاوة، قال بعض السلف: «البدن إذا عَرِيَ رقّ، وكذلك القلب إذا قلّت خطاياه أسرعت دمعته»[٣].

وإذا قسا القلب فأنى للعين أن تدمع! فهناك رابط بين العين والقلب؛ إن لانَ القلب سالت العين، وإن قسا أجدبت.

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ١٤٢).

(٢) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (٤/ ٢٠).

(٣) ذم قسوة القلب لابن رجب الحنبلي (٢٦٢).

يقول ابن القيم: «ومتىٰ أقحطت العين من البكاء من خشية الله تعالىٰ فاعلم أن قحطها من قسوة القلب، وأبْعَدُ القلوب من الله القلب القاسي»(١).

يقول الإمام الشاطبي:

ولو أن عينًا ساعَدت لتوَكَّفَت ... سحائبُها بالدمع دِيْمًا وهُطَّلا
ولكنها عن قسوة القلب قَحْطُها ... فيا ضَيْعة الأعمار تمشي سَبَهْلَلا(٢)

ومن آثار قسوة القلب كذلك: ضعف الإيمان، وسرعة قبول الشبهات، والوقوع في الفتنة والضلال، قال تعالىٰ: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [الحج:٥٣].

وعلاج قسوة القلب يكون بالذكر وقراءة القرآن بتدبُّر، قال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر:٢٣]، وقال وُهَيب بن الورد: نظرنا في هذا الحديث، فلم نجد شيئًا أرَقَّ لهذه القلوب ولا أشد استجلابًا للحق من قراءة القرآن لمن تدبره(٣).

والأصل في إزالة قسوة القلوب بالذكر قوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨].

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم (٣/ ٢٢٤).
(٢) متن الشاطبية لأبي محمد الشاطبي (ص: ٧)، البيتان: (٨٢-٨٣).
(٣) حلية الأولياء لأبي نُعيم (٨/ ١٤٢).

٤٢٦

النار علاج للقلوب القاسية

قال ابن القيم رحمه الله: «خُلقت النار لإذابة القلوب القاسية»[(١)].

بيان المفردات

قسوة القلب: هي ذهاب اللين والرحمة والخشوع منه[(٢)].

المعنى الإجمالي

إن قسوة القلب مرض من أخطر الأمراض؛ لأن قسوة القلب تحجب عن العبد الحق وتمنعه من الانصياع له، ومن قسا قلبه لا يتأثر بزجر ولا تذكير؛ وقسوة القلب ناشئة عن كثرة الذنوب، جاء في الحديث: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكِتَت في قلبه نُكتةٌ سوداء، فإذا هو نَزَع واستغفر وتاب سُقِل قلبه[(٣)]، وإن عاد زِيْد فيها حتىٰ تعلو قلبَه، وهو الرَّان الذي ذكر الله، ﴿ كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين:١٤]»[(٤)].

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ١٤٢).

(٢) تهذيب اللغة للأزهري (٩/ ١٨٠).

(٣) سُقل لغةٌ في صُقل، سُقِل قلبُه: أي جُلِي. ينظر: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم لنشوان الحميري (٥/ ٣١٢٥).

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٣٥٩) برقم: (٣٣٣٤)، وقال: حسن صحيح.

يقول الحارث المحاسبي: «الذُّنُوب تُورث الغفلة، والغفلة تُورث القسوة، والقسوة تُورث البُعْد من الله، والبعد من الله يُورث النَّار، وإنَّما يتفكر فِي هذه الأحياء، وأما الأموات فقد أماتوا أنفسهم بحب الدنيا»(١).

وقد توعد الله أصحاب القلوب القاسية، فقال: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الزمر:٢٢].

وكلام ابن القيم فيه إشارة إلىٰ أن القلوب القاسية تُذيبها نار جهنم، فإذا ذاقوها لانت قلوبهم، وعرفوا ضلالهم، ولكنها معرفة متأخرة لا تنفع صاحبها، وفي هذا تحذير وإنذار لمن كان مقيمًا علىٰ المعاصي أن يقلع عنها قبل أن تغمُر الذنوبُ قلبَه فيقسو، فعند ذلك لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، ويُغلَّف قلبه بغطاء سميك لا يسمح لنور الهداية أن يخترقه.

(١) رسالة المسترشدين للحارث المحاسبي (ص: ١٥٥).

٤٢٧

أسباب قسوة القلب

قال ابن القيم رحمه الله: «قسوة القلب من أربعة أشياء إذا جاوزت قدر الحاجة: الأكل، والنوم، والكلام، والمخالطة»(١).

المعنى الإجمالي

إن لقسوة القلب أسبابًا، ومعرفة سبب المرض نصف الدواء، فما هي الأسباب التي تؤدي إلىٰ قسوة القلب؟ ذكر ابن القيم أربعة أسباب لقسوة القلب إن جاوزت قدر الحاجة، وهي:

الأول: كثرة الأكل؛ فإن قلة الغذاء توجب رقة القلب، وقوة الفهم، وانكسار النفس، وضعف الهوىٰ والغضب. وكثرةُ الغذاء توجب ضد ذلك(٢)، جاء في الحديث: «ما ملأ آدمي وعاءً شرًّا من بطن»(٣).

يقول أبو سليمان الداراني: «إن النفس إذا جاعت وعطشت صفا القلب ورق، وإذا شبعت ورَوِيَت عَمِيَ القلب»(٤). وعن قُثَم العابد قال: «كان يقال: ما قلَّ طعام

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ١٤٢).

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي (٢/ ٤٦٩).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ١٨٨) برقم: (٢٣٨٠)، وقال: حسن صحيح؛ والنسائي في السنن الكبرىٰ (٦/ ٢٦٨) برقم: (٦٧٣٧).

(٤) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٣٨٢).

امرئٍ قطُّ إلا رقَّ قلبه، ونَدِيَت عيناه». وعن إبراهيم بن أدهم: «إن معصية الله بعيدة من الجائع، قريبة من الشبعان، والشِّبَع يُميت القلب، ومنه يكون الفرح والمرح والضحك»(١).

السبب الثاني: كثرة النوم، ففي كثرة النوم ضياع العمر، وفوت التهجد، وبلادة الطبع، وقساوة القلب، والعمر أنفس الجواهر، وهو رأس مالِ العبد، فيه يَتَّجِر، والنوم موت، فتكثيره يُنقص العمر(٢).

قال الفضيل بن عياض: «ثلاث خصال تُقَسِّي القلب: كثرة الأكل، وكثرة النوم، وكثرة الكلام».

ولهذا كان السلف الصالح لا ينامون إلا قليلًا؛ فالخوف من النار منعهم النوم، «كان شداد بن أوس إذا أوىٰ إلىٰ فراشه كأنّه حبَّة علىٰ مِقلىٰ، فيقول: اللهم إن ذكر جهنم لا يدعني أنام، فيقوم إلىٰ مُصَلَّاه»(٣).

السبب الثالث: كثرة الكلام، ففي الحديث: «لا تُكثِروا الكلام بغير ذكر الله؛ فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوةٌ للقلب»(٤). ونحن مأمورون أن نتكلم بخير أو نصمت؛ لأن كثرة الكلام توقع في الخطأ والإثم، والذنوب تسبب قسوة القلب، وتؤدي إلىٰ النار، وقد أخذ النبي ﷺ بلسانه وقال: «كُفَّ عليك هذا»، فقلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يَكُبُّ الناسَ في

---

(١) الأثران عن قُثم وإبراهيم بن أدهم من جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي (٢/ ٤٧٢-٤٧٣).
(٢) ينظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٨٦).
(٣) التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار لابن رجب الحنبلي (ص: ٣٧).
(٤) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢١١) برقم: (٢٤١١)، وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم بن عبد الله بن حاطب.

النار علىٰ وجوههم أو علىٰ مناخرهم إلا حصائدُ ألسنتهم!»(١).

السبب الرابع: كثرة مخالطة الناس في غير مصلحة؛ فالطبع يسرق من الطبع، وأكثر الناس يخوضون فيما لا يعنيهم، وكثرة الكلام واللغو يورث القسوة، فإذا أردت أن تخالط أحدًا فلا تخالط إلا الصالحين الأتقياء، جاء في الحديث: «لا تُصاحِب إلا مُؤمنًا، ولا يأكلْ طعامَك إلا تقيّ»(٢).

وقال ابن القيم: «وأما فضولُ المخالطةِ؛ فهي الدّاء العُضَالُ الجالبُ لكلِّ شرٍّ، وكم سَلَبت المخالطةُ والمعاشرةُ من نعمة، وكم زَرَعتْ من عداوة، وكم غَرَستْ في القلب من حَزَازات، تزولُ الجبالُ الراسيات وهي في القلوب لا تزول، ففضول المخالطة فيه خسارة الدنيا والآخرة، وإنما ينبغي للعبد أن يأخذَ من المخالطة بمقدار الحاجة»(٣).

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٣٦٢) برقم: (٢٦١٦). وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ٤٠٧) برقم: (٤٨٣٢)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ٢٠١) برقم: (٢٣٩٥). وقال: حديث حسن.

(٣) بدائع الفوائد لابن القيم (٢/ ٨٢١).

٤٢٨

التخليـة قبل التحليـة

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «القلب إذا امتلأ بشيء لم يبق فيه مُتَّسَع لغيره»(١).

المعنى الإجمالي

قلبك أيها العبد كالإناء، إذا كان فارغا فإنك تستطيع تعبئته بما شئت حتىٰ يمتلئ، وإذا كان ممتلئًا بشيء لا يمكنك تعبئته بشيء آخر إلا إذا فرَّغته، ومهما زدت فيه لن تجد من الزيادة فائدة؛ لأنه سيطفو وتسيل الزيادة عن أطرافه دون أن يدخل فيه شيء منها.

كذلك القلب إذا كان ممتلئا بالمعاصي والأمراض وحب الدنيا وشهواتها، فلن تستطيع تزكيته وتنميته والتأثير عليه بذكر الموت والعاقبة، إلا إذا قمت بتخليته وتطهيره بالتوبة والاستغفار واجتناب المعاصي؛ لأن التحلية لا بد قبلها من تخلية، وذلك ابتداء من كلمة التوحيد -لا إله إلا الله- حيث فيها نفي إلهية ما سوىٰ الله سبحانه وإثبات إلهيته، وانتهاء بمدارج وصول السالكين(٢).

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٣٠).
(٢) إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان لابن القيم (١/ ٧٩).

وإن لم تقدر علىٰ تفريغه بالكامل، تُفرِّغُ منه ما أمكن وتجعل مكانه ضده، فتزيل الغفلة وتضع الذكر، ثم تزيل الأمان وتضع الخشية، ثم تزيل حب الدنيا وتضع حب الله سبحانه، وهكذا إلىٰ أن تزيل عنه جميع الشوائب، فإذا تطهَّر منها، استعاد القلب خِفَّته وقوَّته وصار مُهيَّأً لقبول التحلية التي تعرج به في درجات الوصول، وبدأ بالرقي شيئا فشيئا، حتىٰ يمتلئ بحب الله وذكره، كحال الشبلي حينما قال له أحد أصحابه عند موته: قل: لا إله إلا الله، **فأنشد:**

إِنَّ بَيْتًا أَنْتَ سَاكِنُه غيرُ مُحْتَاجٍ إِلَىٰ السُّرُج
وعليلًا أَنْتَ زَائِرُه قد أَتَاهُ الله بالفَرَجِ
وَجهك المأمول حجتنا يَوْم تَأْتِي النَّاس بالحُجَجِ
لَا أتاح الله لي فَرَجًا يَوْم أَدْعُو مِنْك بالفَرَجِ

يريد الشبلي رحمه الله أن القلب إذا امتلأ واشتغل بعظمة الله وجلاله لم يحتج إلىٰ مُنبِّه يُنَبِّهه ولا إلىٰ مُذَكِّر يُذكِّره[1].

---

(١) العاقبة في ذكر الموت لابن الخراط (ص: ١٣٦).

٤٢٩

صفاء القلب

قال ابن القيم رحمه الله: «من أراد صفاء قلبه فليُؤْثِر اللهَ على شهوته»(١).

المعنى الإجمالي

إن صفاء القلب ونقاءه وسلامته من الغل والحسد وحب الدنيا من أشد ما ينبغي أن يهتم به المسلم؛ لأن نجاة الإنسان في الآخرة متوقفة على سلامة القلب، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، ولكنّ تنقيةَ القلب وتطهيرَه لا يكون إلا بالمجاهدة والمصابرة؛ فإن القلب ضعيف يتأثر بأدنى شهوة، والقلب إنما سُمّي قلبًا لسرعة تقلُّبِه، فما إن يغفل الإنسان عنه حتى يتعلق بحطام الدنيا، ومن اتبع الهوى ختم الله على قلبه، قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية:٢٣].

وإن القلوب كالأواني؛ ما دامت مملوءة ماءً لا يدخلها هواء؛ لاشتغال المكان، فالقلوب المشغولة بحب الله وإيثار مرضاته لا تدخلها الشهوات والشبهات، فتبقى صفية نقية، وأما إذا خلت القلوب من محبة الله، بدأت الشهوات تتسرب إليها، حتى

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ١٤٢).

يتلوث القلب ويمتلئ من صديدها، وقد جاء في الحديث: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب سُقِل قلبه، وإن عاد زِيد فيها حتى تعلو قلبَه، وهو الرّان الذي ذكر الله: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين:١٤]»(١).

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٣٥٩) برقم: (٣٣٣٤).

باب البكاء والخشوع

٤٣٠

ترك الخشوع طريق ترك الصلاة

قال حذيفة بن اليمان[(١)] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أول ما تَفقِدون من دينكم الخشوع، وآخر ما تفقِدون من دينكم الصلاة»[(٢)].

المعنى الإجمالي

النقص في الدين لا يأتي دفعة واحدة، بل بترك المأمورات وإتيان المنهيات، والرابط بين حضور الخشوع والصلاة أو فقدانهما، أنَّ الصلاة المقبولة عند الله التي ترفع صاحبها درجات عند الله تعالىٰ هي الصلاة الخاشعة، ولذلك فقد امتدح الله المؤمنين في أول صفاتهم بأنهم خاشعون فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون:٢]، وقد تُؤدَّىٰ الصلاة لكن لا خشوع بها، وقد تمتلئ المساجد لكن لا يكون بها من الخاشعين إلا القليل، ولا تؤدىٰ الصلاة علىٰ أتم صفتها التي أمر الله بها، ولا تتفق مع صلاة النبي ﷺ.

(١) حذيفة بن حسيل بن جابر العبسي، أبو عبد الله، المشهور بحذيفة بن اليمان، الصحابي الجليل، هاجر هو وأبوه إلىٰ النبي ﷺ، وشهد أُحُدا، صاحب سرّ رسول الله ﷺ، سكن الكوفة، وتوفي بالمدائن سنة ٣٦هـ. ينظر: معرفة الصحابة (٢/ ٦٨٦)؛ الاستيعاب (١/ ٢٥١).

(٢) المصنف لابن أبي شيبة (٧/ ١٤٠).

إن هذا الإهمال والتفريط في أمري الصلاة والخشوع يجعل المصلي يخرج من صلاته ولم يكتب له منها سوىٰ القليل، فعن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته تسعها ثمنها سبعها سدسها خمسها ربعها ثلثها نصفها»[1].

(١) أخرجه أبو داود في سننه (١/ ٢١١) برقم: (٧٩٦).

٤٣١

عينان لا تمسهما النار

قال مكحول الدمشقي رحمه الله: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت من وراء المسلمين»(١).

المعنى الإجمالي

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول: «عينان لن تمسهما النار: عينٌ بكتْ من خشية الله، وعينٌ باتتْ تحرس في سبيل الله»(٢).

العينان المذكورتان في الحديث ثم في هذه العبارة المفادة منه تُبين أنهما نوعان؛ الأولى: عين مجاهدة مع النفس، والثانية: عين مجاهدة مع الكفار(٣).

إن المؤمن يجاهد نفسه عن المعاصي، فيرق قلبه لله ويخشع، وتلين جوارحه من خشية الله، وتدمع عيناه من خشيته، وهذه ضمانة أولى من رسول الله ﷺ أن العينين الدامعتين الباكيتين من خشية الله لا تمسهما النار. والبكاء من خشية الله من صفات العالمين بما أنزله الله في كتابه، فقد قال الله عنهم ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء:١٠٩].

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٣١٣).
(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ١٧٥) قبل رقم: (١٦٣٩).
(٣) ينظر: شرح مصابيح السنة للإمام البغوي (٤/ ٣٢٩).

وعين باتت -ولا يكون البيات إلا في الليل- تحرس في سبيل الله؛ فهي من وراء المسلمين المجاهدين تحرس الثغور، وترابط فيها؛ كي لا يتسلسل العدو إلىٰ حرمات المسلمين؛ فيقتلهم، ويهين كرامتهم، ويهتك أعراضهم، ويدنس مقدساتهم، ويأخذ أموالهم وممتلكاتهم.

والرباط في سبيل الله من أعظم المنازل عند الله تعالىٰ، فعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، قال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله، أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها»[١].

والرباط في سبيل الله مرتبة المجاهدين في العبادة، وهو شامل، يكون في الحج، أو في طلب العلم، أو الجهاد، أو العبادة، والأظهر من هذه المعاني وأولاها حراسة المجاهدين لحفظهم من الكفار[٢].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٣٥٥) برقم: (٢٨٩٢).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٢٤٧٩).

٤٣٢

البكاء والثناء

قال يحيى بن معاذ ﵀: «يخرج العارف من الدنيا ولم يقضِ وَطَره من شيئين: بكاؤه على نفسه، وثناؤه على ربه»(١).

بيان المفردات

العارف: هو «من عرف الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله، ثمَّ صدَق الله في معاملاته، ثمَّ أخلص له في قصده ونيَّاته، ثمَّ انسلخ من أخلاقه الرديَّة وآفاته، ثمَّ تطهَّر مِن أوساخه وأدرانه ومخالفاته، ثمَّ صبر علىٰ أحكامه في نِعَمه وبليَّاته، ثمَّ دعا إليه علىٰ بصيرةٍ بدينه وآياته، ثمَّ جرَّد الدعوة إليه وحده بما جاء به رسوله»(٢).

المعنى الإجمالي

العارف يتعلق بالدنيا من جهة أنها باب الوصول إلىٰ الله، ما وصل إليه إلا بمكابدة الليالي، وإطالة الوقوف بين يدي ربه، معترفًا بتقصيره، باكيًا علىٰ ذنبه، فذاق لذة القرب والمناجاة والأُنس بالله، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا

---

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (٢/ ٤٨٠). وهذا الشرح يتعلق بالبكاء، وأما شرح ما يخص الشكر فسيأتي في باب الشكر، الحكمة رقم: (٥٩٦).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٤/ ٢٨٢).

يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر:٩].

العارف يبكي على نفسه وتقصيره؛ لأنه عرف ربه وعظيمَ حقِّه، فهو يرىٰ أنه لو صفَّ قدميه في محرابه طول حياته ساجدًا وقائمًا، لا يفتر لسانه عن ذكره وشكره لم يؤد شكر نعمةٍ واحدة من نِعَم الله التي لا تحصىٰ، لذلك هو شديد الإزراء علىٰ نفسه، لَهِجٌ بالثناء علىٰ ربِّه، لا يشبع من التلذذ بالثناء علىٰ ربه، ومن بكائه علىٰ تقصيره.

يروي عبد الله بن الشِّخير عن سيد العارفين ﷺ فيقول: «أتيت النبي ﷺ، وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل» يعني: يبكي(١).

إن البكاء من خشية الله من أفضل العبادات، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «لأن أدمع دمعةً من خشية الله، أحبّ إليّ من أن أتصدّق بألف دينار»(٢).

واشتكىٰ ثابت البُناني عينه، فقال له الطبيب: اضمن لي خصلةً تبرأ عينك: لا تبكِ، قال: «وما خيرٌ في عينٍ لا تبكي!»(٣).

---

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرىٰ (١/ ٢٩٢) برقم: (٥٤٩)؛ والإمام أحمد في مسنده (٢٦/ ٢٣٩) برقم: (١٦٣١٢)؛ قال النووي: صحيح. ينظر: خلاصة الأحكام للنووي (١/ ٤٩٧).

(٢) شعب الإيمان للبيهقي (١/ ٥٠٢).

(٣) مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر لمحمد بن نصر المروزي (ص: ١٤٦).

٤٣٣

حقيقة الخشوع

قال الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخشوع تَذَلُّل القلوب لعلّام الغيوب»(١).

بيان المفردات

الخشوع: رَمْيُكَ بِبصرك إلى الأرض. وتَخَاشَعْتُ: تَشَبَّهْتُ بالخاشِعِينَ ورَجُلٌ مُتَخَشِّعٌ مُتَضَرِّعٌ. والخُشُوعُ والتَّخَشُّعُ والتَّضَرُّعُ واحدٌ، والتخشع لله: الإخبات والتذلل(٢).

المعنى الإجمالي

تفيد معاني الخشوع السكون والاطمئنان. والخشوع نوعان خشوع ظاهري جوارحي، وخشوع قلبي، ولا يتأتى الخشوع بمعناه الشرعي إلا بأن يخشع القلب ويتذلل ويسجد لله تعالى متضرعًا مخبتًا مفتقرًا منكسرًا بين يدي علام الغيوب الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

لقد نهى اللهُ نبيَّنا محمدًا ﷺ من إطاعة من كان أمره فرطًا باتباع الهوى وانفصال القلب عن اللسان في ذكر الله تعالى، فخيرُ الذكر وأقومه ما كان القلب

(١) الرسالة القشيرية (١/ ٢٧٦).

(٢) ينظر: كتاب العين للخليل بن أحمد (١/ ١١٢)؛ وجمهرة اللغة (١/ ٦٠١)؛ وتهذيب اللغة (١/ ١٠٧).

مواطئًا للسان. قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف:٢٨].

إن من الأسباب التي تدعو العبد إلىٰ الخشوع أن يتفكر في خلقه، وفيما خلقه في السماوات والأرض، وفي هذا الكون الفسيح الذي جعل الله تعالىٰ النظر والتفكر فيه للدلالة علىٰ وحدانية الله تعالىٰ، وأنه وحده الحق، قال تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأعراف:١٨٥]، ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت:٥٣].

ومن الأسباب الجالبة للخشوع قراءة القرآن الكريم، والتدبر في معانيه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

٤٣٤

البخـل بالقليل

قال ابن القيم رحمه الله: «لله مُلك السماوات والأرض واستقرضَ منك حبَّةً، فبَخِلْتَ بها! وخلقَ سبعة أبحُرٍ وأحبَّ منك دمعةً، فقَحَطَتْ عينُك بها»[١].

بيـان المفردات

استقرض: القرض في اللغة هو القطع، واستقرضتُ من فلان: طلبتُ منه القرض فأقرضني، وأصل القرض: ما يعطيه الإنسان ليُجازىٰ عليه. والله لا يستقرض من عَوَز، ولكنه يبلو عباده[٢].

فقحطت عينك: القحط: احتباس المطر، وقحطت العين؛ أي: احتبس دمعها فلم تبكِ[٣].

المعنى الإجمالي

طلب الله ﷻ من عباده أن ينفقوا من أموالهم، وشبَّه عطاء المؤمن في الدنيا بما يرجو ثوابه في الآخرة بالقرض؛ لأن ما ينفقوه سيُرد إليهم، ولكن ليس بالمثل وإنما

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٩٥)؛ وأصل الحكمة لابن الجوزي، ونصها: "خلق سَبْعَة أبحر واستقرض مِنْك دمعة لَهُ ملك السَّمَوَات وَالْأَرْض واستقرض مِنْك حَبَّة". المدهش لابن الجوزي (ص: ٣٤٠).

(٢) ينظر: لسان العرب لابن منظور (٧/ ٢١٧).

(٣) ينظر: العين للخليل بن أحمد (٣/ ٣٩).

يضاعفه لهم أضعافًا كثيرة، فقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٤٥]. والله ليس بحاجة للقرض، وإنما كنَّىٰ عن الفقير بنفسه المنزهة عن الحاجات ترغيبًا في الصدقة، كما كنَّىٰ عن المريض بنفسه المقدسة عن النقائص، فقال: «يا ابن آدم! مرضتُ فلم تَعُدْني، قال: يا رب، كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمتَ أن عبدي فلانًا مرض فلم تعده»(١).

وإذا كان الله بيده ملك السماوات والأرض، ووعد المؤمن بأن يضاعف له ما أنفق أضعافًا كثيرة، فما الذي يجعله يَضِنّ بماله! وقد جاء في الحديث: قال الله ﷻ: «يا ابن آدم، أَنفِق أُنفق عليك، وقال: يد الله ملأىٰ لا تُغيضها نفقة»(٢).

وقد حث الله علىٰ الخشوع، وبين فضله وما للخاشعين من أجر، والخشوع: خشيةٌ تكون في القلب فتظهر آثارها علىٰ الجوارح، فتبكي العين، والله يحب أن يرىٰ أثر خضوع العبد له بإنزال الدموع، وقد جاء في الحديث: «لا يَلِج النار رجلٌ بكىٰ من خشية الله حتىٰ يعود اللبن في الضَّرْع»(٣).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٣) برقم: (٢٥٦٩)؛ ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣/ ٢٤٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ٧٣) برقم: (٤٦٨٤).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ١٤٤) برقم: (٢٣١١).

باب الافتقار والانكسار لله تعالى

٤٣٥

الضعف طريق الاستقامة

قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَبْيَنُ ما في الإنسان ضعفُه، فمن شهد الضعف من نفسه نال الاستقامة مع الله تعالى»(١).

المعنى الإجمالي

تستقيم حال العبد مع ربه ﷻ متىٰ ما شعر بحاجته إلىٰ ربه، وعلم بضعف نفسه؛ فهو عبدٌ ضعيفٌ فقيرٌ، وربه قوي غني حميد، لكنه حين يرىٰ نفسه مستغنيًا عن الله تعالىٰ فإن طغيانا كبيرًا يجرفه إلىٰ الهاوية. قال الله تعالىٰ: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴾ [العلق:٦].

إن من ينالون شرف الاستقامة في الدنيا والفوز بالجنة في الآخرة هم الضعفاء والمساكين، ومن يتنكبون طريق الاستقامة، ويلجون طريق الغواية هم المستكبرون؛ قال ﷺ: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيفٍ مُتَضَعِّف، لو أقسم علىٰ الله لَأَبَرَّه، أَلَا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتُلٍّ جَوَّاظٍ(٢) مستكبر»(٣).

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١٧٠).

(٢) **العُتُلُّ**: الشديد الخصومة الجافي اللئيم، وقيل: الفظُّ الغليظ الذي لا ينقاد للحق. **والجوَّاظ**: هو الجَمُوع الْمَنوع، وقيل: الكثير اللحم المختال في مشيته. ينظر: شرح السنة للبغوي (١٣/ ١٧٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ١٥٩) برقم: ٤٩١٨).

٤٣٦

فقر العلماء

قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فقر العلماء فقرُ اختيار، وفقر الجهال فقرُ اضطرار»[١].

المعنى الإجمالي

يغلب علىٰ من اشتغل بالعلم -وخاصة العلم الشرعي- قلةُ المال، بل الفقر الشديد في أحايين كثيرة، وقد كتب ابن خلدون في الفصل السابع من مقدمته: «أن القائمين بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والإمامة والخطابة والأذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم»[٢]، وعزا السبب في ذلك إلىٰ «أن أهل هذه الصنائع الدينية لا تضطر إليهم عامة الخلق، وإنما يحتاج إلىٰ ما عندهم الخواص ممن أقبل علىٰ دينه، وإن احتيج إلىٰ الفتيا والقضاء في الخصومات فليس علىٰ وجه الاضطرار والعموم فيقع الاستغناء عن هؤلاء في الأكثر»[٣].

والعلماء لشرف ما حملوه من علم يتعلق بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ أعزةٌ علىٰ الخلق وعند نفوسهم، فلا يخضعون لأهل الجاه لينالوا منه حظا يستدرون به

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١٤٩).

(٢) ديوان المبتدأ والخبر في التاريخ لابن خلدون (ص: ٤٩٢).

(٣) تاريخ ابن خلدون (ص: ٤٩٣).

الرزق، بل ولا تَفْرُغُ أوقاتهم لذلك، لما هم فيه من الشغل بهذه البضائع الشريفة المشتملة على إعمال الفكر والبدن، بل ولا يسعهم ابتذال أنفسهم لأهل الدنيا، لشرف بضائعهم، فهم بمعزل عن ذلك، فلذلك لا تعظم ثرواتهم.(١)

فيفهم من ذلك أن العلماء كان بوسعهم أن يكونوا أغنياء -وليس عيبًا أو محرمًا عليهم- لكنهم اختاروا لأنفسهم طريقًا ومنهجًا يسيرون عليه من الزهد والتقلل من الدنيا، فكان فقرهم اختياريًا، بينما العامة من الناس يكون فقرهم اضطراريًا، ولو استطاعوا أن يحوزوا على ما في أيدي غيرهم لفعلوا، لكنهم عاجزون عن ذلك.

(١) صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل لعبد الفتاح أبو غدة (ص: ١٤٦).

٤٣٧

الافتقـار إلى الله مُغنٍ

قال أبو الحسن المزيَّن[(١)] رحمه الله: «من افتقر إلى الله تعالى وصحَّح فقرَه إليه بملازمة آدابه، أغناه الله به عن كلِّ ما سواه»[(٢)].

المعنى الإجمـالي

أعلن الله تعالىٰ لجميع العباد بأنهم فقراء إليه، ومحتاجون إلىٰ عونه وتوفيقه وغناه، فقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر:١٥]، والافتقار إلىٰ الله يكون بمعرفة حق العبد علىٰ ربه سبحانه وتعالى؛ فهو محتاج إلىٰ خالقه ليصلح شأنه كله من أمر دينه ودنياه؛ فيغفر ذنبه، ويهديه ويزكيه، ويصلح له دينه الذي هو عصمة أمره، ودنياه التي بها معاشه، وآخرته التي إليها معاده.

والافتقار إلىٰ الله بإظهار الضعف البشري، والانكسار عند دعائه وطلبه والالتجاء إليه، والتخلي عن حول العبد وقوته، والالتجاء إلىٰ حول الله وقوته، وتصحيح الفقر لله بحسن الأدب والتضرع والتمسكن بين يديه، ومعرفة آداب

(١) علي بن محمد، أبو الحسن المزين، البغدادي، الأستاذ العارف، صحب سهلا التستري والجنيد، كان من أورع القوم وأكملهم حالا، توفي سنة ٣٢٨هـ. ينظر: طبقات الصوفية (ص: ٢٨٩)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (١٥/ ٢٣٢).

(٢) طبقات الصوفية (ص: ٢٩١).

السالكين إلىٰ عبوديته، الذين يعلمون مقامات العبودية كلها، ويدعون الله أن يجعلهم في هذا المقام.

فمن أظهر حاجته وفقره وعبوديته لله تعالىٰ فإن الله يجعل له الغنىٰ عن الخلق، وإن كان فقيرًا، والقوة وإن كان ضعيفًا، والمهابة والوقار وإن لم يكن لديه خدم ولا حُجَّاب.

إن المفتقر إلىٰ الله تعالىٰ الملازم لآدابه لا يحتاج إلىٰ مخلوق، بل يحتاج المخلوقون إليه، لا يسأل الناس شيئًا، بل يبادر إلىٰ عطائهم ونوالهم، فكفُّه سخيةٌ، وقلبه متواضعٌ للعباد. دعاؤه دعاء النبي ﷺ: «اللهم اكفني بحلالك، عن حرامك، وأغنني بفضلك عمن سواك»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه برقم: (٣٩٢٠)؛ وأحمد في مسنده برقم: (١٣٢٦)؛ والبزار في مسنده برقم: (٥٩٠).

٤٣٨

الحاجات طريق القرب

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «الفاقاتُ بُسُطُ المواهِبِ»[١].

بيان المفردات

الفاقات: هي البلايا والمِحَن، وتأتي الفاقة بمعنى الحاجة والفقر، والمراد بها هنا: المصائب والابتلاءات التي تُذكِّر الإنسانَ بفقره وفاقته.

بُسُط: جمع بِساط، وهو: ما يُبسَط بين يدي مَلِكٍ أو رئيسٍ أو زعيمٍ، فيجلس عليه الوافدون إليه، تقرُّبًا منه.

المواهب: جمع موهبة، وهي: كل ما قد يتفضل به المولى ﷻ على عبده من النعم المادية والمعنوية، المتعلقة بشؤون الدنيا أو الآخرة[٢].

المعنى الإجمالي

إن المصائب إذْ تذكِّر صاحبَها بفاقته وافتقاره إلى الله، تقوده إلى الوقوف على بساط القرب من الله تعالى، متذللًا متضرعا، يستجدي منه الرحمة ويسأله العافية،

(١) الحكم العطائية (ص: ٣٨).

(٢) الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٤/ ٢١١).

ويستمنحه مزيدًا من الفضل والإحسان(١).

ووُرُود الفاقات على العبد يُدخِله حظيرة القدس، ويُجلِسه على بِساط الأُنس؛ فتحصل له المواهب الربانية والنفحات الرحمانية. وقد وضَّح ابن عطاء الله هذا المعنى في حكمة أخرى، وهي قوله: «إنْ أردتَ وُرُودَ المواهب عليك، صحِّحْ الفقرَ والفاقةَ لديك؛ ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ﴾ [التوبة:٦٠]»(٢).

ومعناها: إن أردتَ ورودَ المواهب الربانية من الله تعالى عليك، صحِّح الفقرَ والفاقةَ لديك، بأن تتحقَّق بهما تحققًا تامًّا، فلا يكون عندك استغناءٌ بغيره بوجهٍ من الوجوه، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ﴾ [التوبة:٦٠](٣).

ومما لا ريب فيه أن العبد إذا قدَّم بين يدي مسألته فقرَه ومسكنتَه، أجاب الله دعاءه، وأعطاه سُؤْلَه. وذلك، لأن العبادات لا تحيا بدون روحها، وروح العباداتِ العبوديةُ، ولا تتحقق العبودية إلا بالتذلُّل الحقيقي لله ﷻ، ولا ينشأ التذلل في كيان الإنسان إلا عند شعوره بكامل عجزه وفقره إلى الله ﷻ(٤).

---

(١) الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٤/ ٢١١).

(٢) الحكم العطائية (ص: ٣٩).

(٣) شرح الحكم العطائية للشرنوبي (ص: ١٢٤-١٢٥). ينظر: تعليقات يوسف الحاج أحمد على الحكم (ص: ٣٨-٣٩).

(٤) الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٤/ ٢١٢).

٤٣٩

الفاقة في العبد صفةٌ لازمة

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «فاقَتُك لك ذاتيةٌ، ووُرُودُ الأسبابِ مذكِّراتٌ لك بما خَفِيَ عليك منها، والفاقةُ الذاتيةُ لا تدفعُها العوارِضُ»(١).

المعنى الإجمالي

إن فاقة الإنسان وحاجته إلىٰ المدد والعون ذاتية له، وإن الاضطرار لازم لوجوده، وذلك لأنه إذا علم أن عدمَه سابقٌ علىٰ وجوده، ثم خلقه الله تعالىٰ، وأن وجوده مفتقِرٌ دائمًا إلىٰ المدد في كل وقتٍ، أدرك أن فاقته ذاتية له، وأن ورودَ الأسباب كالفقر والمرض مذكِّرات له بما خفي عليه من الفاقة الذاتية. والفاقة الذاتية اللازمة للعبد لا تدفعها، وفي نسخة: لا ترفعها العوارضُ، كالصحة والغنىٰ، فإنه يجوز في حقه أن يُزِيلَ ذلك ويُبدِلَه بضدِّه المقتضِي للافتقار والاضطرار. ولا يُزايِل العبدَ هذا الاضطرارُ لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولو دخل الجنةَ، فهو محتاج إلىٰ الله تعالىٰ دائمًا وأبدًا، وإذا لاحظ العبدُ ذلك وقف عند حدِّه، وقام بعبودية ربِّه، وخاف من تهديد قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ

(١) الحكم العطائية (ص: ٣٨).

قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ [يونس:١٢][(١)].

والدليل على هذا ما قد تقدم عند الكلام على قول ابن عطاء الله: «نعمتان ما خرج موجودٌ عنهما، ولا بد لكلِّ مُكوَّنٍ منهما: نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد»[(٢)]. وقد كان الإنسان وهمًا في طوايا العدم، ثم إن الله تعالى انتشله من العدم إلى الوجود، كما قال سبحانه: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان:١]. برز إلى الوجود بإيجاد الله تعالى إياه، عاريًا إلا من فقره، وتائهًا إلا عن ذلِّهِ، وجاهلًا إلا بضعفِهِ، ومن ثَم فقد كانت فاقته ذاتية فيه، صفة ملازمةً لكينونته، لا صفة طارئةً عليه بسببٍ عارضٍ.

والتعبير القرآني دقيق في الدلالة على هذا المعنى، قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء:٢٨]. ومثله قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ﴾ [الروم:٥٤]. ويترتب على ذلك أن الأسباب العارضة التي تأتي لصالحه قد تردُّ عنه آثارَ ضعفِهِ وتحميه من نتائجه، ولكنها لن تحيل ضعفَه الذاتيَ إلى قوة، ولن تحرِّره من فاقته التي هي من كينونته[(٣)].

(١) شرح الحكم العطائية للشرنوبي (ص: ٨٤).
(٢) الحكم العطائية (ص: ٦٦).
(٣) الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٣/ ١٦٩-١٧٠).

٤٤٠

استغناء الله تعالى عن عباده

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «لا يزيد في عِزِّه إقبالُ مَن أقبَلَ عليه، ولا ينقُصُ مِن عِزِّه إدبارُ مَن أَدبَرَ عنه»(١).

المعنى الإجمالي

إن الله سبحانه وتعالى عزيز قبل وجود الناس، وقبل وجود الخلائق كلها، لأن عزتَه صادرة من ذاته، وظهور عزته يتجلىٰ في صَمَديَّتِهِ، أي: في توقف كل شيء عليه، وفي عدم احتياجه هو إلىٰ أيِّ شيءٍ، فصفة العزة لله عز وجل ثابتةٌ من الأزل قبل أن يوجد شيء من المخلوقات. فلو فرضنا أن الناس جميعًا أدبروا عنه وأعرضوا عن التعرف عليه والإيمانِ به، ولم يلتزموا بشيء من أوامره، أفيكون إدبارهم وإعراضهم هذا سببًا في نقص عزته؟ تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا(٢).

وبعد هذا التأصيل، نفهم معنىٰ قول ابن عطاء الله في هذه الحكمة، ومعناها: أن الله سبحانه غنيٌّ عن كل شيء، مفتقِرٌ إليه كلُّ شيء، لا تنفعه طاعةُ الطائعين، ولا تضرُّه معصيةُ العاصين. ولا يزيد في عزِّه إقبالُ مَن أقبل عليه؛ لأن عزتَه أزليةٌ

(١) الحكم العطائية (ص: ١٦).

(٢) الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٤/ ٤٤٢-٤٤٣).

قديمةٌ، ولا ينقص من عمرِهِ إدبارُ مَن أدبر عنه؛ لأنه غنيٌّ عن العالمين(١).

وهذا الحديث بمعنىٰ الحديث القدسي حيث أخبر النبي ﷺ أن الله تعالىٰ قال: «يا عبادي! لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا علىٰ أتقَىٰ قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي! لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا علىٰ أفجرِ قلبِ رجلٍ واحدٍ، ما نقص ذلك من ملكي شيئا»(٢).

وقال الله سبحانه في كتابه الكريم: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر:١٥]، وقال أيضًا: ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان:١٢]، وقال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران:٩٧].

---

(١) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ٤٥١-٤٥٢).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٦) برقم: (٢٥٧٧).

٤٤١

روح العبودية

قال ابن القيم رحمه الله: «الذُلُّ والانكسارُ روحُ العبوديّة ومخُّها ولبُّها»[١].

بيان المفردات

المخ: هو خالص كل شيء، ومن هذا سمي الدماغ مخًّا[٢].

اللُّب: هو خالص كل شيء وما ينتقىٰ منه، ومن هذا سمي العقل لُبًّا[٣].

المعنى الإجمالي

قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦].

أي ليكونوا عبيدا لله سبحانه، ولا يكون العبد عبدا ما لم يعرف ربه بالربوبية ونفسه بالعبودية، فمن عرف ربه وعرف حقيقة نفسه أقامها في مقام العبودية التي خُلِقَت له.

(١) مدارج السالكين في منازل السائرين لابن القيم (١/ ٤٦١).

(٢) مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ٢٦٩).

(٣) مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ٢٦٩).

وأصل العبودية هو التذلل والانكسار والخضوع للمعبود، وهذا ما يحب أن يراه الرب ﷻ في عبده، وبقدر ما يتذلل العبد لربه وينكسر بين يديه بقدر ما يكون قريبا منه، كما ورد في الأثر عن عمران القصير قال: قال موسىٰ بن عمران عليه السلام: «أي رب، أين أبغيك؟ قال: ابغني عند المنكسرة قلوبهم؛ إني أدنو منهم كل يوم باعا، ولولا ذلك لانهدموا»(١).

ويؤيد ذلك ما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء»(٢)، فمن أكثر ما يقرب العبد من ربه السجود، فهو أعظم ما يظهر به التواضع والذل للمعبود، وهو المقصود الأعظم للصلاة؛ حيث يدخل العبد إلىٰ ربه دخول العبيد علىٰ الملوك، ويضع أشرف أعضائه في أوضع مكان يمكن أن يضعه فيه، ويذكره معترفا بعلوه وعظمته فيقول: سبحان ربي الأعلىٰ.

(١) الزهد لإمام أحمد بن حنبل (ص: ٦٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٤٩) برقم: (٤٨٢).

٤٤٢

الانكسار لله تعالى يأتي بالنصر

قال ابن القيم رحمه الله: «شمعةُ النَّصر إنما تنزلُ في شَمْعَدانِ الانكسارِ»[(١)].

بيان المفردات

الشَّمْعَدَان: مِسْرَجةٌ توضع عليها الشُّموع للاستضاءة بها[(٢)].

المعنى الإجمالي

إنَّ عبادةَ التذلّل والخضوع والانكسار بين يدي الله ﷻ هي من أحب العبادات إلىٰ الله تعالىٰ التي تجلب النَّصر للعبد، قال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:٦٠]، فما أقربَ الجَبْرَ من القلب المكسور، وما أدنىٰ النَّصرَ والرحمةَ والرزقَ من الإنسان المتذلل الكسير أمام ربّه الذي يُظْهِر ضعفَه وحاجتَه ولجوءه إلىٰ الله ﷻ، وقد حُكي عن بعض العارفين أنَّه قال: «دخلتُ علىٰ الله من أبواب الطّاعات كلِّها، فما دخلت من بابٍ إلّا رأيتُ عليه الزِّحام، فلم أتمكَّن من الدُّخول، حتّىٰ جئتُ بابَ الذُّلِّ

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٩٤)؛ مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٤٦٢).

(٢) كلمة (شمعدان) مكونةٌ من جزءيْن، (شمع) و (دَان)، ومَعْناهُ: الوِعَاء أو المَكان، وهي فارسيةُ الأصلِ. ينظر: المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة (١/ ٤٩٤).

والافتقار، فإذا هو أقربُ بابٍ إليه وأوسعُه، ولا مزاحم فيه ولا معوِّق، فما هو إلَّا أن وضعتُ قدمي في عَتَبته: فإذا هو سبحانه قد أخذ بيدي وأدخلني عليه»[(١)].

فابنُ القيم رحمه الله شبَّه النصر والظَّفر بالمراد بالشمعة، وشبَّه الانكسار بوعاء الشمعة، من باب السَّبَب والمُسبَّب، فمن أراد النَّصرَ فعليه بالانطراح بين يديه الله والاستسلام له، فعندما ينكسر الإنسان أمام الله، ويُظْهِر الضعف والاستكانة، فإن الله يجبر هذا الكسر، ويقوي هذا الضعف، ويغني هذا الفقر، لأنَّ حكمةَ الله اقتضتْ أن خِلَع النصر وجوائزَه إنما تُفَضُّ وتُوَزَّعُ علىٰ أهل الانكسار، قال تعالىٰ: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةً وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص:٥][(٢)].

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٥١)؛ دروس الشيخ محمد المنجد (٦٢/ ٢٧).
(٢) ينظر: زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم (٣/ ٥٩٣).

٤٤٣

اِلْزَم الباب حتى تدخل

قال ابن القيم رحمه الله: «لا تَسْأَمْ من الوقوف على الباب ولو طُرِدْت، ولا تقطع الاعتذار ولو رُدِدْت؛ فإن فُتح البابُ للمقبولين دونَك فاهجم هجوم الكذّابين، وادخل دخول الطُّفَيليّة، وابسُطْ كفّ ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾»[1].

بيـان المفردات

تسْأَم: تَمَلّ، والسّأَم: الملل[2].

الطفيليّ: الذي يَدخل مع القوم فيأكل طعامهم من غير أن يُدعى[3].

المعنى الإجمـالي

هذه الحكمة تخاطب العبد الذي أذنب وأسرف على نفسه: إياك أن تملّ أو تسأم من الوقوف على باب التوبة فلا خلاص لك غير ذلك، ومهما كانت العوائق

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٦٩)؛ ولابن الجوزي عبارة مشابهة لهذه العبارة في المدهش (ص: ٤٨٤)، وقد اخترنا عبارة ابن القيم لوضوحها.

(٢) لسان العرب لابن منظور (١٢/ ٢٨٠).

(٣) لسان العرب لابن منظور (١١/ ٤٠٤).

فلا تتردد ولا تتراجع، واستمر في الاستغفار والاعتذار لعل الله يقبل توبتك ويعفو عنك، وإذا رأيت أن الصالحين المتّقين قد تُقُبّل منهم وفتح لهم باب الطاعة والأنس بالله فليكن ذلك دافعًا ومشجّعًا لك على الهجوم بسرعة لتلحق بهم، حتى ولو كنت في عملك كاذبا غير صادق كما هو حال أولئك الصالحين، فإذا كان الصالحون استحقوا الدخول بجدارتهم فادخل أنت معهم من باب التطفّل، ثم أظهر فاقتك وفقرك وضعفك وعجزك بين يدي مولاك الكريم، ومُدّ أكفّ الضراعة إليه حتى يعطيك من واسع رحمته وكرمه.

وقوله: «ولو طُرِدْتَ» «ولو رُدِدْتَ» هو من باب المبالغة في الحثّ على الإصرار والاستمرار في التوبة والاستغفار، وأن لا ييأس العبد من رحمة الله مهما بلغت ذنوبه، وليس معنى ذلك أن الله يطرد أحدا عن بابه، أو أن يرد كفّ من دعاه صِفْرًا، كيف ذلك والله سبحانه يقول: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة:١٨٦]؟ وقال ﷺ: «إنّ الله ﷻ يَبسُط يدَه بالليل ليتوبَ مُسيء النهار، ويَبسُط يدَه بالنهار ليتوبَ مُسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»(١).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٠٠) برقم: (٢٧٥٩).

باب العلم والمعرفة

٤٤٤

سَبْقُ الأكياس

قال أبو الدرداء ﵁: «يا حبذا نوم الأكياس وإفطارهم، كيف يغبِنون سهر الحمقى وصيامهم»(١).

بيان المفردات

الأكياس: جمعُ كَيِّس، والكَيِّسُ هو الرجلُ الظريفُ الفَطِنُ العاقلُ، مأخوذٌ من الكَيْسُ: وهو حُسْنُ الفَهْم والسُّلوك، والتأني للأمور، ويأتي بمعنى العقل، والجُود، والظُّرْف(٢).

يغبنون: الغبن هو النقص والضعف(٣). وكأنه أراد هنا: أن نوم الأكياس وفطرهم ينقص أمامه قيام الحمقى في الليل وصيامهم بالنهار؛ لأن الأكياس يعرفون كيف يكسبون الأجور بالنيات الطيبة الصالحة حتى وهم نيام.

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١١٣)؛ قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ١٣٥)، ولفظه: «...يعيبون صوم الحمقى وسهرهم»؛ الفوائد لابن القيم (١/ ٢٠٦).

(٢) الكاف والياء والسين أصلٌ يدل على ضمّ وجَمع. من ذلك الكَيْسُ في الإنسان: وهو خلاف الخُرْق، لأنه مجتمع الرأي والعقل، يُقال: كاسَ الرَّجُلُ يَكِيْسُ، فهو رجل كَيْسٌ وكَيِّسٌ، والجمع أكْياس. ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٣/ ٩٧٢)؛ مجمل اللغة لابن فارس (ص: ٧٧٥)؛ مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ١٤٩)؛ لسان العرب لابن منظور (٦/ ٢٠٠).

(٣) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (ص: ٣٦٤٦).

المعنى الإجمالي

هذه الحكمةُ هي مِن جواهر الكلام وأدلِّه علىٰ كمال فقه الصحابة وتقدمهم علىٰ مَن بَعدهم في كُلِّ خيرٍ ﭫ، ذلك لأنَّ العبدَ إنما يقطعُ منازلَ السَّيْر إلىٰ الله بقلبه وهِمَّته لا ببدنِه، والتَّقوىٰ في الحقيقة هو تقوىٰ القلوب، لا تقوىٰ الجوارح، يقول الله تعالىٰ: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج:٣٧].

فالكيِّسُ يَقطعُ مِن المسافة بصحةِ العزيمةِ وعُلوِّ الهمَّةِ وتجريدِ القَصدِ وصِحةِ النية مع العمل القليل أضعافَ أضعافِ ما يقطعه الفارغُ مِن ذلك مع التَّعبِ الكثير والسَّفرِ المُشِقّ؛ فإن العزيمة والمحبة تُذهِب المشقة وتُطيِّب السَّيْرَ، والتَّقدمُ والسَّبْقُ إلىٰ الله سبحانه إنما هو بالهِمَم وصِدْقِ الرغبة والعزيمة، فيتقدمُ صاحبُ الهمة مع سُكونه صاحبَ العمل الكثير بمراحل؛ فإن ساواه في هِمته تقدَّم عليه بعَمله، فالأعمال تتفاضل بحسب ما في قلوب أصحابها من تقوىٰ الله ﷻ، فكَمْ مِن قائمٍ ممقوت! وكم من نائمٍ مرحوم! هذا قام وقلبه كان فاجرًا، وهذا نام وقلبه كان ذاكرًا[1]، يقول النبي ﷺ: «رُبَّ صائمٍ حَظُّه من صيامه الجوع والعطش، ورُبَّ قائمٍ حَظُّه من قيامه السهر»[2].

(١) ينظر: الفوائد لابن القيم (١/ ٢٠٦)؛ المحجة في سير الدلجة لابن رجب الحنبلي (٤/ ٤١٧).

(٢) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (٣/ ٤٢٠) برقم: (١٩٩٧)؛ وابن حبان في صحيحه (٨/ ٢٥٧) برقم: (٣٤٨١).

٤٤٥

العلم هو الخشية

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ليس العلم بكثرة الرواية، ولكن العلم الخشية»(١).

بيان المفردات

الرواية لغة: هي النقل والتحمل، والهاء فيها للمبالغة، أطلقت على كل دابة يُستقىٰ الماء عليها، ثم استخدمت في نقل الكلام إلىٰ الآخر، فيقال مثلًا: روىٰ فلانٌ فلانا شعرا إذا رواه له حتىٰ حفظه للرواية عنه، ورويتُ الحديث والشعر روايةً فأنا راوٍ(٢).

وفي اصطلاح المحدثين: علم يشتمل علىٰ نقل أقوال النبي ﷺ، وأفعاله، وروايتها، وضبطها، وتحرير ألفاظها، وإسناد ذلك إلىٰ من عُزِي إليه بتحديث أو إخبار أو غير ذلك(٣).

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (ص: ١٣١) برقم: (٨٦٧)؛ المدخل إلىٰ علم السنن للبيهقي (٢/ ٧٣٢) برقم: (١٥٩٢).

(٢) مصباح المنير للفيومي (١/ ٢٤٦)؛ لسان العرب لابن منظور (١٤/ ٣٤٨).

(٣) تدريب الراوي للسيوطي (١/ ٢٥ - ٢٦).

المعنى الإجمــالي

غاية العلم والهدف من حصوله الخشية والتقوىٰ لله ﷻ، فبالعلم يعرف عن الله ﷻ ومن عرفه خشيه واتقىٰ من معصيته، وليس العلم بكثرة الروايات أو الملازمة والتفاخر بالشيوخ والدرجات، بل هي آثار وسبل للوصول إلىٰ العلم بالله تعالىٰ وخشيته وتعظيمه، فمن لم يخش الله لم يحصل العلم ولو طاف به الدنيا، ومن خشي الله وعمل بمقتضىٰ علمه فهو العالم الحق ولو كانت بضاعته قليلة. ولذلك ربط الله سبحانه تعالىٰ الخشية بالعلم والعلماء، فقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر:٢٨]، أي يخشونه حق خشيته، وذلك لكمال عِلمهم بالله سبحانه وبأحكامه وبعَظمته وبقدرته وبجبروته وما إلىٰ ذلك، وعلىٰ رأسهم الأنبياء والرسل ثم ورثتهم من العلماء والصلحاء، فالاعتبار هو الخشية لا الكثرة، كلما زاد العلم زادت الخشية وكلما نقص العلم نقصت الخشية.

ويذكر ابن كثير عن أبي حيان التيمي مقولة تفيد أن العلماء ثلاثة أنواع: عالم بالله عالم بأمر الله، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله. فالعالم بالله وبأمر الله: الذي يخشىٰ الله ويعلم الحدود والفرائض، والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله: الذي يخشىٰ الله ولا يعلم الحدود ولا الفرائض، والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله: الذي يعلم الحدود والفرائض، ولا يخشىٰ الله ﷻ(١).

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٥٤٥).

٤٤٦

حقيقة معرفة الله تعالى

قال أبو هاشم الزاهد[(١)] رحمه الله: «من عرفَ اللهَ حقَّ معرفته عبَدَه بكلِّ طاقتِهِ»[(٢)].

المعنى الإجمالي

معنى الحكمة أن العبد لو عرف الله حقيقة المعرفة بأوصافه وأفعاله، وهي أن يعرف ذاته العلية وأوصافه العظيمة من جهة الإيمان والعقيدة، ثم يقف على ما يتفضل به الله تعالى على مخلوقاته من عظيم رحمته ونعمه التي لا تحصى، ورأى تقصير العباد نحو ربهم وعصيانهم له وكفرَهم به، وهو يُمهِلهم في الدنيا ويعفو عنهم إذا تابوا، ويغفر للمؤمنين في الآخرة، وغير ذلك من الإنعام والإفضال الذي لا يحصيه أحد من البشر، لرأى تقصيره نحو هذا الإله العظيم الغفور الرحيم، ثم أقبل على طاعته والعبادة له، وكلما لاحظ نعمَه عليه أدرك أنه مهما حاول أن يؤدي شكرَ نعمِه لا يستطيع، فيدفعه هذا الخجل والشعور بالتقصير إلى الإقبال على الله بالكلية، والعبودية له بكل طاقته.

(١) من قدماء زهاد بغداد، من أقران أبي عبد الله البراثي، جلس إليه سفيان الثوري. قال أبو نعيم: كان إلى الحق وافدا وعن الخلق حائدا، وفيما سوى الحق زاهدا، لم تذكر المصادر اسمه ونسبه وتاريخ وفاته. ينظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٢٢٥)؛ تاريخ بغداد (١٦/ ٥٧٣).

(٢) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٩٥).

وكان النبي ﷺ أعلم الناس بالله تعالىٰ، لذلك خاطب أصحابَه قائلًا: «واللهِ، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا، وما تلذذتم بالنساء علىٰ الفرش، ولخرجتم إلىٰ الصعدات تجأرون إلىٰ الله»[١].

(١) أخرجه الترمذي في جامعه برقم: (٢٤٩٨)؛ وابن ماجه في سننه برقم: (٤٣١٢). قال الترمذي: هذا حديث حسن.

٤٤٧

معرفة الله أعظم نعيمٍ في الدنيا

قال مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «خرج أهل الدنيا من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شيء فيها، قالوا: وما هو؟ قال: معرفة الله عَزَّوَجَلَّ»(١).

المعنى الإجمالي

أطيب شيء في الدنيا بعد معرفة الله في الدنيا هو الشوق إلىٰ لقائه سبحانه، وأطيب شيء في الآخرة وهو النظر إلىٰ وجهه سبحانه(٢).

إن من يعرف الله يجد أطيب شيء في الدنيا حلاوة وسعادة لا يجده غيره من أهل الدنيا ممن لم يعرفوا الله، يشعر العارف بالله بسعادة تملأ وجدانه وكيانه كله، لا تهزه النوائب، ولا تصرفه عوادي الدهر عن مراده في أن يكون عبدًا لله تعالىٰ.

إن من يعرف الله تعالىٰ يعظمه ويقدره حق قدره، ويطيعه ويعبده عبادة تامة خالصة لا يصرف منها جزءًا لمخلوقٍ أبدًا. ولن تكون المعرفة بالله مكتملةً مستوفاةً إلا بالإيمان بالله إيمانًا تخالطُ بشاشته القلوب، وتلك أمنيةٌ عزيزةٌ يودُّ كل مؤمن ومؤمنة أن يصل إليها؛ فبالإيمان العميق واليقين الصادق يتصل المؤمن بربه

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ٣٥٧)؛ والمجالسة وجواهر العلم للدينوري (٢/ ٩١).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٤٢).

تعالىٰ اتصالًا وثيقًا، فيرىٰ من دلائل قدرة الله ولطفه ورحمته بعباده ما يزيده إيمانًا وهدًىٰ وتقوًىٰ.

ولن تتم معرفة الله تعالىٰ إلا بمعرفة الله من خلال كتابه وسنة رسول ﷺ، ومن آثار قدرته وشواهد عظمته وباهر قهره وسلطانه، كذا بمعرفة أسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ.

٤٤٨

طريق الفضائل

قال ربيعة ابن أبي عبد الرحمن[(١)] رحمه الله: «العلم وسيلة إلى كل فضيلة»[(٢)].

المعنى الإجمالي

إن خير ما فكرت فيه العقول، وأنفس ما شغلت به النفوس هو طلب العلم والاشتغال به؛ لكثرة فوائده ووفرة فضائله، فهو مفتاح لكل خير في الدنيا والآخرة، كيف لا وهو الوسيلة إلىٰ معرفة الخالق، وسبب الخلود في النعيم الدائم، ولا يعرف التقرب إلىٰ الله إلا به؟، فهو سبب لمصالح الدارين، وكفىٰ بأهل العلم فضلا وشرفا استشهاد الله ﷻ بأهله علىٰ أعظم مشهود به وهو التوحيد فقال: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِ ﴾ [آل عمران:١٨]، فلو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته.

(١) ربيعة بن أبي عبد الرحمن فَرُّوخ، أبو عثمان، وقيل: أبو عبد الرحمن، القرشي، التيمي مولاهم، المشهور بربيعة الرأي، روىٰ عن الصحابة وكبار التابعين، وكان من أئمة الاجتهاد، توفي بالمدينة سنة ١٣٦هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٦/ ٩١)، وتهذيب التهذيب (٣/ ٢٥٨).

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي (٦/ ٩٠).

ومن فضائله الجليلة: أنه يرتقي بصاحبه ويرفعه إلىٰ أعلىٰ الدرجات في الدنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١].

وينسب إلىٰ علي رضي الله عنه هذه الأبيات في فضل العلم وأهله(١):

مـا الفضـل إلا لأهـل العلـم إنهـمُ ... علـىٰ الهـدىٰ لمـن استهدىٰ أدِلَّاءُ

وقـدْر كـلِّ امْـرِئٍ مـا كـان يُحْسِـنه ... وللرجـال علـىٰ الأفعـال أسـماء

وضـد كـل امـرئ مـا كـان يجهلـه ... والجـاهلون لأهـل العلـم أعـداء

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ٢١٨).

٤٤٩

العلم طريقه الزهد

قال عبد الله بن المبارك ﵀: «طلبتُ العلمَ للدنيا، فدلَّني العلمُ على تركِ الدنيا»[(١)].

المعنى الإجمالي

يريد ابن المبارك ﵀ بكلامه أن طلبَه للعلم كان لكسب الرزق وتحصيل المعاش، كما يكون حال أغلب الناس عندما يبدؤون طلب العلم، ثم علَّمه العلمُ الزهدَ في الدنيا والعملَ للعقبىٰ، وأن يقصد في طلبه للعلم وجهَ الله تعالىٰ، فبعد أن كان يظن أن الدنيا ذات قيمة -لأن الناس يتكالبون عليها- أراد ابن المبارك أن ينافسهم في طلب الدنيا، لكن سرعان ما اكتشف بالعلم والمعرفة أن الدنيا ليست إلا مزرعة الآخرة، وعين المؤمن وقلبه يجب أن تكون متوجهة إلىٰ الله والدار الآخرة أولًا، وأن من اغتر بالدنيا وسعىٰ خلفها ستُغرِقه وتُهلِكه، فزهد قلبه في الدنيا وتحرر من حبِّها، مع أنه كان مشهورًا بالغنىٰ والمال، لكن ليس ترك الدنيا بالتخلي عن الأموال وتفريغ الجيوب، إنما الزهد زهد القلوب.

---

(١) البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي (٧/ ٢٧)؛ وتهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٥٣).

لقد ورد عن السلف الصالح أقوال كثيرة تصبُّ في معنىٰ هذه الحكمة، من ذلك قولهم المشهور: «طلبنا العلمَ لغير الله، فأبىٰ أن يكون إلا لله»، ومرادهم أنهم في أول طلبهم للعلم لم يستحضروا الإخلاص أن يكون ذلك لله تعالىٰ، لكن بعد ذلك فتح الله عليهم بالهداية، فكانت عاقبته أن صار لله تعالىٰ.

٤٥٠

العارفون بالله راضون عنه

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «أحق الناس بالرضا عن الله أهل المعرفة بالله عز وجل»[(١)].

المعنى الإجمالي

من آداب العارف الحقيقي أن يقرَّ بالأشياء في محلها ويسير معها على سيرها، فكل ما أبرزته القدرة للعيان فهو في غاية الكمال والإتقان[(٢)]. قال أبو الحسن النوري رحمه الله: «مراد الله من خلقه ما هم عليه، فإذا أقام الله عبدًا في مقام من المقامات فالواجب على العارف أن يقره فيه بقلبه كائنًا ما كان»[(٣)].

وخُصَّ أهل المعرفة بالذكر لأنهم لا يعارضون الله فيما أظهره في خلقه، وإلا كانوا منازعين القادر سبحانه وتعالى القائل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام:١١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩].

(١) طبقات الصوفية (ص: ٢٤)؛ وحلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ١٠٤).
(٢) أي كلما يراه العبد من تقدير الله وقضائه في الأنفس والمخلوقات كلها عليه الإقرار به، وأن يراه في غاية الإتقان والكمال.
(٣) إيقاظ الهمم (ص: ٨٦).

ومما يروىٰ عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «لأن ألحس جمرة أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت أحب إليَّ من أن أقول لشيء كان ليته لم يكن، أو لشيء لم يكن ليته كان»(١).

إن العارف لا ينكر شيئًا ولا يجهل شيئًا، وقد قال بعض العارفين: ليس في الإمكان أبدع مما كان. وتأويله: أن ما سبق في علم الله يكون، لا يمكن تغييره، فلا أبدع منه(٢).

إن من يرضىٰ عن الله يعرفه، ومن يعرفه لا يعترض علىٰ أحكامه وقضائه، ولقد كان النبي ﷺ سيد الصابرين الراضين عن الله العارفين به.

(١) الزهد والرقائق لابن المبارك (الملحق/ ٣١).
(٢) إيقاظ الهمم (ص: ٨٨).

٤٥١

الراحة في معرفة حقائق الناس

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «من عرف الناس استراح»[(١)].

المعنى الإجمالي

الناس طبائع مختلفة، وأفهام متفاوتة، ودرجاتهم متباينة من حيث قربهم وبعدهم من الله تعالىٰ. فمن عامل الناس بما يرضي الله تعالىٰ، ولم يحزن كثيرًا لما يصيبه منهم، فقد حاز سعادة في دنياه، وابتعد عما يحبطه ويشقيه في الحياة الدنيا والآخرة.

ومن معرفة الناس مداراتهم في العلوم ومفارقتهم في العقول[(٢)]، وهذا المعنىٰ هو جزء مما عنته الآية في قوله تعالىٰ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: استأذن رجل علىٰ رسول الله ﷺ وأنا عنده، فقال: «بئس ابن العشيرة أو أخو العشيرة»، ثم أذن له، فألان له القول، فلما خرج قلت له: يا رسول الله، قلتَ له ما قلت، ثم ألنت له القول! فقال: «يا عائشة، إن من شر الناس

(١) طبقات الصوفية (ص: ٢٥).
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٣٩).

من تركه الناس أو ودعه الناس اتقاء فحشه»[١].

ويذكر عن أبي الدرداء رضي الله عنه قوله: «إنا لنكشِّرُ في وجوه أقوام، وإن قلوبنا لتلعنهم»[٢]. والتكشير: ظهور الأسنان وأكثر ما يطلق عند الضحك. قال ابن بطَّال: «المداراة من أخلاق المؤمنين وهي خفض الجناح للناس، ولين الكلمة، وترك الإغلاظ لهم في القول وذلك من أقوىٰ أسباب الألفة، وظن بعضهم أن المداراة هي المداهنة فغلط؛ لأن المداراة مندوب إليها، والمداهنة محرمة»[٣].

ويقول محمد بن السمَّاك رحمه الله: «من عرف الناس داراهم، ومن جهلهم ماراهم، ورأس المداراة ترك المماراة»[٤]. والمقصود بترك المماراة أي ترك الجدل.

إن كثيرًا من الأضرار التي تصيب العبد سببها إيذاء الناس، وإحباطهم للسائر إلىٰ الله تعالىٰ، لكن من علم حقائقهم، فأعطاهم الذي يجب أن يُعطىٰ، واحترز منهم فإنه يستريح من شرهم وأذاهم.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٣١) برقم: (٦٠٥٤)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٢١) برقم: (٢٥٩١).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٣١) قبل رقم: (٦١٣١).
(٣) فتح الباري (١٠/ ٥٢٨).
(٤) شعب الإيمان (١١/ ٣٦).

٤٥٢

التفقه قبل الترأس

قال الشافعي رحمه الله: «تَفَقَّهْ قبل أن تَرَأَّس، فإذا تَرَأَّسْتَ فلا سبيلَ إلى التَّفَقُّه»[١].

المعنى الإجمالي

السعي في طلب العلم زمن الصبا أيسر من طلبه زمن الشيخوخة، فالعلم في الصغر كالنقش في الحجر، وطلبه مع قلة الشواغل والعوائق خير من طلبه مع تزاحمها، وانشغال طالب العلم بما يهمه من أمور دنياه، وذلك أن الذهن يكون صافيًا في الصغر، وخاليًا من المشاغل والتفكير في هموم الحياة، وقد روي عن عمر رضي الله عنه هذا المعنى فقال: «تفقهوا قبل أن تسودوا»[٢].

وليس معنى ذلك ترك التفقه بعد التسَوُّد والسيادة، فقد علَّق البخاري رحمه الله على ذلك بقوله: «قال أبو عبد الله: «وبعد أن تُسَوَّدوا؛ وقد تعلم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في كبر سنهم»[٣].

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١٤٢).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٢٨٤) برقم: (٢٦١١٦)، والدارمي في سننه (١/ ٣١٤) برقم: (٢٥٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٢٥) برقم: (٧٢).

٤٥٣

زينة العلم

قال الشافعي رحمه الله: «زينة العلم الورع والحلم»[(١)].

المعنى الإجمالي

للعلم أخلاقٌ وآدابٌ يتخلق بها طالب العلم، ومعلمه، وبدون هذه الأخلاق يكون العلم وبالًا وحجةً على صاحبه، ومن أخلاق العلم للعالم والمتعلم خُلُقَا الورع والحلم، فالورع يبعد عن العالم والمتعلم أخذ أقوال غيرهم، ونسبتها إليهم؛ إذ بركة العلم أن يعزى وينسب لقائله، ومن الورع ترك التهجم والتعرض للآخرين -سواءٌ أكان عالمًا أم متعلمًا- بالسخرية، والشتم المقذع، والألفاظ النابية التي تبعد صاحبها عن أخلاق المسلمين المؤمنين، ومن الورع ألا ينسى العالم أو المتعلم نسبة الفضل لأولي الفضل وعدم الخوض فيما لا يعلمه، وعدم الوقوع في المشتبهات.

والحلم بالتغاضي عن هفوات المتعلمين، وهفوات الأقران والزملاء، وهفوات عامة الناس، فإن العالم والمتعلم إن لم يكن لهما حلم يمنعهما من الجهل، فإن العلم لا يؤثر فيهم، ولا في الآخرين من حولهم.

(١) المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (٢/ ٧٤١).

٤٥٤

حليــة العلماء

قال الشافعي ﷺ: «زينة العلماء التقوى، وحليتهم حسن الخلق، وجمالهم كرم النفس»(١).

المعنى الإجمـالي

العلماء كالنجوم المضيئة في السماء، بهم يهتدي السالكون، ويفقه الجاهلون، ويرشد الضالون، وبسببهم تزال شبهات الجهالة، وتدحض الخرافات بحقائق العلم، وما ذاك إلا لاتصاف العلماء بآثار العلم وفضله؛ ومنها البركة والتوفيق في حياتهم، ويتجلىٰ توفيق الله لهم في البركة التي جعلها في أعمارهم؛ إذ استطاعوا أن يقسموا أوقاتهم علىٰ طلب العلم وتعليمه والتأليف فيه، وكذا ما يحتاجون إليه من الخلوة بأنفسهم لعبادة الله تعالىٰ.

ويتحلىٰ العلماء ويتزينون بمكارم الأخلاق ومحاسنها؛ لأنهم يعلمون أن رسول الله ﷺ قد جعل الله خلقه القرآن الكريم، فأدبه به، وأثنىٰ عليه به فقال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤]، ويروون عن رسول الله ﷺ قوله: «إن أحبكم

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١٤٨).

إليَّ، وأقربكم مني يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، وإن أبعدكم مني، وأبغضكم إليَّ مساويكم أخلاقًا: الثرثارون[١] المتشدقون المتفيهقون[٢]»[٣].

ومن مكارم أخلاقهم تجملهم بكرم النفس؛ فيحمدون الله علىٰ نعمائه ولو لم يصيبوا من متاع الدنيا شيئًا؛ لأنهم يعلمون أن ما أعطاهم من الله من العلم لا يعدله شيءٌ من الدنيا وما عليها، ومن كرم نفوسهم بذلهم لجاههم عند من يحتاج إلىٰ نصرتهم ومعونتهم، فهم علماء معلمون لمن تعلم عندهم، وهم رجال عامة لمن طلب منهم خيرًا أو معروفًا.

(١) **الثرثار**: المكثار في الكلام، يقال: عين ثرثارة، إذا كانت واسعة الماء، وأراد به الذين يكثرون الكلام تكلفًا. ينظر: شرح السنة للبغوي (١٢/ ٣٦٧).

(٢) **المتفيهق**: الذي يتوسع في كلامه، ويفهق به فمه، أي: يفتحه، مأخوذ من الفهق، وهو الامتلاء، يقال: أفهقت الإناء ففهق، وبئر مفهاق كثيرة الماء. ينظر: شرح السنة للبغوي (١٢/ ٣٦٧).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٣/ ٥٤٥) برقم: (٢٠١٨)؛ وأحمد في مسنده (٢٩/ ٢٦٧) برقم: (١٧٧٣٢)؛ وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٢١٠) برقم: (٢٥٣٢٠)؛ والبيهقي في السنن الكبرىٰ (٢١/ ٣٦) برقم: (٢٠٨٣٦).

٤٥٥

أقبح عيوب العلماء

قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا عيب بالعلماء أعظم من رغبتهم فيما زهَّدهم الله فيه، وزُهْدِهم فيما رغّبهم الله فيه»(١).

المعنى الإجمالي

الرغبة فيما عند الله تعالىٰ من الرفعة في الدنيا والآخرة، والأجر الذي يحصل عليه العالم أعظمُ من رغبته في الدنيا، التي زهده الله فيها. وإذا حصل أن يستبدل العبد الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير فإنه خاسرٌ في استبداله، فكيف بهذا العبد إن كان عالمًا أعطاه الله علمًا ومعرفة وقوة، فإذا به يزهد في الآخرة والتعرض للخيرات والنفحات، ويقبل علىٰ ما زهَّده الله من متاع الدنيا، إن العالم إن فعل هذا الفعل يكون قد عاب نفسه، وألصق بنفسه عيبًا لا يُنزع منه إلا بالعودة إلىٰ أمر الله تعالىٰ.

ولقد ضرب الله في القرآن مثالين لمن كان العلم وبالًا عليهم؛ فجعلوه مطية لإفساد إرادتهم، وجعل رغباتهم للوصول إلىٰ الدنيا، وزهدهم عن الآخرة التي رغبَّهم الله فيها.

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١٤٨).

قال الله تعالىٰ عن المثال الأول: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]، فشبَّه عالم بني إسرائيل الذي اتبع هواه، وأَتْبَعه الشيطان، بمثل الكلب الذي يدلع لسانه لاهثًا علىٰ كل أحواله، فهو يلهث وراء شهواته ورغباته التي من القبح أن يصير إليها.

والمثال الثاني عن علماء بني إسرائيل الذين حُمِّلوا التوراة، لكنهم ما أفادوا منها شيئًا، فقال الله تعالىٰ: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة:٥].

٤٥٦

طلب العلم بالتواضع ومجاهدة النفس

قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يطلب هذا العلم أحد بالملك وعِزِّ النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذِلّة النفس، وضيق العيش، وخدمة العلم، وتواضع النفس أفلح»[1].

المعنى الإجمالي

يتوجب على طالب العلم أن يتحلى بصفاتٍ وأخلاق حسنة تكون عماده في رحلته مع العلم، منها إذلال النفس، ويقصد بإذلالها إرغامها على تحمل المشاق ومكابدة الآلام والمصاعب حتى يبلغ الهدف والغاية، فقد ذكر الله تعالى عن نبيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ [الكهف:٦٠]، والصبر على ضيق العيش، والسعي لخدمة العلم بجمعه ونشره وتعلمه وتعليمه، ويكون ذلك كله محاطًا بتواضع النفس ولين جانبها، وما سوى هذه الصفات فلن يفلح طالب العلم في الوصول إلى غايته ومطلبه؛ فلا يتأتى العلم للملوك فهم مشغولون بالملك والدنيا عن طلب العلم والصبر على شدائده، ولديهم عزة نفس لا يريدون أن يذلوها في مزاحمة الفقراء والمساكين في طلب العلم.

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١٤١).

ومما يحكىٰ عن قوة التحمل والتجلد في طلب العلم ما قاله ابن أبي حاتم الرازي عن نفسه في طلبه للعلم: «كنا بمصر سبعة أشهر فلم نأكل فيها مرقة؛ وذلك أنَّا كنا نغدو بالغدوات إلىٰ مجلس بعض الشيوخ، ووقت الظهر إلىٰ مجلس آخر، ووقت العصر إلىٰ مجلس آخر، ثم بالليل للنسخ والمعارضة، فلم نتفرغ نصلح شيئا، وكان معي رفيق خراساني أسمع في كتابه ويسمع في كتابي، فلما أكتب لا يكتب ولما يكتب لا أكتب، فغدونا يوما إلىٰ مجلس بعض الشيوخ، فقال: هو عليل، فرجعنا فرأينا في طريقنا حوتا يكون بمصر يُشَقُّ جوفه فيخرج منه أصفر، فأعجبنا فلما صرنا إلىٰ المنزل حضر وقت مجلس بعض الشيوخ، فلم يمكننا إصلاحه، ومضينا إلىٰ المجلس فلم نزل حتىٰ أتىٰ عليه ثلاثة أيام، كاد أن يتغير فأكلناه نيئًا، فقيل له: كنتم تعطونه لمن يشويه ويصلحه، قال: من أين كان لنا فراغ؟»(١).

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٥/ ٣٦١).

٤٥٧

العلـم مـا نفع

قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليس العلم ما حُفِظ، العلم ما نفع»[(١)].

المعنى الإجمالي

العلمُ حفظٌ نافعٌ وعملٌ صالحٌ خالصٌ مباركٌ، وهذا هو حجة العبد يوم القيامة. وأما العلم الفاسد الضار، الذي يكون وبالًا علىٰ صاحبه، ويجعله من الأخسرين أعمالًا، فهو العلم الذي حفظه صاحبه، وتجمَّل به أمام الناس، لكنه لم يظهر في عملٍ من أعماله؛ فهو يقول قولًا، ويسند أمرًا مما علمه، لكنه لا يتبع علمه بعملٍ قليلٍ أو كثير، وهذا حجةٌ علىٰ العبد العالم في الآخرة.

وقد جاء عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله: «لا يغرنكم من قرأ القرآن، إنما هو كلام يُتكلَّم به، ولكن انظروا إلىٰ من يعمل به»[(٢)]. وجاء عن الحسن البصري قوله فيمن علم القرآن وحفظه، ولم يعمل به: «حتىٰ إن أحدهم ليقول: لقد قرأتُ القرآن كله فما أسقطت منه حرفًا، وقد والله أسقطه كله، ما يُرىٰ له في القرآن في خلق ولا عمل، حتىٰ إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نَفَس، والله ما هؤلاء بالقراء،

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٩/ ١٢٣)؛ مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١٤٩).

(٢) التفسير من سنن سعيد بن منصور (٢/ ٣٩٣).

ولا العلماء، ولا الحكماء، ولا الوَرَعة، متىٰ كانت القراء مثل هذا؟ لا كثَّر الله في الناس مثل هؤلاء»[1].

(١) الزهد والرقائق لابن المبارك (ص: ٢٧٤)؛ وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٣/ ٣٦٣).

٤٥٨

طلب العلم في القلة

قال الشافعي رحمه الله: «ما أفلح في العلم إلا من طَلَبه بالقلّة»[(١)].

المعنى الإجمالي

يتحصل المرء على العلم حين يبذل أغلى ما لديه، من الوقت والجهد والمال، فقد يتوافر الشرطان الأولان، وهما الوقت والجهد، ولكن الشرط الثالث قد لا يتوافر إلا لقلة من الناس، فهل يُعدُّ الإقلال من المال مانعًا من طلب العلم؟

إن للسلف الصالح قصصًا عن صبرهم على شظف العيش وقلة ذات اليد، وكفاحهم وجهادهم العلمي حتى وصلوا إلى أعلى المراتب العلمية، ولهم قصص بالغة في التأثير، من ذلك أبو هريرة رضي الله عنه فقد كان من فقراء المسلمين، وكان المسلمون ينشغلون بتجارتهم ومزارعهم وأسواقهم، وبلغ من علمه وروايته لأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم مبلغًا عظيمًا، وهو أكثر الصحابة رواية بالإجماع[(٢)]. يقول أبو هريرة رضي الله عنه عن نفسه: «إنه لم يكن يشغلني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم غرس، ولا صَفْقٌ بالأسواق، وإنما كنت أطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمة يعلمنيها، أو أكلة يطعمنيها»[(٣)].

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١٤١).
(٢) طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي (١٠/ ٨٤).
(٣) سير السلف الصالحين لقوام السنة الأصبهاني (ص: ٥٤١).

وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه كان من فقراء الصحابة رضي الله عنهم، لكنه كان حجة في قراءة القرآن الكريم، فقد قرأ من فِيْ رسول الله ﷺ سبعين سورة من القرآن الكريم[١]، وقال فيه النبي ﷺ: «من أراد أن يقرأ القرآن غضًا طريًّا كما أُنزل فليقرأه علىٰ قراءة ابن أم عبد»[٢].

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن نفسه: «ما أنزلت سورة إلا وأنا أعلم فيما نزلت. ولو أعلم أن أحدًا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل أو المطايا لأتيته»[٣].

وتقول التجارب الإنسانية الناجحة -قديمًا وحديثًا- إن أفضل من نبغوا في العلوم والمعارف، هم أولئك الذين عانوا من قلة ذات اليد، وشظف العيش، وقلة الإمكانات المؤدية لبلوغ المراتب العلىٰ، في العلوم والمعارف، ولكن ذلك لم يمنعهم من تحقيق غايتهم والوصول إلىٰ أهدافهم في العلم والمعرفة.

إن كثرة الأموال وإن ساعدتْ طالبَ العلم في الرحلة وتوفير الكتب والالتحاق بالجهات التعليمية، لكن كثرتها قد تُشغل الإنسانَ وتصرفه عن تحصيل العلم باكتساب المال وصيانته وتنميته.

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (٣/ ٩٩٣).
(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٥/ ٥٣٤).
(٣) الطبقات الكبرىٰ لابن سعد (٢/ ٢٦٠).

٤٥٩

طلب العلم قربة

قال الشافعي رحمه الله: «ما تُقُرِّب إلى الله بشيء بعد أداء الفرائض أفضل من طلب العلم»(١).

المعنى الإجمالي

لقد جعل الإسلام طلبَ العلم وتعلُّمَه وتدريسَه للآخرين من الفرائض التي لا يجوز التخلي عنها، ودليل ذلك أن آية القراءة جاءت على سبيل الأمر والإلزام، وكانت هي أول ما نزل على رسول الله ﷺ وهو في غار حراء، وذكر فيها وسيلة التعلم، وهو القراءة والقلم، فقال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥].

وجعل الله النفير للعلم كالنفير في الجهاد في سبيل الله تعالى، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، ولما لقربة العلم من منزلة عند الله تبارك وتعالى، فإن الله وملائكته، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١٤٠).

البحر ليصلون على معلم الناس الخير، كما جاء في الحديث الصحيح[1]. والعلم يحوط العبادات من الخلل والفساد، فإن من يعبد الله على علم ومعرفة وبصيرة خير ممن يعبده على جهل.

(١) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٤١٦) برقم: (٢٦٨٥)؛ والطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٢٣٤) برقم: (٧٩١٢)؛ والبزار في مسنده برقم: (١٦٩).

٤٦٠

مصالح الدنيا والآخرة مرتبطة بالعلم

قال الشافعي ﵀: «من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم»(١).

المعنى الإجمالي

ما ارتقت الأمم -في الماضي والحاضر- إلا بجهود علمائها ومفكريها وباحثيها، وما انتكست إلا حين استبدلت العلم بالجهل، واليقين بالظن، والحقيقة العلمية بالخرافة، وكانت لأمة الإسلام مكانتها بين الأمم حين انشغلت بالعلوم بكافة أنواعها، فقصدها الآخرون للتعلم منها والإفادة مما عندها.

إنَّ العلم يجعل للمرء مكانةً ومقامًا، فلا يشرف المرء إلا بما يعلمه ويتقنه من العلوم والمعارف والمهارات العلمية المتنوعة؛ ولن يتوقف أثر العلم علىٰ صاحبه في الدنيا والآخرة، بل يتعدىٰ نفعه للآخرين؛ ففي الدنيا يكون أولو العلم مصابيح هداية ونجاة للآخرين، فإذا انغلقت المسائل، ولم يجد الناس لأنفسهم مخرجًا من ظلمات الجهل، فإن أصحاب العلم يعطون الدواء الناجع، والبلسم الشافي لكل ما يريده الناس، في أمور دينهم ودنياهم.

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١٣٩).

وإذا كانت للعلم أهميته في الدنيا من التأصيل والتقعيد للعلوم، والتطبيق في مجالات الحياة المختلفة، وظهور الاكتشافات العلمية والمخترعات في شتىٰ مجالات الحياة، مما ظهر علىٰ معايش الناس وحياتهم، فإن للعلم أهميته في الآخرة؛ إذ إن التعطيل لوسائل التعلم والتعليم ومنها السمع والبصر قد أورد الكافرين نار جهنم، فيتمنون العودة للدنيا لعمل الصالحات، قال الله عنهم: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:١٢]، وقال تعالىٰ عن اعتراف الكافرين عن سبب دخولهم النار: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك:١٠]. وأثر العلم في الآخرة أنَّ ذوي العلم والمعرفة يرفعهم الله درجات عالية؛ ودليل ذلك ما يحصل عليه حملة القرآن وقارئوه، من الارتقاء في درجات الجنة، كما كان إتقانهم وقراءتهم في الدنيا، وفي الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقال لصاحب القرآن يوم القيامة: اقرأ، وارقَ، ورتل كما كنت ترتل في دار الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية كنتَ تقرؤها»[1].

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣/ ٤٣) برقم: (٧٦٦)؛ والترمذي في جامعه (٥/ ٣٥) برقم: (٢٩١٤)، وقال: حسن صحيح.

٤٦١

لا يخاف الله إلا من عرف نفسه

قال أحمد بن عاصم الأنطاكي رحمه الله: «من علامة قلة معرفة العبد بنفسه قلة الحياء وقلة الخوف»[١].

المعنى الإجمالي

ورد أنه من عرف نفسه عرف ربه[٢]؛ أي: أن من عرف نفسه بالعجز والذل والضعف وقلة الحيلة، عرف أن الله متصف بضد تلك الصفات من القوة والقهر والعزة وأنه لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء، والذي يتحقق بتلك المعرفة فإنه لا بد أن يزداد حياؤه من ربه، فيحرص ألا يراه إلا حيث أمره، ويبتعد عن كل ما نهىٰ عنه، ويزداد خوفه منه سبحانه، القادر المنتقم الجبار، والخوف يدفعه إلىٰ العمل للنجاة من عذابه وبطشه، ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج:١٢].

ومن لا يعرف ربه حق المعرفة فإنه يجهل قدره؛ ولذلك كان العارفون بالله تعالىٰ الذين علموا حقيقة أسماء الله الحسنىٰ، وصفاته العلىٰ أشد الناس حياءً وخوفًا من الله عز وجل.

---

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ١١٩).

(٢) ينظر: التوحيد لأبي منصور الماتريدي (ص: ١٠٢).

فقلة الخوف علامة علىٰ قلة المعرفة بالله تعالىٰ؛ فإن من عرف الله عرف أمره ونهيه، فاتَّبع الأوامر، واجتنب النواهي، وعظم خوفه من الله.

٤٦٢

حرمان حلاوة الطاعة

قال بشر بن الحارث الحافي رحمه الله: «من حُرِمَ المعرفة لم يجد للطاعة حلاوة، ومن لا يعرف ثواب الأعمال ثَقُلت عليه في جميع الأحوال»[(١)].

المعنى الإجمالي

العارف بالله يعرف ربه حق المعرفة، فيطيع ربه على بصيرة وبرهان، ويخشى من معصيته وغضبه، وإذا أدى الطاعة من واجبات ومندوبات وفرائض ونوافل، أداها كما يحب الله تعالى، فيجد لذتها وحلاوتها في كل مراحل أدائها، فيستنير بها قلبه، ويضيء بنور الإيمان، ويشرق بها وجهه، ويبارك في عمره وعمله كله. والمحروم من حُرم لذة الطاعة لحرمانه أصول المعرفة بالله تعالى.

ومن لا يعرف ثواب الأعمال وفضائلها، فإنه يؤديها ثقيلةً صعبةً، وذلك في جميع أحواله سواء أكان صحيحًا أم مريضًا، وتصبح عبئًا يثقله، وكأنه يضع جبلًا من على كاهله. وقد وصف الله الصلاة بأنها كبيرة إلا على الخاشعين، فقال تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة:٤٥]، لكن العارف بالله لا يستثقل الطاعات، بل يستعذبها ويطعم حلوها وطيبها؛ فإنه من لمح فجر الأجر هان عليه ظلام التكليف.

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ٣٤٩).

٤٦٣

منــافع العلم

قال مصعب بن عبد الله الزبيري[١] رَحِمَهُ اللَّهُ: «يا بني، عليك بالعلم؛ فإنك إن افتقرتَ كان لك مالاً، وإن استغنيتَ كان لك جمالاً»[٢].

المعنى الإجمـالي

في هذه الحكمة يحثُّ مصعب الزبيري ابنَ أخيه الزبيرَ بن بكَّار على طلب العلم والعناية به، وذكر في ذلك بعض فوائد العلم، فالعلم له فوائد كثيرة لا تحصىٰ، في الدنيا والآخرة، خاصة العلم الشرعي، وذكر منها الزبير فائدتين فقط، إحداهما: منفعة العلم في المعيشة وكسب الرزق، لأن الإنسان وإن كان فقيرا لكن إذا كان صاحب علم وخبرة، يكون علمه سببًا لجمع المال وتحصيل الغنىٰ، وفي النظام المعاصر كلما كان علم الرجل أكثر، كانت وظيفته أرقىٰ، وبالتالي أجرته أعلىٰ، وبهذه الطريقة يستطيع العالم الفقير أن يصبح ذا مالٍ وكفايةٍ.

(١) مصعب بن عبد الله بن مصعب، أبو عبد الله، القرشي الأسدي الزبيري المدني، ابن أمير اليمن، نزيل بغداد، حفيد عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، الإمام، علامة بالأنساب، له معرفة بالتاريخ، سمع الحديث ورواه، له كتاب: نسب قريش، توفي سنة ٢٣٦هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١١/ ٣٠)؛ والأعلام للزركلي (٧/ ٢٤٨).

(٢) المدخل إلىٰ علم السنن للبيهقي (٢/ ٦٩٧).

والفائدة الثانية: إن كان صاحب العلم ذا غنىً وكفايةٍ ولا يحتاج أن يطلب الرزق بعلمه، ففي هذه الحالة يكون علمه له جمالًا ويعطيه الهيبة والرفعة بين الخلق، بخلاف الغني الذي لا علمَ عنده.

قال الله تعالىٰ: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة:١١]، وهذا يشمل رفع الدرجات الحسية والمعنوية، في الدنيا وفي الآخرة.

وقال ﷺ: «مَن سلك طريقًا يطلب فيه علمًا، سلك الله به طريقا من طُرُق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات والأرض والحيتان في جوف الماء، وإنَّ فضلَ العالم علىٰ العابد كفضل القمر ليلة البدر علىٰ سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يُورِّثوا دينارا ولا درهما، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافرٍ»(١).

وقال سيدنا علي رضي الله عنه: «كفىٰ بالعلم شرفًا أنه يدّعيه من لا يحسنه، ويفرح إذا نُسب إليه مَن ليس مِن أهله، وكفىٰ بالجهل خمولًا أنه يتبرأ منه من هو فيه ويغضب إذا نُسب إليه»(٢).

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٥/ ٤٨٥) برقم: (٣٦٤١)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ٤١٤) برقم: (٢٦٨٢).
(٢) معجم الأدباء لياقوت الحموي (١/ ١٦).

٤٦٤

حسرة أهل العلم

قال حاتم الأصم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليس في القيامة أشدُّ حسرةً من رجلٍ علَّم الناس علمًا فعملوا به ولم يعمل هو به، ففازوا بسببه وهلك هو»[1].

المعنى الإجمالي

من المصائب التي قد يصاب بها بعض الداعين إلىٰ الله والدالِّين عليه أن يفوز بدعوتهم ودعائهم خلقٌ كثيرٌ، لكنهم لا يأخذون كلامهم الذي يقولونه لغيرهم للعمل والتطبيق، فيكون حجة عليهم لا لهم، فيفوز غيرهم وهم يخسرون، يقول تعالىٰ: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:٤٤].

وفي حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه سمع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «يؤتىٰ بالرجل يوم القيامة فيُلقىٰ في النار فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحىٰ، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون: يا فلان، ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر؟ فيقول: بلىٰ، قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهىٰ

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ٦٣)؛ ورواه أبو حيان التوحيدي علىٰ أنه حديث، ولفظه: «أشدّ الناس حسرة يوم القيامة عالم علم الناس ونجوا به، وارتهن هو بسوء عمله»، ولم أجده. ينظر: الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي (ص: ٢٤٤).

عن المنكر وآتيه»[١].

وفي هذا الحديث بيان للعاقبة الأليمة والعذاب الشديد في الدار الآخرة لمن علَّم الناس علمًا أو أمرهم بمعروف ونهاهم عن منكر، فلم يعمل بعمله، ولم يأتمر بما أمر به، ولم ينته عما نهى عنه.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٢٢٤) برقم: (٢٩٨٩).

٤٦٥

بركـة الأعمـال بالـمعرفـة

قال القاسم بن عثمان[(١)] رَحِمَهُ اللهُ: «قليل العمل مع المعرفة خيرٌ من كثير العمل بلا معرفة»[(٢)].

المعنى الإجمالي

إن العمل القليل مع وجود العلم به خيرٌ من كثرة العمل مع قلة العلم؛ ولذا فقد كان العلماء العارفون الربانيون هم أقرب منزلة من الله تعالىٰ. يقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]؛ فهم يقفون علىٰ أحكام الشريعة كلها، فيفقهون حلالها وحرامها، ومحكمها ومتشابهها، ومطلقها ومقيدها، وناسخها ومنسوخها إلىٰ غير ذلك من الأحكام. فيكون ما يقومون به من أعمال فقهوا ما بها- وإن كانت قليلة- خيرًا من كثرة ما يقوم به الآخرون؛ فقليل العمل مع المعرفة خير من كثيرِهِ مع قلتها.

(١) القاسم بن عثمان، أبو عبد الملك، العبدي، الدمشقي، الإمام القدوة، الولي، المحدث، شيخ الصوفية، عرف بالجوعي، صحب أبا سليمان الداراني، وسمع ابن عيينة جماعة، توفي سنة ٢٤٨هـ.
ينظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (٩/ ٣٢٢)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (١٢/ ٧٧).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٩/ ٣٢٣).

والمعرفة بالله خير وبركة؛ فقد يعمل العارف بالله عملًا يسبق من فعل فعله زمنًا كبيرًا؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما عن جويرية رضي الله عنها أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح، وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى، وهي جالسة، فقال: «ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟» قالت: نعم، قال النبي ﷺ: «لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته»[١].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٩٠) برقم: (٢٧٢٦).

٤٦٦

غايـة العارف بربه أن يعفو عنـه

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «ليس بعارف من لم يكن غاية أمله من ربه العفو»(١).

المعنى الإجمـالي

لكل عبد غايته ومنتهىٰ أمله يسعىٰ ليصل إليها، وغاية العارفين بربهم عفوُ الله ورضاه عنهم؛ فإن عفوه ورضاه سبحانه وتعالى لا تعدله الدنيا وما حوته من أشيائها. فعن رفاعة بن رافع رضي الله عنه قال: سمعت أبا بكر الصديق رضي الله عنه يقول علىٰ منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول، فبكىٰ أبو بكر حين ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم سرِّي عنه، ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في هذا القيظ عام الأول: «سلوا الله العفو والعافية واليقين في الآخرة والأولىٰ»(٢).

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو: «اللهم إني أسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة»(٣).

وإذا كانت هذه هي دعوات سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، فأجدر بمن عرف ربه، واقتدىٰ بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أن تكون غاية أمله عفو الله ورضاه عنه.

---

(١) صفة الصفوة (٢/ ٢٩٣).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ١٦٩) برقم: (٦)؛ والبزار في مسنده (١/ ٩٢) برقم: (٣٤).

(٣) رواه ابن ماجه في سننه برقم: (٢٩٥٧)؛ والطبراني في الأوسط برقم: (٨٤٠٠).

٤٦٧

معرفة الله

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللَّهُ: «من عرف نفسه عرف ربه»[(١)].

المعنى الإجمالي

حين يتفكر الإنسان في طبيعة نفسه، وما هو عليه من العجز والضعف والافتقار، ثم ينظر إلىٰ عجيب صنع الله في نفسه، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١]، فيرىٰ الدقة والإتقان في الخلق، وأنه أعجز من أن يدبر أمره علىٰ ما هو عليه، وأن كل ما في جسمه آية من الآيات الدالة علىٰ خالق عظيم، فإنه سيدرك عظمة الخالق جَلَّ جَلَالُهُ، وأن له صفات الكمال المطلق والقدرة المطلقة، وكلّما ازدادت معرفة العبد بنقصه وعيبه وفقره وذلّه وضعفه، ازدادت معرفته بربِّه بأوصاف كماله.

فمن عرف نفسه بالعجز والافتقار والتقصير والذلة والانكسار، عرف ربه بصفات الجلال والجمال علىٰ ما ينبغي، فأدام مراقبته حتىٰ يفتح له باب مشاهدته، فيكون من أخِصَّائه الذين أَفرغ عليهم سِجال معرفته وألبسهم صوافيَ خِلافته.

(١) قواطع الأدلة لأبي المظفر السمعاني (٢/ ٦٠).

ومن عرف ربه كَلَّ لسانُه عن بلوغ شكره والثناء عليه، كما جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»(١).

أو يكون معنى العبارة: أنها من باب النّفي؛ أي: كما أنّك لا تعرف نفسك معرفة كاملة وهي أقرب الأشياء إليك، فلا تعرف حقيقتها، ولا ماهيَّتها ولا كيفيَّتها، فكيف تعرف حقيقة ربّك وكيفيّة صفاته؟ فعند ذلك يعرف العبد أنه عاجز ضعيف، وأنّه ليس له من الأمر شيءٌ وليس بيده شيء، إن هو إلّا محض الفقر والعجز والضَّعف(٢).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٥١) برقم: (٤٨٦).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٤٧).

٤٦٨

أحوال العارفين

قال أبو يزيد البسطامي رحمه الله: «العارف: الذي لا يفتر عن ذكره، ولا يملُّ من حُبِّه، ولا يستأنس بغيره»[(١)].

المعنى الإجمالي

يشرح البسطامي في هذه الحكمة أوصاف العارف بالله، فذكر أهمَّ ما يمتاز به العارف عن غيره، وأولَىٰ تلك الصفات: عدم الفتور عن ذكر الله ﷻ، ويقصد به ألا يمل ولا يتعب ولا يسأم من كثرة ذكر الله، وأصل ذلك في جواب النبي ﷺ للأعرابي الذي سأله عن أمر يتشبث به، فقال: «لا يزالُ لسانُك رطبًا من ذكر الله»[(٢)].

والوصف الثاني الملازم للعارفين: هو حبُّ الله تعالىٰ وإيثاره علىٰ كل شيء، أي: إيثار ما أمر به محبوبُهم مهما كلَّفتْهم طاعتُه، لأن دليل المحبة في الطاعة، كما قال سبحانه: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي ﴾ [آل عمران:٣١]، وإيثار محبة الله تعالىٰ ومحبة رسوله ﷺ علىٰ كل شيء من علامات المؤمن الحقيقي الذي أحسَّ بحلاوة

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٩٩).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه برقم: (٣٣٧٥)؛ وابن ماجه في سننه برقم: (٣٧٩٣)؛ وأحمد في مسنده برقم: (١٧٩٥٦)؛ وقال الترمذي: حديث حسن.

الإيمان، حتىٰ يصبح حبُّه لشيء آخر مرتبطًا بمحبة الله، فلا يحب أحدًا إلا لله وفي الله، ومصداق ذلك في حديث النبي ﷺ: «ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان»، فذكر منها: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله...»[١].

والوصف الثالث من أوصاف العارف: هو الأنس بالله والاستغناء به عن غيره؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر:٣٦].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٢) برقم: (١٦)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٤٨) برقم: (٤٣).

٤٦٩

الاستهانة بأولياء الله

قال محمد بن حامد الترمذي[(١)] رحمه الله: «الاستهانة بالأولياء من قلة المعرفة بالله تعالى»[(٢)].

المعنى الإجمالي

المؤمنون أولياء الله، والله وليهم، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد:١١]، والمؤمنون بعضهم أولياء بعض، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٧١].

ولما لأولياء الله من مكانة عند الله تعالى فإن الاستهانة والاستخفاف بهم، لا يأتي إلا ممن لا خلاق لهم، ولا يعرفون الله حق المعرفة، ولا يعرفون مكانة أولياءه عنده.

---

(١) محمد بن حامد بن محمد، أبو بكر، الترمذي، من أعيان مشايخ خراسان، لقي المشايخ ببلخ كابن خضرويه وغيره، وله أصحاب ينتمون إليه، وأسند الحديث، أهملت المصادر تاريخ وفاته، ويقدَّر أن تكون وفاته في أواخر القرن الثالث الهجري، وابنه محمد بن محمد بن حامد من مشايخ الإمام الحاكم أبي عبد الله. ينظر: طبقات الصوفية (ص: ٢١٧).

(٢) طبقات الصوفية (ص: ٢١٩).

ومن الاستهانة بهم انتقاص مكانتهم، وتشويه سمعتهم، وتسليط السفهاء لإيذائهم بالقول والفعل، ولقد جعل الله إيذاء وليٍّ من أوليائه العارفين به إيذانًا منه بالحرب على من يحاربون وليه وأولياءه، قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب»[١].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٥) برقم: (٦٥٠٢).

٤٧٠

عز المعرفة وذل المعصية

قال أبو عثمان الحيري رحمه الله: «حَقٌّ لمن أعزه الله بالمعرفة أن لا يُذِلّ نفسه بالمعصية»(١).

المعنى الإجمالي

إن معرفة الله عزة ونورٌ يقذفها الله تعالىٰ في قلب من يشاء من عباد الطائعين، فحريٌّ بمن أضاء الله قلبه ونوَّره بنور الطاعة ووهجها، ألا يطفئه بظلمة الذنوب والمعاصي.

وإن من عرف الله حقٌّ عليه ألا يترك هذه النعمة؛ فيستبدل الطاعة بالمعصية، والشكر بالكفران، والاتصال بالانقطاع، والأنس بالوحشة، والعز بالذلة؛ فإن المعاصي تفسد علىٰ العبد نور طاعاته، وقد صحَّ عن النبي ﷺ قوله: «إن الرجل ليُحرم الرزق بالذنب يصيبه»(٢).

أمر الله آدم عليه السلام وزوجه أن يأكلا من حيث شاءا من ثمار الجنة رغدًا طيبًا، ولا يقربا أكل الشجرة التي نهاهما الله عنها، فلما عصيا الله تعالىٰ أهبطهما إلىٰ

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٢٤٥).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧/ ٦٨) برقم: (٢٢٣٨٦).

الأرض، ثم تلقىٰ آدم من ربه كلمات فتاب عليه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:٣٧].

لقد كان من شؤم المعصية التي عصىٰ آدم ربه بها أن بدت لهما سوآتهما؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف:٢٢]، وهكذا هي المعاصي يزينها الشيطان لبني آدم حتىٰ يوقعهم فيها، وقد حذَّر الله من ذلك، فقال تعالىٰ: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف:٢٧].

٤٧١

حقيقة المعرفة

قال محمد بن الفضل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المعرفة حياة القلب مع الله»[(١)].

المعنى الإجمالي

تقاس الحياة الحقيقية للعبد بحياة قلبه؛ فقد يكون العبد على قيد الحياة، لكنه ميت القلب؛ فلا يتأثر بذكر ولا وتنفعه عظة، ويكون حاله كما قالت عاد لهود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ [الشعراء:١٣٦] وتحيا القلوب بذكر الله؛ فقد جاء عن النبي ﷺ قوله: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت»[(٢)].

إن العارف بالله تعالى يحيا قلبه بمعرفة الله؛ قال بعض الحكماء: «حياة القلب في أربعة أشياء: العلم والرضا والقناعة والزهد؛ فالعلم يُرضيه، وبالرضا يبلغ هذه الدرجة، فإذا بلغ درجة الرضا وصل إلى القناعة، وتوصله القناعة على الزهد، وهو التهاون بالدنيا»[(٣)].

---

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٨٣)؛ ومدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٣٢٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٦) برقم: (٦٤٠٧)؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ١٨٨) برقم: (٧٧٩).

(٣) تنبيه الغافلين (ص: ٢٤٠).

والعارف بالله تعالىٰ يوقن أن حياة قلبه بمعرفته بالله تعالىٰ؛ فيؤثر الله علىٰ ما سواه، ويعلم أن لا حياة لقلبه ولا سعادة ولا لذة ولا نعيم ولا صلاح إلا بأن يكون إلهه هو معبوده، وأحبَّ إليه من كل ما سواه(١).

(١) ينظر: إغاثة اللهفان (١/ ١٢).

٤٧٢

العارف بالله لا يغتربه

قال أبو يعقوب النهرجوري رحمه الله: «من عرف الله لم يَغْتَرّ بالله»[(١)].

المعنى الإجمالي

الاغترار بالله مَهلكةٌ تورد العبد موارد الهلاك والفناء؛ ولذلك عاتب الله من يغترون بحلم الله وعفوه عليهم، وهو قد خلقهم فسواهم وعدَّلهم في أحسن صورة، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٦-٨].

«وأرباب البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا ذنب عجلت عقوبته، ورأوا ذلك علامة المقت والإهمال، وإذا أقبل عليهم الفقر قالوا مرحبًا بشعار الصالحين، والمغرور إذا أقبلت عليه الدنيا ظن أنها كرامة من الله وإذا صرفت عنه ظن أنها هوان»[(٢)].

ومن مظاهر الاغترار بالله: غرور العصاة من المؤمنين بقولهم: إن الله كريم وإنا نرجو عفوه، واتكالهم علىٰ ذلك وإهمالهم الأعمال، وتحسين ذلك بتسمية تمنيهم

(١) طبقات الصوفية (ص: ٢٨٨).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٨٣).

واغترارهم رجاء، وظنهم أن الرجاء مقام محمود في الدين، وأن نعمة الله واسعة ورحمته شاملة وكرمه عميم، وأين معاصي العباد في بحار كرمه، وإنا موحدون فنرجوه بوسيلة الإيمان.

«وربما كان مستند رجائهم التمسك بصلاح الآباء وعلو رتبتهم كاغترار العلوية بنسبهم ومخالفة سيرة آبائهم في الخوف والتقوىٰ والورع وظنهم أنهم أكرم علىٰ الله من آبائهم إذا آباؤهم مع غاية الورع والتقوىٰ كانوا خائفين وهم مع غاية الفسق والفجور آمنون»[1].

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٨٤).

٤٧٣

من آثار المعرفة بالله تعالى

قال الشبلي رحمه الله: «من عرف الله خضع له كل شيء؛ لأنه عاينَ أثر مُلكه فيه»(١).

بيان المفردات

عاين: رآه وشاهده بعينه، تحقق منه بنفسه بنظرة عامة أو شاملة عليه(٢).

المعنى الإجمالي

تتجلىٰ للعارف بالله آثار ملك الله ورحمته وفضله في كل مخلوقاته، فيزداد إيمانه وهداه، وفي معاينة آثار ملك الله في سمواته وأرضه آيات للمتقين، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل:١٢].

إن العارف بالله تعالىٰ يخضع له كل ما في ملكوته؛ ذلك أنه لم يخشَ أحدًا في الوجود سوىٰ الله، ولم يرجُ فضلًا من أحد سوىٰ الله، ولم يتزحزح علمه ويقينه

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٣٧٠)؛ وطبقات الصوفية (ص: ٢٥٩).

(٢) معجم اللغة العربية المعاصرة لأحمد مختار عبد الحميد عمر بمساعدة فريق عمل (٢/ ١٥٨٥).

بالله تعالىٰ قيد أنملة؛ فهو يفهم ويعمل ويوقن بكل ما في كتاب الله تعالىٰ، ويتأمل ويعاين في الكون وما فيه من حياة وأحياء وجمادات، فتزداد معرفته ويقينه بالله، فإن تكلم ففي كلامه خير، وإن سكت علته هيبة ووقار؛ فلذا يجعل الله له كل شيء ميسرًا وخاضعًا.

٤٧٤

من آثار المعرفة: الخشية

قال أبو بكر الوراق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من صحت معرفته بالله ظهرت عليه الهيبة والخشية»[١].

المعنى الإجمالي

كلما كان العبد العارف بالله عالما به، ومقتديًا بهدي رسول الله ﷺ في معرفته وخشيته وتقواه وعلمه بالله تعالىٰ إلا ظهرت عليه علامات الهيبة والخشية، فيقدره الناس، ويخشونه لخشيته لله تعالىٰ، ولو لم يكن له من الدنيا شيء؛ فالهيبة والخشية المصطنعة تزول بزوال سببها من المال والملك والسلطان، فإذا نُزع منهم ذهبت هيبتهم وخشيتهم، ويبقىٰ العلماء العارفون أحياء في قلوب الناس حتىٰ بعد مماتهم.

إن من يُهابون ويُخشون في هذا الزمان لا لعلمهم ولا لمعرفتهم بالله تعالىٰ، لكن لبطشهم وظلمهم وشرهم، فيهابهم عامة الناس ويخشونهم اتقاء شرهم، وأما الأبرار العارفون فهيبتهم وخشيتهم من حبهم لله ومعرفتهم به.

(١) طبقات الصوفية (ص: ١٨١).

٤٧٥

المعرفة طريق الهيبة

قال أبو علي الدقاق رحمه الله: «من أمارات المعرفة بالله حصول الهيبة من الله تعالى، فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته»[١].

المعنى الإجمالي

من صفات العارف بالله أن تصرفاته كلها لله، وتصرفات غيره كلها بالنفس ولو كانت لله، فالعمل بالله يوجب القربة، والعمل لله يوجب المثوبة[٢].

والعارف بالله تعالىٰ من يعرف الله حق معرفته، ويُقدِّرُه حقَّ قدره، فلا يكتفي أن تكون معرفته لله عند الشدائد، والرغبة في الحصول علىٰ الرغائب، بل هي معرفة تزداد كل ما تقرب العارف من ربه بالنوافل في العبادات كلها، وفَقِه مراد الله من أمره ونهيه، فتزداد هيبة الله وتوقيره والخوف منه في قلبه، مع حصول كل زيادة في معرفة الله؛ وكلما ازداد معرفة بالله بلطفه وحكمته وقدرته وفضله ازدادت هيبته وخشيته من الله تعالىٰ، ولا تكون هذه الهيبة إلا لمن عرف مقام الله، وعرفه بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ.

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٧٧).

(٢) إيقاظ الهمم (ص: ١٠٢).

٤٧٦

العلم للعمل

قال ابن عبد البر[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «من لم ينفعه قليل علمه ضره كثيره»[(٢)].

المعنى الإجمالي

انتفاع الإنسان بالعلم إنما يكون بالعمل به؛ لأن العلم لا يُقصد لذاته، وإنما يراد العلم للعمل، وليس يُعَدّ عالمًا من لم يكن بعلمه عاملًا، فمن لم ينتفع بالعلم القليل لم يزدد بكثرة العلم إلا ضررًا؛ لأن المعصية مع العلم فوق المعصية مع الجهل، وكلما زاد العلم كان مطالبًا بالعمل بمقدار ما تعلم، فيكون علمه حجة عليه يوم القيامة، وسببًا لدخوله النار.

قال ﷺ: «يُجاء بالرجل يوم القيامة فيُلقىٰ في النار فتَنْدَلِق أقتابُه (أي: أمعاؤه) في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: أيْ فلان، ما شأنك! أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»[(٣)].

(١) يوسف بن عبد الله بن محمد، أبو عمر، النمري، القرطبي، المالكي، الإمام العلامة، حافظ المغرب، شيخ الإسلام، صاحب التصانيف، ولد سنة ٣٦٨هـ، من كبار حفاظ الحديث، مؤرخ، أديب، من كتبه: التمهيد والاستذكار في شرح الموطأ، وجامع بيان العلم وفضله، توفي سنة ٤٦٣هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨/ ١٥٣)؛ والأعلام للزركلي (٨/ ٢٤٠).

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ٦٢٨).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٢١) برقم: (٣٢٦٧).

وقال أبو الدرداء: «ما علَّم الله عبدا علما إلا كلفه الله يوم القيامة ضماره من العمل»[١].

قال سهل بن مزاحم: «الجاهل لا يعذر بجهالته، لكن العالم أشد عذابًا إذا ترك ما علم فلم يعمل به»[٢].

وقال الجنيد: «متىٰ أردت أن تشرف بالعلم وتُنسب إليه وتكون من أهله قبل أن تعطي العلم ماله عليك احتجب عنك نوره، وبقي عليك وسمه وظهوره، ذلك العلم عليك لا لك؛ وذلك أن العلم يشير إلىٰ استعماله، وإذا لم يُستعمل العلم في مراتبه رحلت بركاته»[٣].

وقال الخواص: «ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما العالم من اتبع العلم واستعمله، واقتدىٰ بالسنن، وإن كان قليل العلم»[٤].

وقال مطر الوراق: «خير العلم ما نفع وإنما ينفع الله بالعلم من علمه ثم عمل به، ولا ينفع به من علمه ثم تركه»[٥].

(١) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي (ص: ٣٦).
(٢) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي (ص: ١٥).
(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٢٦٩).
(٤) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي (ص: ٣٠).
(٥) المرجع السابق (ص: ٢٣).

٤٧٧

رفعة العلم

قال ابن الجوزي رحمه الله: «لولا العلم لكان الإنسان بهيمة، ولولا اللطف لكانتْ البليَّة عظيمة»(١).

بيان المفردات

البهيمة: كل حي لا يميز، وسميت البهيمة بهيمة لأنها أبهمت عن العلم والفهم والتمييز(٢).

اللطف: في العمل الرفق، ومن الله التوفيق والعصمة(٣).

البَلِيَّة: المصيبة والمحنة، والابتلاء، ومثله: البلوىٰ والبلاء(٤).

المعنى الإجمالي

العلم هو النور الذي يضيء للإنسان طريقه؛ ليميز فيه بين الحق والباطل، والضار والنافع، والحسن والقبيح، والخير والشر، وبه فضَّل الله بين عباده، فرفع

(١) التذكرة في الوعظ لابن الجوزي (ص: ١٥٣).
(٢) تهذيب اللغة للأزهري (٦/ ١٧٨).
(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٤/ ١٤٢٧).
(٤) ينظر: مختار الصحاح (ص: ٤٠).

منازل العلماء على سائر الناس، ولأجله استحب النبي ﷺ أن يكون بالقرب منه أولوا العلم والنهى من أصحابه؛ لأن العالم ينفع نفسه وينفع غيره، أما العابد فلا ينفع إلا نفسه، ولولا العلم لما قدر الإنسان على التمييز ولصار حاله حال البهيمة.

واللطف هو الرفق والتدبير في الفعل، والله سبحانه -اللطيف العالم بما جل ودق- بلطفه يوصل إلى عبده مراده برفق، ويخفف عنه الآلام، ويهون عليه المصائب، ويجعل حزنه سهلا، فلولا لطف الله بعباده ورأفته بهم لكانت المصائب النازلة عليهم عظيمة، وأي مصيبة لو قارنها صاحبها بمصائب الناس لرأى فيهم من هم أشد بلاء فتهون عليه مصيبته.

٤٧٨

خير العلم

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «خير العلم ما كانت الخشية معه»[١].

المعنى الإجمالي

خير العلم: أي العلم الذي هو خير وأفضل، والمقصود حصر الخيرية، بمعنى أن العلم لا يكون خيرا إلا إذا رافقته الخشية، وليس معناه أنه إن فارقته الخشية يكون فيه خير بدرجةٍ أقل.

ونظرة الإسلام للعلم هي نظرة شاملة تتفق مع شمولية الإسلام وعالميته، فالعلم الذي يمجده القرآن هو كل علم ينفع الناس في الدنيا والآخرة، وهذا يشمل العلوم الكونية والطبيعية[٢].

لكن كل هذه العلوم في جوهرها وحقيقتها دالةٌ على الله ﷻ، قائدةٌ إلى معرفة عظمته وقدرته، موجِبةٌ لخشيته وتقواه، فإن لم ترافقها هذه الخشية فهي في حكم العدم؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٦-٧]، ومعرفة الحياة الدنيا ليست بمذمة؛ لأن

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١١).

(٢) نظرات العقول وثمرات المنقول للدكتور مصطفى مخدوم (ص:٤٩).

المؤمنين كانوا أيضا يعلمون ظاهر الحياة الدنيا، وإنما المذموم أنهم يعلمون ما هو ظاهر من أمور الدنيا ولا يعلمون أن وراء عالَم المادة عالَما آخر هو عالَم الغيب(١).

وقد أخبرنا الله ﷻ في كتابه أن من يخشونه هم العلماء لا غيرهم حيث قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]، فمن يخشىٰ الله تعالىٰ فذلك هو العالِم الحق. وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ليس العلم عن كثرة الحديث، إنما العلم خشية الله»(٢).

وخشية الله هي خوفٌ مع إجلالٍ ينشأ عنه العمل الصالح الذي يُرضي الله(٣)، فشاهد العلم الذي هو مطلوب الله تعالىٰ هو الخشية له، وشاهد الخشية هو موافقة أوامر الله ﷻ(٤).

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢١/ ٥٠).

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ٧٥٨).

(٣) شرح الحكم العطائية للشرنوبي (ص: ١٥١).

(٤) سراج الظلم للملا الأحسائي (ص:٧١-٧٢).

٤٧٩

اضطرار العارف

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «العارف لا يزول اضطراره، ولا يكون مع غير الله قراره»(١).

بيان المفردات

العارف: من كان عالمًا بالله، وبالطريق الموصل إليه وبآفاتها وقواطعها، وله حال مع الله يشهد له بالمعرفة(٢).

الاضطرار: الفاقة والافتقار والاحتياج(٣).

المعنى الإجمالي

إذا وقع الإنسان في ورطة أو مشكلة، أو إذا حل به الكرب واستحكمه الضيق، فإنه يلجأ إلى الله لجوء المضطر العاجز الذي يعلم أنه لا حول له ولا قوة، والله سبحانه وتعالى يجيب دعاء المضطرين كما قال: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ [النمل:٦٢]، فقد ضمن الله تعالى إجابة المضطر إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه،

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١١٠).
(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٤/ ٢٨٢).
(٣) شرح الحكم للنفري وبهامشه شرح الشرقاوي (١/ ٨٠).

والسبب في ذلك أن الضرورة إليه باللجاء ينشأ عن الإخلاص، وقطع القلب عما سواه، وللإخلاص عنده سبحانه موقع وذمة، وُجد من مؤمن أو كافر، طائع أو فاجر[1].

لكن الإنسان سرعان ما ينسىٰ هذا الاضطرار حين تنكشف عنه البلوىٰ، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ [يونس:١٢]، والسبب في ذلك أن أكثر الناس يدور مع دائرة الحسّ، ويلجأ اللجوء الحق إلىٰ الله فقط حين يقع في المصائب.

لكن العارف بصفات نفسه المركب فيها العجز والضعف والحاجة والفاقة، والعارف بصفات ربه وبقبضته الشاملة المحيطة، فإنه يعرف ما يجب أن تكون عليه الصلة بينه وبين ربه ﷻ، إنها صلة بين طرف محتاج ملتجئ مضطر علىٰ الدوام لا يستقيم أمره لحظة واحدة دون لطف الله وعونه، لذلك يكون هذا الطرف دائم الاضطرار والافتقار إلىٰ مولاه.

وهذا العارف أيضا يعلم صفات الجمال والجلال لله تعالىٰ، فيمتلئ قلبه بمحبة الله والأنس به، وفي مقابل ذلك يستوحش من المخالطات مع الناس التي تلهيه عن ذكر الله، فقراره واطمئنانه إنما يكون مع الله وذكره وطاعته ومناجاته، ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨].

(١) تفسير القرطبي (١٣/ ٢٢٣).

٤٨٠

العلم والخشية

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «العلم إن قارنته الخشية فلَكَ، وإلا فعليك»(١).

المعنى الإجمالي

جاء في الحديث: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتىٰ يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن جسمه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما وضعه، وعن علمه ماذا عمل فيه»(٢). فالإنسان مسؤول ومحاسب علىٰ العلم الذي يحمله: إن عمل وفق ما يقتضيه من خشية الله وطاعته كان له هذا العلم أجرا وثوابا، وإن لم يعمل بعلمه ولم يخش الله تعالىٰ كان هذا العلم وبالا وخسرانا علىٰ صاحبه.

فالعلم يكون محمودًا إذا عمل به صاحبه، ويكون مذموما إذا عمل بخلافه، وهذا الذم ليس راجعا إلىٰ العلماء من حيث العلم، بل من حيث مخالفتهم إياه من الرغبة في الدنيا وجمع حطامها والجدل والمماراة وحب الجاه المذموم(٣).

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١١).

(٢) أخرجه الدارمي في مسنده (١/ ٤٥٣) برقم: (٥٥٥)؛ والبزار في مسنده (٧/ ٨٧) برقم: (٢٦٤٠)؛ وابن أبي شيبة في مصنفه (١٩/ ٢١٥) برقم: (٣٥٨٣٩)؛ والطبراني في الكبير (٢٠/ ٦٠) برقم: (١١١).

(٣) شفاء السقم لباراس (ص: ٧٧٠).

قال تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢-٣]، وجاء في الحديث: «إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة عالم لا ينتفع بعلمه»(١).

فخشية الله ﷻ هي غاية العلم وثمرته، والعلم إذا قارنته الخشية كان صاحبه من الله قريبا وله حبيبا، ومن كان كذلك كان العلم له، ومن لم يتصف في علمه بالخشية فسيجترئ لا محالة علىٰ محارم الله ويغشّ عباد الله ويستهين بأوامر الله(٢) فيكون العلم عليه لا له.

ولا يفهم من كلام ابن عطاء ﷺ التحذير من زيادة التعلم، بل المقصود هو عكس ذلك: أن يحرص المسلم علىٰ الازدياد من العلم مصداقا لقوله تعالىٰ: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه:١١٤]، وأن يرافق ذلك خشية الله وطاعته.

(١) أخرجه الدارمي في مسنده (١/ ٣٢١) برقم: (٢٦٨).
(٢) شفاء السقم لباراس (ص: ٧٦٩).

٤٨١

العلم النافع

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «العلمُ النافعُ هو الذي يَنبسِطُ في الصدْر شُعاعُه، ويَنكشف به عن القلب قِناعُه»[(١)].

بيان المفردات

يَنبسط: ينتشر[(٢)].

شُعاع العلم: ضوؤه[(٣)].

قِناع القلب: غِشاؤه[(٤)].

المعنى الإجمالي

جاء في الحديث: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عملُه إلا من ثلاثة: إلا من صدقةٍ جارية، أو علمٍ ينتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له»[(٥)]. فوصْفُ النفعِ هو

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١١).
(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٣/ ١١١٦)؛ تاج العروس للزبيدي (١٩/ ١٤٣).
(٣) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (١/ ٦٥).
(٤) لسان العرب لابن منظور (٨/ ٣٠١).
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٢٥٥) برقم: (١٦٣١).

المعيـار في العلـم المطلـوب شـرعًا، وحكمـة ابـن عطـاء ﵀ هـذه تبـين لنـا متـىٰ يتحقق هذا الوصف.

فالعلم النافع يَنتجُ عنه أثر طيب في عقل صاحبه وقلبه؛ فيسري منه شعاع خفي ينتشر بعضٌ منه في أنحاء قلبه فيظهر أثره علىٰ نفسه تعظيما ومهابة وحبا لله ﷻ، وينير بعضٌ منه طوايا العقل فيظهر أثره في انحسار الأغشية التي كانت متراكمة عليه فأورثته الرِّيَب وزجَّته في ظلمات الحيرة والاضطراب[١].

وكثرة المقروءات والمحفوظات لا تكفي وحدها لتكون علما نافعا حتىٰ يحصل أثر ذلك في صدر صاحبها وقلبه، فيمتلئ باليقين والإيمان ويزول عنه الشك والأوهام. قال الإمام مالك ﵀: «إن العلم ليس بكثرة الرواية، ولكنه نور يجعله الله في القلوب»[٢].

أمّا طريقة اكتساب هذا العلم النافع فتكون بتقديم تعلم ما يقرّب العبد من ربه، وبتصحيح النية في طلبه لتكون خالصة لوجه الله ﷻ، والأخذ عن العلماء الربانيين والعاملين بعلمهم وصحبتهم والتخلق بأخلاقهم.

(١) الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٥/ ١١٢).
(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ٧٥٨).

٤٨٢

معرفة النفس بمعرفة الله

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «لا يُخرجك عن الوصف إلا شهود الوصف»(١).

المعنى الإجمالي

تتمايز الأشياء بأضدادها، وتعرف الصفات بالمقارنة بين أصحابها، وإذا أراد الإنسان أن يعرف صفاته الذاتية التي لا تنفك عنه لحظة، ولا تتخلف عنه هنيهة، فعليه أولا أن يعرف صفات ربه التي تفرّد بها سبحانه، فالله تبارك وتعالى ليس كمثله شيء، ولا يمكن لأحد أن يشركه معه في صفاته، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فمثلًا إذا عرف الإنسان أن صفة العزة لله وحده، أدرك أن عليه أن يتحقق بصفة الذل والافتقار بين يدي الله، وإذا علم أن الله هو القوي تحقق بصفة ضعفه، وإذا علم أن الله هو الغني تحقق بصفة فقره، فليست ثمة إلا عبد ضعيف فقير ذليل محتاج، يعبد ويخضع لرب قوي غني عزيز مغيث.

وفي هذه الحكمة يؤكد ابن عطاء الله رحمه الله هذا المعنى؛ فالسبيل الوحيد لخروج العبد عن توهم وجود صفات ذاتية له تجعله معتدًا بنفسه مغترا بها، ظانًا أن له تدبيرا

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٩٨).

وتخطيطا وحولا وقوة، السبيل الوحيد للخروج عن هذه الأوهام هو أن يَشهد ويستحضر ويوقن بصفات الله ﷻ، وحينئذ يعرف حقيقة ذله وافتقاره، ويتخلق بما ينبغي أن يكون عليه العبد من خضوع وخشوع.

فكلما تأمل الإنسان في عظمة ملكوت الله أدرك ضعفه وعجزه أمام قدرة الله وملكوته، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٣]، وإذا تفكر الإنسان في صفات كمال الله وجلاله أدرك نقصه والتصاق العيوب به، قال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٣-٤٤].

٤٨٣

الوصول إلى الله بالعلم بـه

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به، وإلا فجَلَّ ربنا أن يتصل به شيء أو يتصل هو بشيء»[(١)].

المعنى الإجمالي

الوصول إلىٰ الله من المصطلحات شائعة الاستخدام بكثرة للتعبير عن القرب إلىٰ الله سبحانه وتعالى، ولا بد من توضيح المعنىٰ الصحيح لكلمة الوصول، فكما نعلم فإن الله سبحانه منزه عن الاتصال الحسي الذي يكون بين المخلوقات، فالله سبحانه منزه عن مشابهة المخلوقين، قال تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١].

فما قصده العلماء بمصطلح الوصول إلىٰ الله يستحيل أن يكون هو الاتصال المادي الحسي، فيستحيل من جهة الأشياء أن تتصل بالله عز وجل، إذن فالمقصود بمصطلح الوصول إلىٰ الله هو وصول الإنسان إلىٰ العلم بالله وبصفاته.

فالواصل إلىٰ الله هو من يعلم أن الله سبحانه هو الحق، وأنه وسع كل شيء رحمة وعلما، وأنه لا يكون أمر إلا بمشيئته، وأنه المتصف بصفات الجمال

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٩٦).

والكمال، وأنه كما وصف نفسه في كتابه وعلىٰ لسان نبيه، ولا يكفي العلم النظري بهذه الصفات ليصير الإنسان واصلا إلىٰ الله، بل لا بد أن يكون معه العلم القلبي، جاء في الحديث: «العلم علمان: علم في القلب، فذاك العلم النافع، وعلم علىٰ اللسان، فتلك حجة الله علىٰ عباده»(١).

فالتقرب إلىٰ الله ﷻ لا يكون بطي المسافات وقطع الطرقات، بل يكون بتوجه القلب بالإنابة والإخلاص، ونشاط الأعضاء والجوارح للعبادات والطاعات، ولا يزال العبد يتقرب إلىٰ ربه، ويقربه الله إليه حتىٰ يكون من الواصلين إلىٰ معرفته ومحبته، قال الله تعالىٰ في الحديث القدسي: «وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»(٢).

---

(١) أخرجه الدارمي في مسنده (١/ ٣٧٣) برقم: (٣٧٦)؛ وابن أبي شيبة في مصنفه (١٩/ ٨٨) برقم: (٣٥٥٠٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٥) برقم: (٦٥٠٢).

٤٨٤

تلازم العلم والعمل

قال عبد الرزاق القاشاني رحمه الله: «العلم بدون العمل وبال، والعمل بدون العلم ضلال»(١).

بيان المفردات

الوبال: الشدة والثقل والمكروه، ويأتي بمعنى العذاب(٢).

الضلال: الضياع، وعدم الاهتداء(٣).

المعنى الإجمالي

يبين لنا رحمه الله أن العلم سلاح ذو حدين، يكون نافعا ويكون ضارا، وإنما يكون نافعا إذا كان مقرونا بالعمل، وإلا صار حجة على متعلمه ووبالا عليه؛ إذ ليس العلم مقصودا لنفسه، بل لأجل العمل به، ولو نفع العلم بلا عمل لما ذم الله اليهود(٤)، قال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة:٥]،

---

(١) آداب الطريقة وأسرار الحقيقة في رسائل الشيخ عبد الرزاق القاشاني (ص: ١١٣).

(٢) تاج العروس للزبيدي (٣١/ ٦٤).

(٣) ينظر: تاج العروس للزبيدي (٢٩/ ٣٤٣).

(٤) ينظر: الفوائد لابن القيم (١/ ٤٥).

شبههم سبحانه بالحمار الذي يحمل الكتب ولا ينتفع بما فيها؛ لأنه أنزل عليهم التوراة وأمرهم بالعمل به فلم يعملوا.

وكما أن العلم بدون العمل وبال، كذلك العمل بدون العلم ضلال؛ لأن العلم هو النور الذي يهدي إلىٰ الحق، فالعامل بغير علم، كالذي يسير في الظلام بلا ضوء، ربما يقطع مسافات طويلة إلىٰ غير مبتغاه وهو لا يدري.

فالعمل إذن ثمرة المعرفة والعلم، ولا قيمة لمعرفة أو علم لا يستفاد منه بالعمل(١)، ولا صلاح للعمل إلا بالعلم؛ لأنه إذا كان بغير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلحه(٢).

(١) ينظر: التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية لمحمد منير مرسي (ص: ٦٨).

(٢) ينظر: تنبيه الغافلين بأحاديث الأنبياء والمرسلين لأبي الليث السمرقندي (ص: ٣١).

٤٨٥

سلوك المرء ثمرة ما تعلَّم

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الأعمال ثمرات العلوم والعقائد»[(١)].

المعنى الإجمالي

إن سلوك المرء ثمرة لما وقر في قلبه وما تعلمه من علوم ومعارف، فما ملئ القلب بشي إلا ظهر أثره على الجوارح؛ فإذا امتلأ القلب بالإيمان وخالطته بشاشته خضعت الجوارح لربها، واستجابت لأوامره، وظهرت ثمراته سلوكا مستقيما وخلقا كريما، فاليقين يثمر الجهاد ومقامات الإحسان، فعلى حسب قوته تكون ثمرته ونتيجته، أما إذا امتلأ القلب بالريب والشك فإنه يثمر الأعمال المناسبة له من الفسق والانحراف عن طريق الهداية، وسوء الأخلاق.

وقد بين النبي ﷺ أثر الإيمان القلبي على استجابة الجسد والجوارح لما وقر فيه، فقال: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[(٢)]. فصلاح القلب هو صلاح واستقامة للجوارح، كما أن فساده سبب لفساد الجوارح والانحراف عن منهج الله.

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٤٩١).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٢٠) برقم: (٥٢)؛ ومسلم في صحيحه (٥/ ٥٠) برقم: (١٥٩٩).

قال الحسن البصري: «إن الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني، إن الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل»(١). وكذلك العلم الذي يتلقاه الإنسان له أكبر الأثر في استقامة أو انحراف سلوكه، فالعلم إذا كان نافعًا مرتبطًا بما يُذَكِّر بالله ويدل عليه أَمَدَّ الجوارح بطاقة عالية وهمة متجددة، وكلما ازداد الإنسان من هذا النوع من العلم اقترب من ربه أكثر؛ فبه يعرف قدر الخالق ﷻ، ويدرك عظيم حقه عليه، ولذلك أمر الله نبيه ﷺ أن يطلب زيادة العلم، فقال: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه:١١٤]، فالعلم النافع هو ما باشر القلب فأوقر فيه معرفة الله تعالىٰ وعظمته وخشيته وإجلاله وتعظيمه ومحبته، ومتىٰ سكنت هذه الأشياء في القلب خشع فخشعت الجوارح كلها تبعا لخشوعه، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٩/ ٣٧٢) برقم: (٣٦٣٥٩).

٤٨٦

مرجعية الرسل في تزكية النفوس

قال ابن القيم رحمه الله: «تزكية النُّفوس مسلَّمٌ إلى الرُّسل»[١].

المعنى الإجمالي

إن الله تعالى أرسل الرسل لتزكية النفوس وتعليم الأمم وإرشادها إلى طريق الهداية، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة:٢].

وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد، فمن عالج نفسه دون الرجوع بالرياضة والمجاهدة التي لم يجئ بها الرسل، فهو كالمريض الذي يعالج بدنه برأيه دون الرجوع إلى الطبيب، فالرسل أطباء القلوب، فلا سبيل إلى صلاحها وتزكيتها إلا على أيديهم.

والله قد ركَّب الإنسان على طبيعة محمولة على قُوَّتين: غضبية، وشهوانية، وهما الحاملتان لأخلاق النفس وصفاتها؛ فبقوة الشهوة يجذب المنافع لنفسه، وبقوة الغضب يدفع المضار عنها.

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٤٦).

وفي التعامل مع هذه الطبيعة **انقسم الناس إلى ثلاث فرق**:

الأولى: تركت النفس علىٰ طبيعتها، وأرخت العنان لشهواتها، فكانت نتيجة ذلك الخراب وفساد النفوس والأبدان.

والثانية: عمِلَت علىٰ مجاهدة تلك الصفات فأغلقت عليها المنافذ، وحاولت قطعها بالكلية، فأبت ذلك حكمة الله وما طبع عليه الجِبِلَّة البشرية، ولم تَنْقَد لهم الطبيعة، فاستجمعوا قواهم في كبت تلك الصفات عن العمل النافع.

وأما الفرقة الثالثة: رأت أن هذه الصفات ما خُلِقت سُدىٰ ولا عبثًا، فاتبعتْ منهج الرسل في التعامل معها، فلم تُرْخِ العنان لتلك الشهوات، ولم تُحاول كبتها، وإنما استعملتها فيما ينفع؛ فخُلُق الكِبْر ينشأ عنه العُلُوّ والظلم والعدوان، ولكن ينشأ عنه كذلك عُلُوّ الهمة والأَنَفَة والحميّة ومراغمة أعداء الله، فأبقوا علىٰ ذلك الخلق، واستعملوه حيث يكون استعماله أنفع.

وقد وقعت طائفة من الزهاد بمخالفات وأخطاء ظنوها من الشريعة، وظنوا أن فيها تطهيرًا وتزكية لنفوسهم، وما هي من التزكية في شيء، وإنما هي من تلبيس الشيطان، ومن تلك المخالفات: أن الشيطان يوهمهم أن الزهد هو تَرْك المباحات؛ فمنهم من لا يَزِيد عَلَىٰ خبز الشعير، ومنهم من لا يذوق الفاكهة، ومنهم من يقلل المطعم حتىٰ ييبس بدنه ويُعَذِّب نفسه بلبس الصوف، ويمنعها الماء البارد، وما هذه طريقة الرسول ﷺ ولا طريق أصحابه وأتباعهم، وإنما كانوا يجوعون إذا لم يجدوا شيئًا، فَإِذَا وجدوا أكلوا.

٤٨٧

بصيرة العلم

قال ابن القيم رحمه الله: «يَعرِض للسالك على درب الفناء معاطب ومهالك، لا ينجيه منها إلا بصيرة العلم»[(١)].

بيان المفردات

الفناء: لغة: هو مصدر فني يفنىٰ، إذا اضمحل وتلاشىٰ وعدم، وقد يطلق علىٰ ما تلاشت قواه وأوصافه مع بقاء عينه.

واصطلاحًا: يطلق علىٰ ثلاثة معانٍ؛ **الأول:** الفناء عن وجود السِّوىٰ، أي: وجود ما سوىٰ الله، وهو فناء القائلين بوحدة الوجود. **الثاني:** الفناء عن شهود السِّوىٰ، أي: فناء السالك عن شهود ما سوىٰ الله، وغيبته عن سوىٰ مشهوده، وهو الذي يشير إليه أكثر الصوفية المتأخرين، ويعدُّونه غاية. **الثالث:** الفناء عن إرادة السِّوىٰ، أي: الفناء عن إرادة ما سوىٰ الله، والفناء بمراد الله منه، عن مراده من الله، وهو فناء الخواص والأئمة المقربين[(٢)].

المعاطب: جمع مَعطَب، وهي المهالك والمفاسد[(٣)].

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٤٤).

(٢) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٣٣٥).

(٣) تاج العروس للزبيدي (٣/ ٣٩٣).

المعنى الإجمالي

أي يعترض السالك إلىٰ الله في طريق الفناء به عوارض تكون سبب هلاكه وفساده ما لم يكن متحصنا بالعلم؛ لأنه ربما يصل إلىٰ درجة لا يُميِّز فيها بين نفسه وغيره، ولا بين الرَّب والعبد، ولو كان معتقدا الفرق بينهما، فيقصر في حق ربه بعد أن قطع المسافات نحو الوصول إليه، ويغيب بشهوده عن مراد مشهوده، ومن ذلك ظن بعضهم أنه بمجرد وصوله إلىٰ مقام الفناء يسقط عنه الأمر والنهي، فيضل بذلك ويهلك(١).

أما إذا تعلم وعرف حق الله عليه، وسلك الطريق فإن علمه يكشف له حقيقة تلك العوارض، ويحفظه من الوقوع فيه والهلاك بسببها؛ ولهذا عَظُمَت وصية الأئمة والعلماء الربانيين بالعلم، وحذَّروا من السُّلوك بلا علم، وأمروا بهجر من هجر العلم وأعرض عنه، لمعرفتهم بمآل أمره وسوء عاقبة سيره(٢).

وفي هذا المعنىٰ قول عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «من عمل بغير علم كان ما يُفسِدُ أكثر مما يُصلِحُ»(٣).

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٤٤).

(٢) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٤١).

(٣) الزهد للإمام أحمد (ص: ٢٤٤).

بـــاب محبة الله والشوق إلى لقائه

٤٨٨

راحة المؤمن

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لا راحة للمؤمن دون لقاءِ الله»[١].

المعنى الإجمالي

يرى المؤمن بعين بصيرته وإيمانه أن الدنيا دار ممر وعبور، وأن لقاءه بالله لا ريب فيه، يقول الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت:٥]، فإنه لما علم سبحانه شدة شوق أوليائه إلى لقائه، وأن قلوبهم لا تهتدي دون لقائه، ضرب لهم أجلا وموعدا للقائه، وتسكن نفوسهم به[٢].

ويحث سبحانه كل راجٍ للقائه بالعمل الصالح فيقول: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف:١١٠].

وإن المؤمن يرجو لقاء الله ويحبه، إذ لا راحة له من عناء الدنيا وشقوتها، ومن كل ألم وبلاء إلا بلقاء الله؛ وذلك حين يبشر بجنة الله ورضوانه، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»[٣].

---

(١) الزهد لوكيع (ص: ٣١١)؛ والزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١٢٨).

(٢) الداء والدواء (ص: ١٨٣).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧/ ٣٧٠) برقم: (٢٢٦٩٦).

إن الراحة ليست في هذه الدنيا؛ فإنما الدنيا دار كبد وشقاء وبلاء، وفي الآخرة يجد المؤمن ما يُذهِب عنه ما لاقاه في دنياه؛ فيرىٰ النعيم المقيم والسعادة الحقيقية، والراحة الأبدية السرمدية، ولا يكون هذا إلا بمفارقة الدنيا ولقاء الله تعالىٰ، وتبوء المقام العلي في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

٤٨٩

النَّصَبُ لله تعالى دليل المحبة

قال مالك بن دينار رحمه الله: «إن القلب المحب لله يحب النَّصَبَ لله عز وجل»[١].

بيان المفردات

النَّصَب: التعب والإعياء[٢].

المعنى الإجمالي

كثرة المتاعب والمشاق والنصب للوصول إلى الغايات غاية المحبين العاملين الصادقين، الذين يرسمون أهدافهم وغاياتهم في قلوبهم وعقولهم، فلا ينهضون من عمل إلا دخلوا في عمل آخر.

القلب المحب لله يقبل على الله إقبالا غير منقطع، فكلما أقبل على الله بعمل صالح رأى من بركاته وفضله ما ينشرح به صدره، ويطمئن إليه قلبه، وتتضاعف به همته في العمل وإن كان جهده كبيرا، وثقله على النفس عظيمًا.

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ٣٦٣).
(٢) ينظر: الإبانة في اللغة العربية لسلمة العوتبي (٤/ ٤٥٥).

ومحبة الله تعالىٰ تعني أن يحب العبد كل ما يحبه الله، ويبغض كل ما يبغضه، فإن أمر الله تعالىٰ بأمر كان أول المؤتمرين به، وإن نهىٰ عن شيء كان أول المنتهين عنه.

وقد وصف الله عباده الذين يستبدل بهم من غيَّر وبدَّل بحب الله لهم، ومحبتهم له، وذكر سبب ذلك ما يُقدمون عليه من أعمال صالحة كبيرة، فقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة:٥٤].

٤٩٠

طريق التخلص من الشهوات

قال يوسف بن أسباط رحمه الله: «لا يمحو الشهوات إلا خوفٌ مزعجٌ أو شوقٌ مُقلِق»[١].

المعنى الإجمالي

الشهوة إن تمكنت من القلب صعب علاجها، لأنها تغلق عليه منافذ النور، فيغرق القلب في الظلام، ويستتر عنه الحق، ولا يمكن خروجها في العادة إلا بِوَاردٍ إلهي جلالي أو جمالي، فالوارد الجلالي هو خوفٌ مزعجٌ يدفعه إلىٰ الإقبال علىٰ الله، ويُوقظه من غفلته، ويُكَدِّر عليه استمتاعه بشهواته، والوارد الجمالي هو شوقٌ وحبٌّ يدفعه إلىٰ الإقبال علىٰ ربه، ويجعله يذهل عن شهوات نفسه.

فالتضحية برغائب النفس وأهوائها لا يمكن أن يكون عن طريق القناعة العقلية والبراهين العلمية؛ لأن أهواء النفس إنما تأخذ مؤيِّداتها من سلطان العواطف القلبية، لا من هدي العقل، وكما أن الشهوات دخلت إلىٰ القلب واستقرت فيه بدافع من المحبة والرغبة فلن يتم خروجها منه إلا بدافع آخر مناقض لها، فالخوف سَوطٌ سائقٌ، والشوق تيارٌ حامل.

(١) المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر الدينوري (٥/ ١٨٣).

والخائف يعمل مع وجود المشقة؛ إذ الخوف يَحمل علىٰ الصبر علىٰ ما هو أهون وإن كان شاقًّا، فالخوف يقطع اللذات؛ إذ المطلب الأول للخائف هو النجاة، لا يلتفت إلىٰ غيرها، والخوف هو الذي دفع العُبَّاد إلىٰ ترك لذة الرُّقاد والوقوف بين يدي الله تعالىٰ، قالت ابنة الربيع بن خُثَيْم للربيع: يا أبت، ما لَك لا تنام والناس ينامون؟ فقال: «إن النار لا تَدَعُ أباكِ ينام»[(١)]، قال تعالىٰ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [السجدة:١٦]. ويروي ابن مهدي عن سفيان الثوري، قال: «كنتُ أُرامِقُه الليلة بعد الليلة، فما كان ينام إلا في أول الليل، ثم ينتفض فَزِعًا مرعوبًا ينادي: النار، شغلني ذكر النار عن النوم والشهوات»[(٢)].

والمحب يعمل ببذل المجهود شوقًا إلىٰ المحبوب، فيَسْهُل عليه الصعب، وتفنىٰ منه القوىٰ وهو لا يرىٰ أنه وفَّىٰ بعهد المحبة ولا قام بشكر النعمة.

(١) تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي (٩/ ٧٦).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٧/ ٦٠).

٤٩١

طيب الدنيا والآخرة

قال ذو النون المصري رحمه الله: «ما طابت الدنيا إلا بذكره، ولا طابت الآخرة إلا بعفوه، ولا طابت الجنة إلا برؤيته»[(١)].

المعنى الإجمالي

ذِكْرُ الله ذكرًا كثيراً سمةٌ من سمات الفلاح والفوز للعبد بمغفرة الله وأجره ورضوانه، ولذلك أمر الله تعالىٰ عباده فقال: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة:١٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٤١].

إن الدنيا لا تطيب ولا يسعد العبد بالبقاء فيها إلا عندما يديم ذكرَ الله علىٰ لسانه كثيرًا، فيكون لسانه رطبًا بذكر الله، فقد جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال له: «يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثُرتْ عليَّ، فأنبئني منها بأمرٍ أتشبَّثُ به، قال: لا يزالُ لسانُكَ رطبًا بذكر الله»[(٢)].

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٩/ ٣٧٢).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٥٨) برقم: (٢٩٤٥٣)؛ وأحمد في مسنده برقم: (١٧٩٠٧)؛ والبيهقي في السنن الكبرىٰ برقم: (٦٦٢٢).

وتطيب الآخرة بعفو الله ومغفرته ورضوانه، فمهما يعمل العبد من الصالحات فإنَّ عفو الله وستره ورحمته تجبر النقص والضعف وعدم الكمال الذي كان مصاحبًا للأعمال، ولذلك أمرنا رسول الله ﷺ بالسداد والمقاربة، وبيَّن أن العبد لن ينجو بعمله، فقال: «قاربوا وسددوا، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله» قالوا: يا رسول الله ولا أنت؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»(١).

ونعيم الله لعباده المؤمنين في الجنة عظيم؛ ففيها ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر، لكنَّ أعظم نعيم -بعد رضى الله عنهم- رؤية الله ﷻ، فقد جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن أناسًا في زمن النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال النبي ﷺ: «نعم، هل تُضارُّون في رؤية الشمس بالظهيرة ضوء ليس فيها سحاب»؟ قالوا: لا، قال: «وهل تُضارُّون في رؤية القمر ليلة البدر ضوء ليس فيها سحاب»؟: قالوا: لا، قال النبي ﷺ: «ما تُضارُّون في رؤية الله ﷻ يوم القيامة إلا كما تُضارُّون في رؤية أحدهما»(٢).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٧٠) برقم: (٧٦).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ٤٤) برقم: (٤٥٨١).

٤٩٢

كثرة الذكر دليل المحبة

قال الجاحظ[١] رحمه الله: «من أحب شيئًا أكثر من ذكره»[٢].

المعنى الإجمالي

لكل دعوىٰ بينة وبرهان، ودعوىٰ المحبة بينتها المتابعة وكثرة ذكر المحبوب، فإن الشيء إذا تمكَّن حبُّه في القلب فاض علىٰ اللسان ذكرًا وثناءً حسنًا، ولذلك كانت كثرة ذكر الله علامة علىٰ محبته، والإنسان كلما أكثر من ذكر المحبوب واستحضاره فِي قلبه واستحضار محاسنه ومعانيه الجالبة لحبه تضَاعف حبه وتزايد شوقه إِليه واستولىٰ علىٰ جميع قلبه، وإِذا أعرض عَن ذكره وإحضار محاسنه بقلبه نقص حبه من قلبه، ولا شيء أقرّ لعين المُحِبّ من رؤية محبوبه، ولا أقرّ لقلبه من ذِكْره وإحضار محاسنه، فإذا قوي هذا فِي قلبه جرىٰ لسانه بمدحه والثناء عليه وذِكْر محاسنه، وتكون زيادة ذلك ونقصانه بحسب زيادة الحب ونقصانه في قلبه، والحسُّ

(١) عمرو بن بحر بن محبوب، أو عثمان، الكناني، الليثي، البصري، المعروف بالجاحظ، العلامة المتبحر، ذو الفنون، تلميذ النظام، وإليه تنتسب الفرقة المعروفة بالجاحظية من المعتزلة، من كتبه: كتاب الحيوان، والبيان والتبيين، توفي سنة ٢٥٠هـ. ينظر: وفيات الأعيان (٣/ ٤٧٠)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (١١/ ٥٢٦).

(٢) البيان والتبيين للجاحظ (٣/ ٢٧٤).

شاهد بذلك، **قال بعض الشعراء:**

أُرِيـــد لأنســـىٰ ذكرهَـــا فَكَأَنَّمَـــا تمثَّـــل لـــي ليلـــىٰ بِكُـــل سَـــبِيل[١].

فمن أحب الدنيا كان همه وشغله في يومه هو الحديث عن الدنيا والمال، ورد أنه زار رابعةَ أصحابُها، فذكروا الدنيا، فأقبلوا علىٰ ذمها، فقالت: «اسكتوا عن ذكرها، فلولا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها، ألَا من أحب شيئًا أكثر من ذكره»[٢].

ومن أحب الله تعالىٰ كان شغلُه في ليله ونهاره الذكر والتسبيح وقراءة القرآن، كما أن كثرة الذكر تورث المحبة، ولذلك أمر الله تعالىٰ بكثرة الذكر فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب:٤١]. ومن أحب النبي ﷺ أكثر من الصلاة والسلام عليه، ولذلك ورد في الحديث: «أولىٰ الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة»[٣].

(١) الشاعر: كثير بن عبد الرحمن الخزاعي. ينظر: طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلَّام (٢/ ٥٤٦).

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٢٠٧).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (١/ ٤٩٥) برقم: (٤٨٤)، وقال: حسن غريب؛ والبخاري في التاريخ الكبير (٦/ ٢٢٢) برقم: (٦٥٦٩).

٤٩٣

قــرة أعين الصالحين

قالت ثويبة بنت بهلول[(١)] رحمها الله: «قُرَّةَ عيني، ما طابت الدنيا والآخرة إلا بك، فلا تجمع عليَّ فقدك والعذاب»[(٢)].

المعنى الإجمــالي

لم تطب الدنيا عند عباد الله الصالحين إلا بالله تعالىٰ؛ فقد دلَّ العباد علىٰ نفسه، وأراهم بديع صنعه وخلقه، وحضَّهم علىٰ التفكر في خلقه في سمائه وأرضه، وربط بين التفكر في آلائه والتذكر للقائه في الآخرة، فقال تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾ [الروم:٨]، فطابت الدنيا بمعرفة الله، والشوق إلىٰ لقائه.

وتطيب قلوب المؤمنين في الآخرة بعفو الله ورحمته ومغفرته، وتحيته لهم؛

---

(١) ثويبة بنت بهلول، من عابدات دمشق ومن العارفات الكِبار، روىٰ عنها أحمد بن أبي الحواري وعيسىٰ بن إسحاق، من أعلام القرن الثالث الهجري. ينظر: طبقات الصوفية (٣٩٠)؛ تاريخ دمشق (٧٠/ ١٢٨)؛ صفة الصفوة (١/ ٥٧٨).

(٢) صفة الصفوة (٢/ ٤٣٤)، وروي هذا القول بنصه عن مؤمنة بنت بهلول، فإما أن يكون لامرأتين مختلفتين، أو أن يكون اسمها ثويبة أو مؤمنة، فحصل شكٌّ في الاسم، ينظر: طبقات الصوفية (ص: ٣٩٠).

كما قال تعالىٰ: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ [الأحزاب:٤٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس:٥٨].

ومن المصائب التي تجتمع علىٰ من كتب الله عليهم غضبه وعذابه أن يجتمع عليهم فقد الله، مع تعرضهم لغضبه وسخطه، وتصليتهم عذاب الجحيم، قال تعالىٰ علىٰ لسان حالهم وهم في النار: ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٧-١٠٨]، ولا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون، كما قال تعالىٰ: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [البقرة:١٦٢].

٤٩٤

محبة الله للخلق

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «إذا أحب الله قومًا جَذّب قلوبهم إليه»(١).

المعنى الإجمالي

يسعىٰ المؤمنون إلىٰ حب الله لهم؛ فإذا أحب الله قوما يسر لهم الخير، وجنبهم الشر، ورغبهم في كل مكرمة وبر، ونفرهم من كل سوء وفحشاء، وهذا لا يتأتىٰ إلا حين تكون التربية الإيمانية مكتملة في الأفراد والمجتمعات.

إنَّ من أحبَّ الله تعالىٰ أحبه الله وحبَّبَه إلىٰ خلقه، ووضع له الخير والقبول بين عباده، وأصبحت قلوب العباد تحبه لما يحمله من مؤهلات الخير والصلاح.

وتعلق قلوب المخلوقين ببعضهم إنما هو فضل من الله تعالىٰ؛ فإذا أراد الله لعبده القبول والمحبة في قلوب الناس أحبه، وأحبه جبريل والملائكة عليهم السلام، ثم أحبه من في الأرض. وذلك لما ورد في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله إذا أحبَّ عبدًا، قال لجبريل: إني أحبُّ فلانًا فأحبه، قال: فيقول جبريل لأهل السماء: إن ربكم يحب فلانًا فأحبوه، قال: فيحبه أهل السماء، قال: ويوضع له القبول في الأرض»(٢).

---

(١) جواهر التصوف (ص: ٣٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١١١) برقم: (٣٢٠٩)؛ ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٣٠) برقم: (٢٦٣٧).

٤٩٥

علامة الشوق

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «علامة الشوق فِطام الجوارح عن الشهوات»(١).

بيان المفردات

الشّوقُ: نزاع النفس، يقول: شاقني حبها، وذكرها يُشَوِّقني، أي: يُهَيِّج شَوْقي(٢).

فطام: فَطَمَتِ الصَّبِيَّ أُمُّهُ تَفْطِمُهُ؛ أي: تَقْطَعُهُ عن الرَّضاع(٣).

المعنى الإجمالي

الشوقُ فطرةٌ بشريةٌ ونزعةٌ إنسانيةٌ؛ يشتاق الإنسان لأقربائه ووطنه الذي ترعرع فيها، ويشتاق إلىٰ إخوانه وأقرانه وأصدقائه، ويشتاق إلىٰ سني عمره الخالية، فيشتاق إلىٰ الشباب بعد الشيخوخة، وإلىٰ القوة بعد الضعف، وإلىٰ الاجتماع بعد التشتت والافتراق.

---

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٩٧).

(٢) كتاب العين للخليل بن أحمد (٥/ ١٨٤)؛ والصحاح (٤/ ١٥٠٤).

(٣) كتاب العين (٧/ ٤٤٢).

فإذا كان الشوق إلىٰ الله ورحمته وجنته ورضوانه رغبةً عارمةً، لا يقف أمامها إلا امتحان العبد أمام شهواته، والتي لا يخرج منها العبد بيسر وسهولة، بل بمجاهدة وفطام للنفس عما تعودت عليه، وألفته من الشهوات التي تتوافق مع رغائب النفس؛ حتىٰ يصل العبد إلىٰ غاية الشوق، ومنتهىٰ الغايات والآمال وهو رضا الله تعالىٰ.

وأشد الفطام للنفس في صبرها عن الشهوات؛ فهي ترىٰ الحرام ميسرا، لا يمنعها مانع، ولا يحجزها حاجز، سوىٰ الله تعالىٰ الذي يجعل الإيمان في القلب كالجبل الشامخ، الذي لا يتطاوله متطاولٌ إلا بشق الأنفس.

ولكن من ادعىٰ شوقه إلىٰ الله تعالىٰ، وهو غارق في أوهامه وشهواته، فإن ادعاءه لا يصدقه أحد؛ ولذا قال ربنا ﷻ عن اليهود والنصارىٰ الذين خصُّوا الجنة، ولم يعملوا لها: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة:١١١].

٤٩٦

معاملة الخلق لك يحددها مقامك عند ربك

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «على قدر خوفك من الله يهابك الخلق، وعلى قدر حبك لله يحبك الخلق، وعلى قدر شغلك بالله يشتغل الخلق بأمـرك»(١).

المعنى الإجمـالي

ذكر الله تعالىٰ في كتابه الكريم أن حبه وحب رسوله ﷺ يجب أن يكونا أحب من أي محبوب، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [التوبة:٢٤]، وجاء ذكر حب الله وحب رسوله ﷺ وحب المرء لأخيه المسلم في الله تعالىٰ في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود إلىٰ الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يوقد

(١) شُعَبُ الإيمان للبيهقي (٢/ ٣٠٦)؛ وصفة الصفوة (٢/ ٢٩٥). وهذا الشرح يتعلق بما يخص محبة الله، وأما شرح ما يخص الخوف فسيأتي في باب الخوف والخشية، الحكمة رقم: (٥٥٢)، وشرح ما يتعلق بالاستغناء بالله سيأتي في باب الاعتزاز والاستغناء بالله عن الناس، الحكمة رقم: (٦١٩).

له نار فيقذف فيها»[(١)].

لا يقدم المؤمن حب نفسه وأهله وولده قبل حبه لله تعالىٰ؛ ذلك أن المؤمن أشدُّ حبًا لله كما وصف الله المؤمنين بذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥]، لكن المؤمنين تتفاوت مراتبهم في حبهم لله تعالىٰ؛ وذلك حسب علمهم ومعرفتهم لله تعالىٰ، وتعظيمهم له، وبقدر حب المؤمن لربه تعالىٰ حبًا يملأ باطنه وظاهره، قلبه وجوارحه، يجعل الله محبته لعبده في قلوب عباده، وهذه المحبة القلبية في قلوب العباد -وبخاصة الصالحين منهم- تتفاوت بقدر محبة العبد لخالقه ﷻ، فمن كان في محبته مخلصا لله كامل المحبة له أعطاه الله محبة في قلوب المخلوقين بقدر محبته له، ولا ينصرف عن محبته إلا الفاجرون والأشقياء؛ فهم لا يحبون إلا من كانوا علىٰ شاكلتهم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٢) برقم: (١٦)، وفي (٨/ ١٤) برقم: (٦٠٤١)، وفي (٩/ ٢٠) برقم: (٦٩٤١).

٤٩٧

المحبـة توجب الطاعـة

قال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله: «المحبة معانَقةُ الطاعة»(١).

بيـان المفردات

المعانقـة: عانَقَه مُعانقةً وعِناقًا: التزمه فأدنىٰ عنقَه من عنقِه(٢).

المعنى الإجمـالي

الفرق بين المحبة الصادقة والمحبة الكاذبة هو أن المحبة الصادقة توجب علىٰ صاحبها أن يطيع محبوبه في كل صغيرة وكبيرة، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣١-٣٢]، قال أبو السعود رحمه الله: «المحبة ميلُ النفس إلىٰ الشيء لكمالٍ أدركتْه فيه بحيث يحمِلها علىٰ ما يقرّبها إليه، والعبدُ إذا علم أن الكمالَ الحقيقيَّ ليس إلا للهِ عز وجل وأن كلَّ ما يراه كمالًا من نفسه أو من غيره فهو من الله وبالله وإلىٰ الله، لم يكن حبُّه إلا لله وفي الله، وذلك مقتضىٰ إرادةِ

(١) الرسالة القشيرية (ص: ٣٥٠)؛ مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ١٢)

(٢) لسان العرب لابن منظور (١/ ٢٧٢).

طاعته والرغبةِ فيما يقرّبه إليه، فلذلك فُسِّرت المحبةُ بإرادة الطاعة وجُعلت مستلزِمةً لاتباع الرسول ﷺ في عبادته والحرصِ على مطاوعته»(١).

فالمحبة والطاعة متعانقان ومتلازمان، لذلك كانت الطاعة هي المقياس لصدق المحبة أو كذبها، قال ابن رجب رحمه الله: «فمن أحبَّ الله ورسوله محبةً صادقة من قلبه، أوجب له ذلك أنْ يُحبَّ بقلبه ما يُحبُّه الله ورسولُه، ويكره ما يكرهه الله ورسوله، ويرضى بما يرضى الله ورسوله، ويَسخط ما يَسْخَطُهُ الله ورسوله، وأنْ يعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحبِّ والبغض، فإنْ عمل بجوارحه شيئًا يُخالِفُ ذلك، فإن ارتكبَ بعضَ ما يكرهه الله ورسولُه، أو ترك بعضَ ما يُحبه الله ورسوله، مع وجوبه والقدرة عليه، دلَّ ذلك على نقص محبَّته الواجبة، فعليه أنْ يتوبَ من ذلك، ويرجع إلى تكميل المحبة الواجبة»(٢). **وكما قيل:**

تَعصِي الإلـه وأنـت تَـزعُمُ حُبَّـه ... هـذا لعمـري في القِيـاس شَـنيعُ
لَـو كـان حُبُّـك صـادِقا لأطعتَـه ... إنَّ المُحِـبَّ لِمَـن يُحـبُّ مُطيـعُ

---

(١) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٢/ ٢٤).
(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب (٣/ ١١٥٠).

٤٩٨

المحبة بموافقة المحبوب

قال الجنيد رحمه الله: «المحبة موافقةُ الحبيب في المشهد والمغيبِ»[(١)].

المعنى الإجمالي

من صفة المؤمنين أن الله تعالىٰ يحبهم ويحبونه، فالمؤمن يمتلئ قلبه بحب الله وحب رسوله، فهو يحبُّ اللهَ ويحب كلَّ ما يحبه الله، قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥]، وقال ﷺ: «ثلاثٌ مَنْ كنّ فيه وَجد حلاوةَ الإيمان: أنْ يكون اللهُ ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأنْ يحِب المرء لا يحبه إلا لله، وأنْ يَكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقْذف في النار»[(٢)].

ومحبة الله ورسوله ليست بالكلام والادّعاء ولكن في الأفعال والتصرفات، قال ابن رجب رحمه الله: «محبة الله علىٰ درجتين: إحداهما: فرض، وهي المحبة المقتضية لفعل أوامره الواجبة، والانتهاء عن زواجره المحرمة، والصبر علىٰ مقدوراته المؤلمة، فمن وقع في ارتكاب شيء من المحرمات، أو أخلّ بشيء من فعل

(١) ينظر: تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ١٥٣) بدون نسبة؛ الرسالة القشيرية (ص: ٣٥٠) بنحوه؛ شعب الإيمان (١/ ٣٨٣) بألفاظ مختلفة عن الجنيد؛ غذاء الألباب (١/ ٢٢٥)؛ مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ١١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٢) برقم: (١٦)، ومسلم في صحيحه (١/ ٤٨) برقم: (٤٣).

الواجبات فلتقصيره في محبة الله، حيث قدّم محبة نفسه وهواه علىٰ محبة الله؛ فإن محبة الله لو كملت لمنعت من الوقوع فيما يكرهه، وإنما يحصل الوقوع فيما يكرهه الله لنقص محبته الواجبة في القلوب، وتقديم هوىٰ النفس علىٰ محبته. والدرجة الثانية من المحبة، وهي فضْلٌ مستحب أن ترتقي المحبة من ذلك إلىٰ التقرب بنوافل الطاعات والانكفاف عن دقائق الشبهات والمكروهات، والرضا بالأقضية المؤلمات.

ومحبة الرسول علىٰ درجتين أيضًا؛ إحداهما: فرض، وهي ما اقتضىٰ طاعته في امتثال ما أمر به من الواجبات، والانتهاء عما نهىٰ عنه من المحرمات، وتصديقه فيما أخبر به من المخبرات والرضا بذلك، وأن لا يجد في نفسه حرجًا مما جاء به، ويسلم له تسليمًا، وأن لا يتلقىٰ الهدىٰ من غير مشكاته، ولا يطلب شيئًا من الخير إلا ما جاء به. الدرجة الثانية: فضْلٌ مندوب إليه، وهي ما ارتقىٰ بعد ذلك إلىٰ اتباع سنته وآدابه وأخلاقه، والاقتداء به في هديه وسمته وحسن معاشرته لأهله وإخوانه، وفي التخلق بأخلاقه الظاهرة في الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، وفي جوده وإيثاره وصفحه وحلمه واحتماله وتواضعه»[1].

وهذه الطاعة والموافقة لأمر الله ورسوله هي حالة ملازمة للمسلم في السرّ والعلانية، فإن الطاعة في السر من علامات الإخلاص، والموافقة في الظاهر مع انتهاك الحرمات في الخلوات من علامات النفاق.

(١) فتح الباري لابن رجب (١/ ٤٨-٤٩).

٤٩٩

الغيرة من لوازم المحبة

قال ابن حزم رحمه الله: «إذا ارتفعت الغَيْرَة فأيقِن بارتفاع المحبة»[١].

بيان المفردات

الغيرة: في اللغة: الحميَّة والأنفة[٢]. واصطلاحًا: كراهية مشاركةِ الغير[٣].

المعنى الإجمالي

يتكلم الإمام ابن حزم عن الغيرة والمحبة والعلاقة بينهما، فشدة المحبة تبعث على الغيرة على المحبوب، وشدة الحرص عليه من أن يمسه أذى، أو أن يشاركه فيه أحد، وحين تنعدم غيرة المحب على محبوبه فهذا دليل على انعدام المحبة وارتفاعها.

والغيرة عند وجود سببها الشرعي صفة كمال تدفع صاحبها للغضب عند انتهاك الحرمات، ولذلك مدح النبي ﷺ سعدًا عندما قال سعد: لو رأيت رجلًا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مُصْفِح (أي: غير ضارب بصفح السيف، وهو جانبه،

(١) الأخلاق والسير في مداواة النفوس لابن حزم (ص: ٥٥).

(٢) ينظر: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم لنشوان الحميري (٨/ ٥٠٤٨)؛ تاج العروس للزبيدي (١٣/ ٢٨٨).

(٣) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (٢/ ٤١٠).

وإنما أضربه بحدِّه)، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ، فقال: «أتعجبون من غَيْرة سعد؟ لَأنا أغْيَرُ منه، والله أَغْيَرُ مني»(١).

ونفس الأمر ينطبق علىٰ محبة العبد لربه ﷻ ومحبته لدينه، فحين تَصدُق المحبة تدفع العبدَ إلىٰ تعظيم الله والغضب لدينه إن رأىٰ حرمات الله تنتهك أمامَه، ويدفعه ذلك إلىٰ محاولة إزالة المنكر.

وأقوىٰ الناس محبةً هو أعظمهم غَيْرةً علىٰ حرمات الله وحدوده، فمحب الله ورسوله يغار لله ورسوله علىٰ قدر محبته وإجلاله لهما، وإذا خلا قلبه من الغيرة لهما فهو من المحبة أخلىٰ، وإن زعم أنه من المحبين، فكيف يصح لعبدٍ أن يدَّعي محبة الله وهو لا يغار علىٰ محارمه إذا انتهكت، ولا علىٰ حقوقه إذا ضُيِّعَت!

وأما الذي يرىٰ المنكرات تقع أمامه ولا يتغير لونه ولا يُحرِّك ذلك ساكنًا عنده، فاعلم أن ذلك دليل علىٰ انعدام محبة الله في قلبه، أو عجزه المتمكِّن؛ إذ لو كان يحبه لما سكت عن هتك محارمه.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٧٣)، برقم: (٦٨٤٦).

٥٠٠

القلوب الساجدة

قال القشيري[(١)] رَحِمَهُ اللهُ: «قلوب الواجدين على بِساط القرب أبدًا ساجدة»[(٢)].

بيان المفردات

الواجدون: جمع الواجد، وأصله من الوَجْد، وهو الحب والحزن[(٣)].

البساط بفتح الباء: الأرض العريضة الواسعة، يقال: مَكَانٌ بَساط وبسِيط، وبكسرها: ما يُبسط على الأرض كالفراش والسجادة، وهو المراد هنا[(٤)].

المعنى الإجمالي

تبين الحكمة حالا من أحوال الأولياء والسالكين في سبيل الله، بأن الواجدين منهم يصلون إلىٰ حالةٍ تكون قلوبهم علىٰ بِساط القرب والعبادة لله ساجدة دائما،

(١) عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك، أبو القاسم القشيري النيسابوري، الشافعي، الصوفي، المفسر، الإمام الزاهد، القدوة، من كتبه: الرسالة، ولطائف الإشارات في التفسير، ولد سنة ٣٧٥هـ وتوفي سنة ٤٦٥هـ. ينظر: تاريخ بغداد (١٢/ ٣٦٦)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨/ ٢٢٧).

(٢) لطائف الإشارات للقشيري (١/ ١٢٤).

(٣) لسان العرب لابن منظور (٣/ ٤٤٦).

(٤) المصدر السابق (٧/ ٢٥٩).

فلا يلتفتون إلىٰ الأغراض الدنيوية ولا يشعرون بالطبائع البشرية، يغيبون عن الخلق بشهود الملك الحق، فلم يقع لهم شعور بهم ولا التفات إليهم، ويفنون عن الأسباب بشهود مسبب الأسباب، وقلوبهم معلقة ثابتة بالله ﷻ يطربون بلذة قربه.

وهذه أحوال ومراتب يصل إليها بعض أرباب القلوب، وفي قصة حارثة بن النعمان ﵁ نظير لمثلها، حيث يقول عند سؤاله ﷺ: «كيف أصبحت يا حارثة»؟... فقال: عزفتْ نفسي عن الدنيا، فأسهرتُ ليلي وأظمأتُ نهاري، وكأني أنظر إلىٰ عرش ربي بارزًا...، فقال له النبي ﷺ: «أبصرتَ فالزَم -مرتين- عبدٌ نوّر اللهُ الإيمانَ في قلبه»(١).

ويلاحظ أنها حالات خاصة وليست خالية عن قيود العلم والشريعة، فمن غرق في طريق السلوك بدون علم الشريعة واتباعها فهو في خطر، كما يبينه الهجويري قائلًا: «والمشايخ ﵃ متفقون علىٰ أن سلطان العلم أقوىٰ من سلطان الوجد، لأنه حين تكون القوة لسلطان الوجد يكون الواجد في محل الخطر، وحين تكون القوة لسلطان العلم يكون في محل الأمن، والمراد من هذا كله أنه يجب في جميع الأحوال أن يكون الطالب متابعا للعلم والشرع»(٢).

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٣/ ١٥٨) برقم: (١٠١٠٦)؛ وابن أبي شيبة في مصنَّفه (١٥/ ٦٢٣) بلفظ قريب برقم: (٣١٠٦٤).

(٢) كشف المحجوب للهجويري، ترجمة: إسعاد عبد الهادي قنديل (٢/ ٦٦٢).

٥٠١

البكـاء

قال ابن الجوزي رحمه الله: «إذا نزلَ آبُ في القلب سَكَنَ آذارُ في العين»[١].

بيـان المفردات

آب: هو الشهر الثامن من السنة الميلادية حسب الطريقة السريانية في حساب الشهور، ولا يزال مستعملًا في بعض بلدان المشرق العربي، ويقابله في طريقة الغرب اليوم شهر أغسطس، وهو شهر مشهور بشدة الحرارة[٢].

آذار: هو الشهر الثالث من السنة الميلادية حسب الطريقة السريانية في حساب الشهور، ويقابله في طريقة الغرب اليوم شهر مارس، وهو شهر مشهور بنزول الأمطار، كما قالوا: «آذار أبو الأمطار»[٣].

المعنى الإجمـالي

يعني أنَّ القلبَ إذا نزلتْ فيه حرارةُ الصدق والخوف والإيمان والشوق إلى الله تعالى فاضتْ العين بالدموع، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ

(١) المدهش لابن الجوزي (ص: ٢٣٥)؛ الفوائد لابن القيم (١/ ١١٢)؛ بدائع الفوائد (٣/ ١١٨٠).

(٢) ينظر: الموسوعة الحرّة ويكيبيديا https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A2%D8%A8.

(٣) ينظر: الموسوعة الحرّة ويكيبيديا https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A2%D8%B0%D8%A7%D8%B1.

تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [المائدة:٨٣].

وقد يَفيض الدَّمعُ بسبب الحُزن علىٰ فوات الطاعة كما قال تعالىٰ: ﴿ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة:٩٢].

والعكس صحيح أيضًا، فإنَّ القلبَ إذا خلا من حرارة الصدق والإيمان وصار باردًا قاسيًا كالصُخور، فإنَّ العين تجمد ولا تفيض بدمعها.

٥٠٢

الحب رِقّ

قال ابن الجوزي رحمه الله: «إنَّ المُحِبَّ لمن يهواه مَمْلُوك»(١).

المعنى الإجمالي

إن الإنسان أمير على الدنيا مستعبد لها إن كان زاهدًا فيها، غير مبرح بما فاته منها، وهذا هو طريق الحق، وهو معروف، وقد سلكه الناس من قبل، فزهدوا في الدنيا وأقبلوا على الآخرة. وإن رغب الإنسان في الدنيا وعشقها، فهو عبد مطيع لها ما دام يعشقها، لأن الإنسان عبد مملوك لمن يهواه ويحبه، ومستعد أن يقوم بكل ما يطلبه منه حبيبه.

وهذه الحكمة هي شطر بيت من البيتين الذين أنشدهما ابن الجوزي في بيان أحوال مَن أحبَّ الدنيا وَسَعَىٰ في جمع حطامها، قال:

أنت الامير علىٰ الدُّنْيَا بزهدك فِي ... حطامها، وَطَرِيقُ الْحقِّ مسلوك

وأنت عبدٌ لَهَا مَا دُمتَ تعشَقُها ... إنَّ المُحِبَّ لمن يهواه مَمْلُوك(٢).

(١) التذكرة في الوعظ لابن الجوزي (ص: ٣٧).

(٢) التذكرة في الوعظ لابن الجوزي (ص: ٣٧).

قال الله تعالىٰ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٤-١٥]. وفيها مقارنة بين مصالح الدنيا ومصالح الآخرة، ثم رجَّح اللهُ تعالىٰ الآخرةَ علىٰ الدنيا، ودعا الناسَ إلىٰ العمل لها بقوله: أؤنبئكم بخير من ذلكم؟

وفي حديث النبي ﷺ: «إن الدنيا حلوةٌ خَضِرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء»[١]، أي: اجتنِبُوها. وإذا وفَّق اللهُ الإنسانَ أن ينخلع عن ملاحظة ما يكتسبه الخلق ويتزاحمون عليه، والتحرُّق علىٰ المنافسة فيه مِن مناصب ومساكن وسيَّارات وعقارات وأرْصِدَة ونحوها، وأقبل علىٰ ما هو أعظم من ذلك، وهو صناعة المستقبل الأبدي وعمارة النفس بالله، فإنه سيكتشف للحياة معنىً آخر، معنىٰ أسمىٰ من الحطام الصغير المؤقت[٢].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٨٩) برقم: (٢٧٤٢).

(٢) رقائق القرآن لإبراهيم السكران (ص: ٢٣).

٥٠٣

عبادة المشتاقين

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «للّه ما أحلى زمانًا تسعى فيه أقدام الطاعة على أرض الاشتياق»[١].

المعنى الإجمالي

يتحدث ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه الحكمة عن الزمان الذي يقضيه العبد في أداء العبادات والقيام بالطاعات، وما يجده العبد في تلك اللحظات من المتعة واللذة والأنس بالقرب من المحبوب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، خاصة إذا كان العبد قد ملأه الشوق إلىٰ لقائه والحاجة إلىٰ الخلوة مع ربه والأنس به، ففي هذه اللحظات يجد العبد من المشاعر والأحاسيس الممتعة ما يفوق الوصف ويعجز اللسان فيه عن التعبير.

وللإشارة إلىٰ هذه اللذات والمتع استخدم ابن القيم فعل التعجب «ما أحلىٰ!»، أي: ما أكثر حلاوتَه وأقوىٰ لذَّتَه، وعبَّر عن هذا الأمر بتعبيرٍ مجازيٍ، حيث وصف الإنسان حال العبادة بأقدام تمشي، والشعورَ الذي في داخله بالأرض، فكأن الإنسان عندما يقبل علىٰ الله بالشوق والرغبة، مَثلُه مَثَلُ الأقدام التي تمشي علىٰ أرض مستوية رخوة، لا تتعب ولا تتألم، بل تتلذَّذ وتتنعَّم، والله تعالىٰ أعلم.

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ١١٣).

وقد ذكر الله تعالىٰ المؤمنين المشتاقين لربهم، أنهم سيأتون لاستجابة ندائه، مشاة وركابا، من مكان قريب وبعيد، فقال: ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج:٢٧]، كما وصف الله حالَ المؤمنين الصادقين في البكاء عند استماعهم لآياته، شوقًا إليه ومحبة له، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩]، وقال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر:٢٣].

وكان من دعاء النبي ﷺ: «وأسألك لذَّة النظر إلىٰ وجهك، والشوق إلىٰ لقائك، في غير ضَرَّاء مُضِرَّة، ولا فتنة مُضِلَّة»[١].

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٢/ ٨١) برقم: (١٢٢٩).

٥٠٤

لـذَّة القـرب

قال ابن القيم رحمه الله: «لو تَخيَّلْتَ قُرْبَ الأحباب لأقمتَ المأتَمَ على بُعْدِكَ!»[(١)].

بيـان الـمفردات

الـمأتم: النساء يجتمعن في الخير والشر، وعند العامة: اجتماع في المصيبة فقط، يقولون: كنا في مأتم فلان، والصواب: كنا في مناحة فلان[(٢)].

الـمعنى الإجمـالي

لو استطعت أن تتخيَّل قُربَ رب العالمين ﷻ، وأحسستَ لذَّة القرب منه، وشاهدت أنوارَه بقلبك، لبكيت على بعدك عنه وأقمت المآتم من أجل ذلك.

والمراد بالقرب هنا: قرب الأحباب من محبوبهم في عالم الروح وفي الجنان، قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾ [الواقعة: ١٠-١١].

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ١١٢)؛ وأصل الحكمة لابن الجوزي في المدهش (ص: ٢٨٠)، واخترنا لفظ ابن القيم لأنه أوضح.

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٥/ ١٨٥٧).

يشير ابن الجوزي في هذه الحكمة إلىٰ وحشة بُعدِ العبد عن حبيبه، وهو رب العالمين سبحانه، ولا يحس بذلك إلا مَن أحبَّ ربَّه حق المحبة، وآثار محبتَه علىٰ كل شيء، فالإنسان الذي ابتعد عن الله تعالىٰ ونسيه، ولا يذكره إلا قليلًا، الموت أحسن له من هذا العيش، أو مراده من الحكمة أنه لا فرق بين الحياة بعيدًا عن الله وبين الموت. قال ﷺ: «مَثَلُ الذي يذكر ربَّه والذي لا يذكر ربَّه، مثلُ الحي والميت»(١).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٦) برقم: (٦٤٠٧)؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ١٨٨) برقم: (٧٧٩).

٥٠٥

العجبُ من محبة الخالق للمخلوق

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس العَجَبُ من قوله: ﴿ يُحِبُّونَهُۥٓ ﴾، إنما العجب من قوله: ﴿ يُحِبُّهُمْ ﴾»(١).

المعنى الإجمالي

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلِّقًا على قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ [المائدة:٥٤]: ليس العجبُ من قوله تعالى: ﴿ يُحِبُّونَهُۥٓ ﴾، أي: ليس العجيبُ أنْ يُحبَّ الخلقُ ربَّهم، لأنه صاحب الكمال المطلق وصاحب الإحسان فهو الذي أحسن إليهم، وهو الذي غمرهم بالنِّعَم ظاهرًا وباطنًا، والإنسانُ مجبولٌ على حُبِّ من أحسن إليه، بل العجبُ من قوله ﴿ يُحِبُّهُمْ ﴾، أي: إنّما العجبُ كُلّ العجبِ أنْ يتودّد الربُّ إلى عباده، وأنْ يُحبَّهم مع غناه عنهم، وشدةِ افتقارهم إليه، فلا عجبَ في محبّةِ العبدِ لربّه، وهو الإلهُ الذي تألهه القلوب، وهو صاحبُ المَنِّ والإحسان، بل العجبُ من محبة الله لخلقه وهو غنيٌّ عنهم، وليس العجبُ من فقيرٍ مسكينٍ يُحِبُّ محسنًا إليه، إنما العجبُ من محسنٍ يُحبُّ فقيرًا مسكينًا(٢).

---

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٩٨).

(٢) ينظر: الفوائد لابن القيم (١/ ٩٨)؛ شرح كتاب الفوائد لعمر عبد الكافي (١٠/ ١٣).

كان أبو يزيد البسطامي رحمه الله يقول في مناجاته: «ليس العجب من حبي لك وأنا عبدٌ فقير، إنما العجب من حبك لي وأنت ملكٌ قدير»(١).

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٣٤).

٥٠٦

المحب لا يحتـاج إلى مُذَكِّر

قال ابن القيم رحمه الله: «واعجبًا لمن يدعي المحبة ويحتاج إلى من يُذكِّره بمحبوبه؛ فلا يَذكُرُه إلا بمُذكِّر!»[1].

المعنى الإجمـالي

هذا خطاب لمن يدعي محبة الله تعالىٰ، لكنه غافلٌ عن عبادته وذكره، ويحتاج في ذكره إلىٰ من يُذكِّره بالله دائمًا ويدله عليه ويرشده إليه، فلا يذكر اللهَ إلا إذا ذكَّره به أحد، والمعهود في الناس أن الواحد منهم لو أحب شخصًا صادقًا لما احتاج إلىٰ من يذكِّره بمحبوبِه، فهو في قلبه ولسانه.

وإبداء التعجب من ابن القيم عن الإنسان الذي ينسىٰ ربَّه مع زعمه أنه يحبه، يُعطِينا الظنَّ أنه يتهمه بالنفاق، فالمنافق هو الذي يدعي ما ليس عنده، سواء كان نفاقَ الإيمان، وهو النفاق الأكبر، أو نفاقَ العمل، وهو الأصغر، لأن الله تعالىٰ عندما ذكر أوصاف المنافقين وصفهم بأنهم نسوا الله، وأنهم لا يذكرونه إلا قليلًا، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢]، وقال: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ١١٠).

فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧]. فمن يدعي محبة ثم لم يذكره، ويحتاج إلىٰ من يُذكِّره بالله دائمًا، تلبَّس بلبوس النفاق واتصف بأوصاف الكاذبين.

٥٠٧

دعوى الحب

قال مصطفى السباعي رحمه الله: «الحب من غير اتِّباعٍ دعوى، ومن غير إخلاصٍ بلوى، ومن غير نجوى حَسرة وعَبرة»[(١)].

بيان المفردات

نَجوى: بمعنى السِّر؛ نجاهُ نَجْوًا ونجوى: سارَّه، والنَّجْوى والنَّجِيُّ: السِّرّ، والنَّجْوُ: السرُّ بين اثنين، يقال: نَجَوْتُه نَجْوًا؛ أَي: سارَرْته، وانْتَجاه: إِذا اختصَّه بمُناجاته[(٢)].

المعنى الإجمالي

تشتمل الحكمة على بيان حقيقة دعوى الحب دون الاستجابة لمتطلباته، فتذكر أن الحب بدون اتباع المحبوب هو دعوى مجردة، وليس حبا حقيقيا، لأن الحب يقتضي اتباع المحبوب وطاعته فيما يأمر به وفيما ينهى عنه، بل يقتضي فهم ما فيه رضاه وما فيه سخطه والعمل بهذا الاقتضاء، فمن يدعي حب الله وحب نبيه ﷺ عليه أن يطيعهما ويتبع الرسول، كما يقوله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [آل عمران:٣١].

(١) هكذا علّمتْني الحياة لمصطفى السباعي (ص: ٥١).

(٢) لسان العرب لابن منظور (١٥/ ٣٠٨- ٣٠٩).

وكذلك الحب من غير إخلاص بلوىٰ ومصيبة علىٰ صاحبه، فمن يدعي حب الله ولا يخلص له فيشرك به؛ إما مباشرة بالشرك الأكبر كإنكار التوحيد والألوهية والربوبية، أو خفية بحب أشياء أخرىٰ كحب الله، مثل حب المال والسلطة والجاه، فيكون هذه المحبة بلاء عليه.

وهكذا أيضا الحب بدون المناجاة في السر يكون من الشكليات التي لا روح فيها، فإن الذي يحب الله يلجأ إليه بالصلاة والقيام والدعاء والمناجاة في الخلوات.

٥٠٨

أهميـة المحبـة

قال بعض الصالحين رحمه الله: «المحبة ثمنُ كل شيءٍ وإن غلا، وسُلَّم كل شيء وإن علا»[١].

المعنى الإجمـالي

القلب ملك الأعضاء، فإذا تخلّلته المحبة الصادقة فإن صاحبه يبذل في سبيل ذلك الغالي والنفيس، وهذا هو حال المؤمن ليس عنده شيء أحبّ ولا أغلىٰ من الله ورسوله، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤].

وقال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»[٢]، قال الإمام أبو سليمان الخطابي رحمه الله: «لم يرد به حب الطبع، بل أراد به حب الاختيار؛ لأن حب الإنسان نفسه طبع ولا سبيل إلىٰ قلبه، فمعناه:

(١) مجمع الأمثال لأبي الفضل الميداني (٢/ ٤٦١)؛ يتيمة الدهر للثعالبي (٤/ ٢٢٥)؛ تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ١٥٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٢) برقم: (١٥)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٤٩) برقم: (٤٤).

لا تصدق في حبي حتىٰ تفني في طاعتي نفسك، وتؤثر رضاي علىٰ هواك، وإن كان فيه هلاكك»[(١)].

فالمحبة هي التي يبذل الإنسان من أجلها كلّ شيء نفيس وغالٍ، فنفس الإنسان غاليةٌ عليه، لكنّه حين يحب لقاء الله يبذل نفسه رخيصة في سبيل ذلك.

والمحبة كذلك إذا سرت في القلب حرّكت في الإنسان الجد والنشاط، ويسّرت عليه كل عسير، وكانت له سلّمًا ليرتفع به إلىٰ أعلىٰ المقامات، وكما قيل[(٢)]:

فحيّهلا إن كنتَ ذا همة فقد حدا بك حادي الشوق فاطوِ المراحلا
وقل لمنادي حبّهم ورضاهمُ إذا ما دعا لبّيك ألفًا كَواملا
ولا تنتظِرْ بالسّير رُفْقةَ قاعدٍ ودَعْه فإنّ الشّوقَ يكفيك حاملا

(١) المنهاج للنووي (٢/ ٢١٢).
(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٣٦٦).

٥٠٩

الأنس في المحبـة

قال بعض الصالحين رحمه الله: «من عطِشَ من حُبِّه وقع في بحار أُنْسِه»(١).

المعنى الإجمـالي

إذا لامست المحبة شغاف القلب ودخلت فيه، فإنه يطمع للاستزادة منها، فهو كالظمآن الذي يطلب الماء ليرويه من العطش، ولا يزال يترقىٰ في مراتب المحبة مرتبة بعد مرتبة، فللمحبة مراتب تبدأ بالعلاقة، ثم الإرادة، ثم الصبابة، ثم الغرام، ثم الوداد، ثم الشغَف، ثم العشق، ثم التتيّم ثم التعبّد(٢).

فالمحبّ لا يرتوي من مرتبة حتىٰ ينتقل إلىٰ مرتبة أخرىٰ، ولا تزال المحبة به حتىٰ تملك عليه الروح والجسد، وتكون شغله الشاغل وتفكيره المتواصل، حتىٰ توصله إلىٰ منزلة الأنس بالله تعالىٰ عن كل شيء سواه، والأنس بالله حالة وجدانية تحمل علىٰ التنعم بعبادة الرحمن، والشوق إلىٰ لقاء ذي الجلال والإكرام.

---

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ١٥٩).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٣/٣٩٦-٤٠١)، وذكر منزلة عاشرة هي منزلة الخلّة التي انفرد بها الخليلان إبراهيم ومحمد عليهما السلام.

فالأنس بالله بحر واسع من الطمأنينة والرضا ينهل منه العطشىٰ من حب الله وعبادته، والأنس بالله مقام عظيم من مقامات الإحسان الذي قال عنه النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١).

فمن واظب علىٰ طاعة الله وصدق في محبته يجد في نفسه الأمان والسلام والاطمئنان، ويشعر بالأنس بالله في كل لحظة في حياته، مستأنسا بذكره له ﷻ، بعبادته له بتلاوته للقرآن الكريم، والأنس بالله شعور يمتزج بالهيبة والخشوع، يغمر كيان الإنسان كله مما يجعله يجد سعادته في خلوته، وهناءه في وحدته، يناجي ربه، ويشكو همه إليه، يشكره علىٰ نعمته، ويتغنىٰ بالدعاء له والثناء عليه والتسبيح والتقديس له ﷻ، ويشعر بأن كل ما في الكون من مخلوقاتٍ تشترك معه في التسبيح لله ﷻ، فيحس بالألفة والمودة.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٩) برقم: (٥٠)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٣٠) برقم: (٩).

بـــاب الأنس بالله

٥١٠

راحة القلب

قال غزوان الرقاشي[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «إني أصبت راحة قلبي في مجالسة من لديه حاجتي»[(٢)].

المعنى الإجمالي

إن العبد المؤمن يعلم أنه لن يجد راحة قلبه، ولا تنفيس كربه، ولا قضاء حوائجه إلا بين يدي ربه؛ فالاستجابة له ولرسوله ﷺ إحياء للقلب من غفلته وإعراضه، يقول تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال:٢٤]، يقول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨].

ويزعم البعض أن راحة قلبه في كثرة اللهو واللعب، ومهما كان الغرض من اللعب والتلذذ باللهو فذلك إنما يباح له لما فيه من ترويح القلب؛ إذ راحة القلب معالجة له في بعض الأوقات لتنبعث دواعيه فيشتغل في سائر الأوقات[(٣)].

---

(١) غزوان بن غزوان، أو ابن يزيد، الرقاشي، تابعي، كان خيرا فاضلا عابدا، يكثر القراءة في المصحف، توفي سنة ١٠٠هـ. ينظر: الطبقات لابن سعد (٩/ ٢١٦)؛ تاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ١١٥٦).

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي (١/ ١٣٣).

(٣) إحياء علوم الدين للغزالي (٢/ ٢٨٣).

ومن العباد من استغرقته محبة الله تعالىٰ والأنس به فاستوحش من الخلق، وهذا ما عبَّر عنه غزوان الرقاشي بإصابته لراحة قلبه في مجالسة من عنده حاجته، وهو الله ﷻ، ولا يرغب في هذه المرتبة إلا من عزفت نفسه عن الدنيا، وزهد فيها وبمن فيها زهدًا كاملًا.

وهذه المرتبة مع ما بها من مجاهدة للنفس عظيمة، لكن النفس تحتاج إلىٰ أن تخالط الآخرين بما لا يفسد عليها صفاءها، ولا يمنع العبد خيره عن الآخرين؛ فإنه بمخالطته للآخرين يقدم نفعًا لعباد الله، فيكون من خيرهم وأفضلهم.

٥١١

لذة المناجاة

قال مسلم بن يسار[(١)] رضي الله عنه: «ما تلذذ المتلذذون بمثل الخلوة بمناجاة الله ﷻ والأنس بمحبته»[(٢)].

المعنى الإجمالي

لذة أهل الدنيا فيما يجدون فيها من مُتَع وزخرف؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ وَزُخْرُفًاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٣٥].

لكن أهل القرب من الله والأنس بمناجاته تعجبهم الخلوة مع الله تعالىٰ؛ لأنهم يُعبِّرون في خلواتهم عن محبتهم لله، وعن ثنائهم علىٰ الله وشكرهم له بأسمائه وصفاته علىٰ إنعامه وتفضله عليهم، ويبثون شكواهم وحزنهم، إن لم يتداركهم الله اللطيف بلطفه ورحمته.

قد تتزاحم العبارات والأدعية علىٰ ألسنتهم، وقد يعجزون عن التعبير فيكون البكاء أبلغ من أي تعبير آخر؛ لأن الله يعلم سرهم ونجواهم، وهو علام الغيوب.

(١) مسلم بن يسار، أبو عبد الله، البصري، مولىٰ بني أمية، القدوة، الفقيه، الزاهد، روىٰ عن ابن عمر وابن عباس وأبيه يسار وغيرهم، وعنه جماعة التابعين، توفي سنة ١٠٠، وقيل: ١٠١هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٥١٠)؛ مختصر تاريخ دمشق (٢٤/ ٢٩٨).

(٢) الفوائد والزهد والرقائق والمراثي لأبي محمد الخلدي (ص: ٣١).

وهذه الخصال تأتي مجتمعة في قيام الليل؛ فهي أقرب وأعدل بأن يتوافق القلب مع اللسان؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِىَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴾ [المزمل:٦].

٥١٢

الأنس بالحديث مع الله

قال مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ: «من لم يأنس بحديث الله عَزَّ وَجَلَّ عن حديث المخلوقين فقد قل عمله، وعَمِي قلبه، وضَيّع عمره»(١).

المعنى الإجمالي

إن ألذَّ العيش وأهنأه وأطيبه العيشُ مع الله وفي رحابه، والأنس بالله يعنى به اجتماع الهمة في نيل المقصود من أقوال البر وأفعاله.

فإذا كان المخلوقون يستوحشون من قلة الحديث، فيُحبُّون أن يفيضوا في الحديث فيجدوا به أُنْسًا، فإن المؤمن الحق من شعر بوحشة في قلبه لا يسدها إلا الحديث مع الله تعالى، يقول ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ وهو يعبر عن حال القلب حين يبتعد عن الله ويستوحش عنه: «فإن في القلب فاقة لا يسدها شيء سوى الله تعالى أبدًا، وفيه شعثٌ لا يلمه غير الإقبال عليه»(٢).

العبد المؤمن حين يداوم على أنسه بالله تعالى فإنه لا يرضى أن يقطع تلك الحلاوة في القرب من الله بكلام المخلوقين، ولن يكون الأمر قد بلغ إلى هذه

(١) روضة العقلاء لابن حبان (ص: ٨٥٩)؛ وتنبيه الغافلين للسمرقندي (ص: ٣٩٦).

(٢) إغاثة اللهفان لابن القيم (١/ ٧١).

المرتبة إلا إذا صفَّىٰ العبد قلبه من الشواغل، وكان حبه وتعظيمه لله تعالىٰ قد بلغ به مبلغ الأصفياء الأتقياء.

ومن ابتلي بالأنس بالمخلوقين، والوحشة من الحديث مع الله من قراءة القرآن، والذكر والاستغفار، والدعاء، فإنه يبتلىٰ بثلاثة أمور كل واحدة أشد من الأخرىٰ؛ **الأولى**: قلة العمل الذي هو سبب بعد رحمة الله وفضله في دخول الجنة؛ فقد قال الله تعالىٰ: ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [الأعراف:٤٣].

والثانية: عمىٰ القلب في الدنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾ [الإسراء:٧٢]، وتأويله أنه إذا عَمِيَ في الدنيا، وقد عرَّفه الله ﷻ الهدىٰ وجعل له التوبة وُصْلَةً، وفسح له في ذلك إلىٰ وقت مماته، فعمي عن رشده، ولم يتب ففي الآخرة لا يجد متابًا ولا مُتَخلَّصًا مما هو فيه، فهو في الآخرة أشد عمىً وأضلّ سبيلًا[1].

والثالثة: ضياع العمر في انحراف العبد عن ربه، وضلاله عن غايته وسعيه، فلن يفعل هذا الفعل إلا من ضل سعيه في الحياة الدنيا، وهو يحسب أنه يُحسن صنعًا.

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ٢٥٣).

٥١٣

الوحشة سِمَة الدنيا

قال شُمَيط بن عَجلان رحمه الله: «إن الله تعالى وَسَم الدنيا بالوحشة؛ ليكون أُنْس المنقطعين إليه»[١].

بيان المفردات

وسَم: الوَسْم: أَثَر كيٍّ، وبعيرٌ موسومٌ: وُسِمَ بِسِمَةٍ يُعْرَف بها؛ من قَطعِ أُذُنٍ أو كيّ[٢].

المعنى الإجمالي

جعل الله للدنيا وسمًا وعلامة تعرف بها، وأثرًا يستدلُ به عليها، وهذا الوسم وتلك العلامة والأثر ما يظهر بها من وحشة، عند من يركن ويميل إليه ميلا قليلا أو كثيرا؛ فلا استئناس للعباد إلا بمعرفة الله والالتزام بدينه، وترك عصيانه. وما عدا ذلك فإن الوحشة تملأ القلوب بدل الطمأنينة، وتستوحش العقول فلا تفكر إلا في حدود الدنيا، وما تُستَوفىٰ به الشهوات، وتستوحش الأخلاق فتنتزع من قلوب الناس الأخلاق الرفيعة من محبة ورحمة وتواضع وصبر وغيرها، وتحل محلها أخلاق السوء من بغضاء وقسوة وغلظ طباع وكبر وضيق صدور.

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ١٣٠).

(٢) العين للخليل بن أحمد (٧/ ٣٢١)؛ وتهذيب اللغة للأزهري (١٣/ ٧٧).

فلا علاج لعباد الله اللائذين بحماه، والطالبين للأنس به إلا أن يطمئنوا إلىٰ وعد الله وأنه حقٌّ لا ريب فيه، وأن الدنيا دار الغرور، كما قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ [فاطر:٥].

٥١٤

تــرك الانشغال عن الله

قال وُهَيب بن الورد رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن استطعت أن لا يَشغلَك عن الله تعالى أحدٌ فافعل»(١).

المعنى الإجمـالي

الابتعاد عن الشواغل التي تبعد العبد عن خلوته بربه ومسارعته في مرضاته واجبٌ؛ ذلك أن هذه الشواغل تصرف العبد عن أداء الواجبات على الوجه المرضي، وتجعله يتقاعس وينكص عن البذل والتضحية لدين الله، فلا يحظى بمرتبة المؤمنين المجاهدين الذين لا تشغلهم الدنيا بما فيها.

وقد يكون الشاغل ليس ولدًا أو زوجة، بل صديق سوء يزين للعبد الدنيا، ويباعده عن الصلاح والتدين بحجة أن العمر لا يزال فيه بقية، حتى يورده الموارد من تسويف الإقبال على الطاعات والالتزام بها، ومن تزيينه له الشهوات لتصبح جزءًا من حياته.

لقد كان من الصحابة الكرام من تأخروا عن الهجرة إلى رسول الله ﷺ في المدينة، فلما هاجروا وجدوا أن الصحابة السابقين إلى الهجرة قد تعلموا من

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ١٤٠).

رسول الله ﷺ علمًا، وأفادوا تزكية وتربية، وجاهدوا في سبيل الله، فأراد أولئك النفر من الصحابة أن يعاقبوا أزواجهم وأبناءهم[1]، فقال لهم الله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوًّا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [التغابن:١٤].

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٥٨).

٥١٥

لا وحشة مع الله

قيل لمالك بن مِغْوَل[(١)] رحمه الله: أمَا تستوحش في هذه الدار؟ فقال: «ما كنتُ أحْسَب أن أحدًا يستوحش مع الله عز وجل»[(٢)].

بيان المفردات

الوحشة: ضد الأُنْس، والوحشة: الخلوة والهمّ[(٣)].

المعنى الإجمالي

من جالس المخلوقين في مجالس الدنيا وأكثر من مجالستهم فإن الوحشة تلازم قلبه؛ فهم لا يملكون لبعضهم بعضًا إيجاد السرور والأنس الذي يوجده الاتصال بالله، والخلوة به، والتضرع والانكسار بين يديه.

فإذا كانت مجالسة الصالحين تزيد من إيمان المؤمن، وتزيد من ثباته واطمئنانه بما يحمله من خير وإيمان، فإن الخلوة مع الله لا يجد معها المؤمن

(١) مالك بن مغول بن عاصم، أبو عبد الله، البَجَلي، الكوفي، الإمام الثقة، المحدث، حدث عن الشعبي وابن بريدة وعطاء وطائفة، كان من سادة العلماء، توفي سنة ١٥٩هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٧/ ١٧٤)؛ شذرات الذهب لابن العماد (٢/ ٢٦٧).

(٢) الفوائد والزهد والرقائق والمراثي لأبي محمد الخلدي (ص: ٣٠)؛ العزلة للخطابي (ص: ١٦).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٥/ ١٦١).

وحشةً؛ فكيف يجدها ومعه الله يدعوه فيجيبه، ويبكي فيرحم ضعفه وانكساره، لا يستوحش ومعه كتاب الله يقرؤه، وكأن الله يكلمه ويخاطبه، فبكتاب الله تزول الوساوس والكآبة والحزن، ويثبته الله على طريقه وصراطه المستقيم.

إن خير جليس للعبد المؤمن في هذه الدنيا، هو كتاب الله تعالى، فبه تُزال الوحشة من الصدور والقلوب والعقول؛ وبه تمتلأ بالنور والطمانينة، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢].

٥١٦

السعادة الحقيقيــة

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم والسرور لجالدونا بالسيوف أيام الحياة على ما نحن فيه من لذيذ العيش وقلة التعب»(١).

المعنى الإجمــالي

يتنافس المتنافسون في الدنيا لينالوا ما يتمنونه؛ حتىٰ يتمكنوا من السعادة في حياتهم؛ فبحث عنها بعضهم في جمع المال، وحسب أن ماله يخلده في الدنيا، ورآها بعضهم في ألقاب الجاه والوصول إلىٰ السلطة والسلطان، ورآها البعض في كثرة البنين، لكنهم ما وجدوا شيئًا مما كانوا يؤملونه، فانتهت حياتهم وفنيت، ولم يحصل ما تمنوه وأمَّلوه.

إن السعادة في العرف الإيماني ليست في جمع مال أو نيل لقب أوجاه أو سلطان؛ لأنها أمورٌ وأحوالٌ غيرُ باقية، بل السعادة فيما يعطيه الله لعبده من الإيمان والخير والرضا والطمأنينة التي تجعل العبد المؤمن يشعر بمعية الله ورضاه.

(١) الزهد الكبير للبيهقي (ص: ٨١)؛ وحلية الأولياء لأبي نعيم (٧/ ٣٧٠).

ولو علم أهل الدنيا من الملوك وأعوانهم، ومن تملكوا شيئًا من الدنيا أن ما هم عليه لم يوصلهم إلىٰ السعادة، لتركوا ما هم عليه، ولبحثوا عنها عند من ملكوها حقيقة؛ وهم الأبرار المتقون الذين يتنافسون في الخير بكافة أبوابه؛ فيجدون السعادة مستقرة في قلوبهم بقراءتهم لكتاب الله وسنة وسيرة رسوله ﷺ، وفي فعل الخيرات، واجتناب المنكرات وحب المساكين.

لو علم أهل الدنيا بكل ذلك لكانت بينهم وبين من وجدوا السعادة في قلوبهم وجوارحهم مجالدة بالسيوف، لكن الناس في غفلة عن السعادة، ومعرفة الطريق الموصل إليها، فبها يكون السعداء مخلدين في جنات الله تعالىٰ يوم القيامة، قال تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود:١٠٨]، وقد كانت لهم السعادة في الآخرة بعد أن طعموا جنة الدنيا المتمثلة في سعادة قلوبهم واطمئنانها وانشراح صدورهم، ورضاهم عن الله، ثم عن أنفسهم والآخرين ممن حولهم.

٥١٧

الأنس بالله والبكاء على الخطيئة

قال الفضيل بن عياض ﷺ: «طوبى لمن استوحش من الناس، وأَنِس بربه، وبكى على خطيئته»[(١)].

بيان المفردات

طوبى: اختلف الناس في معنى طوبى؛ فقال أهل اللغة: طوبى لهم معناه: خير لهم، وقال ابن عباس: طوبى: اسم الجنة، وقال عكرمة: النُّعْمى لهم، وقيل: الحسنى لهم[(٢)].

المعنى الإجمالي

جعل الله الخير والبركة والنُّعْمى والحسنى والجنة لمن يأنسون بربهم، ويفرحون بمناجاته والقرب منه؛ ذلك أنَّ من علامات المحبين لربهم، المشتاقين لطاعته ولقائه الوحشة من الناس؛ وذلك لمخالفة الناس المستأنس بالله في الخُلق، سيما من ليس قصده الآخرة وطلب الحق[(٣)]، قال تعالى: ﴿ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ١٠٨)؛ وطبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٢٧)؛ وشعب الإيمان للبيهقي (٢/ ٣٢).
(٢) الزاهر في معاني كلمات الناس لأبي بكر الأنباري (١/ ٤٤٩).
(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني (ص: ٢٦٠).

دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡ ﴾ [فاطر:١٤].

وقد شبَّه بعض الصالحين الوحشة من الناس كالوحشة من السبع؛ قال بكر محمد العابد رحمه الله: «قال لي داوود الطائي: يا بكر، استوحش من الناس كما تستوحش من السبُع»(١).

وطوبىٰ لمن يأنس بربه، ويبكي من خشية الله ندمًا علىٰ خطيئاته ومعاصيه، ومقبلًا علىٰ التوبة الخالصة النصوح، وقد وردت أحاديث كثيرة في جزاء البكاء من خشية الله؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»(٢). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يلج النار رجل بكىٰ من خشية الله حتىٰ يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم»(٣).

---

(١) روضة العقلاء لابن حبان (ص: ٨٢).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٣/ ٢٢٧) برقم: (١٦٣٩)؛ وأحمد في مسنده برقم: (١٧٤٨٦).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٣/ ٢٢٣) برقم: (١٦٣٣)؛ والنسائي في سننه برقم: (٣١١٠)؛ وأحمد في مسنده برقم: (١٠٦٥١).

٥١٨

الانقطـاع عن الله

قال ذو النون المصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «احذر أن تنقطع عنه فتكون مخدوعًا»(١).

المعنى الإجمـالي

الاتصال بالله والاستمساك بحبله المتين وعروته الوثقىٰ مما أكد الله عليه في كتابه، والنبي ﷺ في سنته؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة:٢٥٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان:٢٢].

والانقطاع نوعان: محمود ومذموم؛ فالانقطاع المحمود: هو الانقطاع لله تعالىٰ بالهمِّ من أجله، والسعي في عبادته في كل أمر من أمور الحياة، والمذموم: الانقطاع عنه.

والانقطاع المذموم هو الذي وقع التحذير منه؛ فإن من العباد من يكون ذا همة ونشاط في أداء الطاعات والقربات، فيزين له الشيطان التخفف منها خوفًا عليه من الرياء والسمعة التي تفسد الأعمال وتحبطها، أو يأتي إليه شيطان من شياطين الإنس

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٩/ ٣٥١).

بثوب النصح والشفقة بأن يترك سبيل الله وطريقه، وأن يكون مع الأكثرية البشرية الذين أخذوا نصيبهم من متع الدنيا وزخرفها.

ومن أسباب الانقطاع عن الله تعالىٰ أن العبد لم يستطع الصبر علىٰ طول الطريق ومشقته، والنفس أمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، «فالنفس جبل عظيم شاق في طريق السير إلىٰ الله ﷻ، وكل سائر لا طريق له إلا علىٰ ذلك الجبل، فلا بد أن ينتهي إليه، ولكنَّ منهم من هو شاق عليه، ومنهم من هو سهل عليه، وإنه ليسير علىٰ من يسره الله عليه»(١).

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ١٠).

٥١٩

الفرق بين الأنس بالله والأنس بالناس

قال ذو النون المصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «الأنس بالله نورٌ ساطع، والأنس بالناس غَمٌّ واقع»(١).

المعنى الإجمالي

إن من يأنس بالله تعالىٰ يجد أن إيمانه يزداد، وقلبه يطمئن، وصدره ينشرح، ويجد لقلبه نورًا وضياءً، ولوجهه إشراقًا ونضارةً، ولعمره بركة، ولعقله وفكره تقديم رضا الله علىٰ أي أمر من الأمور.

إن من يأنس بمناجاة الله والقرب منه في جميع عباداته القولية والفعلية يجد نورًا وخيرًا وبركة في حياته كلها؛ ويدل علىٰ ذلك أن من يعمرون مساجد الله تعالىٰ بالصلاة والذكر، لا تشغلهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، قد جعل الله لهم جزاء عبادتهم وأنسهم به نورًا، وذكر أن المساجد سبب من أسباب النور؛ فقال تعالىٰ: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٥-٣٧].

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٩/ ٣٧٧).

ومن يأنس بالناس يجد نقيض ما يجده من يأنس بربه تعالىٰ؛ ففي قلبه ظلمة وشعث وتفرق وتمزق، وفي رجائه لمغفرة الله وعفوه وخوفه من عقابه ضعف وقلة يقين. وحاله مع المخلوقين شدة خوفه منهم؛ لأنه يفكر في رضاهم، وتجنب ما يسخطهم، يداريهم ويداهنهم علىٰ حساب دينه، فهو يعيش في همٍّ وغمٍّ دائم، وصدق الله القائل: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦].

٥٢٠

بين الســرور والغرور

قال السَّريّ السَّقَطي رحمه الله: «السرورُ بالله هو السرورُ، والسرورُ بغيره هو الغُرور»[(١)].

بيــان المفردات

السرور: خلاف الحزن؛ والسُّرّ والسَّرَّاء والسُّرور والمسَرَّة، كُلُّه: الفَرَحُ[(٢)].

الغُرور: الباطل، وما يغترّ به الإنسان من متاع الدنيا[(٣)].

المعنى الإجمــالي

تبين هذه الحكمة حقيقة ما ينبغي للإنسان أن يفرح ويسر به، وهو السرور بالله ومعرفته ومحبته وطاعته والاجتناب عن عصيانه، والفرح بكلامه المنزل وهدايته للعبد، هذا هو الفرح الحقيقي كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧-٥٨].

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٨) برقم: (٤٣٨).

(٢) لسان العرب لابن منظور (٤/ ٣٦١).

(٣) تهذيب اللغة للأزهري (٨/ ١٩).

وأما السرور بغير الله فهو غرور بالأباطيل وسرور مؤقت سرعان ما ينتهي، وربما انقلب حزنا على صاحبه حيث يرى أنها تسرّه، ولكنها في الحقيقة تبعده عن المحبوب الحقيقي، ويجعله في انخداع بمتاع الدنيا وملذاتها الذي قد يصل إلى درجة التفاخر والبطر، وهو مذموم كما جاء في الآية الكريمة بعد وصف أحوال قارون: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ [القصص:٧٦].

والسرور بغير الله يكون غرورا لو تعلق به الإنسان ونسي اللهَ المنعِم الحقيقي، وأما الفرح والسرور الذي يحصل للناس عادة عند وجود أسبابه فهذا لا حرج فيه، لأنه أمر جِبلي طبع عليه الإنسان.

٥٢١

منازل الصالحين من ربهم

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «إنما ينبسطون إليه على قدر منازلهم لديه»(١).

المعنى الإجمالي

أن العباد يتقربون إلى الله تعالى ويتعلقون بقلوبهم به، وينبسطون إليه بالدعاء والتضرع وصدق التوجه، حسب مرتبة كل واحد منهم عند ربه، فالناس على منازل ودرجات، وأعلاهم منزلة وأشرفهم لديه هو أقربهم إليه بقلبه وأفضلهم في دينه.

وموضوع الحكمة يجرُّنا إلى الحديث عن منازل عباد الله تعالى عنده: فأشرفهم مكانة وأعلاهم منزلة: الأنبياء الذين أكرمهم الله بالوحي وخطاب الملائكة لهم، ثم الصديقون الذين أخرجوا من قلوبهم كل شيء سوى الله تعالى، بصدق التوجُّه إليه، ويليهم في المنزلة: الشهداء الذين بذلوا أرواحهم لله في سبيل الله، وبعدهم منزلة المؤمنين الصالحين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ثم بعدهم منزلة باقي المؤمنين الذين لم يصلوا إلى رتبة الصلاح لارتكابهم بعض المحرمات ووقوعهم في الشهوات.

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني (١٠/ ٤١).

وقد ذكر القرآن الكريم منازل المؤمنين الصالحين بحسب قربهم من الله تعالىٰ، ورتَّبهم وفق تفاوت مراتبهم عنده، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩]. وكلها مراتب الأولياء، وأدنىٰ رتبة الولاية هي رتبة الصلاح، فلا يشترط لوصول الإنسان إلىٰ رتبة الولاية سوىٰ الإيمان والعمل الصالح، كما بيَّن الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾[يونس: ٦٢-٦٣].

وفي قوله: «علىٰ قدر منازلهم لديه»، إشارة لطيفة إلىٰ أن الاعتبار في ذلك بما عند الله تعالىٰ، ولا عبرةَ بما يظنه الناس إذا كان مخالفا للحقيقة، لأنه ربما يكون الإنسان منزلته عالية عند ربه والناس يرونه حقيرًا ليس له شأن، كما قال ﷺ: «رُبَّ أشعث مدفوعٍ بالأبواب لو أقسم علىٰ الله لأبرَّه»(١).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٣٦) برقم: (٢٦٢٢).

٥٢٢

صحبة الله تعالى

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «عجبت لمن يصحب الخلق والخالق يستصحبه، وعجبت لمن يمنع والله يستقرضه»(١).

المعنى الإجمالي

يأنس المخلوق بصحبة المخلوقين، ويستوحش بتركهم، وليس كل المخلوقين تورث مجالستهم أنسًا بالله تعالى، لكن لَمَّا كانت أكثر صحبة المخلوقين في هذا الزمان - إلا من رحم الله - لمن لا يعرِّفونهم بالله تعالى، ولا يُذكِّرونهم به، ولا تزيدهم صحبتهم إيمانًا وعلمًا، بل يزداد من يصحبهم بُعدًا عن الله، وغفلة وإعراضًا.

لَمَّا كان هذا هو الحال في غالب أحوال الناس، فلِمَ لا يأنس العبد المخلوق بصحبة الله تعالى الخالق البارئ المصور، الذي يستصحبه، ويدعوه إلى عبادته والاستعانة به، وحُسْن التوكل عليه؛ فهو سبحانه وتعالى ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى،

(١) تاريخ الإسلام ووفيات مشاهير الأعلام للذهبي (٦/ ٢٣١). وهذا الشرح للقسم الأول من الحكمة، وأما شرح ما يتعلق بالقسم الثاني فسيأتي في باب حب الخير والإنفاق، الحكمة رقم: (٩١٩).

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠].

٥٢٣

سكينة القلوب

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من أراد تسكين قلبه بشيء دون مولاه، لم يزد استكثارُه من ذلك إلا اضطرابًا»[١].

المعنى الإجمالي

إن طمأنينة القلب وسكينة الروح وراحة النفس في الحقيقة لا تحصل إلا بذكر الله ومشاهدة أنواره وتدبر آياته، ومن أراد أن يُسكِّن قلبَه ويُريح نفسَه بشيء سوىٰ ذلك، كالمسكِّنات الدوائية، أو تمكين النفس من شهواتها لعلَّها تستريح وتسكن، وغير ذلك من أمور اللهو واللعب، لم يزده هذا الاستكثار إلا اضطرابًا وقلقًا.

وفيه إشارة إلىٰ أهمية ذكر الله بالنسبة للعبد المؤمن، وحضورِ القلب في العبادات، وقد بيَّن القرآن الكريم ذلك في وصف المؤمنين، قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨]، فصفة المؤمن الحقيقي أنه لا يطمئن قلبه إلا بذكر الله، وأنه يؤثر حبَّه علىٰ كل شيء، بخلاف الذين اتخذوا من دونه أحبابًا تعلقوا بهم، قال سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥].

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٤٣).

وقال ﷺ: «من تعلَّق شيئا وُكِل إليه»(١)، أي: من علَّق شيئًا في جسده أو بيته اعتقادًا منه أنه يحفظه من العين أو ينقذه من آفة، وَكَلَه الله إليه وخلَّىٰ بينه وبينه، بخلاف من علَّق قلبَه بالله، فالله يتولاه ويُنزِل علىٰ قلبه السكينة والاطمئنان، كما قال الله تعالىٰ عند ذكر قصة هجرة النبي ﷺ مع أبي بكر رضي الله عنه: ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة:٤٠].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣١/ ٧٨) برقم: (١٩٠٨٣)؛ وابن أبي شيبة في مصنفه (١٣/ ١٢٠) برقم: (٢٥٠١٨)؛ والنسائي في سننه (٧/ ١١٢) برقم: (٤٠٧٩)؛ قال ابن حجر: هو مرسل. ينظر: إتحاف المهرة لابن حجر (٨/ ٢٦٠).

٥٢٤

القلب الموصول بالله

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «من أقام قلبه عند الله سكن، ومن أرسله في الناس اضطرب»(١).

المعنى الإجمالي

يكفي العبد المؤمن ركونه إلى الله والثقة به والاستعانة به والتوكل عليه؛ فهو ساكن القلب هادئُ الطبع، بعيدٌ عن الجزع والهلع والخوف إلا من الله تعالى، قنوعٌ بما أعطاه الله، يقيم قلبه حيث يريد الله؛ فهو مفيدٌ من الذكرى بحضور قلبه وسمعه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:٣٧].

والمراد بسكون القلب رضاه وامتلاؤه بالسكينة والطمأنينة؛ ذلك أن القلوب الممتلئة خيرا المصروفة عن الشر جعل الله لها السكينة والطمأنينة؛ وقد ذكر الله ﷻ إنزاله للسكينة على القلوب المؤمنة، وجعلها جنديا من جنوده، فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح:٤]، وحين يعلم الله صدق عبده في إيمانه ينزل سكينته

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٦٦).

عليه؛ وقد كان ذلك حين بايع الصحابة ﵃ رسول الله ﷺ بيعة الرضوان، فقال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:١٨].

ولكن العبد حين يترك قلبه بعيدا عن الله، ويرضىٰ أن يأنس بالناس وحالهم، فيجعل وقته وفكره مع الناس فإن قلبه يضطرب، واضطرابه بكثرة تمزقه وشتاته، وخوائه من الخير؛ لأن العباد قلما يدعوا بعضهم بعضا إلىٰ الخير، وهم جميعهم محتاجون إلىٰ من يسد خللهم، ويكمل نقصهم، ويجبر عجزهم وضعفهم.

٥٢٥

حقيقــة الأنس بالله

قال علي بن سهل الأصبهاني[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «الأنس بالله: أن تستوحش من الخلق إلا من أهل ولاية الله، فإن الأنس بأهل ولاية الله هو الأنس بالله»[(٢)].

المعنى الإجمـالي

إن الخلطة بالناس لا يفيد كثيرًا إلا بقدر الحاجة إليهم، وما عدا ذلك فمفسدٌ لطيب القلب ورضاه واطمئنانه، بل إن كثرة الخلطة بالمخلوقين تورث الوحشة، والذين تورث مصاحبتهم النور في القلب، والاطمئنان في الحياة، هم أهل الله وأولياؤه المتقون، مَنْ رؤيتهم تذكر بالله تعالىٰ، فإن ذكر العبد ربه أعانوه، وإن غفل ونسي ذكروه بالله تعالىٰ.

فسَّر بعضهم قول الله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨]، فقال: «هشَّت إليه وأَنِسَت به، وفي مقام الأنس يكون التملق والمناجاة، ومعه تكون المحادثة والمجالسة، ومعنىٰ من

(١) علي بن سهل بن الأزهر، أبو الحسن، الأصبهاني، من قدماء مشايخ أصبهان، من أقران الجنيد، لقي أبا تراب النخشبي وطبقته، توفي سنة ٣٠٧هـ. ينظر: طبقات الصوفية (ص: ١٨٧)؛ طبقات الأولياء (ص: ١٥٨)؛ البداية والنهاية (١٤/ ٨١٣).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ١٨٨)؛ وشعب الإيمان للبيهقي (٢/ ٣٠).

البسط، ولا يحب الله تعالىٰ هذا النوع من الإدلال إلا ممن أقامه مقام الأُنس»[١].

فإذا كان هذا هو مقام الأُنس بالله تعالىٰ، فهل يستوحش العبد من ربه، أو يستوحش من خلقه؟ سئل ذو النون المصري، فقيل له: يا أبا الفيض، فما علامة الأنس بالله؟ قال: «إذا رأيته يوحشك عن خلقه فإنه يؤنسك من نفسه، وإذا رأيته يؤنسك من خلقه فإنه يوحشك من نفسه»[٢].

ومن علامات الوحشة التي تظهر علىٰ العبد الظلمة في قلبه، وعدم اطمئنانه، وتشتته وتوزعه علىٰ هموم الدنيا وشعابها، ولا علاج لهذه المعضلات إلا بالأُنْسِ بالله؛ فإن ألذ العيش واجتماع الهمة يكون بالأنس بالله تعالىٰ.

ومن الأنس بالله تعالىٰ الأنس به في الخلوات مع قراءة القرآن، وذكر الله تعالىٰ بتسبيحه وتحميده وتهليله وتكبيره، والثناء عليه كما يحب ويرضىٰ، ومن الأنس بالله تعالىٰ الأنس بالعلماء والصالحين، وارتفاع الوحشة بمجالسة أهل الخير، وسعة الصدر والروح عندهم[٣].

والصالحون الذين يأنس بهم العبد المؤمن هم أهل ولاية الله تعالىٰ، الذين من صفاتهم أنهم يحبون في الله ويبغضون في الله؛ فقد ذكر النبي ﷺ أن أوثق عرىٰ الإيمان الحب في الله والبغض في الله ﷻ[٤].

---

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢/ ١٠٥).

(٢) الزهد الكبير للبيهقي (ص: ٧٨).

(٣) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ٣٦٥).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٨٠) برقم: (٣٤٣٣٨).

٥٢٦

حـلاوة الوصال ومرارة القطيعة

قال أبو عبد الله الروذباري[(١)] رحمه الله: «لو ذُقتَ حلاوةَ الوُصْلةِ لَعَرفْتَ مرارةَ القطيعة»[(٢)].

بيـان المفردات

الوُصلة: الوصول إلىٰ الشيء: البلوغ والانتهاء إليه[(٣)].

المعنى الإجمـالي

لا يزال العبد يتقرب إلىٰ ربه بأداء الفرائض والابتعاد عن المحرمات والاستكثار من نوافل الطاعات حتىٰ يكون من الواصلين إلىٰ معرفة الله ومحبته، قال الله تعالىٰ في الحديث القدسي: «وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها،

---

(١) أحمد بن عطاء بن أحمد، أبو عبد الله الروذباري، شيخ الصوفية في وقته، نشأ ببغداد، ثم انتقل إلىٰ الشام، كان شيخ الشام يرجع إليه في أنواع من العلوم كعلوم القرآن وعلم الشريعة والأخلاق، وحدَّث عن جماعة من المحدثين، توفي سنة ٣٦٩هـ. ينظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٥/ ٥٥٢)؛ طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص٣٧٠).

(٢) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٦١٤).

(٣) تاج العروس للزبيدي (٣١/ ٧٩).

ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»(١).

والوصول إلىٰ محبة الله والأنس بعبادته والاطمئنان لذكره هو نعمة كبرىٰ لا تعادلها الدنيا وما عليها، ومن حرم منها فقد حرم من أغلىٰ الأشياء وأثمنها؛ روي أن حَبْرًا من أحبار بني إسرائيل يقول: «يا رب، كم أعصيك ولا تعاقبني، فأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ نبي من أنبياء بني إسرائيل: قل له: كم أعاقبك وأنت لا تدري؟ ألم أسلبك حلاوة مناجاتي»؟(٢).

وقال بعض المحبين: «مساكين أهل الدنيا! خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها. قالوا: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله والأنس به، والشوق إلىٰ لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه»(٣).

فمن ذاق هذه المعاني الإيمانية بالقرب من الله والأنس به ولو للحظة واحدة، فإنه سيشعر بمرارة القطيعة إذا ابتعد عن طاعة الله وذكره ومناجاته، لكن الجاهل الذي لا يعرف من نعيم الدنيا إلا متع المأكل والمشرب والملبس واللهو واللعب فهذا مطموس في غفلته ولا يدري حجم القطيعة التي يعيش فيها.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٥) برقم: (٦٥٠٢).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ١٦٨).

(٣) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٨٩).

٥٢٧

لـذة الطاعات

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «كفى العاملين جزاء ما هو فاتحه على قلوبهم في طاعته، وما هو مورده عليهم من وجود مؤانسته»(١).

المعنى الإجمالي

العاملون بطاعة الله على الوجه الصحيح يطلبون رضوان الله ومحبته والقيام بحقوق ربوبيته، فالله عز وجل هو سيّدهم وهم عبيده، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]، وعلاوة على ذلك فقد ألزم الله عز وجل نفسه فضلا منه ورحمة أن يعطي الجزاء الجزيل والأجر العظيم لعباده الصالحين وسمّى ذلك جزاءً، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٣-١٤].

فالعامل الصادق المخلص في عمله همّه القيام بواجبه الذي هو عبادة ربه ومولاه، وليس همّه طلب العِوَض والجزاء، ولكن الله يكرم عباده الطائعين بلذّة يَنسون معها التعب والنّصَب، قال تعالى: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه:١٢٣]، فالحياة المعمورة بطاعة الله هي الحياة الطيبة المليئة بالسكينة

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١٤).

والاطمئنان، قال تعالىٰ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل:٩٧].

وإذا واظب المسلم علىٰ الأذكار والأوراد والطاعات فإن الله ﷻ يفتح عليه باب الأنس به، فتصبح العبادة هي مصدر راحته، ويصير الذكر مصدر اطمئنانه، قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨]، وقال ﷺ «وجُعلتْ قرّة عيني في الصلاة»[١].

وهذه اللذة في العبادة والأنس بالله فيها قد عاشها الصالحون وعدّوها من أكبر النعم التي أكرمهم الله ﷻ بها؛ روي أن حذيفة رضي الله عنه حين حضره الموت قال: «مرحبًا بالموت وأهلًا، مرحبًا بحبيبٍ جاء علىٰ فاقة، لا أفلح من ندم، اللهم إني لم أحبّ الدنيا لحفر الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لسهر الليل، وظمأ الهواجر، وكثرة الركوع والسجود، والذكر لله ﷻ كثيرا، والجهاد في سبيله، ومزاحمة العلماء بالركب»[٢]. فصيام الأيام شديدة الحرّ وقيام الليل الطويل والصلاة والذكر والجهاد وطلب العم كانت محببة إليه حبا شديدا جعلته يبكي علىٰ فراقها.

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢١/ ٤٣٣) برقم: (١٤٠٣٧)؛ والنسائي في سننه (٧/ ٦١) برقم: (٣٩٤٠)؛ والطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ٤٢٠) برقم: (١٠١٢).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٢/ ١٩٩).

٥٢٨

الوحشة من الخلق

قال ابن عطاء الله السكندري ﵀: «متى أَوْحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأُنْس به»(١).

المعنى الإجمالي

لا يمكن أن يجتمع في قلب الإنسان محبة شيئين متضادين، فمن استحكم في قلبه حب المخلوقين والتعلق بهم، لم يتسع قلبه بعد ذلك لمحبة الله والأنس به، قال تعالىٰ: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب:٤]، فمن كان همه الدنيا تشعبت به الهموم، وتشتت قلبه في التفكير بها والتدبير لها، فأنىٰ له الوصول إلىٰ الاستئناس بالله واستشعار محبته والقرب منه.

فإذا أراد الله سبحانه الخير لعبده، هيأ له من الأسباب ما يعينه علىٰ تفريغ قلبه من الشواغل، وصرف عنه الأنس بالناس وأوحشه منهم، والمقصود بالإيحاش من الناس هو عدم رسوخ محبتهم في القلب في مكان محبة الله، فإذا كانت المحبة فطرية مثل محبة الأب لأبنائه فهذه لا تتعارض مع محبة الله، وكذلك إذا كانت المحبة في أمر يطلب به رضىٰ الله ﷻ تكون فرعا عن محبة الله ورسوله.

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٦٧).

فالوحشة من الناس بهذا المعنىٰ هي وسيلة معينة للإنسان علىٰ تفريغ قلبه وتصفيته، فقليل من الناس من يجد وقت الفراغ اللازم من أجل التفكر والاعتبار، وقليل من الناس من يسلم من صخب الحياة ومتابعة أمورها ليلا ونهارا، وقليل من الناس من يسلم من فضول الناس وتدخلاتهم، جاء في الحديث: «إذا أحب الله عبدًا حماه الدنيا كما يحمي أحدُكم مريضَه الماء»(١).

وجدير بالذكر أن الوحشة من الناس لوحدها ليست محمودة إذا لم يستغلها الإنسان لملء قلبه بمحبة الله والأنس به، بل إن الاستيحاش من الناس هو باب هدايةٍ، أنْعَمَ الله به علىٰ الإنسان وينبغي له أن يسرع في دخول هذا الباب حتىٰ يعمر قلبه بمحبة الله ويطمئن بذكره.

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٤٤٣) برقم: (٦٦٩)؛ والحاكم في مستدركه (٤/ ٢٠٧) برقم: (٧٥٥٧)؛ والترمذي في جامعه (٣/ ٥٥٩) برقم: (٢٠٣٦).

٥٢٩

الأنس بالله والاستيحاش ممن سواه

قال ابن القيم ﵀: «استوحش مما لا يدوم معك، واستأنس بمن لا يفارقك»[(١)].

بيان المفردات

الاستيحاش: الوَحشة هي الخوف من الخَلوة، وهي ضد الأُنس[(٢)].

المعنى الإجمالي

الألفة والأنس تابعة للمعرفة، والاستيحاش تابع للتناكر وعدم المعرفة، والمعرفة تتكون وتزيد مع الدوام والاستمرار، فحين يتعرف الإنسان علىٰ شخص جديد فإنه يشعر بنوع من الوحشة تجاهه، لكنه حين يخالطه ويجالسه ويتعرف عليه عن قرب فإنه يأنس به وتطمئن نفسه إليه.

بناء علىٰ هذا ينبغي علىٰ الإنسان أن يوطّن نفسه علىٰ الأنس إلىٰ من يكون مرافقا له علىٰ الدوام، أما الرفيق المؤقت فإنه سيفارقه بعد حين، لذلك ينبغي علىٰ العاقل أن يقدّر الأمور بقدرها، وأن يجعل أنسه واطمئنانه إلىٰ رفيقه الدائم، أما

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٦٨).

(٢) تاج العروس للزبيدي (١٧/ ٤٤٣).

الرفيق المؤقت العابر فإنّ أمره هين، جاء في دعاء النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة، فإن جار البادية يتحول»(١)، فلأن جار البادية مؤقت غير دائم كان أمره هينا ولم يلزم الاستعاذة منه.

والمؤمن يعلم أن الله ﷻ لا يفارقه لحظة واحدة، فإنه معه يراه ويسمعه مع كل نفَسٍ من أنفاسه، ويكلؤه ويحفظه في كل لحظة من لحظاته، قال تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد:٤]، أما الناس الذين يحيطون بالإنسان من أهله وأصحابه ومعارفه وجيرانه، فإنهم لن يدوموا له ولن يدوم لهم، فكلّ خليل سيفارق خليله إن عاجلا أو آجلا.

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣/ ٣٠٧) برقم: (١٠٣٣)؛ والحاكم في مستدركه (١/ ٥٣٢) برقم: (١٩٥٧)؛ وابن أبي شيبة في مصنفه (١٤/ ١٥٧) برقم: (٢٧٠٦٣).

٥٣٠

الخلوة النافعـة

قال ابن القيم رحمه الله: «غَرْسُ الخَلوة يُثْمِر الأُنس»[(١)].

بيـان المفردات

الغَرْس: الشجر الذي يُغرس.

المعنى الإجمـالي

جاء في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»[(٢)]، قال ابن رجب رحمه الله: «فهذا رجل يخشى الله في سره، ويراقبه في خلوته، وأفضل الأعمال خشية الله في السر والعلانية، وخشية الله في السر إنما تَصدر عن قوةِ إيمانٍ ومجاهدةٍ للنفس والهوى، فإن الهوى يدعو في الخلوة إلى المعاصي، ولهذا قيل: إن من أعز الأشياء الورع في الخلوة»[(٣)].

فالخَلوة والابتعاد عن المشاغل والضوضاء هي غرسٌ لشجرة التفكر والاعتبار، وكلما ذكر المؤمن الله تعالى في خلوته وأقبل عليه بالعبادة والطاعة،

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٦٨).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٣٣) برقم: (٦٦٠)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ٩٣) برقم: (١٠٣١).
(٣) فتح الباري لابن رجب (٦/ ٥٠).

وكلما تدبر آيات كتابه وتفكر في آيات عظمته، كلما استمر في ذلك بسقت هذه الشجرة وأينعت، حتى تثمر الأنس بالله تعالى في القلب.

فالأنس بالله والاطمئنان بذكره هو صفة المؤمنين الذين يكثرون من ذكر الله تعالى، قال ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨]، فالأنس بالله تعالى ثمرة الطاعات، وكل طائعٍ فهو مستأنس.

٥٣١

العزلة مأوى المحبين

قال ابن القيم رحمه الله: «المحبُّ يَهرُبُ إلى العزلة والخلوة بمحبوبه والأُنْسِ بذكره كهَرَبِ الحوتِ إلى الماء والطفلِ إلى أمِّهِ»(١).

المعنى الإجمالي

إن كثرة مخالطة الناس والانغماس في الدنيا يُورِث القلب قسوة، لذلك كان الصالحون يختارون أوقاتًا يعتزلون فيها الناس، ويتخذون لأنفسهم مكانًا يختلون فيه بربهم، يُطفئون لهيب شوقهم بمناجاته، ويمرِّغون جباههم على أعتابه، ينشدون وصاله والأنس به.

سئل الحارث المحاسبي: رحمك الله، ما علامة الأنس بالله؟ قال: التوحش من الخلق، قيل له: فما علامة التوحش من الخلق؟ قال: الفرار إلى مواطن الخلوات، والتفرد بعذوبة الذكر، فعلى قدر ما يدخل القلب من الأنس بذكر الله يخرج التوَحُّش(٢).

إن المحب يُكابد من حرّ الشوق ولوعة الحنين ما يجعله يهرع إلى لقاء محبوبه والخلوة به؛ فهو يدرك أن نجاته لا تكون إلا بذلك، فهو كالحوت ما إن يخرج من

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٩٦).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ١٠٧).

الماء حتىٰ يهرع إليها مرة أخرىٰ لاستبقاء حياته، وكالطفل لا يصبر عن غياب أمه.

ولذلك كان بعض العارفين يقول: أليس عجبًا أن أكون حيًّا بين أظهركم وفي قلبي من الاشتياق إلىٰ ربي مثل شُعَل النار التي لا تنطفئ؟!

ولــم أر مثــل نــار الحــب نــارًا   تزيــد بِبُعْــد مُوقِــدِها اتِّقــادًا[١].

ولكن ينبغي التنبيه إلىٰ أن الخلوة والعزلة لا ينبغي أن يطول أمدها، إنما تكون لفترة زمنية محدودة لتزكية النفس، وتطهير القلب، وتوثيق الصلة بالله، كما كان يفعل النبي ﷺ قبل البعثة عندما كان يختلي بغار حراء الليالي ذوات العدد، وبعد البعثة كان يعتكف في العشر الأواخر من رمضان، وبعد تلك الفترة لا بد أن يرجع الإنسان إلىٰ الجهاد في الحياة؛ بالعمل والدعوة وطلب العلم، وشهود الجمع والجماعات، والتعاون علىٰ البر والتقوىٰ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلىٰ هذا جماهير العلماء، ويؤيد هذا ما جاء في الحديث: مر رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشِعْب فيه عُيينةٌ من ماء عذبة، فأعجبَتْه لطيبها، فقال: لو اعتزلتُ الناس فأقمتُ في هذا الشِّعْب، ولن أفعل حتىٰ أستأذن رسول الله ﷺ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «لا تفعل؛ فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عامًا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويُدخلكم الجنة؟ اغزو في سبيل الله، من قاتل في سبيل الله فُوَاق ناقة وَجَبَت له الجنة»[٢].

وفي الحديث أيضًا: «المسلم إذا كان يخالط الناس ويصبر علىٰ أذاهم خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر علىٰ أذاهم»[٣].

---

(١) شرح كلمة الإخلاص لابن رجب الحنبلي (ص: ١٠٧).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٣/ ٢٨٥) برقم: (١٦٥٠).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٧٨) برقم: (٢٥٠٧).

٥٣٢

الفرار إلى الله تعالى

قال ابن القيم رحمه الله: «المخلوق كلَّما خِفتَه استوحشتَ منه وهربتَ منه، والله سبحانه كلما خفتَه أنِسْتَ به وفَررْت إليه»(١).

المعنى الإجمالي

إنَّ الخوفَ من الله عز وجل من أفضل مقامات العبودية وأجلِّها، وهو طريقُ البلوغ إلىٰ المنازل العالية، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»(٢).

والخوفُ من الله هو الخوفُ المقترنُ بالمحبة والتعظيم والتذلل للّه تعالىٰ، الذي يحمل العبدَ علىٰ الطاعة والبُعدِ عن المعصية(٣)، وقد وصف اللهُ به عباده الصالحين فقال: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل:٥٠]، ووَعَدَ من حقّق هذا المقامَ بجنتين، قال تعالىٰ: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن:٤٦].

---

(١) إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان لابن القيم (٢/ ٩٤٥)؛ الفوائد لابن القيم (١/ ٤٥).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/٢٤١) برقم: (٢٤٥٠)، وقال: حسن غريب؛ والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٠٧) برقم: (٧٩٤٦)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٣) ينظر: مختصر شرح تسهيل العقيدة الإسلامية لعبد الله الجبرين (ص: ١٠٩)؛ تفسير العثيمين (١/ ٢٧٥).

وكُلُّ أحدٍ إذا خفتَه هربتَ منه إلا اللهَ ﷻ، فإنك إذا خفتَه فررتَ إليه[١]، وهذا هو جوهرُ الفرق بين الخوفِ من الخالق والخوفِ من المخلوق، فالخوفُ من المخلوق يورث الخوفَ والقلق، ويقتضي البعدَ عنه، والحذرَ منه والبغضَ له، أما الخوفُ منَ الله فإنه يقرب إليه، ولا يبعد عنه، ويثمرُ الحبَّ والرضىٰ والسكينةَ والاطمئنان[٢]، لذلك كان من أهم ثمار الخوف من الله الفرارُ إليه، قال تعالىٰ: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ [الذاريات:٥٠].

(١) ينظر: الفوائد لابن القيم (١/ ٤٥)؛ موسوعة فقه القلوب للتويجري (٢/ ١٩٧٨).
(٢) ينظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (٤/ ١٩٥).

بـــاب الحياء من الله

٥٣٣

إيثار الحياء من الله

قال عبيد بن عمير رحمه الله: «آثِروا الحياء من الله على الحياء من الناس»(١).

المعنى الإجمالي

إن الحياء صفة تعطي عن العبد المتصف بها انطباعًا عامًا؛ بأنه ذو أخلاق فاضلة، وأنه يستحيي من أن تهان كرامتُه، أو أن تُخدَش سمعتُه، وهو كذلك لا يسيء إلىٰ أيِّ عبدٍ من عباد الله؛ فالحياء سلوكٌ إيمانيٌّ ربانيٌّ؛ فالله تعالىٰ حيي ستير، وقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله حيي ستيرٌ، فإذا أراد أحدكم أن يغتسل فليتوارَ بشيء»(٢).

والحياء شعبة من شعب الإيمان، قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وستون بابًا، أو بضع وسبعون بابًا، أعظمها: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»(٣).

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٢٦٨).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه برقم: (٤٠١٢)؛ والنسائي في المجتبىٰ (٢/ ٤٠٥)؛ وأحمد في مسنده (٢٩/ ٤٨٤) برقم: (١٧٩٧٠).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٦٣) برقم: (٣٥).

فلما كان الحياء بهذا السمت الإيماني والرقي الأخلاقي مع البشر، فهو أولىٰ مع الله الخالق ﷻ. وإن من الحياء مع الله ألا يرىٰ الله عبده حيث نهاه؛ يفعل المحرمات والفواحش، ويظهر الحياء لدىٰ العبد كذلك عند خلوه بنفسه؛ فهو يخشىٰ أن يفعل فعلًا مخلًا مخجلًا يستحي أن يفعله علانية عند الناس، فكيف لا يستحي من الله المبدئ المعيد.

لقد آثر الصالحون الحياء من الله علىٰ الحياء من الناس؛ لأن الله أحق أن يُستحيا منه، وإن كان الحياء في العبد من المخلوقين ليس معيبًا، بل هو من آثار التربية الإيمانية التي أفادها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ مرَّ علىٰ رجل من الأنصار يعظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ: «دعه؛ فإن الحياء من الإيمان»[١].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٤) برقم: (٢٤).

٥٣٤

اقتران الحياء بالإيمان

قال عبد الله بن عباس[(١)] رضي الله عنهما: «الحياء والإيمان في قَرْن، فإذا انتُزع الحياء تبعه الآخر»[(٢)].

المعنى الإجمالي

الحياء شعبة من شعب الإيمان؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «الإيمان بضعٌ وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان»[(٣)].

والحياء والإيمان مقرونان لا يفترقان؛ ومن علامات اقترانهما: أن الحياء لا يتصف به إلا أهل الإيمان، أما أهل الكفر والسوء والفجور فإنهم لا يبالون بأن يقولوا سيِّئًا من القول، وأن يفعلوا كل الموبقات والمخزيات التي لا يتورعون من ذكرها بعد فعلها. وكما أن أهل الإيمان موصوفون بالحياء، فإنه لا يمكن لمؤمن أن يكون بعيدًا عن هذا الخلق الذي هو من صفات الله تعالىٰ.

---

(١) أبو العباس عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي المكي، حَبر الأمة، فقيه العصر، إمام التفسير، ابن عم رسول الله ﷺ، وصاحبه، وحدَّث عنه وعن كبار الصحابة، روىٰ عنه جماعة كبيرة، مات بالطائف سنة ٦٨هـ. ينظر: الطبقات لابن سعد (٦/ ٣٢١)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٣٣١).

(٢) تعظيم قدر الصلاة للمروزي (٢/ ٨٧٠)؛ جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي (١/ ٤٩٩).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١١) برقم: (٩)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ٦٣) برقم: (٥٧).

وفي هذا دلالة على اجتماع واقتران الإيمان والحياء؛ فإن نزع أحدهما نزع الآخر، فعن أبي موسى الأشعري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياء والإيمان مقرونان لا يفترقان إلا جميعًا»(١).

من النماذج القرآنية التي ذكرها الله في القرآن وقُصَّت على الأمة ليأخذ رجالها ونساؤها هذا الخلق القويم من هذه الفتاة المؤمنة التي اتصفت به، قال الله تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص:٢٥]، وقد فُسِّر حياؤها في ملبسها قبل كلامها، فقيل: يعني أنها واضعة ثوبها على وجهها، ليست بخرَّاجة ولا ولَّاجة(٢). وهذا وصف ملبسها، فكيف كان كلامها؟ لقد كان كلامها مختصرًا يؤدي الغرض بأقصر عبارة: ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، «فمع الحياء الإبانة والدقة والوضوح، لا التلجلج والتعثر والربكة، وذلك من إيحاء الفطرة النظيفة السليمة المستقيمة، فالفتاة القويمة تستحي بفطرتها عند لقاء الرجال والحديث معهم، ولكنها لثقتها بطهارتها واستقامتها لا تضطرب الاضطراب الذي يُطمع ويُغري ويهيج، إنما تتحدث بوضوح بالقدر المطلوب ولا تزيد»(٣).

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٤/ ٣٧٤) برقم: (٤٤٧١)؛ قال الهيثمي: تفرد به محمد بن عبيدة القومسي. ينظر: مجمع الزوائد للهيثمي (٢/ ٧٥).

(٢) تفسير مجاهد (ص: ٥٢٦).

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب (٥/ ٢٦٨٧).

٥٣٥

رُكْنا الحياء

قال الجنيد رحمه الله: «الحياء: رؤية الآلاء، ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء»[(١)].

المعنى الإجمالي

كثرت تعريفات الحياء لدى علماء السلوك والتزكية، لكنهم مجمعون أنه خلق يلبي نداء الفطرة؛ إذ الفطرة السليمة تنبئ أن العبد لا يجحد المنعم عليه بأي نعمة منها، ولا ينسى المعروف والفضل لأهله؛ فإنه لا يعرف الفضل لأولي الفضل إلا أولوا الفضل، فإذا كان هذا هو حال عبد مع عبد مثله، فكيف يكون حال العبد مع المعبود سبحانه وتعالى؟ وأنى لمخلوق يتنكر لنعم وآلاء خالقه جل وعلا؟

ومن التعريفات الحسنة البينة ما ذكره الجنيد رحمه الله بأن الحياء رؤية الآلاء ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء. وبيان ذلك أن الحياء ينشأ لدى العبد المسلم عندما يجد نعم الله عليه متوالية، ومعاصيه لمولاه لا تتوقف؛ فهو باقٍ على ذنوبه وآثامه لا يفارقها، أو أنه يجد نعمًا كثيرة لا تعدُّ ولا تحصى، ولا يؤدي ما توجبه من الشكر والحمد والثناء الحسن على الله تعالى والحياء منه. قال الله تعالى

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٢٤٩).

علىٰ لسان سيدنا سليمان ﷺ: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل:٤٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان:١٢].

هذا الحياء -الذي ينبغي أن يكون- من التقصير في الوفاء بحقِّ المنعم ﷻ ذكره النبي ﷺ في الحديث القدسي الذي يرويه أبو الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ قال: «قال الله ﷻ: إني والإنسُ والجنُّ في نبأٍ عظيمٍ، أخلقُ ويُعبدُ غيري، وأرزقُ ويُشْكرُ غيري»(١).

(١) شُعَب الإيمان للبيهقي (٦/ ٣١٠) برقم: (٤٢٤٣).

باب الخوف والخشية

٥٣٦

اطمئنان المؤمن بعد تجاوز الصراط

قال معاذ بن جبل[(١)] رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إن المؤمن لا يطمئن قلبه ولا تسكن روعته حتى يُخَلِّف جسر جهنم وراءه»[(٢)].

المعنى الإجمالي

لا يمكن للمؤمن أن يأمن ويطمئن قلبه قبل تجاوزه الصراط؛ فإن الصراط هو الحد الفاصل بين الهلكة والنجاة، فمن عبر الصراط فقط نجا وفاز فوزًا لا خسارة بعده، فالمؤمن لا يأمن من مكر الله وعذابه قبل هذه المرحلة، قال تعالىٰ: ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٩].

والإنسان يمر بمراحل؛ منها ما قبل موته، فهو في هذه المرحلة ما دام أنه في الدنيا فلا يأمن من تقلب قلبه، ولذلك لما سئلت أم سلمة عن أكثر ما يدعو به النبي ﷺ إذا كان عندها، فقال: كان أكثر دعائه: يا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ

---

(١) معاذ بن جبل بن عمرو الأنصاري، أبو عبد الرحمن، من فقهاء الصحابة وعلماءهم، شهد العقَبة الثانية والمشاهد كلها مع النبي ﷺ، وقد خلفه النبي ﷺ لأهل مكة بعد فتحها لتعليمهم، وبعثه عاملا إلىٰ أهل اليمن، توفي في طاعون عَمواس بالشام سنة ١٨هـ. ينظر: الطبقات الكبرىٰ لابن سعد (٣/ ٥٣٩).

(٢) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٥٣).

دينك. قالت: فقلت: يا رسول الله، ما لأكثر دعائك يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك! قال: «يا أم سلمة، إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام، ومن أشاء أزاغ»(١).

ثم عند الموت وما بعد الموت لا يأمن من فتنة الممات وفتنة القبر، ولذلك ورد في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يدعو: اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب النار، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال»(٢).

والأهوال العظمى يوم تقوم الساعة، ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:١]، وبعد ذلك تأتي آخر مرحلة قبل دخول الجنة وهي المرورَ على الصراط، وهي أخطر المراحل، وذلك لأن الصراط فيه كلاليب تأخذ من أُمرت به، كما ورد في الحديث: «فيه خطاطيف وكلاليب، وحسك تكون بنجد فيها شويكة يقال لها: السعدان، فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مسلم ومخدوش مرسل، ومكدوس في نار جهنم»(٣).

فلا اطمئنان للمؤمن إلا بعد عبوره لهذا الجسر، ونجاته من كلاليبه وحسكه.

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٩٥) برقم: (٣٥٢٢)، وقال: حديث حسن.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٩٩) برقم: (١٣٧٧).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ١١٤) برقم: (١٨٣).

٥٣٧

خشية الله

قال سعيد بن عامر[١] لِعُمر بن الخطاب ﷺ: «يا أمير المؤمنين، اخْشَ الله في الناس، ولا تخشَ الناسَ في الله»[٢].

بيان المفردات

الخشية: الخوف، يقال: خَشِي الرجل يَخشَىٰ خشْيةً؛ أي: خاف[٣].

المعنى الإجمالي

تبين الحكمة ما يحتاج المرء أن يتذكره دائما في قلبه وفي عمله، في ظاهره وفي باطنه، ألا وهو خشية الله تعالىٰ، فيجب علىٰ القائد أن يخشىٰ الله في أمور رعيته بأن لا يعمل فيهم شيئا يخالف حكم الله ولا يظلمهم. وأما مخالفة أحكام الله والإتيان بما يخالف الشريعة وإصدار قوانين تخالف الشرع أو الامتناع عن تطبيق حكم الله لإرضاء الناس أو الدول فهذا من خشية الناس في الله.

---

(١) سعيد بن عامر بن حذيم، القرشي، الجمحي، من كبار الصحابة وفضلائهم، أسلم قبل خيبر، وهاجر فشهدها وشهد ما بعدها، ولَّاه عمر حمصَ، كان مشهورا بالخير والزهد، توفي سنة ١٩، وقيل: ٢٠، وقيل: ٢١هـ. ينظر: الإصابة لابن حجر (٣/ ٩٢)؛ الأعلام للزركلي (٣/ ٩٧).

(٢) الطبقات الكبرىٰ لابن سعد (٥/ ٩١).

(٣) لسان العرب لابن منظور (١٤/ ٢٢٨).

وهذا وارد في عدد من النصوص القرآنية والسنة النبوية بوضوح، كما يصرح به تعالى قائلا: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١٣]، ويقول ﷻ في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥]. وكذلك يقول ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الله ﷻ»(١).

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٣٣٣) برقم: (١٠٩٥).

٥٣٨

الخوف من ترك الحزن

قال إبراهيم التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ينبغي لمن لم يحزن أن يخاف أن يكون من أهل النار؛ لأن أهل الجنة قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾»[١].

المعنى الإجمالي

طبيعة الحزن أنه مفسد للطباع ومحبط للآمال وممرض للأعضاء، لكن حزن المؤمن خوفٌ من الله تعالىٰ وعقابه، ويذكر الله عن المؤمنين قولهم في الآخرة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر:٣٤]، وكيف لا يخاف المؤمن ولا يحزن وقد قرأ القرآن وعرف من أهوال النار وأهوال القيامة ما إن تفكَّر فيه واستمرّ في تذكّره لما استطاع معه العيش! ورد في الحديث عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خطب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطبة ما سمعت مثلها قط، قال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا»، قال: فغطىٰ أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجوههم لهم خنين»[٢].

وقد اختلف المفسرون في معنىٰ الحَزَن؛ فقيل: إن الحزن الذي كانوا فيه قبل دخولهم الجنة من خوف النار؛ إذ كانوا خائفين أن يدخلوها. وقيل: الموت. وقيل: الحزن من التعب الذي كانوا فيه من الدنيا.

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٤/ ٢١٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ٥٤) برقم: (٤٦٢١).

وأولىٰ الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالىٰ ذكره أخبر عن هؤلاء القوم الذين أكرمهم به أنهم قالوا حين دخلوا الجنة ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾، وخوف دخول النار من الحزن، والجزع من الموت من الحزن، والجزع من الحاجة إلىٰ المطعم من الحزن، ولم يخصص الله إذ أخبر عنهم أنهم حمدوه علىٰ إذهابه الحزن عنهم نوعًا دون نوع، بل أخبر أنهم عمُّوا جميع أنواع الحزن بقولهم ذلك، وهو كذلك؛ لأن من دخل الجنة فلا حزن عليه بعد ذلك، فحمدهم علىٰ إذهابه عنهم جميع معاني الحزن[١].

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (٢٠/ ٤٧١- ٤٧٤).

٥٣٩

اختيار الصحبة الصالحة

قال الحسن البصري رحمه الله: «والله لأن تصحب أقوامًا يُخوِّفونك حتى يُدرِكَك الأمن، خير لك من أن تَصحب أقوامًا يُؤَمِّنونك حتى يَلْحَقَك الخوف»[(١)].

المعنى الإجمالي

إنَّ مَنْ صدقك وخوَّفك بالله تعالىٰ وحذّرك من عذاب جهنم وذكَّرك بالموت وأهوال القيامة، وذلك حتىٰ تعمل وتكون آمنًا يوم يفزع الناس ويخافون، خيرٌ ممن كتَم عنك تلك الأهوال، ولم يذكر في مجلسك إلا اللهو والمزاح؛ فإن هذا يجعلك تنسىٰ الآخرة والإعداد لها، حتىٰ إذا جاءك الموت والحساب أدركك من الفزع والأهوال بسبب تقصيرك وعدم إعدادك لهذا المقام ما تنخلع له القلوب وتشيب من هوله الولدان.

وقد أمرنا الله ﷻ بالإعداد لذلك اليوم والخوف والخشية منه، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [لقمان:٣٣].

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ١٥٠).

والصحبة الحقيقية هي التي يكون في حساب طرفيها أن يمنع أحدهما الآخر من المضرة والسوء؛ ذلك أن الصحبة علىٰ مصالح الدنيا لا تدوم؛ لأن ارتباطها قام علىٰ رابطة المصلحة لا الدين؛ ولذا فقد اهتم الإسلام بضرورة أن يكون الصاحب مؤمنًا تقيًا ورعًا؛ كي يحب لصاحبه ما يحبه لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، وهذا هو كمال الإيمان وتمامه، فعن أبي سعيد الخدري ﵁، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقي»(١).

ومن مقتضيات الصحبة التي تقوم علىٰ الدين: التذكير بالله تعالىٰ؛ فيكون الصاحب مُذكِّرًا لصاحبه ومُخوِّفًا له من عاقبة عصيان الله، وهذا الأمر قد ينزعج منه بعض الأصحاب؛ إذ يظن أن الصحبة لا يمكن أن تكون علىٰ التخويف، بل علىٰ الترغيب، ولم يعلم أن الصاحب هو الذي يصدُق صاحبه، لا من يخونه، ومن الصدق والأمانة كثرة التذكير بالله، والتخويف من الوقوف بين يديه، وهذا الأمر يفتقده كثيرٌ من الأصحاب في هذا الزمان، إلا من رحم الله تعالىٰ.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧/ ٤٣٧) برقم: (١١٣٣٧)؛ وأبو داود في سننه (٧/ ٢٠٣) برقم: (٤٨٣١)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ٢٠١) برقم: (٢٣٩٥)، وقال: حديث حسن.

٥٤٠

ترك النظر إلى السماء خوفًا من الله

قال ميمون بن مهران رحمه الله: «أدركتُ مَن لم يكن يملأ عينيه من السماء فرَقًا من ربه عز وجل»[1].

بيان المفردات

فرَقًا: الفَرَق هو الخوف[2].

المعنى الإجمالي

كان بعض الصالحين لا يملأ عينيه بالنظر إلى السماء خوفًا من الله تعالى، ومن هؤلاء عطاء السلمي رحمه الله فقد مكث أربعين سنة لا ينظر إلى السماء، فحانت منه نظرةٌ فخرَّ مغشيًا عليه.[3]

إن تعظيم الله وهيبته قد وقع موقعًا عظيمًا في قلوب السلف الصالح، وإذا كان الصحابة رضي الله عنهم لا يستطيعون إطالة النظر إلى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم هيبة له وإجلالًا، فلا يستغرب أن يكون من السلف من لا يستطيع رفع بصره إلى السماء التي منها

---

(١) المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر الدينوري (٥/ ٢١٣)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (٤/ ٨٨).
(٢) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (٩/ ٩٩).
(٣) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٤١٥).

ينزل الوحي، وهي الجهة التي يأتي منها الخير ويرسل الله منها العذاب، وذلك خوفًا من الله ﷻ.

لقد كان السلف الصالح شديدي التأثر بكلام الله ﷻ، وفي قلوبهم من خوف الله وخشيته ما يخر معه أحدهم مغشيًّا عليه، ومن بلغ خوف الله في قلبه إلىٰ هذا المبلغ، لا يستغرب منه أن يخشىٰ حتىٰ من النظر إلىٰ جهة السماء هيبة وخوفًا من الله، وهذا لا يناقض ما ورد به القرآن من الأمر بالنظر في السماوات وما فيها من آيات، وذلك لأن علة الأمر بالنظر والتفكر في السماء وما فيها من آيات إنما هي للاعتبار وتعظيم الله ﷻ وزيادة اليقين به، ومن بلغ به الحال والخوف من الله هذا المبلغ فإن اليقين والخوف الذي في قلبه لن يزيد بنظره في السماء.

وهذا الحال الذي لا مزيد عليه في كسب اليقين هو ما عبر عنه حنظلة عندما قال لأبي بكر ﵁: «نكون عند رسول الله ﷺ يُذَكِّرنا بالنار والجنة، حتىٰ كأنَّا رأْيَ عين»(١)، أي كأنهم ينظرون إليهما ويرونهما عيانًا، وأي يقين أشد من مثل هذا!

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٩٤) برقم: (٢٧٥٠).

٥٤١

الخوف من الوعيد

قال شُمَيط بن عَجْلان رَحِمَهُ اللهُ: «إن المتقين أتاهم وعيد الله فناموا على خوف، وقاموا على وقار»(١).

المعنى الإجمالي

المتدبر لآي القرآن الكريم يجد أن هناك ارتباطًا بين تقوىٰ الله والخوف منه؛ فإن التقوىٰ هي ترك معاصي الله خوفًا من الله تعالىٰ.

يتساءل المتقون يوم القيامة عن سبب إنجاء الله لهم، فيدركون أن أهم سبب أوصلهم إلىٰ جنة الله أنهم كانوا من وعيد الله علىٰ خوف؛ فقد أطار الخوف نومهم، وأقامهم بين يدي ربهم يدعونه رغبًا ورهبًا، فكان ذلك سبب نجاتهم، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور: ٢٥-٢٧].

ولم يكن هذا الخوف الذي صاحبهم في حياتهم في نومهم ويقظتهم وحلهم وترحالهم ليُقعدهم عن التزود من طاعات الله، فكانوا في نهارهم علىٰ وقار وبُعْد عن اللغو واللعب، فما كانوا يخوضون مع الخائضين، وما كانوا يجلسون في

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ١٢٦).

المجالس التي تهدر فيها الأوقات، بل لم يكن كلامهم وفعلهم إلا فيما يرضي الله تعالىٰ.

إن الصالحين المتقين لما خافوا علىٰ أنفسهم أتقنوا العمل، وتداركوا النقص قبل الفوات، فالنوم علىٰ خوف يعبِّر علىٰ التفكير الجاد والسوي تجاه الدار الآخرة، بل كان بعضهم يتمنىٰ أنه لم يخلق.

ومما ورد عن الصحابة في هذا الأمر مما فيه تعبير عن شدة خوفهم: «أن أبا بكر الصديق رأىٰ طائرًا فقال: طُوبىٰ لك يا طائر؛ تقع علىٰ الشّجر وتأكل من الثَّمر ولا حساب عليك! ليْتني كنت مثلك. وقال عمر: ليْتني كنت تبنة، ليت أُمِّي لم تلدني. وقال ابن مسعود: ودِدتُ أنِّي إِذا متُّ لا أُبْعث. وقال عمران ابن حُصَيْن: لَيْتَني كنتُ رمادًا. وقال أبو الدَّرْدَاء: لَيْتَني كنت شَجَرةً تُعْضَد. وقالت عائشة: لَيْتَني كنتُ نسيًا مَنسيًّا»(١).

(١) المدهش لابن الجوزي (ص: ٤٢٤).

٥٤٢

شدة الخوف وعلاقتها بالعبادة

قال سفيان الثوري رحمه الله: «ما أطاق أحد العبادة ولا قوي عليها إلا بشدة الخوف»(١).

المعنى الإجمالي

إن المريض من شدة خوفه علىٰ صحته يصغي إلىٰ الطبيب بكل حواسه، من أجل أن يتماثل للشفاء ويبرأ من مرضه، وكذلك ينبغي أن يكون حال من أراد الفوز والنجاة في الآخرة، حيث لا بد له أن يسعىٰ في إنقاذ نفسه من الهلاك، ويتخذ كل الوسائل والأسباب لينجو ويسلم، ولا ينجو الإنسان إلا بأداء ما افترضه الله عليه، واجتناب ما نهىٰ عنه، وعندما يعلم أن العبادة قد تُرَدُّ عليه، ويقرأ ما ورد من الآيات والأحاديث التي فيها الوعيد والتهديد لمن تباطأ وتكاسل، فإن ذلك يُعَدُّ باعثًا علىٰ النشاط في أداء العبادة.

وشدة الخوف تحمل العبد علىٰ تحمل المشاق في طاعة الله، والصبر علىٰ الشدائد والعقبات، التي تعترضه في الطريق إلىٰ الله، ما دام الأمر في النهاية مأمونًا ومضمونًا.

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٦/ ٣٦١).

لقد وصف الله الرجال الصادقين في عبادته بترك انشغالهم عن عبادة الله تعالىٰ، وبيَّن أن الخوف من الله ولقائه في يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار هو السبب الذي دعاهم إلىٰ الانصراف للعبادة، وترك كل الملهيات والشواغل التي تصرفهم عن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة. قال الله تعالىٰ: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [النور: ٣٦-٣٧].

والذي يقرأ آيات العذاب والوعيد وما ورد من أهوال النار فلا بد أن يزيده ذلك نشاطًا للعبادة وصدقًا في الإقبال علىٰ الله، من مثل قوله تعالىٰ: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ [الزمر:١٦].

٥٤٣

الهوى مُهلِك وعلاجه الخوف

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: «الهوى يُردي، وخوف الله يَشفي، واعلم أن ما يُزيل عن قلبك هواك إذا خفت مَن تعلم أنه يراك»[١].

بيان المفردات

يُرْدي: ردي يَرْدَىٰ: إذا هلك، والردىٰ: الهلاك[٢].

المعنى الإجمالي

اتباع الهوىٰ يشقي صاحبه ويهلكه، ويهوي به في مهاوٍ سحيقة، ويضله ويبعده عن الحق؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص:٢٦].

ولن يزيل ويمحو عن العبد شقاوته، ويبعده عن الهوىٰ المهلك إلا خوف الله تعالىٰ؛ فهو شاف كاف من بلاء اتباع الهوىٰ؛ عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوىٰ متبع، وإعجاب المرء بنفسه من الخيلاء، وثلاث منجيات: العدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنىٰ والفاقة، ومخافة الله

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ١٨).

(٢) ينظر: الكامل في اللغة والأدب للمبرد (١/ ٧٨).

في السر والعلانية»[١].

والخوف شفاء للعبد من حيث إن العبد إذا خاف من ربه فإنه يراقبه ويحذر من اطلاع الله عليه، إذ هو يعلم أن الله يراه ومطلع عليه في كل آنٍ وحينٍ، ولا تخفىٰ عليه خافية؛ قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران:٥]، وتبدو آثار الخوف من الله ظاهرةً علىٰ العبد في قلبه وجوارحه، فيهتدي إلىٰ الله بعد ضلالة وغواية، ويملأ حبُّ الله قلَبه بدل هوىٰ نفسه ووسوسة وتزيين شيطانه، ويراقب الله ويخاف منه في سره وعلانيته، وحله وترحاله.

(١) أخرجه البزار في مسنده (١٣/ ١١٤) برقم: (٦٤٩١)؛ والطبراني في الأوسط (٥/ ٣٢٨) برقم: (٥٤٥٢)؛ والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٥٢) برقم: (٧٢٥٢). وقال العراقي: سنده ضعيف. ينظر: تخريج أحاديث الإحياء لزين الدين العراقي (ص: ١١٤٥).

٥٤٤

الرهبة من الله على قدر العلم به

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «رهبة العبد من الله على قدر علمه بالله، وزهادته في الدنيا على قدر رغبته في الآخرة»(١).

المعنى الإجمالي

للعلماء منزلتهم وفضلهم على العباد، فقد رفعهم الله منازل ودرجات، فقال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة:١١]، وفضلهم على العباد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وهم ورثة الأنبياء في العلم وتبليغ دين الله.

إن من لا يعرف الله ويقدره حق قدره لا يرهبه، ولا يخاف منه، ولا يرهب الله ويخافه إلا الموحدون الذين لم يتخذوا مع الله إلهًا آخر، قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [النحل:٥١]، ولذا فإن العلماء العارفين بالله تعالى هم أشد الناس خشية لله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ٨٩). وهذا الشرح يتعلق بالقسم الأول من الحكمة، وأما شرح القسم الثاني فسيأتي في باب الزهد والقناعة، الحكمة رقم: (٨٧١).

عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨]، فيرهبون الله ويخشونه في كل أحوالهم وأقوالهم وأفعالهم، فلا يشترون الحياة الدنيا بالآخرة، ولا يبيعون دينهم بعرض من الدينا قليل.

كما أن زهد الإنسان في الدنيا يكون بحسب رغبته وتطلعه إلىٰ ثواب الله في الآخرة، فالذي يعلم ويوقن أن ما عند الله خير، وأن الآخرة خير من الأولىٰ، وأن مثل الدنيا في الآخرة كمثل ما يغمس الإنسان يده في البحر فما الذي ينقص من البحر بهذه الغمسة؟

من يعلم حقيقة الدنيا، ويوقن بالأخبار عن الله ورسوله التي تصف الدنيا بأحط الأوصاف وأنها متاع الغرور، وأنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة لا يمكن له أن يغتر بها، ولا بد له من أن يضحي بهذه الفانية فيزهد فيها؛ طمعًا بالحصول علىٰ الآخرة الباقية.

٥٤٥

اليقين بالمحاسبة

قال يوسف بن أسباط رحمه الله: «عجبتُ كيف تنام عينٌ مع المخافة، أو يَعقِل قلبٌ مع اليقين بالمحاسبة!»(١).

المعنى الإجمالي

يعجب الصالحون العارفون بالله تعالىٰ من قلة خوف العباد من الله تعالىٰ؛ فهم ينامون ملء جفونهم، لا يقلقون ولا ينزعجون مما ينتظرهم من أهوال عصيبة يشيب منها الولدان، ويكون الناس كالسكارىٰ وما هم كذلك، ولكن عذاب الله شديد، عذاب لا يستطيع العبد الموقن العارف بالله تعالىٰ أن يتحمل سماع وصفه، ناهيك عن مقاربته والوصول إليه، فكيف يهنأ العباد بنومهم، وكيف لا تطير قلوبهم خوفًا من الله تعالىٰ!

جاء في الحديث: «والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولَبَكَيتم كثيرًا، وما تلذذتم بالنساء علىٰ الفُرُش، ولخرجتم إلىٰ الصُّعُدات تجأرون إلىٰ الله»(٢).

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ٢٣٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٤٠٢)، برقم: (٤١٩٠)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ١٤٥) برقم: (٢٣١٢)، وقال: حسن غريب.

وقد أوضح الله أن سبب عدم استجابة المشركين للتذكرة هو انعدام الخوف من الآخرة، فقال تعالىٰ: ﴿ كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴾ [المدثر:٥٣].

وكيف للقلب أن يعقل ويستمر في إدراكه وهو يوقن أنه موقوف بين يدي الله تعالىٰ ومحاسب علىٰ كل صغيرة وكبيرة! قال تعالىٰ: ﴿ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴾ [الكهف:٤٩].

٥٤٦

صدق اليقين

قال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ اللَّهُ: «لكل شيء صدق، وصدق اليقين الخوف من الله تعالى»(١).

المعنى الإجمالي

من علامات اليقين التي يُستدل بها على صدق العبد المتصف به، أن يكون خائفًا من الله تعالى؛ لأن الخوف ليس مظهرًا من مظاهر السلبية لدى العبد المسلم، بل هو مظهر إيجابي يكشف عن اليقين الذي تغلغل في قلب العبد وفكره، وظهر على جميع جوارحه.

إن من الأسباب التي تحقق بها وعد الله لأوليائه بالجنة خشيتهم من الله تعالى، وهو مظهر من مظاهر يقينهم بالله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٣١-٣٣]، والخوف من الله تعالى هو ما يمنع المسلم عن المسلم من الأذى، ومنها امتناعه عن مجرد سوء الظن بإخوانه المسلمين، وغيبتهم بذكرهم بما يكرهون سماعه، والتجسس عليهم وتتبع عوراتهم، ليس الخوف منهم، ولكنه الخوف من الله تعالى

(١) طبقات الصوفية (ص: ٧٩).

الذي رسخه اليقين بالله تعالىٰ؛ فقد صورت الآية القرآنية الغيبة بصورة تشمئز منها النفوس السوية ذات الفطرة النقية، فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحجرات:١٢].

وكذلك الحال مع كل المحرمات التي حرمها الله في كتابه الكريم، وشدَّدَ النكيرَ عليها النبيُّ ﷺ في سنته المطهرة، قال رسول الله ﷺ: «اتركوني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم، فما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فاعملوا منه ما استطعتم»(١).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ٩٤) برقم: (٧٢٨٨).

٥٤٧

القلب الخَـرِب

قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: «ما فارق الخوفُ قلبًا إلا خرب»[(١)].

المعنى الإجمـالي

القلبُ محل نظر الله؛ فهو محل الاعتقاد، ومنه تنطلق أعمال القلوب التي تظهر آثارها على الجوارح، والقلب يُعْمَرُ بالإيمان ومعانيه ولوازمه من تصديق ومحبة وخوف ورجاء واستعانة وتوكل وإنابة وغيرها من الأعمال، لا تصدر إلا عن قلب سليم من الأرجاس والأدناس والشرك وكل ما يخرم الإيمان ويُضْعفه.[(٢)]

والخوف من الله من مستلزمات الإيمان وضروراته، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٧٥].

إنَّ القلب الخائف لا يُقْدِم على أمر أو نهي إلا وفق مراد الله تعالى؛ فهو يستحضر قدر الله ومقامه، ويعلم أن للخائف عند ربه جنتين، قال تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن:٤٦]، فإن خلا القلب من خوف الله وتعظيمه والرهبة منه فإن الخراب يسيطر عليه؛ ومن ذلك استصغار المعاصي، والجرأة عليها،

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٥٤).
(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه لأبي إسحاق الزجاج (٤/ ٣٠٨).

والمجاهرة بها، وعدم التوبة والأوبة والإنابة إلىٰ الله ﷻ، فيقسو القلب بذلك، وما قسوة القلب إلا خراب له.

٥٤٨

محل الخوف

قال بشر بن الحارث الحافي رحمه الله: «الخوف مِلكٌ لا يسكن إلا في قلبِ مُتَّقٍ»[١].

المعنى الإجمالي

الخائفون من الله العالمون به العاملون بما أمر مقربون منه سبحانه وتعالى؛ فهم يحبون الله بقلوبهم وأقوالهم وأفعالهم، وفي تلك القلوب المطمئنة بذكر الله الخائفة من عقابه سكن الخوف، فتهيأت القلوب لتقوىٰ الله؛ فالخوف من الله شبيه بالملوك الذي يُعنون باختيار مساكنهم، فمسكن الخوف قلب العبد المؤمن، الذي امتلأ قلبه بالتقوىٰ، وعُمِّرت جوارحه بكل خير وبر ومعروف.

والسبيل إلىٰ سكون الخوف في القلب هو دوام مراقبة الله عز وجل، قال ابن المبارك: «الذي يهيج الخوف حتىٰ يسكن في القلب دوام المراقبة في السر والعلانية»[٢].

سئل ذو النون المصري رحمه الله: «متىٰ يتيسر علىٰ العبد سبيل الخوف؟ فقال: إذا أنزل نفسه منزلة السقيم يحتمي من كُل شَيْء مخافة طول السقام»[٣].

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٥٣).
(٢) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٥٥).
(٣) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٥٣).

وحين يسكن الخوف قلب المؤمن يكون معينًا له على الثبات والاستقامة والهداية، قال ذو النون رحمه الله: «الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف فإذا زال عنهم الخوف ضلوا عن الطريق»[١].

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٥٤).

٥٤٩

الخوف زينة العبادة

قال حاتم الأصم رحمه الله: «لكل شيء زينة، وزينة العبادة الخوف، وعلامة الخوف قِصَر الأمل»(١).

المعنى الإجمالي

مما يُزيِّنُ عبادة العابد العارف بربه هو خوفه من التقصير في العبادة، وخوفه من رد عبادته وعدم قبولها، وهذا الخوف وهذا الشعور يدل على أن العابد مقرٌّ بتقصيره حتى ولو أدى العبادة على أكمل وجهه، وهذا يجعل العبادة أبعد ما تكون عن الرياء وقصد غير وجه الله تعالى، لذلك وصفهم الله بأن من كانت هذه حاله فهو من السابقين في الخيرات، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠-٦١].

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾، قالت عائشة: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون ألا تقبل منهم، ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾»(٢).

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٥٤).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٢٣٦) برقم: (٣١٧٥)؛ وأحمد في مسنده (٤٢/ ١٥٦) برقم: (٢٥٢٦٣).

ومن الدلائل والأمارات على وجود الخوف لدى المؤمن أن يكون قصير الأمل؛ إذا أصبح فلا ينتظر المساء، وإذا أمسى فلا ينتظر الصباح، فالخائف قصر أمله في الدنيا، وإنما يأمل رضا ربه تعالى، ويخشى أن ينقضي عمره ويأتيه أجله وهو غافل لم يتأهب للقاء الله تعالى، وقد جعل الله العمر فرصة للعبد ليتذكر، كما قال الله تعالى عن الكافرين، وهم يصطرخون من عذاب النار: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر:٣٧].

وقد أوصى ابن الجوزي بقصر الأمل، فقال: «وإن لم تستطع قصر الأمل فاعمل عمل قصير الأمل، ولا تنس حتى تنظر فيما مضى من يومك، فإن رأيت زلة فامحُها بتوبة، أو خرقًا فارقعه باستغفار، وإذا أصبحت فتأمل ما مضى في ليلك، وإياك والتسويف؛ فإنه أكبر جنود إبليس»[١].

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي (ص: ٢٠٦).

٥٥٠

الخوف يعصم من الضلال

قال ذو النون المصري رحمه الله: «الناس على الطريق ما لم يَزُل عنهم الخوف، فإذا زال عنهم الخوف ضلوا عن الطريق»(١).

المعنى الإجمالي

الطريق الصحيح هو الطريق الموصل إلى الله تعالى، هو الصراط المستقيم، الذي يلجأ العبد إلى الله بدعائه للاهتداء إليه، والالتزام به، والثبات عليه، فالله سبحانه يهدي من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم، قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة:١٤٢]، والاعتصام بالله والاستمساك به سبيل للهداية إلى الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران:١٠١].

وما دام العباد يخافون الله ﷻ فإن خوفهم منه يثبتهم على التمسك بما أوحى الله على نبيه ﷺ، فهو وحده الصراط المستقيم، كما قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف:٤٣]، وخوفهم من الله يبعدهم عن الضلال والانحراف، ولكن إذا زال عنهم الخوف من الله انحرفوا وضلوا، وذلك

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٥٤).

لأن طريق الحق هو ما كان فيه مخالفة لهوىٰ النفس، فإذا اتبع الإنسان هواه ضل وأضل، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [القصص:٥٠]، والذي يعصم الإنسان من اتباع الهوىٰ هو خوف الله ﷻ.

لقد ذكر الله تعالىٰ في سورة هود قصص قوم نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسىٰ عليهم الصلاة والسلام، وذكر في نهاية كل قصة عاقبة القوم الذين كذبوا الرسول لما ابتعدوا عن صراط الله المستقيم، ثم ذكر الله أن في إهلاكه لتلك الأمم المكذبة آية للخائفين، فقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأَخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود:١٠٣].

٥٥١
ازدحام الذنوب

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «ذنوب مزدحمة على عاقبة مبهمة، إلهي سلامة إن لم تكن كرامة»(١).

المعنى الإجمالي

تتكاثر الذنوب على العبد حتى تهلكه، ولا يغفرها إلا الله تعالى الذي يقبل التوبة عن عباده، ويعفوا عن السيئات، وعند رؤية العبد المؤمن لذنوبه وازدحامها عليه فإنه يخشاها على نفسه؛ إذ عاقبة أمره عند الله غير معلومة، فيرجو العبد من ربه السلامة والعافية، إنْ لم يكن هذا العفو كرامة وفضلًا من الله تعالى.

ومما يوضح خوف المؤمن على نفسه من العاقبة عند الله موقف عمر رضي الله عنه، قبيل وفاته جاءه شابٌّ فقال: «أبشِرْ يا أمير المؤمنين ببُشْرى الله لك؛ من صُحبةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقَدَمٍ في الإسلام ما قد عَلمتَ، ثم وليتَ فعدلتَ، ثم الشهادة، فقال عمر: يا ابن أخي، وددتُ أن ذلك كان كفافًا، لا لي ولا عليّ»(٢).

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٢٩٦).

(٢) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان لسبط ابن الجوزي (٥/ ٣٩٦).

ومما نظم الإمام الشافعي رحمه الله في باب الرغبة في عفو الله قوله[1]:

إليـــك إلـــه الخلــقِ أرفـــعُ رغبتـــي ... وإن كنـتُ يـا ذا المـنِّ والجـودِ مجرمـا

ولمـــا قســا قلبـــي وضـــاقتْ مـذاهبي ... جعلــتُ الرجـا منــي لعفــوك ســلما

تعـــاظَمني ذنبـــي فلمـــا قرنتُـــه ... بعفــوك ربــي كــان عفــوك أعظمــا

فمـا زلـتَ ذا عفـو عـن الـذنب لـم تـزل ... تجـــود وتعفـــو منـــة وتكرُّمـــا

فلـــولاك لـــم يصـــمد لإبلـــيس عابـد ... فكيــف وقــد أغــوىٰ صــفيَّك آدمــا

فيــا ليــت شــعري هــل أصــيرُ لجنــة ... أُهَنَّـــا؟ وإمـــا للســـعير فأنـــدما

---

(١) ديوان الإمام الشافعي (ص: ١٠٢).

٥٥٢

من خاف الله رُزِق المهابة

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «على قدر خوفك من الله يهابك الخلق، وعلى قدر حبك لله يحبك الخلق، وعلى قدر شغلك بالله يشتغل الخلق بأمرك»[(١)].

المعنى الإجمالي

إن الخوف من الله يقرِّب العبد من ربه، ويزيد في إيمانه وتقواه، فيورثه ذلك طمأنينة في القلب وعزة في النفس وثقة بحفظ الله ومعونته، وهو ما يعطيه ثباتًا وقوة في المواقف الشديدة التي تطلب جرأة وشجاعة؛ لأن من كان مع الله وفي طاعته فإن الله لن يتخلىٰ عنه، فالله لا يتخلىٰ عن أوليائه، ومن علم أن الله معه فكيف يخاف من غيره! ومن علم أن العباد كلهم في قبضة الله كيف يخشاهم!

ولذلك كان من وصية الحسن البصري لابن هبيرة عندما أرسل له يستشيره في أشياء يطلبها منه الخليفة يزيد وفيها ما تطمئن إليه نفسه، فقال له الحسن: يا ابن هبيرة، إن الله يمنعك من يزيد، وإنّ يزيد لا يمنعك من الله، يا ابن هبيرة، خف

(١) شعب الإيمان للبيهقي (١/٥٤١). وهذا الشرح يتعلق بما يخص الخوف والخشية، وأما شرح ما يتعلق بمحبة الله فقد مر في باب محبة الله والشوق إلىٰ لقائه، الحكمة رقم: (٤٩٦)، وشرح ما يتعلق بالاستغناء بالله سيأتي في باب الاعتزاز والاستغناء بالله عن الناس، الحكمة رقم: (٦١٩).

الله في يزيد ولا تخف يزيد في الله، يا ابن هبيرة، إنك إن تكن مع الله وفي طاعته يكفِك بائقة يزيد، وإن تكن مع يزيد في معصية الله فإن الله يَكِلُك إلىٰ يزيد(١).

ويتفاوت المؤمنون في خوفهم من الله وقربهم منه؛ فبقدر خوف العبد من ربه ﷻ يخافه العباد ويهابونه، ويظهر هذا في العلماء العاملين الصادعين بالحق، الذين لا يخافون في الله لائم، لما عظّموا الله وخافوه جعل الله لهم مهابة في قلوب المخلوقين، وكيف لا يكون لهم ذلك وقدوتهم في ذلك رسول الله ﷺ، وهو أتقىٰ العباد وأخشاهم له؛ ولذلك فقد أعطاه الله وفضله علىٰ غيره من النبيين بخمس خصال؛ فكان منها مهابة عدوه منه مسيرة شهر قبل قدومه إليهم؛ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمسًا لم يُعطَهُن أحدٌ قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليُصَلِّ، وأُحِلّت لي الغنائم ولم تُحَلّ لأحدٍ قبلي، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلىٰ قومه خاصة، وبعثت إلىٰ الناس عامة»(٢).

(١) ينظر: عيون الأخبار لابن قتيبة (٢/ ٣٧١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٧٤) برقم: (٣٣٥).

٥٥٣

طريق الجنة يمرّ على النار

قال الجنيد رحمه الله: «الجنة دار الأبرار، ولكنّ عبورهم على النار»[(١)].

المعنى الإجمالي

تؤكد الحكمة على معنى وردت فيه نصوص كثيرة في القرآن والسنة، ألا وهو أن الجنة دار الأبرار والمتقين؛ كما يصرح به الله تعالى قائلًا: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٢-٢٤]، ولكن الطريق إليها محفوف بالمخاطر ويكون بالعبور على النار ومقتضياتها، لأن الجنة محاطة بجميع أنواع الفتن والإغراءات التي توصل المرء إلى النار كما أخبر به ﷺ قائلا: «حُفّت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»[(٢)].

وأيضًا ينصب الجسر على متن جهنم ويؤمر الخلائق بعبوره، فمن عمل عملا صالحا يتجاوزها ويصل إلى الجنة وإلا يتساقط فيها كما ورد في حديث طويل ذكر فيه النبي ﷺ بعض أحوال يوم الحساب، وفيه: «ثم يضرب الجسر على جهنم، وتحلّ الشفاعة، ويقولون: اللهم سلِّم سلِّم، قيل: يا رسول الله، وما الجسر؟ قال: دحْضٌ مَزَلَّةٌ، فيه خَطاطيف وكلالِيب وحَسَكٌ، تكون بنجد فيها شويكة يقال لها:

---

(١) تهذيب خالصة الحقائق للفاريابي (٢/ ٨٤٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٧٤) برقم: (٢٨٢٢).

السعدان، فيمُرُّ المؤمنون كطرف العين، وكالبرق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل والركاب، فناجٍ مُسَلَّم، ومخْدوشٌ مُرْسَل، ومكدوسٌ في نار جهنم»[(١)].

وقال الإمام مسلم بعد روايته لحديثٍ فيه بيان أحوال يوم القيامة والجسر: «قال أبو سعيد: بلغني أن الجسر أدَقّ من الشعرة، وأحَدّ من السيف»[(٢)]، وإذا كان هذا صفة جسر جهنم فلا يعبره إلا من وفقه الله وعمل الصالحات في هذه الدنيا.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ١٢٩) برقم: (٧٤٣٩)؛ ومسلم في صحيحه (١/ ١١٤) برقم: (١٨٣)، واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ١٦٧) برقم: (١٨٣).

٥٥٤

الخوف طريق الوصول إلى الله

قال أبو عثمان الحيري رحمه الله: «الخوف من الله يوصلك إلى الله، والكِبْر والعُجْب في نفسك يقطعك عن الله، واحتقار الناس في نفسك مرضٌ لا يُداوَى»(١).

المعنى الإجمالي

إنَّ خوف العبد من الله من المنجيات التي تقربه من الله، وتجعله يفر إليه، وإذا خاف العبد من ربه بذل جهده ليقوم بالأعمال على أحسن وجه، ومع ذلك يخاف ألا يقبل الله منه، فيظل خائفًا ضارعًا إلى الله أن يتقبل منه، فيكون ذلك سببًا لوصوله إلى الله، ويكون من المسارعين في الخيرات، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

إنَّ مَنْ خاف الله وصل إليه، وأمَّنه الله يوم القيامة، فلا يجمع الله على عبده خوفين ولا أمنين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه جل وعلا، قال: «وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين، إذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة،

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ١٤١)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٢٤٥).

وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة»(١).

وإذا كان الخوف يوصل العبد بربه فإن الكبر والعجب يقطعه عنه، فالكبر سبب لمقت الله وغضبه؛ فقد ورد في الحديث القدسي: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النار»(٢).

والعجب آفة العقل فالمعجب ينظر إلىٰ نفسه نظرة رضا ورفعة، وينظر إلىٰ غيره نظرة احتقار وسخرية، فكم من عابد لله تعالىٰ، يقوم الليل قارئًا للقرآن، مستغفرًا بالأسحار، لكنه يُذهب عبادته بإعجابه بعمله، وانتقاصه لمن لم يُوَفَّقوا لمثل عمله، فيحبط أجر عمله بذلك، يقول مطرف بن عبد الله: «لأن أبيت نائمًا وأصبح نادمًا، أحبُّ إليَّ من أن أبيت قائمًا وأصبح معجبًا»(٣).

والعُجْب بالعمل له صورتان؛ **الأولىٰ**: أنْ ينظر العامل أنَّ عمله كثيرٌ وأجره كبير فيقف عن التزود بالطاعات والقربات. **والثانية**: أن ينظر إلىٰ عمل غيره ويقارنه بعمله فيرىٰ أنْ لا مجال للمقارنة بينهما؛ لاتساع الهوة بين المتقدم والمتأخر والمطيع والعاصي.

وإن لم ينتهِ المعجب عن إعجابه فيعالجه بردِّ كل النعم إلىٰ الله تعالىٰ ويشكر ربه عليها فإنَّ عجبه سيكون سببًا في قطعه عن الله وبعده عنه، وسلبه ما كان عليه من العبادة والهداية.

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٤٠٦) برقم: (٦٤٠)؛ والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٢٣) برقم: (٧٥٩). قال العراقي: رواه ابن حبان في صحيحه والبيهقي في الشعب، ورواه وابن أبي الدنيا من رواية الحسن مرسلًا. ينظر: تخريج أحاديث الإحياء (٥/ ٢٢١٦).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٥/ ٢١١) برقم: (٩٣٥٩)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٢٧٣) برقم: (٤١٧٥)؛ وأبو داود في سننه (٦/ ١٨٩) برقم: (٤٠٩٠).

(٣) الزهد والرقائق لابن المبارك (ص: ١٥١).

واحتقار الناس وازدراؤهم والانتقاص منهم يؤصِّل لداء الكبر في النفوس، والاحتقار مرضٌ قلبيٌّ يجعل صاحبه مبتلىٰ بالتعاظم علىٰ الآخرين، والنظر إليهم نظرة دونية بعيدة عن آداب المسلم؛ إذ إن المسلم خافضٌ جناحيه لإخوانه، وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يتحلىٰ بهذا الأدب فقال: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الحجر:٨٨]، فلا يشعرهم بأنه مميزٌ عليهم، وأن تميزه يجعله يتأفف من الجلوس معهم، فقد قال الرسول ﷺ عن نفسه: «آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد، فإنما أنا عبد»(١).

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٨/ ١١٦) برقم: (٥٥٧٢)؛ عبد الرزاق في مصنفه (١٠/ ٣٧) برقم: (١٩٦٢٠)؛ والبزار في مسنده (١٢/ ١٥٤) برقم: (٩٥٥١)؛ وأبو يعلىٰ في مسنده (٨/ ٣١٨) برقم: (٤٩٢١).

٥٥٥

الخوف الصادق في الورع

قال أبو عثمان الحيري رحمه الله: «صِدْقُ الخوف هو الورع عن الآثام ظاهرًا وباطنًا»(١).

المعنى الإجمـالي

للخوف ضابطٌ ومعيارٌ يبين من خلاله صدق الخوف من الله تعالىٰ من كذبه وادعائه، فالعبد الذي يكون صادق الخوف هو الذي لا يقتصر علىٰ ترك المحرمات الظاهرة، بل يتعداها إلىٰ اجتناب الشبهات خوفًا من الوقوع في الحرام، وهذه هي مرتبة الورع؛ إذ الورع يكون في ثلاثة أمور؛ الأول: ترك ما حاك في الصدر. والثاني: الوقوف عند كل شبهة إذا لم يتبين فيها الحلال من الحرام. والثالث: ترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس(٢).

فإذا صدق خوف العبد لا بد أن يصل إلىٰ مرتبة الورع بالابتعاد عن المحرمات ما ظهر منها وما بطن، وعن محقرات الذنوب، وقد أمر الله تعالىٰ عباده أن يذروا ظاهر الإثم وباطنه، فقال تعالىٰ: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام:١٢٠].

---

(١) الرسالة القشيري لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٥٤).

(٢) ينظر: المكاسب والورع والشبهة للحارث المحاسبي (ص: ٥٩).

٥٥٦

حقيقة الخوف

قال أبو عمرو الدمشقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حقيقة الخوف ألا تخاف مع الله أحدًا»(١).

المعنى الإجمـالي

قيل في حقيقة الخوف: «توَقُّع محذورٍ في المستقبل، أو ترَقُّب محبوبٍ يزول في المستأنف»(٢).

يعدُّ الخوف ظاهرةً طبيعية لدىٰ المخلوقات؛ فما من مخلوق إلا ولديه ما يخوفه، لكن المؤمن يزن خوفه فلا يجعل خوفه يطيش بحلمه ووقاره واتِّزانه، فإن خاف من شيء تذكَّر الله تعالىٰ وعلم أنه أحقُّ من يخاف منه، فكل شيء يقع في هذا الكون هو بعلم الله وبقدرته.

ولقد حضَّ الله المؤمنين علىٰ عدم الخوف من الكفار فقال: ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة:١٣]، ونهىٰ المؤمنين عن الخوف من أولياء الشيطان فقال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥].

---

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٢١٦).

(٢) لطائف الإشارات لعبد الكريم القشيري (٢/ ١٠٥).

وأخوف ما يخافه العباد هو خوفهم علىٰ أرزاقهم من منعها ومسكها، وعلىٰ آجالهم من انقضائها، لكن الأرزاق والآجال بيد الله؛ فهو مالك الأمر كله، وهو الذي كتب الأرزاق والآجال، وما دام أن الرزق والأجل مقدر مكتوب فإن الخوف من غير الله في هذين الأمرين يُعدُّ ضعفًا في الإيمان.

ومن علم أن الله تعالىٰ هو المعطي وهو المانع، ولا يكون كل شيء إلا بأمره فلماذا يخشىٰ غيره؟!

٥٥٧

الخوف يحرق الشهوات

قال إبراهيم بن شيبان رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن الخوف إذا سكن القلب أحرق مواضع الشهوات فيه، وطرد عنه رغبة الدنيا»[(١)].

المعنى الإجمالي

إن من أهم الوسائل لتزكية النفس هو تربيتها على الخوف من الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فإن الخوف إذا سكن في القلب صدّه عن الشهوات، فلا يمكن أن يتلذذ بشهوة محرمة، ولا تقمع الشهوة بشيء كما تقمع بنار الخوف، فالخوف هو النار المحرقة للشهوات، وهو الذي يدعو صاحبه إلى فعل الطاعات واجتناب المعاصي والمحرمات، فإذا هم بمعصية تذكر الله أو ذُكِّر فخاف وانتهى عن فعلها، قال هارون الرشيد: «ما رأت عيناي مثل الفضيل بن عياض، قال لي -وقد دخلت عليه-: يا أمير المؤمنين، فرّغ قلبك للحزن والخوف حتى يسكناه، فيقطعاك عن معاصي الله تعالى، ويباعداك من عذاب النار»[(٢)].

فالخوف من الله إذا سكن القلب لم يقع تحت أثر الشهوات؛ كما ورد في الحديث عن السبعة الذين يظلهم الله تعالى يوم لا ظل إلا ظله: «ورجلٌ دَعَتْه امرأةٌ

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٣٠٤)؛ شعب الإيمان للبيهقي (١/ ٥١٣).
(٢) شعب الإيمان للبيهقي (١/ ٥١٤).

ذات منْصِبٍ وجمال، فقال: إني أخاف الله»[١].

وعندما يستحضر المرء الآخرة في قلبه ويستشعر اقتراب أجله، لن يهتم للدنيا بما فيها؛ لأنه سيخشىٰ أن يُقابل ربَّه بقلب ملوث بالشهوات وحب الدنيا، ويعلم الخائف من الله تعالىٰ أنه من تعلق بالدنيا أضر بآخرته، فيبتعد عن شواغل الدنيا؛ حتىٰ لا يبقىٰ لديه همٌّ سوىٰ إرادة العمل للآخرة، والسعي والجد في العمل لها.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ١١١) برقم: (١٤٢٣).

٥٥٨

الخوف يحفظ اللسان

قال أبو علي الحسن بن أحمد[1] رَحِمَهُ اللهُ: «إذا سكن الخوف في القلب لم ينطق اللسان إلا بما يعنيه»[2].

المعنى الإجمالي

القلب الخائف من الله تعالىٰ يبقىٰ سليمًا مما يفسد عبوديته وصلته بالله تعالىٰ؛ لأنه يتأثر بكل ما تفعله الجوارح من أفعال مفسدة؛ فتؤذيه النظرة المحرمة وتدميه، ويؤلمه كثرة الكلام وفضوله فيما لا يعينه، فتكون القسوة مكان اللين، والقلق مكان الاطمئنان، والشتات مكان الاجتماع والائتلاف، والشر مكان الخير، والمنكر مكان المعروف، ولا علاج لكل ذلك إلا أن يكون همُّ العبد قول وفعل الخير الذي يوصله إلىٰ رضا خالقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إن الذي يسكن الخوف قلبه يكون حاجزًا ومانعًا له من كل ما يغضب الله ولا ينفعه في دينه ولا دنياه، فيكون شديد المراقبة لكل تصرفاته؛ صغيرها وكبيرها، ومن أكثر ما يهتم به هو حفظ لسانه، فإن اللسان يورد الإنسان المهالك، وقد أمر

(١) الحسن بن أحمد أبو علي المقرئ، المعروف بابن الكاتب، المصري، من كبار مشايخ مصر، له الكلام الحسن، صحب أبا علي الروذباري وأبا عثمان المغربي، توفي سنة ٣٤١هـ. ينظر: مرآة الزمان (١٧/ ٢٨٣)؛ البداية والنهاية (١٥/ ٢١٩).

(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٤٤٩).

النبي ﷺ معاذ بن جبل بحفظ لسانه، وبين له أن حفظ الله هو ملاك الأمر كله، فقال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» قلت: بلىٰ يا نبي الله، فأخذ بلسانه، قال: «كُفَّ عليك هذا»، فقلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟! فقال: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار علىٰ وجوههم أو علىٰ مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟»(١). وهذا يدل علىٰ أن كف اللسان وضبطه وحبسه هو أصل الخير كله، وأن من ملك لسانه، فقد ملك أمره وأحكمه وضبطه.

وفي الحديث: «لا يستقيم إيمان عبد حتىٰ يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتىٰ يستقيم لسانه»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٣٦٢) برقم: (٢٦١٦)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠/ ٣٤٣) برقم: (١٣٠٤٨). قال الهيثمي: في إسناده علي بن مسعدة وثقه جماعة، وضعفه آخرون. ينظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي (١/ ٥٣).

٥٥٩

من خاف بادر

قال أبو علي الدقاق رحمه الله: «الخوف ألّا تُعلل نفسك بعسى وسوف»[(١)].

المعنى الإجمالي

إيجاد المبررات للنفس لتستمر في طغيانها وعصيانها دون خوفٍ أو وجلٍ من الله تعالىٰ أمرٌ غير مقبول لدىٰ المسلم العاقل، فهو لا يُفرِّطُ بوقته وحياته في اللهو واللعب، بل يتذكر الله تعالىٰ، فيخشاه ويخافه، قال الله تعالىٰ: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥-٤٧].

فالمؤمن لا يأمن من مكر الله عز وجل، فالموت ليس له ميعاد، والخائف بحقٍّ هو الذي يبادر ولا يسوّف، قال ﷺ: «من خاف أدلج[(٢)]، ومن أدلج بلغ المنزل، ألَا إن سلعة الله غالية، ألَا إن سلعة الله الجنة»[(٣)].

---

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٥٢).

(٢) أدلج: أي سار أول الليل. ينظر: شمس العلوم ودواد كلام العرب من الكلوم نشوان الحميري (٤/ ٢١٤٧).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٤١) برقم: (٢٤٥٠)، وقال: حسن غريب.

عن معاوية بن قرة انّه جلس ورجل من التابعين يتذاكران، فقال أحدهما: إنّي لأرجو وأخاف، وقال الآخر: إنّه من رجا شيئًا طلبه، وإنّه من خاف من شيء هرب منه، وما حسب امرئ يرجو شيئًا لا يطلبه! وما حسب امرئ يرجو شيئا لا يهرب منه[١]!

وقيل: «ليس الخائف الذي يبكي ويمسح عينيه إنما الخائف من يترك ما يخاف أن يعذب عليه». وسئل ذو النون المصري رحمه الله: «متىٰ يتيسر علىٰ العبد سبيل الخوف؟ فقال: إذا أنزل نفسه منزلة السقيم يحتمي من كل شيء مخافة طول السقام». وقال أبو القاسم الحكيم: «من خاف من شيء هرب منه ومن خاف من الله عز وجل هرب إليه»[٢].

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٢/ ١٣).

(٢) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٥٣).

باب الرجــاء

٥٦٠

رجاء المؤمن وخوفه

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ألا لا يرجُوَنّ أحدٌ إلا ربه، ولا يخافَنّ إلا ذنبه»(١).

المعنى الإجمالي

الرجاء هو اسمٌ لقوة الطمع في الشيء، والخوف هو اسم لقوة الحذر من الشيء، ولذلك أقام الله تعالىٰ الطمع مقام الرجاء في التسمية، وأقام الحذر مقام الخوف، فقال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة:١٦]، وقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر:٩](٢).

الرجاء ينبغي أن يكون من الله وحده؛ فهو مالك الأشياء ومعطيها، فلا يُعلِّق العبد رجاءه بمخلوق ضعيف لجلب نفع أو دفع ضر، فقد يعطيه العباد شيئًا ويمنعون عنه أشياء، وقد يرفقون به مرة ويزجرونه في مواقف كثيرة، والمؤمن ينبغي أن يكون عزيز النفس، لا يربط حياته بالمخلوقين، بل بخالقه مالك الملك والملكوت.

---

(١) الأمالي لأبي عبد الله اليزيدي (ص: ١٤١)؛ أدب الدنيا والدين للماوردي (ص: ٧٤).
(٢) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ٣٥٩).

ولا ينبغي للمؤمن كذلك أن يخاف من أحد من المخلوقات؛ فلا يملك أحد لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، فيكف يملك ذلك لغيره! وإنما ينبغي أن يكون خوف العبد من ربه؛ قال تعالىٰ: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٧٥].

ومن خاف من ربه ابتعد عن المعاصي، فالمؤمن ينظر إلىٰ المعاصي -وإن دقَّت وصَغُرت- بأنها تقطع عليه اتصاله بالله، وتملأ قلبه وحشة وظلمة، ويراها كأنها جبل كبير يخشىٰ من سقوطه عليه.

٥٦١

كرامة الله للمؤمنين بعد الموت

قال الربيع بن أبي راشد[١] رَحِمَهُ اللَّهُ: «لولا ما يأمل المؤمنون من كرامة الله تعالى لهم بعد الموت لانْشَقَّت في الدنيا مرائرهم، ولتَقَطَّعت في الدنيا أجوافهم»[٢].

بيان المفردات

مرائرهم: المرارة من الأمعاء معروفة، والجمع المرائر[٣].

أجوافهم: جوف كل شيء: باطنه، وجمعه: أجواف[٤].

المعنى الإجمالي

أملُ المؤمن بربه عظيم، وركونه إلىٰ لطفه ورحمته متمكنٌ في حاله مع الله؛

(١) الربيع بن أبي راشد، أبو عبد الله، الكوفي، الزاهد، العابد، أخو جامعٍ، كان قانتا خاشعا ذاكرا للآخرة، روىٰ عنه الثوري وغيره، توفي سنة ١٣١هـ. ينظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٣/ ٦٤٧)؛ الكنىٰ والأسماء لمسلم (١/ ٤٨١)؛ مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (١١/ ١٤٣).

(٢) الفوائد والزهد والرقائق والمراثي لجعفر بن محمد الخلدي (ص: ٤١)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ٧٦).

(٣) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للفيومي (٢/ ٥٦٨).

(٤) جمهرة اللغة لابن دريد (٢/ ١٠٤٣).

فلا ييأس المؤمن من روح الله، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف:٨٧]، ولا يقنط من رحمته إلا الضالون، قال تعالىٰ: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر:٥٦].

والمؤمنون موقنون بالقيامة والبعث، وما يكون فيها من أهوال تشيب لها الولدان، ولكنهم يأملون ويرجون رحمة الله في تلك المواقف، فقد جاء في وصف تلك المواقف كما أخبرنا الله في القرآن وعلىٰ لسان نبيه ﷺ ما لا يمكن أن يُتخيّل من الأهوال، حين تدنو الشمس من رؤوس الخلائق قدر ميل، وما يصيب الناس من العرق والعطش والفزع، والصراط المضروب علىٰ متن جهنم، والمجيء بالنار يجرها سبعون ألف ملك، وما جاء في وصفها حين ترىٰ الكفار، كما قال الله: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ [الفرقان: ١٢-١٣]، وكل موقف من تلك المواقف هول من الأهوال لا يعلمه إلا الله تعالىٰ.

لكن المؤمنين يأملون عفوا الله ورحمته لهم في تلك المواقف، كما قال الله: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ [الفرقان:٢٤]، وما ورد من أخبار في كرامة الله للمتقين، كما في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله(١)، وما ورد أن سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب من أمة النبي ﷺ(٢)، ولولا ذلك لما هنأ بالعيش علىٰ الأرض مؤمن، ولما استساغ شرب الماء العذب منهم أحد، ولَتقَطَّعت أجوافهم خوفًا من الله العزيز الجبار.

---

(١) حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٣٣) برقم: (٦٦٠).

(٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ١٣٤) برقم: (٥٧٥٢).

٥٦٢

كريم رغم ذنوبنا

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كيف أمتنع بالذنب من رجائك، ولا أراك تمتنع للذنب من عطائك!»[١].

المعنى الإجمالي

إن العبد لا ينبغي له أن يمتنع من الرجاء في مغفرة الله ولا ييأس من رحمة الله بسبب ذنب أصابه، فكما أنه لا ينسىٰ أن ربَّه عزيز جبَّار، كذلك لا يخفىٰ عليه أنه رحيم غفار، ورحمته وسعت كلَّ شيء، ودليل ذلك استمرار عطاء الله لعباده المذنبين، كما ذكره يحيىٰ بن معاذ، فقال: كيف أمتنع عن رجاء الله تعالىٰ، وكيف أقطع الأمل في المغفرة بسبب ذنب اقترفته، وأنا أرىٰ اللهَ لا يمتنع عن إنعامه علي ورحمته بي، ويعطيني الفرصةَ والمهلةَ من أجل التوبة والاستغفار والعودة إليه.

وموضوع الحكمة: عدم القنوط من رحمة الله وإن كثرت ذنوب العبد، كما قال الله تعالىٰ علىٰ لسان سيدنا يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف:٨٧]، فالمؤمن لا يعرف اليأس، وقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما نقله عن ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: «قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: يا ابن آدم! إنك ما دعوتَني ورجوتَني غفرتُ لك

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني (١٠/ ٣٩).

علىٰ ما كان فيك ولا أُبالي. يا ابن آدم! لو بلغتْ ذنوبُك عنانَ السماء، ثم استغفرتَني، غفرتُ لك ولا أُبالي، يا ابن آدم! إنك لو أتيتَني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتَني لا تُشرك بي شيئا، لأتيتُك بقرابها مغفرةً»(١).

ولا يعني هذا أن الله تعالىٰ إذا لم يقطع نعمَه عن عبده المذنب المصرِّ علىٰ الشهوات كونَه محظوظًا عنده، بل يمكن أن يكون استدراجا من ربه، قد أَخَّر أمرَه لعله يتوب.

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٥٠٩) برقم: (٣٥٤٠)، وقال: حديث حسن غريب.

باب التوازن بين الخوف والرجاء

٥٦٣

المخافة قبل الرجاء

قال مَرِيج بن مسروق[(١)] رحمه الله: «يا بني، المخافة قبل الرجاء؛ فإن الله عز وجل خلق جنة ونارًا، فلن تخوضوا إلى الجنة حتى تمروا على النار»[(٢)].

المعنى الإجمالي

تغليب الخوف على الرجاء أصل لدى العبد؛ لأنه إن غلَّب الرجاء على الخوف تساهل في المعاصي، وأوقع نفسه فيها دون محاسبة لها، أو توبة تستلزم الندم والعزم على عدم الرجوع إليها، وفرّط في أداء الطاعات، وقام بها متكاسلًا، يريد إسقاط ما عليه من واجب دون مراعاة لمعاني العبادة.

وأما إن غلَّب الخوف على الرجاء فإن ذلك يدفعه إلى الهمة في العبادة والطاعة، وإلى السعي لبلوغ الكمالات.

(١) مَرِيج بن مسروق، أبو الحسن، الهَوْزَني، ذكره المزي ضمن شيوخ عبد الله بن رجاء الشيباني، وقال في كنيته: أبو عبد الله، يروي أحيانا عن الصحابة، وأحيانا عن التابعين، من رجالات القرن الأول أو الثاني الهجري غالبا. أهملت المصادر ترجمته وتاريخ وفاته. ينظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ١٥٥)؛ تهذيب الكمال (١٤/ ٥٠٤).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ١٥٥)؛ والزمخشري نسب هذا القول إلى مسروق، ينظر: ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (٤/ ١٦٣).

ولا ينبغي للعبد أن يرجو عفو الله ومغفرته دون فعل الطاعات المأمور بها، ولا أن يُغلِّب رجاءه علىٰ خوفه؛ لأنه لا يدري عن مصيره شيئًا، ولا مع أي الفريقين يكون، أفي الجنة أم في السعير، وأن مصيره لا يتحدد إلا بعد تجاوزه للصراط المستقيم؛ فقد خلق الله الجنة والنار، وجعل جسرًا منصوبًا علىٰ جهنم، لا بد لكل الناس المؤمنين والكافرين أن يجتازوا هذا الجسر، فيعبر منه المؤمنون إلىٰ الجنة، وأما الكفار فيسقطون في النار، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٧١-٧٢].

٥٦٤

استواء الخوف والرجاء عند المؤمن

قال مطر الوراق[١] رحمه الله: «لو وُزِن خوف المؤمن ورجاؤه بميزان التربُّص لم يوجد أحدهما يزيد على صاحبه شيئًا»[٢].

بيان المفردات

التربص: هو الانتظار[٣].

المعنى الإجمالي

الخوف والرجاء جناحا طائر يطير بهما المؤمن عند سيره إلىٰ الله تعالىٰ؛ فهو لا يجعل جناحًا منهما يتغلب علىٰ الآخر، بل يتوازن فيهما عند السير؛ لأنَّ ترك التوازن يثقله ويسقطه.

---

(١) مطر بن طهمان، أبو رجاء، الخراساني، الوراق، ثم البصري، الإمام الزاهد، مولىٰ علباء بن أحمد اليشكري، كان من العلماء العاملين، وكان يكتب المصاحف ويتقن ذلك، روىٰ عن أنس وجماعة التابعين، توفي سنة ١٢٩هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٥/ ٤٥٢)؛ الكامل لابن عدي (٨/ ١٣٣).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٧٦).

(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٣/ ١٠٤١).

فالمؤمن بخوفه من الله تعالىٰ ورجائه له لا يفاضل بينهما؛ لعلمه أن أي قصور في أحدهما علىٰ حساب الآخر قد يؤدي إلىٰ توقفه عن العمل إن زاد رجاؤه، أو يقنط من رحمة ربه إن غلب عليه الخوف.

لقد قَرَن الله بين دعائه رغبًا ورهبًا، وخوفًا وطمعًا؛ لأن الداعي يدعو ربه في الحالين، ويرجو إجابة دعائه في الحالين، فقال تعالىٰ حاكيًا حال زكريا وأهله وولده: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩٠]، وقال سبحانه عن المؤمنين: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة:١٦].

٥٦٥

أثر الخوف والرجاء

قال ذو النون المصري رحمه الله: «الخوف رقيبُ العمل، والرجاء شفيع المحن»(١).

المعنى الإجمـالي

الخوفُ يبعث علىٰ تحسين العمل وإتقانه والاستمرار فيه، والخوف من عدم قبوله، ومن اطلاع الله علىٰ العبد وهو في حال غير مُرْضية، والأمن وعدم الخوف يؤدي إلىٰ الإهمال والتقصير وعدم الإتقان، فمن أمِن العقوبة أساء الأدب، والمؤمن يستشعر رقابة الله عليه في كل تصرف، فمن تذكر ذلك عند قيامه بأي عمل كان دافعًا له إلىٰ الإحسان والإتقان، وهذا ثمرة خوف الله وخشيته، فهو العالم بكل صغيرة وكبيرة، ولا يخفىٰ عليه شيء، قال تعالىٰ: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء:١٠٨].

والرجاء يستحضره العبد عند بلائه ومحنه، فيعلم بأن الله لن يتركه يصارع المصائب وحده، دون أن يتفضل عليه بالإيمان، والثبات، والصبر؛ فكم من مصيبة

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٣٣).

ظن العبد أنها قاصمة ظهره، فيتمثل له رجاؤه بربه وحسن ظنه به، فيلتجئ إليه ويظهر ضعفه وافتقاره له، فيجعل الله له من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ومن كل بلاء عافية. وقصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلىٰ غار، فانحدرت عليهم الصخرة وسدَّت عليهم باب الغار، فلم ينكشف عنهم البلاء إلا برجائهم ودعائهم لله بصالح أعمالهم التي عملوها(١).

(١) حديث الثلاثة أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٩١) برقم: (٢٢٧٢).

٥٦٦

الرحمة تغلب الغضب

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «يُستقى الخوف من بحر عدلِه، ويُستقى الرجاء من بحر فضله، وقد سبق القضاء أن رحمته سبقت غضبه»[(١)].

المعنى الإجمالي

الخوف والرجاء مثل جناحي الطائر لا يمكن للمؤمن أن ينفك عن واحد منهما، وفي القرآن جاء التبشير والإنذار في السياق نفسه في مواضع كثيرة، قال تعالىٰ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠]، وقال تعالىٰ عن صفة المؤمنين: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة:١٦].

والدافع إلىٰ خوف المؤمن هو إيمانه بأن الله ﷻ هو العدْل، والعدل يقتضي أن يحاسَب الإنسانُ علىٰ أعماله التي عملها من خير أو شر، والإنسان حين يفكر في نفسه وفي أعماله يعرف أنه سيحاسب علىٰ أعماله وسيُسأل عن سيئاته، ويخاف أنْ يكون من الخاسرين بسبب هذه السيئات، فالمؤمن يستقي هذا الخوف من بحرِ عدْل الله سبحانه، فالعدل يقتضي عدم المساواة بين العمل الصالح والعمل السيء، والإنسان لا يخلو عن السيئات وهذه السيئات قد توديه المهالك، إذن فالعدل يقتضي

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٢٨٦).

الخوف، قال تعالىٰ: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[القلم: ٣٥-٣٦].

والدافع إلىٰ الرجاء هو معرفة كرم الله تعالىٰ وفضله الواسع، ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الجمعة:٤]، فالله سبحانه هو المنعم علىٰ الإنسان بكل أنواع النعم، قال تعالىٰ: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم:٣٤]، وفضل الله سبحانه شامل للدنيا والآخرة، فالله الذي أنعم علىٰ عباده في الدنيا بكل هذه النعم يرجو منه العباد في الآخرة أن يغفر لهم ويعفو عنهم، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر:٥٣].

فالمسلم يعيش بالخوف والرجاء معا، لكن جانب الرجاء غالب علىٰ الخوف، لأن رحمة الله سبقت غضبه، قال رسول الله ﷺ: «لما قضىٰ الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي»(١)، وفي سبْق الرحمة إشارة إلىٰ أن قِسْط الخلق منها أكثر من قسطهم من الغضب، وأنها تنالهم من غير استحقاق وأن الغضب لا ينالهم إلا باستحقاق، فالرحمة تشمل الشخص جنينا ورضيعا وفطيما وناشئا قبل أن يصدر منه شيء من الطاعة، ولا يلحقه الغضب إلا بعد أن يصدر عنه من الذنوب ما يستحق معه ذلك(٢).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ١٢٥) برقم: (٧٤٢٢)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٩٥) برقم: (٢٧٥١).
(٢) فتح الباري لابن حجر (٦/ ٣٣٧).

٥٦٧

الرجاء يجلب الطاعة، والخوف يمنع المعصية

قال عبد الله بن خبيق الأنطاكي ﷺ: «من اشتَدَّ رجاؤه اشتَدَّ طلبُه، ومن اشتَدَّ خوفُه اشتَدَّ هربُه، ومن حَسُن ظنُّه حَسُن عملُه»(١).

المعنى الإجمـالي

المعاني التي في قلب الإنسان تنعكس على أعماله وتصرفاته، وبحسب قوة هذه المعاني يُكثر من عملٍ ما تقتضيه، وبحسب ضعف هذه المعاني تقلّ منه تلك الأعمال، فمثلا إذا أحب الإنسان شخصا فإن هذا الحب يدفعه إلى عمل ما يوصله إلى محبوبه، وكلما زاد هذا الحب زاد سعيه نحوه.

كذلك الحال بالنسبة للرجاء في قلب المؤمن، كلما ازداد رجاؤه وطمعه في رحمة الله ازداد عمله وسعيه، فهو يطمع في أن يدخل الجنة فيعمل ما يُدخله الجنة، وهو يرجو أن ترتفع درجته فيكثر من العمل الصالح والنوافل، ويرجو أن يكون مع أهل الجنة فيتخلق بأخلاقهم ويعمل مثل عملهم حتى يلحق بهم، فالرجاء يدفع المسلم نحو العمل الصالح، قال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف:١١٠].

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٢٩٩).

وكذلك الأمر فيمن خاف من غضب الله ﷻ وعقابه، فإنه يتجنب الأعمال التي تؤدي إلىٰ ذلك ويهرب منها، فمن عرف شدة العذاب شعر بالخوف كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ [الإنسان:١٠]، وخوف العذاب يدفع إلىٰ الهروب من المعصية كما قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأنعام:١٥].

وكذلك حسْن الظنّ بالله يدفع صاحبه إلىٰ تحسين عمله، لأن المؤمن يرجو من الله أن يتقبل منه صالح عمله ويثيبه عليه، لذلك فإن حسن الظن يقتضي العمل الصالح، أما إذا ادعىٰ شخص أنه يحسن الظن بالله وهو يسيء العمل فهذا من الغرور والجهل، روي عن الحسن البصري ؒ: «إن قومًا ألهتهم أمانيّ المغفرة حتىٰ خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، وقالوا: نحسن الظنّ بالله، وكذبوا، لو أحسنوا الظنّ بالله لأحسنوا العمل له»[1].

(١) ينظر: تفسير الكشاف للزمخشري (١/ ٥٦٧)؛ الجواب الكافي لابن القيم (ص: ١٥).

٥٦٨

الخوف والرجاء عاصمان من سوء الأدب

قال أبو بكر الواسطي[١] ﵀: «الخوف والرجاء زمامان يمنعان من سوء الأدب»[٢].

المعنى الإجمالي

إن العبد المؤمن حين يجعل الخوف والرجاء مَطِيَّتين وجناحين يطير بهما إلى الله تعالى، وطرفا قيد يقودانه إليه تعالى، فإن ذلك يجعله يصل إلى الاعتراف الكامل بنعم الله عليه، وتقديره حق قدره، فيكون الرجاء والخوف سببان في تعظيم العبد لربه، فلا يسيء أدبه مع الله فيغفل عنه، أو لا يذكره إلا في ساعات الشدة والبأس، وينساه في ساعات الخير والنعمة، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت:٤٩].

فمن خاف ربه حمله الخوف على تعظيم الله وإجلاله، وهذا من حسن الأدب معه، وأما حسن أدبه بالرجاء؛ فذلك لأن الرجاء يأتي من معرفته برحمة الله وإحسانه

(١) أبو بكر محمد بن موسى، المعروف بابن الفرغاني، من قدماء أصحاب الجنيد وأبي الحسين النوري، من مشايخ التصوف وعلمائهم، أصله من فرغانة، دخل خراسان واستوطن كورة مرو ومات بها في حدود سنة ٣٢٠هـ. ينظر: طبقات الصوفية للسلمي (ص٢٣٢).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٢٣٣).

وعظيم كرمه، والإحسان لا ينبغي أن يُقابل إلا بمثله، فيحمله الرجاء على أن تزيد محبته له.

ومن الآيات التي تحمل العبد على تعظيم الله ومعرفة قدره قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر:٦٧]، فمثل هذه الآيات التي تُعرِّف العبد بعظمة خالقه تدفعه إلى الخوف منه، فلا يسيء أدبه معه.

٥٦٩

التوازن بين الخوف والرجاء

قال أبو عثمان المغربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من حمل نفسه على الرجاء تعطَّل، ومن حمل نفسه على الخوف قنط، ولكن ساعة وساعة، ومرَّةٌ ومَرَّة»(١).

بيـان المفردات

تعطل: إذا تُرك الثغر بلا حام يحميه فقد عُطِّل، وبئر مُعَطَّلة: لا يُستقىٰ منها ولا ينتفع بمائها(٢)، ومعنىٰ قوله هنا: تعطل؛ أي: توقف عن العمل.

قنط: يئِس، والقنوط: اليأس(٣).

المعنى الإجمـالي

لقد مدح الله عباده الجامعين بين الخوف والرجاء فقال: ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [الزمر:٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة:١٦].

---

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٣٦١).

(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ١٨١).

(٣) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفاني (ص: ٦٨٥).

يتميز العبد المؤمن عن غيره بتوازنه في خوفه من الله ورجائه منه؛ فلا يبدِّدُ الخوفُ أملَه بالله تعالىٰ وثقته بوعده وجزائه فيقنط وييأس من رحمة الله، ولا يزيد رجاؤه بحيث يأمن من مكره؛ فإن من حمل نفسه علىٰ الرجاء دون خوف تعطَّل وتوقف عن العمل؛ لأنه غلَّب جانب الرجاء والرحمة، فيرىٰ أن رحمة الله تدركه حتىٰ مع المعاصي، وهذا فيه خطر كبير؛ فإن المعاصي بريد الكفر، ومن زاد غيّه ومعاصيه أوشك أن يُغلق قلبه فلا ينتفع بموعظة. وكذلك من زاد خوفه وغلب عليه يأس وقنط من رحمة الله. وكلاهما فيه خطر، إنما التوازن هو في مواصلة السير إلىٰ الله بجناحي الخوف والرجاء.

قال أبو جعفر الطحاوي ﵀ عن كيفية التوازن بين الخوف والرجاء: «يجب أن يكون العبد خائفًا راجيًا؛ فإن الخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله، فإذا تجاوز ذلك خِيف منه اليأس والقنوط. والرجاء المحمود: رجاء رجلٍ عمل بطاعة الله علىٰ نور من الله، فهو راج لثوابه، أو رجل أذنب ذنبًا ثم تاب منه إلىٰ الله، فهو راج لمغفرته... فالرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمنًا، والخوف يستلزم الرجاء، ولولا ذلك لكان قنوطًا ويأسًا. وكل أحد إذا خفته هربت منه، إلا الله تعالىٰ، فإنك إذا خفته هربت إليه، فالخائف هارب من ربه إلىٰ ربه»[1].

(١) شرح العقيدة الطحاوية (٢/ ٤٥٦-٤٥٧).

٥٧٠

الوصول إلى الرجاء والخوف

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «إذا أردتَ أن يفتَحَ لك بابَ الرجاء فاشهدْ ما منه إليك، وإذا أردتَ أن يفتح لك بابَ الخوف فاشهدْ ما منك إليه»[(١)].

المعنى الإجمالي

إذا أردتَ أن يفتح لك باب الرجاء حتىٰ ترجو رحمته، فاستحضِرْ بقلبِك ما هو واصلٌ منه تعالىٰ إليك من الفضل والكرم ومزيد الإحسان الذي لا تُحصيه. وإذا أردت أن يفتح لك باب الخوف، فاستحضر ما هو واصل منك إليه من عظيم المخالفات وارتكاب السيئات. فإذا غلب علىٰ الإنسان هذا الحال، اشتدَّ به الحزن وبادر بصالح الأعمال. فالرجاء والخوف حالان ناشئان عن هاتين المشاهدتين[(٢)].

قال الله تعالىٰ عند ذكر إنعامه علىٰ عباده: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم:٣٤]. وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء:٧٠]. فهذا من الله تعالىٰ إلىٰ عباده.

---

(١) الحكم العطائية (ص: ٤٨).

(٢) شرح الحكم العطائية للشرنوبي (ص: ١١٢).

لكن لو توجَّه الإنسان ليرىٰ ما يَفِد منه إلىٰ الله تعالىٰ وتأمل مليًّا فسوف يجد ما يخجل. لقد أخبر الله تعالىٰ عن تكريمه للإنسان عندما أسجد له -في شخص أبيه آدم عليه السلام- الملائكةَ الكرامَ، وأنه تعالىٰ طرد إبليس من الجنة؛ لأنه عصاه فلم يسجد للإنسان، ثم بعد هذا كله يعصي الإنسانُ ربَّه ويطيع للشيطان؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف:٥٠](١).

وأخبر الله سبحانه عن عظيم فضله علىٰ عباده إذ أخَّرهم للتوبة والرجوع إليه، ولو عاقبهم فور عصيانهم ما سلم من نقمته أحد. قال تعالىٰ: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾ [الكهف:٥٨]. وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ [فاطر:٤٥].

(١) الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٤/ ٥٥).

٥٧١

فضل الله وعدله

قال ابن عطاء الله السكندري ﵀: «لا صغيرةَ إذا قابَلَك عدلُه، ولا كبيرةَ إذا واجَهَك فضلُه»(١).

المعنى الإجمالي

يقسم العلماء المعاصيَ إلىٰ كبائر وصغائر. وأساس ذلك قول الله تعالىٰ: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء:٣١]. والكبيرة: هي ما جاء فيه وعيدٌ من الله بعذاب في الآخرة، أو أُنِيطت به عقوبةٌ في الدنيا، كالحد ونحوه. والصغيرة بخلاف ذلك. وهذا كله بالنظر إلىٰ ظاهر الأمر، وأما باعتبار ما عند الله تعالىٰ، وبالنظر إلىٰ حلمه أو عدله فقد يظهر خلاف ذلك(٢).

والمعاصي كلها، من حيث هي: خروجٌ عن طاعة الله تعالىٰ، علىٰ درجةٍ واحدةٍ في السوء وتعريض صاحبِها لعقاب الله سبحانه، لكن الله -تفضُّلًا منه وإحسانًا- جعل مناط الإثم في المعاصي ما يتسبب عنها من الفساد، ولما كانت درجة الفساد في الصغائر والكبائر متفاوتةً استتبع ذلك تفاوتها في الإثم الذي يتسبب عنهما،

(١) الحكم العطائية (ص: ١٢).
(٢) ينظر: إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ١٤٤)؛ والحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٢/ ٢٢٣).

وانقسامها إلىٰ كبائر وصغائر.

فمعنىٰ الحكمة في ضوء ما تقدم: أن الله تعالىٰ إن أراد أن يُحاسِب عبادَه طبقًا لما يقتضيه ميزانُ العدالة الذي يُبرِز حقوقَ الربِّ ﷻ علىٰ عباده فسوف تكون المعاصي كلها في درجة واحدة: من الكبائر الموبقة، وأما إن أراد سبحانه أن يحاسبهم طبقًا لِما يقتضيه فضلُه وإحسانُه وكرمُه، فسوف تضؤل المعاصي كلها ويهون خطبُها، حتىٰ لا يبقىٰ فيها ما يجدر أن يُسمىٰ كبيرةً(١).

أما دليل الجزء الأول من الحكمة، فقوله سبحانه: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ۝٤٧ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الزمر: ٤٧-٤٨]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [فاطر:٤٥].

وأما الجزء الثاني، فيقول تعالىٰ: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان:٧٠].

وقال عبد الله بن مسعود ﵁: «إنَّ المؤمنَ يرىٰ ذنوبَه كأنه قاعدٌ تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر ليرىٰ ذنوبه كذُبابٍ مَرَّ علىٰ أنفِهِ قال له هكذا»(٢).

(١) الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٢/ ٢٢٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٦٣٠٨)؛ ومسلم في صحيحه برقم: (٢٧٤٤).

باب الصبر

٥٧٢

الصبر منجاة

قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الصبر مطيَّةٌ لا تكبو»(١).

بيان المفردات

مطيَّة: الراحلة، وجمعها: المطي، أي: الرواحل؛ لأنها يركب مطاها؛ أي ظهرها.(٢)

تكبو: كبا يكبو: إذا انكبّ علىٰ وَجهه، يقال ذلك لكل ذِي روح. وكبا لوجهه: إذا سقط(٣).

المعنى الإجمالي

إن من حسن التوفيق وأمارات السعادة الصبر علىٰ الملمات، والرفق عند النوازل، فهو ستر من الكروب وعون علىٰ الخطوب، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الصبر ضياء»(٤). وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أفضل العدة الصبر علىٰ الشدة»(٥). وقال بعض الحكماء:

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي (٢٨٧).
(٢) شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم لنشوان الحميري (٩/ ٦٣٢٦).
(٣) العين للخليل بن أحمد (٥/ ٤١٦)؛ معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ١٥٥).
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ١٤٠) برقم: (٢٢٣).
(٥) أدب الدنيا والدين للماوردي (ص: ٢٨٧).

«بالصبر علىٰ مواقع الكره تدرك الحظوظ»[١].

صــبِّر الــنَّفس عنْــد كــلِّ مُلِــمٍّ إنَّ فِــي الصَّــبْر راحــةَ الْمُحتــال
ربّمــا تجــزع النُّفُــوس مــن الأمــر لــه فُرجــةٌ كحَــلِّ العِقــال[٢].

إن الصبر علىٰ البلايا والمصائب تعقبه الراحة منها، ويكسبه المثوبة عنها إن صبر طائعًا، وإلا احتمل همًّا لازمًا، وصبر كارهًا آثمًا، قال علي رضي الله عنه: «إنك إن صبرت جرىٰ عليك القلم وأنت مأجور، وإن جزعت جرىٰ عليك القلم وأنت مأزور»[٣].

إن الصبر للمؤمن سلاح لا ينبو، وسهم لا يرتد، وفعل لا يسقط صاحبه في مهاوي الندم والحسرة؛ فهو مطية تنجي صاحبها من غفلة العقل، وضعف الفكر، وزلة اللسان وهفوته، فكم من صابر رأىٰ بعين بصيرته وبصره أن عاقبة الصبر محمودة، وأن تجاهله يوقع العبد في الرَّدىٰ والندم.

(١) المصدر السابق.
(٢) البيت لأعرابي. ينظر: الفرج بعد الشدة للتنوخي (٤/ ٦٩).
(٣) أدب الدنيا والدين للماوردي (ص: ٢٨٨).

٥٧٣

منزلة الصبر

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد»(١).

المعنى الإجمالي

لأهمية الصبر فقد ذكره الله في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، وجاء به بعد ذكر نداء المؤمنين بنداء الإيمان؛ وما ذاك إلا لمنزلة الصبر من الإيمان، فالمؤمن بدون صبرٍ يعد إيمانه ناقصًا، بل لا يثبت عند الشدائد إلا المؤمنون الصابرون، ومن المواطن التي اقترن بها الإيمان بالصبر أن الله تعالىٰ جعله مما يستعان به، فقال تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٣]، وهذا يدل علىٰ مكانة الصبر من الإيمان، ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: «الصبر نصف الإيمان»(٢). وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر»(٣).

وكل العباد في خسارة إلا من جمع بين الإيمان والعمل الصالح والتواصي

(١) الزهد لوكيع بن الجراح (ص: ٤٥٠)؛ المصنف لابن أبي شيبة (١٧/ ٥٨).
(٢) الزهد لوكيع بن الجراح (ص: ٤٥٦).
(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم (١/ ٢١٦).

الحق والتواصي بالصبر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣].

وقد جعل الله الإمامة في الدين موروثة عن الصبر واليقين، فقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤].

٥٧٤

من آثار الشكوى لغير الله

قال شقيق البلْخي رحمه الله: «من شكا مصيبةً نزلت به إلى غير الله لم يجد في قلبه حلاوة لطاعة الله أبدًا»(١).

المعنى الإجمالي

يعلم العباد كلهم مسلمهم وكافرهم أن المنَجِّي لهم عند اشتداد الظُّلَمِ، وارتفاع الأمواج، وانكسار ألواح الفلك، هو الله تعالىٰ وحده، فلا يلجؤون إلىٰ أحد سواه، ولا يَشْكُون حالهم، ويبثون نجواهم إلا إليه عز وجل.

لكنَّ شكوىٰ العبد مصائبه إلىٰ الناس ذلةٌ له ومهانةٌ؛ إذ يجدُ أنه بعد شكواه لم يتغير من حاله شيء، سوىٰ ضعف إيمانه بالله، وقلة يقينه به، وإخراج ما كان مكنونًا في صدره من أسرارٍ إلىٰ البشر، الذين يعجبهم التفكُّه بسماع أسرار العباد وحاجاتهم، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء المعونة لمن نزلت به المصيبة.

إن العبد ليجد حلاوة الطاعة بحلاوة المناجاة لربه؛ وذلك حين يبث همومه وآماله وآلامه بين يدي ربه تبارك وتعالى؛ فهو جل جلاله القادر علىٰ كشف الضر عن عباده، يقول تعالىٰ: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام:١٧].

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٧/ ٢١٩).

لكن من يكثر من شكاية مصائبه للناس؛ فيشكو فقره وحاجته، وقلة حيلته وعدم معرفته بتصريف حياته وأموره فإنه لن يجد للإيمان طعمًا، ولا للطاعات حلاوة؛ ولا يرىٰ لحاجته قضاءً؛ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من نزلت به فاقةٌ فأنزلها بالناس لم تُسَدّ فاقته، ومن أنزلها بالله أوشك الله أن يأتيه بالغنىٰ، إما غنىً آجل، وإما غنىً عاجل»(١).

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٤١٥) برقم: (٣٨٦٩)؛ وأبي داود في سننه (٣/ ٨٥) برقم: (١٦٤٥)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ١٥٤) برقم: (٢٣٢٦)، وقال: حسن صحيح غريب.

٥٧٥

الجزع يحول المصيبة إلى الدين

قال منصور بن عمار رحمه الله: «من جَزِع من مصائب الدنيا تحولت مصيبته في دينه»[١].

بيان المفردات

جَزِع: الجَزَعُ بالتحريك: نقيض الصَّبر[٢].

المعنى الإجمالي

قلة صبر العبد وتحمله لما نزل به من مصائب الدنيا يدل على ضعف في زاده الإيماني؛ فالله تبارك وتعالى لم يقدر المصائب على عباده إلا وهو يعلم أنهم قادرون على تحملها، فلا يُحَمِّلهم ما لا طاقة لهم به.

وإن الفرق بين المسلم وغيره أن المسلم يستعين بالله تعالى في مصيبته ليعينه على تحملها، ويُثَبِّته حتى لا يطيش قلبه، ويزداد فزعه، ويختلط عليه أمره، فيجعل الله صبر عبده واستعانته به رحمة، ويكون من المهتدين، قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ١١٦).

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٣/ ١١٩٦).

ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

إن الجزع هو ردٌّ لقضاء الله وعدم الرضا به، وهذا أمر خطير على إيمان العبد، فإن الله ﷻ بيّن أنه لا يمكن لمؤمن ولا مؤمنة أن يرد أمر الله ولا يقبله، وإلا فإن في ذلك تأثير على إيمانهم ويقينهم بالله، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴾ [الأحزاب:٣٦].

لقد كان من دعاء النبي ﷺ ألا يجعل الله مصيبته في دينه، ففي الحديث عن ابن عمر قال: قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه، ومن تلك الدعوات قوله: «ولا تجعل مصيبتنا في ديننا»(١)؛ لأن مصيبة الدنيا تهون مع التحمل والصبر واحتساب الأجر والثواب من الله تعالى، لكن إن أصيب العبد بمصيبة في دينه فإنه لن يحول بينه وبينها أحدٌ سوى الله تعالى.

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/٤٨١) برقم: (٣٥٠٢)، وقال: حسن غريب؛ والحاكم في مستدركه (١/ ٥٢٨) برقم: (١٩٤٠)؛ والنسائي في الكبرى (٩/ ١٥٤) برقم: (١٠١٦١).

٥٧٦

الصبر الجميل

قال بشر بن الحارث الحافي رحمه الله: «الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه إلى الناس»(١).

المعنى الإجمالي

الصبر الجميل هو الذي لا يشكو فيه العبد لأحد من العباد؛ لأنه إن شكا فإنه يشكو الخالق إلىٰ المخلوق، والرب إلىٰ العبد، ومن بيده ملكوت السماوات والأرض إلىٰ من لا يملك لنفسه ضرًّا، ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، يشكو من يرحم إلىٰ من لا يرحم، يشكو الغني إلىٰ الفقير، يشكو الهادئ إلىٰ سواء السبيل إلىٰ من هو حيران في بعض أمره.

لقد ذكر الله عن نبيه يعقوب ﷺ حين رجع أبناؤه، وقد فقدوا أخاهم الآخر، بعد فقدهم ليوسف عليه السلام، أنه شكا أمره إلىٰ الله فقال: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف:٨٦].

إن الشكوىٰ إلىٰ الله شكوىٰ إلىٰ الملك المنان ذي الفضل والإنعام، من يعلم أحزان النفس وأسبابها، وأشواقها وطرقها، وفي الشكوىٰ إلىٰ الله تنفيس عن النفس

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٤٧).

من همومها وإحباطها، ووضع للدواء على الداء، والتماس الأمر ممن يملك النفع والضر، ويريد بعبده الخير، ويصرف عنه الضر والسوء.

إن الشاكي إلى الله مضطر في شكواه وبثه لما يؤرِّقه ويحزنه، ولا يجيب المضطر -الذي انقطعت به السبل، وما أجدت عنه الحيل- إلا الله وحده لا شريك له. قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل:٦٢].

٥٧٧

الصبر عدم الشكوى

قال أحمد بن خضرويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من صبر على صبره فهو الصابر، لا من صبر وشكا»(١).

المعنى الإجمـالي

ترك الشكوىٰ للناس من الصبر، ومن الصبر أن يصبر الإنسان علىٰ صبره؛ إذ الصبر قد يدوم لفترة لا يدري العبد متىٰ انقضاؤها؛ لأن بدء المحن والمصائب والمصاعب لا يدري عن نهاية أمدها إلا الله تعالىٰ.

إن من العباد من يصبر ويتجلد بادئ الأمر، حتىٰ إذا رأىٰ بأن أمر صبره قد طال أمده، فيبدأ بالتململ والتذمر والتسخُّط والشكوىٰ، وهنا لا يُعدُّ صابرًا محتسبًا؛ إذ الصابر من يعيش مسلِّمًا أمره لله تعالىٰ، وهو يعيش باذلًا وسعه من الأسباب الشرعية، لكنه يعلم علمًا يقينيًا أن لا مخرج له من محنته وبلائه إلا باللجوء إلىٰ الله، والاستعانة بالصبر فإنه نِعْمَ الدواء.

ولقد ذكر الله تعالىٰ عن نبيه أيوب ﷺ أنموذجًا يحتذىٰ به في الصبر؛ فلقد صبر علىٰ البلاء لسنين كثيرة، حتىٰ لم يعُدْ في جسده ما هو سليم سوىٰ لسانه، فنادىٰ ربه ودعاه دعاء الصابر المحتسب الذي مسه الضر أن يكشف ما به من بلاء، قال تعالىٰ:

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٩٦).

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٣-٨٤].

٥٧٨

أعلى أنواع الصبر

قال ذو النون المصري رحمه الله: «ثلاثةٌ من أعلام الصبر: التباعد عن الخُلَطاء في الشدة، والسكون إليه مع تَجَرُّع غُصَص البليّة، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحة المعيشة»[١].

بيان المفردات

الخُلَطاء: الأصدقاء والشركاء[٢]. والمقصود: ترك اللجوء إلى الأصدقاء عند المصيبة.

تجَرُّع: مِن جرَع، تقول: تجرَّعتُ الماء: إذا بلعتُ منه شيئًا بعد شيء بشدة[٣].

غُصص: جمع غُصَّة، يقال: غصَّ يغصُّ غصًّا: إذا شرق بالماء وغيره.[٤] وقد يراد بالغصة: نَفَسُ المعترِض في الحلق[٥]. والمقصود من قوله: تجرع غصص البلية: أي كظم حُزنه وجزعه فلم يظهره عند المصيبة.

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٩/ ٣٦١)؛ شعب الإيمان للبيهقي (٧/ ٢٢٨).
(٢) ينظر: المخصص لابن سيده (٣/ ٤٣١).
(٣) ينظر: تصحيح الفصيح وشرحه لابن المرزبان (ص: ٦١).
(٤) جمهرة اللغة لابن دريد (١/ ١٤٢).
(٥) المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث لأبي موسى المديني (٢/ ٥٦٥).

المعنى الإجمالي

الصبر: هو حبس النفس على ما يحمد وعما يُذمّ، وذلك بإمساك الجوارح عن الإقدام على ما يُكرَه، وإمساك اللسان عن إظهار التألم منه. أو هو: حبس النَّفس على جزع كامن عَن الشكوى[(١)].

وللصبر درجات، ومن أعلى تلك الدرجات: أن يبتعد الإنسان عن أصدقائه وقت الشدة، فلا يشكو إليهم، ولا يطلب منهم عونًا، بل يلجأ إلى الله ويكظم نفسه التي اعتادت على الخلطة.

ومنه: السكون على الصبر عند تجرع غصص البلية، ذلك لأن شدة وقع المصيبة من شأنه أن يجعل العبد متألمًا صارخًا من شدة البلاء، فيستبدل ذلك بالسكون والهدوء، فيرزح تحت الألم، ولا يعترض على ما أصابه من بلاء، بل يعد البلاء من النعم؛ لأنه يطهر النفس من أدران الخطايا، وهو ما يجعل العبد ساكنًا إلى ما يريده الله تعالى من دون صخب ولا صراخ، وهو ما بينه الحديث: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»[(٢)].

ومنه: إظهار الغنى مع طول الفقر والحاجة، وهذا يدل على غنى النفس عن الطلب، فإظهار الغنى حمد لله تعالى، وإظهار الفقر مع وجوده اعتراض على المولى ﷻ إذا كان القصد منه طلب المعيشة من الناس، أو إبراز الزهد والتواضع.

---

(١) ينظر: تفسير الراغب الأصفهاني (٣/ ١٠٦٧)؛ منازل السائرين للهروي (ص: ٤٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٧٩) برقم: (١٢٨٣).

٥٧٩

صبر المحبين والزاهدين

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللهُ: «صبر المحبين أشد من صبر الزاهدين»[(١)].

المعنى الإجمالي

يختلف المؤمنون في صبرهم، فهم فيه على درجات؛ فمنهم المحبون، وهؤلاء قد وصلوا إلى مرحلة أصبح فيها نطقهم وسمعهم وبصرهم ومشيهم وكل تحركاتهم لله وبالله، كما في الحديث: «فإذا أحببته كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يبصر به، ويدَه التي يبطش بها، ورجلَه التي يمشي بها»[(٢)]، فالمحبون قد وصلوا في المحبة درجة لم يعد يهمهم ما سبَّبه البلاء بهم من آثار، من نقص في الأموال والأنفس والثمرات، أو في إيذاء من يعترض طريقهم إلى الله تعالى، فلا يقفون عند ظاهر البلاء كما يقف العباد، بل خشيتهم أن يكون الله غير راضٍ عنهم.

وقد تجلى هذا السلوك الإيماني الرفيع عند رسولنا محمد ﷺ حين أدمى سفهاء الطائف قدميه الشريفتين، فالتجأ إلى الله داعيًا متضرعًا، وكان من دعائه: «إن

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٣٢٣).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٥) برقم: (٦٥٠٢).

لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أبالي»(١).

ومن علامات صبر المحبين أنهم يدعون ربهم الرضا بعد قضاء الله وقدره في كل أمر نزل بهم. وكان من دعاء سيد الصابرين المحبين ﷺ: «وأسألك الرضا بعد القضاء»(٢). فالمحبون يحبون ما جاء من حبيبهم؛ فهم يعلمون أن عطاء الله قد يكون منعًا، وأن منع الله قد يكون عطاءً، فالله عزيزٌ حكيمٌ.

وأما صبر الزاهدين فهم يصبرون راضين بحالهم، يبذلون سعيهم وجهدهم في البقاء على صفة الزهد والإقلال، فهم صابرون في أعمارهم كلها، بل يبلغ بهم الحال أن يتركوا ما أحل الله لهم من الطيبات، ويعزفون عن الأسباب والتعلق بها، على العكس من حال المحبين الذين يأخذون مما سهُل لهم من الطيبات، ويبذلون ما في وسعهم لبلوغ أعلى الدرجات المقدرة لهم.

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (ص: ٦٧)؛ والطبراني في الكبير (١٤/ ١٣٩) برقم: (١٤٧٦٤).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥/ ٥٢٠) برقم: (٢١٦٦٦)؛ والنسائي في السنن الكبرى (٢/ ٨٢) برقم: (١٢٢٩)؛ وابن حبان في صحيحه (٥/ ٣٠٤- ٣٠٥) برقم: (١٩٧١).

٥٨٠
حقائق الصبر تظهر عند البلاء

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللَّهُ: «عند نزول البلاء تظهر حقائق الصبر، وعند مكاشفة المقدور تظهر حقائق الرضا»(١).

المعنى الإجمالي

للصبر حقائقه، وللرضا حقائقه؛ فلما كان الصبر علىٰ أنواع شتىٰ، وكان منها الصبر علىٰ المصائب والبلايا والمحن، فإن الصبر والرضا لا يفترقان؛ إذ لا يكون العبد صابرًا محتسبًا ما لم يكن راضيًا بتقدير الله وتدبيره وقضائه ومشيئته، وحكمه الذي لا رادَّ له.

إن من حقائق الصبر أنه ليس كلامًا يقال، أو دعوىٰ تُسَطّر بدون برهان، ولا تظهر حقيقة الصابر إلا عند تحقق البلاء؛ فإن حُكم الله علىٰ العباد كلهم أنه ما من عبد إلا سيحلُّ به البلاء؛ وقد أكَّدَ الله ذلك لعباده بقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٥].

وكان رسول الله ﷺ يبين عظم الأجر لمن ابتليَ ببلاء فصبر، فعن أبي موسىٰ

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ١٠٢). وهذا الشرح يتعلق بما يخص الصبر، وأما شرح ما يخص الرضا فسيأتي في باب الرضا، الحكمة رقم: (٦٩٧).

الأشعري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حَمِدك واسترجع، فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة وسمُّوه بيت الحمد»(١).

وجعل الله عوضًا لمن ابتلي بفَقْدِ بصره الجنة، فعن أبي هريرة ﵁ قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيه فصبر، عوَّضته منهما الجنة»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٢/ ٣٢٩) برقم: (١٠٢١)، وقال: حسن غريب؛ وابن حبان في صحيحه (٧/ ٢١٠) برقم: (٢٩٤٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ١١٦) برقم: (٥٦٥٣).

٥٨١

الصبر يأتي بالظفر

قال إبراهيم الخواص رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من لم يصبر لم يظفر»(١).

المعنى الإجمالي

النجاح والظفر والفوز يُنسي العبد مرارة التعب والألم، ويُنسيه ما لاقاه من معاناة في صبره على كل المكاره؛ ولذا فإن الصبر مُرٌّ كاسمه، والصابرون في البأساء والضراء وحين البأس قليلون.

ولأهمية الصبر في الإسلام ربَّى الرسول ﷺ أصحابه على الصبر وترْكِ العجلة، فهذا خباب بن الأرت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوَسِّدٌ بُردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال: «كان الرجل فيمن قبلكم يُحفَر له في الأرض فيجعل فيه، فيُجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيُشق باثنتين، وما يصدُّه ذلك عن دينه، ويُمشَط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظمٍ أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه. والله لَيُتِمّن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»(٢).

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٢٢٠)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٣٢٥).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٢٠١) برقم: (٣٦١٢).

إنَّ المسلم الحق من يعلم أن وعد الله لا يتخلف، فالله هو القائل: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم:٦٠].

ومن يتمسك بالصبر فإنه يمتلك سلاحًا لا يفل، ومطية لا تكبو، ونصرًا محقّقًا لا يتخلف؛ ولذلك جاء في وصية رسول الله ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يُسرًا»(١).

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ١٩) برقم: (٢٩٠٣)؛ الطبراني في المعجم الكبير (١٤/ ١٤٣) برقم: (١٤٧٦٨)؛ البيهقي في شعب الإيمان (١٢/ ٣٥٤) برقم: (٩٥٢٨). قال ابن حجر العسقلاني: هذا حديث حسن. ينظر: موافقة الخبرِ الخبرَ في تخريج أحاديث المختصر لابن حجر (١/ ٣٢٧).

٥٨٢

حقيقة الصبر

قال رويم بن أحمد[١] رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصبرُ تركُ الشكوى من ألَم البلْوى»[٢].

بيان المفردات

الصبر: نقيض الجزع، منه صَبَر يصبِر فهو صابر، وجمعه: صُبُر[٣].

البَلْوى: اسم بمعنىٰ الامتحان، ونظيره البِلْوةُ والبِلْيَة والبَلِيَّة والبَلاءُ، جمعه البَلايا، والبلاء يكون في الخير والشر، يقال: ابتليتُه بلاءً حسنًا وبلاءً سيئًا[٤].

المعنى الإجمالي

تبين هذه الحكمة حقيقة الصبر وأنه ترك الشكوىٰ والجزع، فالعبد الصابر لا يفزع عند الامتحان والبلاء، ولا يشكو ذلك بكلمات غير لائقة بالعبودية، بل هو

---

(١) رويم أبو الحسن بن أحمد بن يزيد، كنيته أبو محمد، البغدادي، الإمام، الفقيه، المقرئ، الزاهد العباد، من جلة مشايخ بغداد، وهو رويم الصغير، كان فقيها علىٰ مذهب داود الأصبهاني، توفي سنة ٣٠٣هـ. ينظر: طبقات الصوفية (ص١٥٠)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (١٤/ ٢٣٥).

(٢) ينظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٣٠١)، ولم أجده كاملًا عند المتقدمين إلا عند زكريا الأنصاري في فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (١/ ٤٨٩).

(٣) لسان العرب لابن منظور (٤/ ٤٣٨).

(٤) المصدر السابق (١٤/ ٨٣-٨٤).

فرصة لارتقاء العبد من درجة العبادة إلى درجة العبودية. ومن الصبر أن يترك الشكوى إلى الخلق إلا لسبب شرعي كطلب العلاج أو رفع الظلم مثلا، والشكوى إلى الله لا تنافي الصبر كما جاء في قصة سيدنا أيوب عليه السلام عند ابتلائه بالمرض وفقد الأولاد والأموال وغيرها من المحن: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [يوسف:٨٦]، وقد روي عن سيد الصابرين ﷺ شكواه إلى الله تعالى عند رجوعه من الطائف قائلا: «اللهم إليك أشكو ضَعف قوتي، وقِلة حيلتي، وهواني على الناس»(١).

والمراد هنا تربية النفس على تحمّل الجزع والفزع عند الشدائد، ويكون ذلك عند الصدمة الأولى كما ورد في قوله عليه السلام: «إنما الصبر عند الصدْمة الأولى»(٢)، فلا يفسد الأجر بالبكاء العالي والصراخ والغم الشديد الذي يشغله عن الله ونعمه الأخرى، وذلك لا ينافي شعور الألم والحزن الطبيعي، فإن القلب يتألم من المحن ويظهر أثره على المرء كما روي عن النبي ﷺ في وفاة ابنه سيدنا إبراهيم يقول: «إن العين تَدمع، والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنّا بفراقك يا إبراهيم لَمَحْزونون»(٣).

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٣/ ٧٣)؛ وابن عساكر في تاريخه (٤٩/ ١٥٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٨٣) برقم: (١٣٠٢)؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ٦٣٧) برقم: (٩٢٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٨٣) برقم: (١٣٠٣).

٥٨٣

من معاني الصبر

قال ابن عطاء الأَدَمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الصبر: الوقوف مع البلاء بحسن الأدب»[(١)].

المعنى الإجمالي

إن الصبر عند نزول البلاء هو من حُسْنُ الأدب مع الله؛ لأن البلاء هو قضاء الله، ولا يليق بالمؤمن أن يتضجّر أو يتبرّم بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ، فالله هو الحكيم، ولا يقضي إلا بما فيه خير للمؤمن؛ والبلاء يرفع درجة العبد إن صبر عليه، وهذا مصداق حديث النبي ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»[(٢)]. فالمؤمن لا يضجر ولا يسخط، ولا يتكلم عند البلاء بكلام يخرجه عن أدبه مع الله تعالىٰ، ويخرجه عن وقاره الإيماني.

وحين رأىٰ النبي ﷺ امرأة تبكي عند قبرٍ، فقال: «اتقي الله واصبري» قالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمصيبتي، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ، فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: «إنما الصبر عند

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٣٢٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٢٢٧) برقم: (٢٩٩٩).

الصدمة الأولىٰ»(١).

إن الصابرين والقابضين علىٰ دينهم وإيمانهم عند اشتداد البلاء، وتقلب الأحوال، أعدَّ الله لهم أجرًا عظيمًا؛ فهو يوفيهم أجرهم بغير حساب، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٧٩) برقم: (١٢٨٣).

٥٨٤

عاقبة الصبر

قال أبو العباس أحمد بن المقتدي[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصبر على الشدائد يُنتج الفوائد»[(٢)].

المعنى الإجمالي

سنة الله تعالىٰ في الحياة أن يكون فيها الرخاء والشدة، ولا يزال المؤمن تأتي عليه ريح الابتلاءات كل حين فتحنيه وتميله لكنها لا تكسره، فالله سبحانه أمرنا بالصبر حيث قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٣].

والصبر هو دأب المؤمنين، فقدوتنا وأسوتنا ﷺ كانت حياته كلها صبرا وجهادا، ففي فترة وجيزة مات عمه أبو طالب الذي كان يمنع المشركين من أذاه، وماتت زوجته الوفيّة الصابرة خديجة، ثمّ ماتت بعض بناته، ومات ابنه إبراهيم، فلم يزد علىٰ أن قال -وقد دمعت عيناه-: «إن العين تدمع، والقلب يحزن،

(١) أحمد بن المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبد الله بن الذخيرة محمد بن القائم بأمر الله، أبو العباس، أمير المؤمنين المستظهر بالله، الإمام، ولد سنة ٤٧٠هـ، واستخلف عند وفاة أبيه سنة ٤٨٧هـ، كان موصوفا بالسخاء والجود ومحبة العلماء وأهل الدين، مع الفضل والنبل والبلاغة، وحسن السيرة، توفي سنة ٥١٢هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩/ ٣٩٦)؛ قلائد النحر للهجراني الحضرمي (٤/ ٦٤).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩/ ٣٩٨).

ولا نقول إلا ما يرضىٰ ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمَحْزونون»[١]، وابتلي عروة بن الزبير ﵀ في موضع واحد بقطع رجله وبموت ابنه، فلم يزد علىٰ أن قال: «اللهمّ كان لي بنون سبعة فأخذتَ واحدا، وأبقيتَ ستة، وكان لي أطراف أربعة فأخذت طرَفا وأبقيت ثلاثة، ولئن ابتلَيتَ لقد عافيت، ولئن أخذتَ لقد أبقيت»[٢].

والصبر علىٰ الشدائد والمِحَن له فوائد وآثار عظيمة إذا استحضرها المرء هان عليه مشقة الصبر، فالصبر أجره عظيم عند الله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر:١٠]، قال ﷺ: «إنّ عِظَم الجزاء مع عِظَم البلاء، وإنّ الله إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سَخِط فله السُّخْط»[٣].

والصبر تكفير للذنوب والسيئات ورفعة في الدرجات، قال ﷺ: «إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي! فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده! فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد»[٤]، وقال النبي ﷺ: «إن الله قال: إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيه فصبر عوضتُه منهما الجنة» يريد عينيه[٥]، وجاء في الحديث: «إذا سبقت للعبد من الله منزلة لم يبلغها بعمله ابتلاه الله في جسده أو في ماله أو في ولده، ثم صبره حتىٰ يبلغه المنزلة التي سبقت له منه»[٦].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٨٣) برقم: (١٣٠٣)؛ ومسلم في صحيحه (٧/ ٧٦) برقم: (٢٣١٥).
(٢) المرض والكفارات لابن أبي الدنيا (ص: ١١٥).
(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٠٢) برقم: (٢٣٩٦)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ١٥٩) برقم: (٤٠٣١).
(٤) أخرجه الترمذي في جامعه (٢/ ٣٢٩) برقم: (١٠٢١).
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ١١٦) برقم: (٥٦٥٣).
(٦) أخرجه أبو داود في سننه (٣/ ١٥٠) برقم: (٣٠٩٠)؛ وأحمد في مسنده (١٠/ ٥٢٥٥) برقم: (٢٢٧٦٩).

٥٨٥

حُسْن عاقبة الصبر

قال ابن الجوزي رحمه الله: «للصبر حلاوةٌ تَبين في العواقب»[(١)].

المعنى الإجمالي

الصبر أمُّ الفضائل وأصل مكارم الأخلاق، ومنه تتفرع المحامد، وهو: كفُّ النفس عن الجزع والشكوىٰ عند نزول مكروه. فالصبر أفضل دواء في مواجهة المحن والبلاء؛ لأنه ليس للإنسان عند قضاء الله إلا الصبر، أو الاستسلام للهَمِّ والغَمِّ، فيتعرض عند ذلك للأمراض النفسية والعصبية، وقد تدفعه شدة الغم إلىٰ الانتحار. وأما المؤمن فإنه يدرك أن كل شي بتقدير الله، وأن ما قدره سيقع، فيستقبل قضاء الله بالرضا والتسليم، ورد في الحديث: «عجبًا لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراءُ شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراءُ صبر فكان خيرًا له»[(٢)].

وللصبر عواقب ونتائج حسنة كثيرة، لكن المؤمن يذوق حلاوتها في النهايات، ويفوز بأوفىٰ الجزاء عند لقاء الله ﷻ؛ ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر:١٠].

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي (ص: ٢٠١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٢٢٧) برقم: (٢٩٩٩).

ومن عواقب الصبر الحسنة في الدنيا: أن فيه ترويضًا للنفس وتربية لها على تحمل نوائب الدهر ومَشاقِّ العبادات ومرارة ترك الشهوات، فترتقي النفس إلى مقامات عالية في اليقين والقرب من الله تعالى.

إني رأيـــتُ وفي الأيـــام تجربـــةٌ   للصـــبر عاقبـــةٌ محمـــودةُ الأثـــرِ
وقَـــلَّ مَـــن جَـــدَّ في أمـــرٍ يُحاولُـــه   واستصحب الصبرَ إلا فاز بالظفرِ[1].

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه (١/ ٢٠١).

٥٨٦

أهمية الصبر

قال ابن الجوزي رحمه الله: «يا أقدامَ الصبر! تحمَّلي فقد بقي القليل»(١).

المعنى الإجمالي

هذه الحكمة ساقها ابن الجوزي للإشارة إلى أهمية الصبر في بلوغ الأماني والوصول إلى الغايات، والصبرُ مع المصابرة على تجاوز العقبات وقطع المشقات هو آلة أساسية يعتمد عليها الإنسان في إنجاز مهماته ومشاريعه. وإذا كانت أهمية الصبر في الأمور الدنيوية والمشاريع الاقتصادية بهذه المكانة، فصبر المؤمن على الواجبات الشرعية والعبادات الدينية التي سيأخذ ثوابها في الآخرة أكثر أهمية وأقوى حاجة؛ فقيام الليل وصيام النهار يحتاج إلى الصبر على هجر النوم وترك الطعام والشراب، والوصول إلى المراتب العلية في العلم والمعرفة يحتاج إلى الصبر على سهر الليالي وقطع المفاوز وهجر الإخوان وغربة الأوطان، فالصبر شرط أساسي وركن أولي في إنجاز الأعمال والوصول إلى الأهداف.

قال الله تعالى مُثنيًا على الذين تحلّوا بالصبر: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ

(١) المدهش لابن الجوزي (ص: ٤٢٨)؛ وذكره بعده ابن القيم في كتابه (الفوائد) (ص: ١١٢).

حِسَابٍ ﴾ [الزمر:١٠].

وقال النبي ﷺ: «وما أُعْطِيَ أحدٌ عطاءً خيرًا وأوْسَعَ من الصَّبْرِ»(١).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (١٤٦٩)؛ ومسلم في صيحه برقم: (١٠٥٣).

٥٨٧

طبيعة المؤمن والمنافق

قال الفاريابي رحمه الله عن بعض أهل المعرفة: «المؤمن كثيرُ البلوى قليلُ الشكوى، كثيرُ المعنى قليلُ الدعوى، والمنافق كثيرُ الدعوى قليلُ المعنى، كثيرُ الشكوى قليلُ البلوى»(١).

المعنى الإجمالي

تبين الحكمة بعض صفات المؤمن والمنافق وطبيعتهما في التعامل مع نعم الله وبلاياه، حيث المؤمن يصاب كثيرا بالبلوىٰ والشدة لاصطفائه سبحانه وتعالى من الآخرين ولرفع درجاته وتصحيح احتسابه، وذلك كما ورد في قوله ﷺ: «إن من أشدّ الناس بلاء الأنبياء، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»(٢)، ولكنه مع ذلك قليل الشكوىٰ، لا يشكو إلا لربه سبحانه وتعالى بل يصبر علىٰ المصائب، ويتذكر النعم الأخرىٰ الكثيرة التي هو محاط بها، ولا يقلق؛ لعِلمه أن بعد العسر يسرا، وأن الله يبتليه ليقربه إليه، فيصبر لترفع درجاته وتغفر خطاياه كما أخبر به ﷺ: «ما من شيء يصيب المؤمن حتىٰ الشوكة تصيبه إلا كتب الله له بها حسنة أو حطّت عنه بها خطيئة»(٣).

(١) تهذيب خالصة الحقائق للفاريابي (١/ ٤٦٢).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥/ ١٠) برقم: (٢٧٠٧٩).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٩٢) برقم: (٢٥٧٢).

والمؤمن قليل الادعاء لنفسه بصفات الشرف والكمال رغم اتصافه بكثير من الصفات والفضائل في الواقع، ولا يدعي لنفسه ما ليس فيه، بل يحاول العمل والإنجاز بأقصىٰ ما يستطيع.

وفي المقابل المنافق قليل المعنىٰ والعمل، كثير الدعوىٰ والكلام، ويصاب قليلا بالبلايا مقارنة بالمؤمن فتجده صحيح الجسم مستقيم الحال في الدنيا، ومع ذلك لا يصبر علىٰ قليلها أيضا لعدم إيمانه الخالص ولعدم رجائه بحصول الجزاء الحسن والأجر الكبير لصبره وتحمله علىٰ هذه الشدائد، فيفقد الأمل بأدنىٰ شيء يقع عليه ويحزن شديدا ويشكو كثيرا رغم معاناته القليلة، وينسىٰ نعم الله التي يستمتع بها ليلا ونهارا، وحاله يكون كما وصفه سبحانه تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ ﴾ [الحج:١١].

٥٨٨

أهمية مراعاة الأدب

قال الفاريابي رحمه الله: «مَن لم يصبر على الأدب فليستعدَّ للعَطَبِ»(١).

بيان المفردات

العطب: الهلاك، وأعطبه، أي: أهلكه، والمَعاطِب: المهالك(٢).

المعنى الإجمالي

تتحدث هذه الحكمة عن أهمية الأدب، والصبر على التحلي به، وأن من لم يصبر على مراعاة الأدب وملازمته في جميع الأحوال والأحيان، فليستعد للهلاك والعطب. وقد قال العلماء قديما وحديثا: ما وصل من وصل إلا بالأدب، وما سقط من سقط إلا بترك الأدب. فكما أن مراعاة الأدب في طلب الحاجات سبب للوصول إلى المطلوب، سواء كانت الحاجة حسية أم معنوية، فكذلك ترك الأدب أو تقليله سبب لحرمان الإنسان وسقوطه في أعين الخلق. وتوضيح ذلك بمثال بسيط: لو أن إنسانًا خاطبه سفيه بسبٍّ أو تقليل أدب أو نحو ذلك، فلينظر، فإن كان مخاطِبه ممن يصلحه الزجر والتأديب فله ذلك، وإلا فليمرَّ به مرورَ الكرام، معرضًا عنه، كما أمر

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ١٠٨).
(٢) لسان العرب لابن منظور (١/ ٦١٠).

الله تعالىٰ: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٩]، وإلا، فإن أخذ الإنسانَ حميةٌ وغضبٌ فردَّ عليه بالشتم والسب من جنس ما خوطِب به، فقد سمح لشاتمه أن يُنزِله منزلتَه، وسيستهجنُ الناس تصرفه ذلك، فيسقط في أعينهم.

وقد علَّم الله ﷻ الصحابةَ ﭫ حسنَ الأدب مع النبي ﷺ في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ ﴾ [الحجرات:٢]، فقد كانوا يراعون منتهىٰ الأدب والاحترام مع رسول الله ﷺ حيث كانوا يقرعون بابَه بالأظافير، خشية إزعاج النبي ﷺ بأصواتهم(١)، فأثنىٰ عليهم بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجرات:٣]، كما أنه ﷻ وصف بقلة العقل أولئك الذين أساؤوا الأدب مع نبيهم ﷺ وصرخوا عند باب حجرته لكي يخرج إليهم، في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٤ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ﴾ [الحجرات: ٤-٥].

---

(١) أخرجه البزار في مسنده برقم: (٧٦٠٤)؛ وينظر: المطالب العالية لابن حجر العسقلاني برقم: (٢٦٤٩).

٥٨٩

القنوط سبيل الحرمان

قال عبد الرزاق القاشاني رحمه الله: «إنْ فات بحلول البلية حظُّك العاجل، لا تُفَوِّت بكثرة الجزع حظَّك الآجل»(١).

بيان المفردات

البلية: هي البلوىٰ والبلاء، بمعنىً واحد.

الجزع: هو حزنٌ يصرف الإنسانَ عما هو بصدده، وهو أبلغ من الحزن، فالحزن عام والجزع خاص، أصله: قطع الحبل من نصفه(٢).

المعنى الإجمالي

إن فاتك حظُّك من المرافق الدنيوية بحدوث حادثة أو نزول مصيبة، فلا تضيِّع وقتَك ولا تقتل نفسك جزعا علىٰ ما فاتك، لأن الجزع واليأس لا يأتي بخير، وعلىٰ الإنسان أن يقوم حيث سقط ويتابع سيره، ولا يجعل ما نزل به سببا لحرمانه مما يمكن أن يحصِّله.

(١) آداب الطريقة وأسرار الحقيقة لعبد الرزاق القاشاني (ص: ١٠١).
(٢) المفردات للراغب الأصفهاني (ص: ١٩٤).

وفي الحكمة إشارة صريحة إلىٰ المنع من القنوط واليأس، لأن الإنسان إذا وقعت له مصيبة أو بلية فشغلته عن إنجاز مشاريعه وإتمام شؤونه التي كان بصددها، أسرع إلىٰ الحزن والكآبة، فبدل أن يستدرك ما يستطيع استدراكه وإنجازه يستسلم للهموم والغموم ويشك في قدرته علىٰ إتمام ما بقي، فيقع في اليأس والقنوط، ويفرِّط بما عنده من الفرص المتبقية.

قال الله تعالىٰ علىٰ لسان سيدنا يعقوب عليه السلام: ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف:٨٧]. وكانوا قد قنطوا من رؤية النبي يوسف عليه السلام وأخيه بنيامين مرة أخرىٰ، لكنَّ أباهم نبي الله لم ييأس، فأكرمه الله تعالىٰ برؤية ولديه لصبره وتوكله.

٥٩٠

الصبر يَهون من أجل العافية

قال ابن القيم ﷺ: «من تلمَّح حلاوة العافية هانت عليه مرارة الصَّبر»[١].

بيان المفردات

تلمّح: أي نظر، اللَّمْحة: النَّظْرة[٢].

الصَّبِر: بكسر الباء: الدواء المرّ[٣].

المعنى الإجمالي

الإنسان يحب الطعام اللذيذ الحلو، وهذا أمر تطلبه الطبائع ويقرّه الشرع، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف:٣٢]، لكنه أحيانا يضطر لتناول الطعام أو الشراب المرّ من أجل التداوي.

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٦٧).
(٢) تهذيب اللغة للأزهري (٥/ ٦٤).
(٣) مختار الصحاح للرازي (١/ ١٤٩).

ومن أنواع الأدوية ذات الطعم المرّ نوع يسمىٰ «الصبِر» وهو دواء يوجد عند العطارين، قال الشاعر(١):

الصبْر يوجدُ إنْ باءٌ له كُسِرتْ لكنّه بسكون الباء مفقودُ

يقصد الشاعر أن «الصبِر» هو دواء موجود يمكن الحصول عليه، لكن «الصبْر» بمعنىٰ التحمّل غير موجود بين الناس حيث لا تكاد تجد من يتحلّىٰ بهذه الصفة.

فإذا نظر المريض إلىٰ مرارة الدواء استصعب عليه الأمر وكادت تخرج روحه معه، لكن إذا نظر إلىٰ ما ينتظره بعد شرب الدواء من الشفاء والعافية فإنه ينسىٰ طعم الدواء ويهون عليه مرارته.

وهذه القاعدة تنسحب علىٰ أساليب معالجة النفس وترويضها وكبح جماح شهواتها، فإن الإنسان إذا نظر إلىٰ الجانب المرّ فيها من الصيام والحرمان عن المشتهيات، فإنه يستصعب ذلك، لكنه حين ينظر ويلاحظ ما يترتب علىٰ هذه الأساليب من ترويض لنفسه وتعويدها علىٰ الأخلاق الحسنة وكذلك من الأجر والثواب والنعيم المقيم في الآخرة، فإن هذه الأساليب العلاجية تصير سهلة هيّنة.

(١) ديوان اللزوميات لأبي العلاء المعري (١/ ٢٧٣).

باب الشكر

٥٩١

النِّعَم الخفيّة

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «كم من نعمة لله تعالى في عِرْق ساكن»[(١)].

المعنى الإجمالي

نعم الله لا تحصىٰ، منها الظاهر المُدرَك، ومنها الباطن الخفي، قال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان:٢٠]، فاختلاج العرق واضطرابه ألمٌ يشعر به الإنسان، وسكونه وهدوءه نعمة من الله تعالىٰ، فنعمة الصحة والعافية لا يعرفها إلا من ابتلي بفقدان عضو من أعضائه، أو تلفه، أو اختلال في أداء وظيفته؛ فكم يعاني مرضىٰ السرطان والفشل الكلوي والقلب وغيرها من الأمراض ما لا يعلمه إلا الله.

ولذلك ورد في الحديث: «إن أول ما يُسأل عنه يوم القيامة من النعيم أن يقال له: ألم نُصِحّ لك جسمك ونَرْوِيك من الماء البارد؟»[(٢)].

وعن ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر:٨] قال: النعيم: صحة الأبدان والأسماع والأبصار[(٣)].

(١) الزهد لأبي داود السجستاني (ص: ٢١٦).
(٢) أحرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٣٧٦) برقم: (٣٣٥٨)، وقال: حديث غريب.
(٣) تفسير الطبري (٢٤/ ٥٨٢).

وعن يونس بن عبيد، أن رجلًا شكا إليه ضيق حاله، فقال له يونس: أَيَسُرُّكَ أن لك ببصرك هذا الذي تبصر به مائة ألف درهم؟ قال الرجل: لا، قال: فبيَدك مائة ألف درهم؟ قال: لا، قال: فرجليك؟ قال: لا، قال: فذكَّره نعم الله عليه، فقال يونس: أرىٰ عندك مئين ألوف وأنت تشكو الحاجة![1].

لقد كان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحوُّل عافيتك، وفُجاءة نقمتك، وجميع سخطك»[2].

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي (٢/ ٧٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٩٧) برقم: (٢٧٣٩).

٥٩٢

الضمان من الهلاك

قال أبو العالية[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إني لأرجو أن لا يهلك عبدٌ بين اثنتين: نعمةٍ يَحمد الله عليها، وذنبٍ يستغفر منه»[٢].

المعنى الإجمالي

إذا عاش العبد حامدًا لله شاكرًا لنعمه وآلائه، دائم الاستغفار من ذنوبه وعثراته، فذلك ضمان له من عذاب الله في الدنيا والآخرة؛ ودليل ذلك من القرآن؛ فأما نجاة الشاكرين من العذاب فقد بينها قوله تعالىٰ: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ [النساء:١٤٧]، وأما ضمان نجاة المستغفرين من العذاب فقد بينه قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال:٣٣].

ويفهم من قوله تعالىٰ: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا

(١) أبو العالية رفيع بن مهران الرِّياحيّ البصري، أعتقته امرأة من بني رياح سائبةً، الإمام المقرئ، الحافظ، المفسر، أحد الأعلام، أدرك زمان النبي ﷺ وهو شاب، وأسلم في خلافة أبي بكر ودخل عليه، وسمع من كبار الصحابة، قرأ عليه أبو عمرو بن العلاء، مات سنة ٩٠هـ، وقيل ٩٣هـ. ينظر: الطبقات لابن سعد (٩/ ١١١)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٢٠٧).

(٢) الشكر لابن أبي الدنيا (ص: ٣٢)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ٢١٩).

كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾ [النحل:١١٢] أن سبب العذاب هو كفران النعم وعدم شكرها، فلو أنهم شكروا نعم الله لما نزل بهم العذاب، ولكان شكرهم ضمانًا لهم من عذابه سبحانه.

ولأهمية الاستغفار ودوره في رفع مقت الله وغضبه عن عباده، وأنه سبب للإمداد بأنواع النعم، فقد وصىٰ به سيدنا نوح قومه، وأصبح يعدد لهم منافع الاستغفار والتوبة، وهو ما بينه قوله تعالىٰ: ﴿ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ﴿١٠﴾ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴿١١﴾ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ﴾ [نوح: ١٠-١٢].

٥٩٣

شكر العينين والأذنين

قال سلمة بن دينار رحمه الله: «شكرُ العينين: إن رأيتَ خيراً وعَيْتَه، وإن رأيتَ شرًّا سَترتَه، وشكرُ الأذنين: إن سمعتَ خيراً حفظتَه، وإن سمعتَ شرًّا نسيتَه»[١].

بيان المفردات

الشكر: عرفانُ الإحسان ونشرُه وحمدُ مُولِيه، والثناء على المحسِن بما أَوْلاكَه من المعروف، يقال: شَكَرْتُهُ وشَكَرْتُ له، وباللام أفصح[٢].

الوعي: حِفْظ القلب الشيءَ. وَعىٰ الشيءَ والحديثَ يَعِيه وعْيا وأوعاه: حفظه وفهمه وقبله، فهو واعٍ[٣].

المعنى الإجمالي

تتضمن الحكمة بيان نوع من الشكر وكيفية أدائه، فقد يكون شكر الله للعبد وذلك بثنائه له وبإنعامه عليه، ويكون شكر العبد لله وذلك بقلبه ولسانه وجوارحه

(١) الشكر لابن أبي الدنيا (ص: ٤٤)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٢٤٣).
(٢) تهذيب اللغة للأزهري (١٠/ ١٠)؛ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٢/ ٧٠٢).
(٣) لسان العرب لابن منظور (١٥/ ٣٩٦).

اعتقادا واعترافا وعملا. وشكر الجوارح هو صرف العبد ما أنعم الله عليه من السّمع والبصر وغيرهما إلىٰ ما خلق له وأعطاه لأجله، فشكر العينين هو وعي ما رأىٰ من الخير ونشره، والابتعاد عن رؤية الشر وستره إذا وقع النظر عليه، وشكر الأذنين هو استعمالهما في سماع الخير وحفظه، وإبعادهما عن سماع ما يضر ويؤذي، وإذا سمع شيئا ما من الشر ستره علىٰ صاحبه، وهكذا الجوارح الأخرىٰ كاليدين والبطن والفرج فيصرفها فيما خلقها الله ويبعدها عما نهىٰ عنه.

وهذا المفهوم وارد في عموم القرآن والسنة، حيث العبد يُسأل عن أعماله وحركاته وسكناته كلها، وفي يوم القيامة تشهد جوارحه ضده كما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [فصلت:٢٠] فلا يكون له منها مفرّ، والله يأتي بشهود غير متهمة من بدنه، فعلىٰ العبد مراقبتها واستخدامها فيما ينبغي.

٥٩٤

أكبر النعم هي نعمة الدين

قال سلَّام بن أبي مطيع[(١)] رحمه الله: «كن لنعمة الله عليك في دينك أشكر منك لنعمة الله عليك في دنياك»[(٢)].

المعنى الإجمالي

نعم الله علىٰ عباده كثيرة لا تعدُّ ولا تحصىٰ؛ فنعمٌ في الدنيا ونِعمٌ في الدين، والواجب علىٰ العبد تجاه كل هذه النعم شكر الله عليها دون نكران أو كفران.

لكن النعم التي ينبغي أن تكون لها الأولوية في حمد الله وشكره والثناء عليه، هي تلك النعم التي أنعم بها علىٰ العبد في دينه؛ لأن أكبر نعمة علىٰ العبد هي نعمة الهداية إلىٰ الإسلام، فالمسلم إن فاته نعيم الدنيا القليل الزائل بسبب المحن والبلاء فإن نعيمًا مقيمًا أبديًّا ينتظره يوم القيامة، ونعيم الآخرة يتقاصر أمامه كل أنواع النعيم في الدنيا، كما أن عذاب الآخرة للكفار يتضاءل أمام جزء بسيط منه كل أهوال الدنيا وعذاباتها، كما ورد في الحديث: «يؤتىٰ بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيُصبَغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيرا قط؟ هل مرّ

(١) سلَّام بن أبي مطيع، أبو سعيد، الخزاعي مولاهم، البصري، الإمام، القدوة، سمع عن قتادة وأيوب وطائفة، توفي سنة ١٧٣هـ. ينظر: التاريخ الكبير (٤/ ١٣٤)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (٧/ ٤٢٨).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٦/ ١٨٨).

بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب. ويؤتىٰ بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة، فيُصبَغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم، هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مرّ بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط»(١).

ونعمة الدين والإسلام لا يعطيها الله إلا لمن يحب، وأما نعم الدنيا فهي للمؤمن والكافر، وأي شيء أعظم من محبة الله ﷻ لعبده، جاء في الحديث: «إن الله ﷻ يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين، فقد أحبه»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٣٥) برقم: (٢٨٠٧).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ١٨٩) برقم: (٣٦٧٢)؛ والحاكم في المستدرك (١/ ٨٨) برقم: (٩٤)، وقال صحيح الإسناد.

٥٩٥

الناس في غفلة عن النعم

قال عون بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: «الخير من الله كثير، ولن يبصره من الناس إلا اليسير»[١].

المعنى الإجمالي

تعوَّد كثيرٌ من الناس على الشكوىٰ مما يمرُّ به من البلايا والمصائب، ونسي هذا العبد أن الله لم ينسَ أحدًا من عباده؛ فقد تفضل على الساعين للدنيا والآخرة معًا، دون أن يمنع أيًّا منهم عطاياه وكرمه، قال تعالىٰ: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء:٢٠].

إن الخير للناس من الله معروض، ولكن لا يبصره من لا ينظر إليه، ولا يجده من لا يبتغيه، ولا يستوجبه من لا يعلم به، ألم تروا إلىٰ كثرة نجوم السماء؟ فهل يستطيع أن يهتدي بها أحد إلا العلماء؟ وهذا حال أكثر النعم، لا يشعر بها إلا من نظر وتفكر، ولو تفكر الناس فيما حولهم لوجدوا نعم الله وآثارها في كل شيء حيثما ولَّوا وجوههم، ولكن الغفلة وإلْفَ تلك النعم أنساهم قيمتها وأنساهم واهبها، فلا تكاد تجد شاكرًا لها، ولا من يعرف قيمتها إلا من فقدها.

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري (١١/ ٢٣١)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (٤/ ٢٤٥).

وتجد أن الله ﷻ كثيرًا ما يَلفت انتباه الناس ويُذكّرهم بتلك النِّعم التي غفل عنها أغلب الناس، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: ٤٥-٤٩].

ويظن كثيرٌ من الناس أن النعم التي تُشكر هي ما يحصل عليه من مال ومتاع، ولم يدرِ أنه يتقلب في نعم الله في كل نفَس يتنفَّسُه، وكل خطوة يخطوها، وأكلة يأكلها دون ألم، وشربة يشربها دون مرارة يجدها علىٰ لسانه. فسبحان الله المتفضل بكل النعم، الدافع لكل النقم، الواهب لكل إحسان وفضل.

٥٩٦

ما يتحسَّر عليه العارف من الدنيا

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يخرج العارف من الدنيا ولم يَقضِ وَطَرَه من شيئين: بكاؤه على نفسه، وثناؤه على ربه ﷻ»[1].

بيـان المفردات

الوَطَرُ: كلُّ حاجةٍ كان لصاحبها فيها همّة فهي وَطَرُهُ. ولم أسْمَعْ لها فِعْلا أكثر من قَوْلهم: قَضَيتُ وَطَري، أي: حاجتي، وجمعُ الوَطَرِ: أَوْطارٌ[2].

المعنى الإجمـالي

وقد أشاد ابن قيم الجوزية بما قاله يحيىٰ بن معاذ، فقال: «وهذا من أحسن الكلام، فإنه يدل علىٰ معرفته بنفسه وعيوبه وآفاته، وعلىٰ معرفته بربه وكماله وجلاله، فهو شديد الإزراء علىٰ نفسه، لهِجٌ بالثناء علىٰ ربه»[3].

لم تُعطِ الدنيا كل شيءٍ فيها لأربابها، فيخرجون منها وما هنأوا بنعيمها، بل

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٨٠). وهذا الشرح يتعلق بالشكر، وأما شرح ما يخص البكاء فقد مر في باب البكاء والخشوع، الحكمة رقم: (٤٣٢).

(٢) العين للخليل بن أحمد (٧/ ٤٤٦)؛ تهذيب اللغة للأزهري (١٤/ ١٠).

(٣) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٣١٨).

كدحوا وجمعوا فأوعوا، ويأتي غيرهم مبدداً كل ذلك. فإذا كان هذا حال أهل الدنيا معها، فإن العارفين بالله الذين اتخذوا الدنيا سفينة صالحةً، ينتقلون من خلالها إلى رب العالمين، يخرجون من الدنيا وما قضوا حاجتهم من شيئين، الأول: البكاء على النفس التي تفرط في جنب الله، ولم تُؤدِ ما كُلِّفتْ بها خير قيام، ويبكون على خطيئاتهم؛ كما قال مالك بن دينار رَحِمَهُ اللهُ: «البكاء على الخطيئة يحط الخطايا كما تحط الريح الورق اليابس»(١).

والثاني: أن العارف لم يُثن على الله تعالى كما ينبغي، كما يحب الله تعالى؛ فهو أهل الثناء والمجد وأهل للمحامد كلها، فإن العبد مهما حاول أن يثنيَ على ربه بما يحفظه من القول المأثور، وبما يلهمه الله حين الدعاء والالتجاء، فإن الثناء عليه لا يزال ناقصًا. فله الحمد كما أمر، وله الحمد كما يحب ويرضى.

وقد كان من دأب النبي ﷺ الثناء الدائم على الله ﷻ؛ فكان إذا رفع من الركوع يقول: «اللهم ربنا لك الحمد ملء السماوات، وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»(٢).

(١) ذم الهوى لابن الجوزي (ص: ٢١٦)؛ الزواجر عن اقتراف الكبائر للهيتمي (١/ ٢٩).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٣٤٧) برقم: (٤٧٨).

٥٩٧

طلب العوض على الطاعة

قال أبو بكر الواسطي رحمه الله: «مطالعة الأعواض على الطاعات من نسيان الفضل»[١].

بيان المفردات

الأعواض: هي ما يُؤخذ مقابل شيء يُبذل، والمقصود بمطالعة الأعواض: أن تكون عبادتك لله رجاء الحصول على عوض ومقابل، فهذا من نسيان فضل الله؛ فالمحب الصادق تجرد عن ملاحظة العوض[٢].

المعنى الإجمالي

يُقبل العبد على ما كلفه الله من التكاليف الشرعية طيبة نفسه، راضيًا بما أمره الله، ولا يكون فعله من أجل أن يجد عوض ذلك حاضرًا؛ فهو يعلم أن ثواب الله وأجره كبير، وفضله عظيم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء:٤٠]، وجزاء فعل العبد العمل مع ابتغاء مرضات الله تعالى الأجر العظيم، قال تعالى: ﴿ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا

(١) الرسالة القشيرية (١/ ١٠٨).

(٢) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ١٢٩).

مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:١١٤].

والمطالعة والتطلُّع لوجود الأعواض يعني ما ينتظره العبد من جزاء يلمسه جزاء عمله يكون من نسيان فضل إنعام المنعم ﷻ، ابتداءً بتوفيقه للطاعة واصطفائه لشرف الوقوف بين يديه، ثم الجزاء متوقف علىٰ القبول، فمن أين تدري هل يكون عملك مقبولًا أم لا؟ وإذا تفضل عليك بالقبول علىٰ ما هو عليه من النقص والخلل فهذا يكفيك في جزائك علىٰ العمل، فلولا جميل ستره لم يكن عمل أهلا للقبول، فلولا أن الله سبحانه تفضل علىٰ عباده بالعفو والحلم ما قبِل عملا قط؛ إذ تصفية الأعمال كادت أن تكون من المحال(١).

ولو علم العبد أنه ما عملَ من عمل صغيرًا أو كبيرًا إلا وجد عند الله الكريم الغني الحميد من الأجر والعطاء أضعافًا مضاعفةً من الخير والجود، يلمس العبد بعضه، وقد لا يلمس البعض الآخر؛ لأن الناس اعتادوا علىٰ أن يروا هذا الجزاء ملموسًا، وقد يكون الجزاء بركةً يجدها العبد في نفسه وأهله وماله وولده وعلمه، وما أعطاه الله، وقد يصرف الله عنه سوءًا لو وقع عليه لأوقعه في محنة ومصيبة. فسبحان الله الذي يعطي فوق ما يتمناه العبد، فلا ينتظر عبد من ربه ولا يؤمل إلا الخير.

ومن التأملات القرآنية التي تدل علىٰ أن الله يقبل العمل من عباده ليس عوضًا عما عمله، ولكنه فضل منه قوله تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الأحقاف:١٦]، فلم يقل الحق تعالىٰ نتقبل منهم؛

(١) ينظر: إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة (ص: ٢٩٠).

لأنه يقتضي أنه كامل، بل عدَّاه بـ"عن" المفيدة للتجاوز، كأنه قال: أولئك الذين يُتجاوز عنهم في أحسن ما عملوا فنتقبلها منهم، ولو لم يتجاوز عنهم فيها ما تقبلت منهم، ولكن الكريم لا ينتقد بل يقبل كل ما يُعطاه لعظيم كرمه وغناه، فالحمد دائما لله؛ حيث خلق فينا العمل وأعطانا عليه غاية المنىٰ والأمل[1].

(١) إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة (ص: ٢٩١).

٥٩٨

شكر الله على نعمه

قال محمد بن علي الترمذي رحمه الله: «اجعل مراقبتك لمن لا يغيب عن نظره إليك، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نِعَمُه عنك، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه»[(١)].

المعنى الإجمالي

الشكر لله بالحمد له والثناء عليه لكل نعمة أنعمها وتفضل بها على عبده، فنعمه وعطاياه لا تنقطع في حال من الأحوال.

«قد يتفكر الإنسان في نفسه وما به من النعم، فيجد نفسه مغموسًا في النِّعَم حسيَّةً ومعنوية، فينظر في نعمة البصر، في نعمة السمع، في نعمة الشم، في نعمة الذوق، في نعمة الكلام، في نعمة العقل، في نعمة اليدين، في نعمة الرجلين، في نعمة الصحة والعافية، في نعمة الكفاية، في نعمة الأهل، في نعمة الأولاد، ثم في نعمة الهداية إلى الإسلام، ثم في نعمة الإيمان، ثم في نعمة الطاعة، ثم في نعمة العلم،

---

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ١٧٧). وهذا الشرح يتعلق بالقسم الثاني من الحكمة، وأما شرح القسم الأول فقد مر في باب مراقبة الله، الحكمة رقم: (٢٠٣)، وشرح القسم الثالث سيأتي في باب العبودية، الحكمة رقم: (٧٠٧).

ثم في نعمة من يَستعين به من الإخوان»(١).

إن من أجَّل نعم الله علىٰ عبده بعد نعمة الإيجاد هي نعمة الهداية للإيمان، قال تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة:١٩٨]، وقال تعالىٰ مبيِّنًا عظيم مِنَّته في الهداية للإيمان: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات:١٧].

إن اللسان يعجز عن شكر الله علىٰ عطاياه ونعمه، فنعمة الشكر تحتاج إلىٰ حمد الله وشكره؛ جاء في الأخبار أن داوود ﷺ قال: «يا رب، كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك»، وفي لفظ آخر: «وشكري لك نعمة أخرىٰ منك توجب عليّ الشكرَ لك؟ فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: إذا عرفت هذا فقد شكرتني»(٢).

(١) إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة (ص: ٤٣٣).
(٢) قوت القلوب لمكي بن أبي طالب (١/ ٣٤٢)؛ إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٨٥).

٥٩٩

حقيقـة الشكـر

قال الشبلي رحمه الله: «الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة»(١).

المعنى الإجمـالي

الشكر لله تعالىٰ علىٰ نعمه وآلائه التي لا تُعَدُّ ولا تُحصىٰ يكون بدوام شكره بالثناء عليه بالقول، والامتثال لأوامره واجتناب نواهيه بالفعل، وهي التقوىٰ التي عبَّر الله عنها بالشكر، فقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران:١٢٣].

إنَّ الله تعالىٰ يستحق من عباده أن يثنوا عليه الخير كله ويشكروه ولا يكفروه؛ إذ إن من ضعف إيمان العبد أن يقتصر شكره وثناؤه علىٰ الله وقت رؤيته للنعم، وينساه فيما عدا ذلك، وهذا نوعٌ من كفران النعم؛ قال تعالىٰ: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [النحل:٨٣].

ولكن الشكر الحقيقي هو في استحضار العبد للمنعم بهذه النعم، فلا تحجبه تلك النعم عن مشاهدة ومعرفة مصدر تلك النعم، فيزداد العبد تعظيمًا وحبًّا لربه المتفضل المنان، وعندما يستحضر العبد هذه الحقيقة يكون قد أدرك ما يريده الله

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٥٩٠).

من عبده في إغداق النعم عليه، جاء في الحديث: «أحبوا الله لما يَغْذُوكم من نِّعَمِه»[1].

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٦/ ١٢٦) برقم: (٣٧٨٩)، وقال: حديث حسن غريب.

٦٠٠

شكر النِّعَم

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «من لم يشكر النِّعم فقد تعرَّض لزوالها، ومن شكرها فقد قيَّدَها بِعِقالها»(١).

بيـــان الـمفردات

الشكر: هو الثناء على المُنعِم بسبب النعمة، ويضادُّه الكفر: وهو نسيان النعمة وسترها(٢).

الـمعنى الإجمـــالي

لقد اتفقت مقالات الحكماء على هذا المعنى، وأن الشكر قيد الموجود وصيد المفقود. وقالوا أيضًا: من أُعطِي ولم يشكر سُلِب منها ولم يشعر، فمن شكر النعمةَ فقد قيَّدها بِعِقالها، ومن كفرها فقد تعرض لزوالها. وفي هذه الحكمة تشبيه النعم بالإبل التي شأنها النِّفار إن لم تُقيَّد بالعقال(٣).

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد:١١]. ويدخل

---

(١) الحكم العطائية (ص: ١١٧).

(٢) انظر: المفردات للأصفهاني (ص: ٤٦١).

(٣) شرح الحكم العطائية للشرنوبي (ص: ٦٤).

في ذلك: إن الله لا يغيِّر ما بقوم من النعم حتىٰ يُغيروا ما بأنفسهم من الشكر، وتغييرهم الشكر هو اشتغالهم بالمعاصي والكفر[(١)].

وقال ﷻ: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٧].

والشكر علىٰ ثلاثة أقسام: شكر اللسان، وشكر الأركان أي: الجوارح، وشكر الجنان، أي: القلب؛ فشكر اللسان: التحدُّث بنعم الله؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحىٰ:١١]. وشكر الأركان: العمل بالطاعة لله تعالىٰ. قال تعالىٰ: ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ [سبأ:١٣]. وشكر الجنان بالاعتراف بأن كل نعمة بأحد من العباد هي من الله تعالىٰ. قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣][(٢)].

عن المغيرة بن شعبة ﷺ أن النبي ﷺ صلَّىٰ حتىٰ انتفخت قدماه، فقيل له: أتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»[(٣)].

---

(١) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ١٦٨).

(٢) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ١٦٨-١٦٩).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (١١٣٠)؛ ومسلم في صحيحه برقم: (٢٨١٩).

٦٠١

معرفة النعم

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «من لم يعرف قدر النعم بوجدانها عرفها بوجود فقدانها»[(١)].

المعنى الإجمالي

من غلبته الغفلةُ ولم يستشعر بنِعَمِ الله تعالىٰ عليه، عرف قيمتَها عند فقدِها، فإن العبد لا يعرف قيمةَ البصر إلا عند العمىٰ، وبضِدِّها تتبين الأشياءُ[(٢)].

والمراد هنا بمعرفة قدر النعمة: أن يعلم صاحبُ النعمة مدىٰ فضلِ الله في إسدائها إليه، وأن يدرك أن السبيل إلىٰ استبقائها وتحصينها هو: أن يتوجه إلىٰ الله بالشكر عليها، علىٰ أن يعلم أن شكره عليها لا يتمثل في الكلمات فقط، كما مر عند بيان أنواع الشكر[(٣)].

وهذا الذي ذكره ابن عطاء الله مجرَّب صحيح؛ وذلك أن العبد قد تترادف عليه النعم والعوافي، فلا يعرف قدرَها ولا تعظم عنده كل التعظيم، فإذا سُلِبها وضُرِب

(١) الحكم العطائية (ص: ١١٩).

(٢) تعليقات الشيخ يوسف الحاج أحمد علىٰ الحكم (ص: ١١٩)؛ وأصله في شرح الحكم العطائية للشرنوبي (ص: ١٣٦).

(٣) ينظر: الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٤/ ٣٤٩).

بالبلاء والأوجاع والمصائب، فحينئذ يعرف قدر العافية. وكذلك الفقير يكون مصحوبًا بالحضور والفكرة والنظرة، فلا يعظم عنده قدرها، فإذا أصابته الغفلة ورجع إلىٰ الحس وفقد قلبَه عرف قدرَ ما كان عنده، فإذا التجأ واضطر إلىٰ الله رد إليه ما سلبَه(١).

والشأن في الإنسان إذا وفدت إليه النعمة أن يذهب في الإقبال إليها والاحتفاء بها مذهبًا يُنسِيه فضلَ المُنعِم بها عليه، وهو الذي يسميه البيان الإلهي كفران النعمة، وهو المعنىٰ المراد بهذه الكلمة إذا جاءت مقارنةً بالشكر. قال تعالىٰ: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٤٠]. وهو المراد بقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم:٢٨]. ولا ريب أن من جنح عن الشكر إلىٰ الكفران فقد عرَّض النعمةَ التي متَّعه اللهُ بها للزوال. من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢].

فالسبيل إلىٰ المحافظة علىٰ النعم التي تَفِدُ علىٰ الإنسان ثم لا تتخلَّىٰ ولا تنصرفَ عنه: أن يشكر عليها(٢).

(١) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ٢٣١-٢٣٢).

(٢) ينظر: الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٤/ ٣٤٩-٣٤٥).

٦٠٢

نعمة الإيجاد والإمداد

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «نعمتان ما خرج موجودٌ عنهما، ولا بد لكلِّ مُكوَّنٍ منهما: نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد»[١].

المعنى الإجمالي

لا بد لكل موجودٍ مخلوقٍ مِن نعمتين لا يخرج عنهما: نعمة إيجاد الله تعالىٰ إياه بعد العدم السابق، ونعمة الإمداد بالمنافع التي تقتضي بقاء صورته وهيكله إلىٰ أجلٍ مسمىٰ، فهو المُنعِم ابتداءً ودَوْمًا[٢].

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣]. فالإنسان لم يخرج عن إحسانه وفضله وامتنانه. ومن نعمة الإمداد المعنوي: نعمة الإسلام والإحسان، وحفظ ذلك وإدامته علينا في كل وقت وحينٍ، وزيادة الترقي في المعرفة واليقين، إلىٰ يوم الدين، والحمد لله رب العالمين[٣].

وردت آيات كثيرة في ذكر إنعام الله تعالىٰ علىٰ عباده بالخلق والإيجاد، ثم نعمة الإمداد عليهم كالهداية وتيسير طرقها، والطعام والشراب والزواج والتناسل

(١) الحكم العطائية (ص: ٦٦).

(٢) تعليقات الشيخ يوسف الحاج أحمد علىٰ الحكم (ص: ٦٦).

(٣) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ٢٤٣).

وغيرها من النعم التي لا تُحصىٰ.

قال الله تعالىٰ في معرض ذكر نعمه علىٰ عباده ممتنًا عليهم بذلك:

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ [النحل: ٣-٦].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٢-٣].

وقال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [غافر:٦٧]. وغيرها من الآيات الكثيرة التي تدل علىٰ هذا المعنىٰ.

باب التوازن بين الصبر والشكر

٦٠٣

الصبر والشكر

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لو كان الصبر والشكر بعيرين ما بالَيْتُ أيُّهما ركبتُ»[(١)].

المعنى الإجمالي

العبد بين بلاء وشدة فيصبر عليها، وبين خير ونعمة وعطية فيشكر الله على ما أنعم وأولى وأعطى، فيكون العبد بين نعمتي الصبر والشكر؛ ولذلك فقد عدَّ الرسول ﷺ هاتين النعمتين من عجائب المؤمن، فقد ورد في الحديث: «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»[(٢)]، ولذا فإن المؤمن لا يبالي بأي من البلاءين ابتلي؛ إن ابتلي بالضر فينال أجر الصبر، وإن ابتلي بالسراء فله أجر الشكر.

ولقد كان صحابة رسول الله ﷺ فقراؤهم وأغنياؤهم يتنافسون في الطاعات؛ فلم يبالِ أي الفريقين بما هو عليه من الفقر أو الغنى، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم

(١) الصبر والثواب عليه لابن أبي الدنيا (ص: ٢٤)؛ الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٣٢٧).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٩٥) برقم: (٢٩٩٩).

المقيم! فقال: «وما ذاك؟» قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق. فقال رسول الله ﷺ: «أفلا أعلمكم شيئًا تُدركون به من سبقكم، وتسبقون به مَن بعدَكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟!» قالوا: بلىٰ يا رسول الله، قال: «تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين مرة». قال أبو صالح: فرجع فقراء المهاجرين إلىٰ رسول الله ﷺ، فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله! فقال رسول الله ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[(١)].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٩٧) برقم: (٥٩٥).

٦٠٤

أحبُّ العبـاد إلى الله

قال مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن من أحب عباد الله إلى الله الصبَّار الشكور، الذي إذا ابْتُلِيَ صبر، وإذا أُعطي شكر»[1].

المعنى الإجمـالي

يحب الله من عباده الصابرين، الذين لم يستكينوا مما أصابهم من ضيق وشدة وبأس؛ أمثال الربانيين أصحاب الأنبياء وأنصارهم، قال الله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٦]، ويجزي الله عباده الشاكرين أحسن الجزاء، وقد أبهم الله جزاءهم في قوله: ﴿ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٥] وذلك لعظم الجزاء الذي ينتظرهم. وقد أمر الله نبيه ﷺ بعبادته والشكر له، فقال تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر:٦٦].

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ٢٠٠).

إن العبد المؤمن يجعل حياته كلها بين صبر على ابتلاءات الله، وشكر له على نعمائه وفضله؛ ولذا فقد قرن الله تعالى بين صفتي الصبار والشكور، وجعل آياته لهذين الصنفين من العباد، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم:٥].

٦٠٥

الشكر أفضل أم الصبر؟

قال مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخّير رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَأَنْ أُعافَىٰ فأشكُر، أَحَبُّ إليَّ مِن أنْ أُبْتَلى فأصبرِ»(١).

بيان المفردات

العافية: هي الصحة ضد المرض، يقال: عافاه الله وأعفاه؛ أي: وهب له العافية من العلل والبلايا(٢).

الابتلاء: هو الامتحان والاختبار، ابتلاه الله؛ أي: امتحنه الله(٣).

المعنى الإجمالي

تبين هذه الحكمة أفضلية الشكر مع العافية والصحة، مقابل الصبر مع الابتلاء والامتحان، فإن العبد مطلوب منه أن يشكر الله في جميع حالاته، ويصبر على الشدائد إن وقعت ولا يسأل عنها، والله تعالىٰ خلق الإنسان ضعيفا لا يطيق الابتلاء إلا بمشقة، فينبغي أن يسأل العافية ويشكر عليها. والشكر مع العافية خير من الصبر

(١) الزهد لوكيع (ص: ٤٥٣)؛ الطبقات الكبرىٰ لابن سعد (٩/ ١٤٤).
(٢) لسان العرب لابن منظور (١٥/ ٧٢).
(٣) المصدر السابق (١٤/ ٨٤).

علىٰ البلاء لما فيه من الراحة والأمان، ولما في غيره من الصعوبة ومخافة الزلة بارتكاب ما يخالف الصبر من شدة المصيبة، ولكن كلاهما مطلوب حسب الحالة والوقائع، والله يحب عباده الصابرين إذا ما ابتلوا ويحب الشاكرين إذا ما أنعموا.

وورد عن بعض السلف يقول: «اللهم أيّ ذاك كان أحبّ إليك فاجعله لي»[(١)]، كما رأىٰ بعضهم أن الصبر علىٰ البلاء أرفع لأن الأجر علىٰ قدر المشقة، وهذا صحيح ولكن المرء لا يأمن علىٰ نفسه عند البلاء، ولا يدري هل يستطيع الصبر عليه أو لا يستطيع، وقد نهىٰ النبي ﷺ المسلمين عن التمني بلقاء العدو، وإذا حصل اللقاء فأمر بالصبر.

والعافية من خير ما ينعم بها العبد كما أخبر به المصطفىٰ ﷺ قائلا: «سلوا الله العفو والعافية والمعافاة، فإنه ما أوتي عبد بعد يقين خيرا من معافاة»[(٢)].

(١) الصبر والثواب عليه لابن أبي الدنيا (ص: ١٢٧).

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرىٰ (٩/ ٣٢٥) برقم: (١٠٦٥١).

٦٠٦

البلاء مع الطاعة خير من النعمة مع المعصية

قال يزيد بن ميسرة[(١)] رحمه الله: «لا تَضُرّ نعمةٌ معها شكر، ولا بلاءٌ معه صبر، ولَبَلاءٌ في طاعة الله خير من نعمةٍ في معصية الله»[(٢)].

المعنى الإجمالي

المؤمن بين شكر وصبر، شكر لله علىٰ نعمه، وصبر لله علىٰ بلائه وقضائه، فمن أنعم الله عليه بنعمة فأدَّىٰ حقها بشكر الله عليها بلسانه وقلبه وعمله فذاك هو الشكر، وأداء شكر الله باللسان يكون بحسن الحمد والثناء علىٰ الله بأسمائه وصفاته، وأداء الشكر بالقلب يكون بإقراره لله بالوحدانية والفضل، وأداء الشكر بالعمل يكون بإحسانه وعطائه لمن أمره الله بالإحسان إليهم ومدِّ يد العون لهم.

(١) يزيد بن ميسرة بن حلبس الدمشقي، يكنىٰ أبا ميسرة، ويقال أبو حلبس، ويقال أبو يوسف، كان واعظا زاهدا عارفا، توفي سنة بين ١١١ و١٢٠هـ. ينظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٣/ ٣٤٠)؛ تعجيل المنفعة لابن حجر (٢/ ٣٧٩).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ٢٣٦).

والمؤمن لا تضره النعمة فتبطره، وتخرجه عن معرفة واجباته لله تعالىٰ، بل لن تزيده النعم إلا إقبالًا علىٰ ربه، وحمدا له وثناءً عليه، وبهذا الإقبال علىٰ الله بالحمد والثناء يصل العبد إلىٰ تحقيق عبوديته لله تعالىٰ بإقراره بالنعم، وإقراره بواجبه تجاه ربه وخالقه المنعم عليه بأصناف النعم.

وإن ابتُلِيَ المؤمن فلن يكون جازعًا هلوعًا، بل صابرًا محتسبًا، فقد أثنىٰ الله علىٰ من ابتلاهم من أنبيائه بأنهم من أفضل عباده، فقال عن أيوب ﷺ: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص:٤٤].

ولَأن يبتلىٰ العبد فيكون في البلاء من الصابرين، خير له من أن يكون في نعمة ورفاهية عيش وهو مقيمٌ علىٰ المعاصي شارد عن صراط الله تعالىٰ، فالمبتلَون بأنواع البلاء من أهل الإيمان صابرون علىٰ بلاء الله لهم، وذلك خيرٌ لهم، والعاصون المترفون الذين يُسخِّرُون ما أنعم الله عليهم في أنفسهم وأموالهم وأولادهم في محاربة الله ودينه، والاستمرار علىٰ عصيانه، وذلك شر لهم لو كانوا يعلمون.

٦٠٧

كل الناس مُبْتلَون

قال عبد الملك بن أبجر[(١)] رَحِمَهُ اللهُ: «ما من الناس إلا مبتلى بعافية؛ لينظر كيف شكره، أو مبتلى ببلية؛ لينظر كيف صبره»[(٢)].

المعنى الإجمالي

ابتلى الله عباده بالخير والشر، والعافية والمرض، والغنى والفقر، والسلم والحرب، كل هذه الابتلاءات ليعلم الله أخبار عباده، وصادقهم من كاذبهم، ومؤمنهم من منافقهم، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٥]، وقال أيضًا: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:٣١].

وما ابتلى الله عبدًا بعافية بدنه وسمعه وبصره، وبالسعة والبسط في رزقه، والكثرة في ماله وولده إلا ليعلم الله حاله مع تلك النعم هل يشكر الله، أم يختال ويبطر وينسى المنعم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وما ابتلى الله عبدًا بضيق في حاله، أو ببلاء في نفسه وأهله

(١) عبد الملك بن سعيد بن حيان بن أبجر الهمداني، ويقال: الكناني الكوفي، روى عن أبي الطفيل وعكرمة وأبي إسحاق السبيعي، توفي سنة ١٥٠هـ. ينظر: تهذيب التهذيب (٦/ ٣٨٤)؛ مغاني الأخيار لبدر الدين العيني (٢/ ٢٤٨)؛ تاريخ الإسلام (٣/ ٩١٨).

(٢) الشكر لابن أبي الدنيا (ص: ٤٦)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ٨٥).

وماله وولده إلا لينظر هل يصبر العبد ويرضىٰ عن ربه، أم يتبرم ويسخط.

ولقد ضرب الله لنا مثل سليمان عليه السلام الذي ابتلاه الله بسعة الملك وتسخير الجن والإنس والطير، ووهب له ملكً لم يكن لأحد من بعده، فشكر الله تعالىٰ علىٰ كل نعمائه، قال الله تعالىٰ: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٤٠]. ومدحه ربه وأثنىٰ عليه علىٰ ذلك فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠].

وكما امتدح الله سليمان ﷺ علىٰ شكره لربه، امتدح كذلك أيوب ﷺ علىٰ صبره واحتسابه، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤].

وكان لمحمد بن المنكدر رحمه الله جار مبتلىٰ، فكان يرفع صوته من الليل يصيح، وكان محمد يرفع صوته بالحمد، فقيل له في ذلك: فقال: يرفع صوته بالبلاء، وأرفع صوتي بالنعمة(١).

وكان عون بن عبد الله رحمه الله يقول: «الخير الذي لا شر فيه: الشكر مع العافية، فكم من مُنعَمٍ عليه غير شاكر، وكم من مبتلىٰ غير صابر»(٢).

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ١٤٦).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٤/ ٢٥٤).

٦٠٨

قِرى النِّعم والبلايا

قال أبو الوفاء ابن عقيل[(١)] ﷺ: «النِّعمُ أضياف وقِراها الشُّكر، والبلايا أضياف وقِراها الصَّبر»[(٢)].

بيان المفردات

قِرَى: قَرَىٰ الضيف يَقريه قِرًىٰ بالكسر وقَراءً بالفتح والمد: أحسن إليه، والقِرَىٰ: هو ما قُرِيَ به الضيف، والقَرْيُ والقِرىٰ: الإحسانُ إلىٰ الضَّيف وإكرامه[(٣)].

المعنى الإجمالي

شَبَّه ابن عقيل ﷺ النِّعم والبلايا بالضيوف، وإنَّ أجمل ما يقابل به الضيف هو القِرىٰ، وهو إكرامه والإحسان إليه، وعلىٰ المضيف أن يقدّم للضيف ما يناسبه من الضيافة، فالنِّعم إنما يقابلها الشكر، والبلايا يقابلها الصبر، يقول النبي ﷺ: «عجبًا

(١) علي بن عقيل بن محمد بن عقيل أبو الوفاء الحنبلي، الإمام العلامة، الفقيه، شيخ الحنابلة، المتكلم، ولد سنة ٤٣١هـ، صاحب التصانيف، منها: كتاب الفنون، توفي سنة ٥١٣هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩/ ٤٤٣)؛ إكمال الإكمال لابن نقطة (٤/ ١٨٥).

(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية لابن مفلح (٢/ ١٨٥).

(٣) ينظر: العين للخليل (٥/ ٢٠٤)؛ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٦/ ٢٤٦١)؛ الصحاح في اللغة والعلوم لمرعشلي (ص: ٤١٤٤)؛ مختار الصحاح للرازي (ص: ٢٥٢)؛ المحيط في اللغة للصاحب بن عباد (١/ ٤٩٥).

لأمر المؤمن، إنّ أمرَه كلَّه خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابتْه سرّاء شكرَ، فكان خيرًا له، وإن أصابتْه ضرَّاء صبرَ، فكان خيرًا له»(١).

فشُكر النِّعم أمانٌ لها من الزوال، وقيدٌ لها من الفرار، كما أن كفرانَ النعمة سببٌ في زوالها، والله عزوجل قد امتنّ على عباده بصنوف النعم التي تستوجب الشكر عليها، يقول تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل:٧٨]، وقال الحسن البصري: «إن الله ليمتع بالنعمة ما شاء، فإذا لم يُشكر عليها؛ قلَبَها عذابًا»(٢)، وقال عمر بن عبد العزيز: «قيِّدوا نعم الله ﷻ بالشكر لله تعالى»(٣).

وفي المقابل، يأتي الصَّبر على البلاء، فالابتلاء دليلٌ على خيريَّة العبد ومحبة الله له، بل إن الصبر على البلاء في ذات الله ﷻ من أسباب دخول الجنة، وبه تُكفَّر السيئات وتُرفع الدرجات، يقول الله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٢٢٧) برقم: (٢٩٩٩).

(٢) الشكر لابن أبي الدنيا (ص: ١١).

(٣) شعب الإيمان للبيهقي (٤/ ١٣٠).

باب الحلم

٦٠٩

خطورة الغضب

قال ابن القيم رحمه الله: «أَوْثِقْ غضَبك بسِلسلة الحِلم؛ فإنه كلب؛ إنْ أفْلَتَ أتْلَفَ»[(١)].

بيان المفردات

أوثَقَه: شَدَّه، والإيثاق: الشَّدّ[(٢)].

الحِلم: الأَناة، ويُجْمَعُ على الأحلام[(٣)].

أفْلتَ: أفلتَ الشيءُ وتَفَلَّتَ وانفَلَتَ: تخَلَّصَ[(٤)].

المعنى الإجمالي

الغضب من صفات التوحُّش في الإنسان، وهو يشبه الكلب المسعور الذي يهجم على كل من يقترب منه، وكما يحتاج الكلب إلى الإيثاق والربط بسلسلة متينة محْكمة حتى لا يَفْلتَ ويتخلّص من وثاقه ثم يُتْلِف ويخرِّب، فكذلك يحتاج الغضب

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٦٩)؛ ولابن الجوزي عبارة مشابهة لهذه العبارة في المدهش (ص: ٢٩٥-٢٩٦)، وقد اخترنا عبارة ابن القيم لوضوحها.

(٢) تاج العروس للزبيدي (٢٦/ ٤٥١)

(٣) العين للخليل بن أحمد (٣/ ٢٤٦).

(٤) مختار الصحاح للرازي (١/ ٢١٣).

إلىٰ ربطِه برباط الحلم والأناة حتىٰ لا يدفعه غضبه إلىٰ فعل ما لا يحمد عقباه.

ومن الطرق الناجعة لكبح جماح الغضب أنّ العاقل إذا غضب تذكّر كثرة حلم الله عنه مع تواتر انتهاكه محارمه وتعدّيه حرماته، ثم يحلم، ولا يخرجه غيظه إلىٰ الدخول في أسباب المعاصي، ولذلك قال محمد بن السعدي لابنه عروة لما ولي اليمن: «إذا غضبت فانظر إلىٰ السماء فوقك وإلىٰ الأرض أسفل منك، ثم أعظم خالقهما»(١).

فالانطلاق مع الغضب يؤدي إلىٰ تلفّظ اللسان بالفحش، وإلىٰ البطش في الفعل، وإلىٰ ظلم الآخرين وهضم حقوقهم، لكن الحلم يقود إلىٰ التمهل والتروّي، وإلىٰ التفكير الجيد قبل التسرع في ردّات الأفعال، والحلم يكون بالتحلُّم، وبتعويد النفس علىٰ عدم الاسترسال مع موجة الغضب عند حصولها، بل يستعيذ المسلم من الشيطان، فقد رأىٰ النبي ﷺ رجلين يستبّان، فأحدهما احمرّ وجهه وانتفخت أوداجه(٢) فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان ذهب عنه ما يجِد»(٣).

والغضب من الصفات المجبولة في الإنسان والتي لا يقدر علىٰ نزع أصلها، لكنّ المطلوب هو الابتعاد عن أسباب الغضب، وكذلك عدم التصرف وفق ما يدفع إليه الغضب من الظلم والعدوان.

---

(١) الإشراف في منازل الأشراف لابن أبي الدنيا (ص: ٢١٨).

(٢) الأوداج: هي ما أحاط بالعنق من العروق التي يقطعها الذابح، واحدها: ودَج. النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٥/ ١٦٥).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٢٤) برقم: (٣٢٨٢)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٣٠) برقم: (٢٦١٠).

باب الاعتزاز والاستغناء بالله عن الناس

٦١٠

الاستغناء عن الناس

قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اسْتَغْنِ عمن شئت فأنت نظيرُه، واحتج إلى من شئت فأنت أسيرُه، وتفضَّلْ على من شئت فأنت أميرُه»[١].

المعنى الإجمالي

هذه حكمة جليلة من وصايا سيدنا علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في طريقة التعامل مع الناس، وفيها بيان للنتائج التي تترتب علىٰ تصرفات الإنسان نحو الآخرين؛ فيقول: إنِ استغنيتَ عن شخصٍ صرتَ نظيرًا له، أي: مثيلًا وندًّا، هو لا يحتاج إليك وأنت لا تحتاج إليه؛ لأنك مُستغنٍ عنه وهو مستغنٍ عنك؛ فأنتما في مستوىٰ واحد، فما دمت مستغنيًا عنه فأنت نظيره. وإن تفضلتَ علىٰ شخصٍ وأنعمتَ عليه، فأنت أمير عليه وهو عبدٌ لك، لأنك أحسنت إليه، وإنِ احتجتَ إلىٰ شخصٍ فأنتَ أسيرٌ له وعبدٌ؛ لأنك محتاج إليه وتعلَّق قلبك به. فالشخص الذي تستغني عنه نظير لك ومثيل، والشخص الذي يحتاجك أنت أمير عليه، والشخص الذي تحتاجه أنت أسير له[٢].

---

(١) التمثيل والمحاضرة للثعالبي (ص: ٣٠)؛ تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٦٤)؛ وفي إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٢٤٣) بدون ذكر القائل، وبلفظ: «استغن عمن شئت تكن نظيره، واحتج إلىٰ من شئت تكن أسيره، وأحسن إلىٰ من شئت تكن أميره».

(٢) مقتبس من شرح عبد العزيز الراجحي لرسالة العبودية لابن تيمية.

وفيها إشارة إلىٰ أن الإنسان يجب عليه أن يعلق حاجتَه بالله تعالىٰ، وأن يجتهد في التعامل مع الخلق بالأسلوب الحسن.

قال النبي ﷺ: «من يستعْفِفْ يُعِفَّه الله، ومن يستغنِ يُغنِهِ الله»[١]، وقال ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلىٰ، فاليد العليا هي المنفقة، والسفلىٰ هي السائلة»[٢].

وهذا لا يعني أن الإنسان لا يسأل إذا احتاج، وإنما المقصود أن يكون أصل نظرتك في الحياة وأصل منهجك الذي تسير عليه كذلك؛ لأن بعض الناس يُذِلُّ نفسه من أجل علاوة قد تأتي وقد لا تأتي، أو من أجل مبلغ بسيط، أو من أجل شيء من الدنيا لا يستحق أن تذل نفسك من أجله أبدًا، أما الضرورة فهي أمر آخر.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ١١٢) برقم: (١٤٢٧)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ١٠٢) برقم: (١٠٥٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ١١٢) برقم: (١٤٢٩)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ٩٤) برقم: (١٠٣٣).

٦١١

الاستغناء بالله

قال سعيد بن المسيب[(١)] رحمه الله: «من استغنى بالله افتقر إليه الناس»[(٢)].

المعنى الإجمالي

استغناء العبد عن الناس علامة عز وخير، ومحبة من الله ثم من الناس؛ فالعالم العامل بعلمه، الذي يعرف حق الله فيما علمه، ويعلم أن هذا العلم الذي أكرمه الله به، ليس للتعالي على الناس ولا للترفع عليهم، ولا ليحظى بمكانة عندهم؛ ليعطوه مما في أيديهم، فهو عزيز النفس، كريم الطبع، لا تذله حاجة من حوائج الدنيا، ولا يخشى على نفسه مما يصيبه إن جهر بالحق، فلا يداهن أهل الباطل في باطلهم.

إن هذا النموذج من العلماء يصعب ثنيه عن مواقفه، أو تغيير قناعاته، أو شراء علمه ليحلل ويحرم على وفق ما تمليه أهواء أهل الباطل؛ ولذا فإن الناس يشعرون بحاجتهم إلى مثل هؤلاء العلماء الذي استغنوا عن دنيا الناس، فافتقر الناس إليهم؛

(١) سعيد بن المسيب بن حَزْن القرشي، أبو محمد، سيد التابعين وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، قيل فيه: عالم العلماء وفقيه الفقهاء، ولد في أوائل خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، توفي سنة ٩٣ وقيل ٩٤هـ. ينظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٧/ ١١٩)؛ التاريخ الكبير للبخاري (٤/ ٥١٦).

(٢) صفة الصفوة (١/ ٣٤٦)، ووردت العبارة بصيغة أخرى ومعناها قريب من هذه، والعبارة لأبي الحسن المزين رحمه الله، وهي: «من اسْتغنىٰ بِالله أحْوج اللهُ الْخلقَ إِلَيْهِ». ينظر: طبقات الصوفية (ص: ٢٩٠).

لصدقهم مع الله، وقوتهم بالتمسك بالحق، وصلابتهم في المواقف.

إن من استغنىٰ عن الناس افتقر إليه الناس، وجاءوا إليه ليسألوه إن كان عالمًا، وللفصل بين خصوماتهم إن كان مصلحًا عادلًا مقسطًا، وللعطاء إن كان سخيًا نديًا منفقًا، ولرأيه إن كان صاحب عقل منير.

٦١٢

ترك التعلق بالناس

قال الحسن البصري رحمه الله: «ابنَ آدم، لا تخافنَّ من ذي مُلكٍ؛ فإنه عبدٌ لسيدك، ولا تطمعَنَّ في ذي مالٍ؛ فإنما تأكل رزقَ مولاكَ، ولا تُخالِلْ ذا جُرْمٍ؛ فإنه عليك وبالٌ، ولا تحقرنَّ فقيراً؛ فإنه أخٌ شقيقٌ لك»(١).

بيـان المفردات

جُرْم: الجُرْم: الذنب، والجريمة مثله(٢).

المعنى الإجمـالي

يوجِّه الحسن البصري رحمه الله خطابَه إلىٰ ابن آدم، ويوصيه بآداب وأخلاق لو عمِل بها وتمسَّك لكان صاحب عزٍّ وكرامةٍ، ونجاةٍ في الدنيا والآخرة؛ فالوصية الأولىٰ: لا تخفْ من أحدٍ سوىٰ الله خالقِك وربِّك، وأيُّ مخلوق سوىٰ المولىٰ عز وجل فهو عبدٌ لذلك المولىٰ، وجميع البشر عبيدٌ لسيدهم سبحانه وتعالى، فمَن فَهِمَ هذا تمسَّك بمولاه واعتصم به، ويكون خوفه منه ومن عذابه، وباقي الناس لا يستطيعون أن يفعلوا به شيئًا؛ لأنهم عبيد مثله لسيده.

(١) آداب الحسن البصري لابن الجوزي (ص: ١٢٦).
(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٥/ ١٨٨٥).

وينتج من هذا التقرير، عدم طمع العبد إلا في سيده، وهي الوصية الثانية من الحسن، ليكن طمعك ورجاؤك في سيدك، وليس في عبيده ومخلوقاته؛ لأنهم لا يملكون لك سوىٰ ما يرزقهم مولاهم، فخذ من مولاك ومولاهم مباشرة، ودعِ الناسَ من سؤالك لهم وحاجتِك إليهم.

الوصية الثالثة: تتعلق بآداب الصحبة والمعاشرة، ومن آدابها: عدم القرب من أهل المعاصي، وترك مخالطة المجرمين، والجريمة معصية من العبد يرتكبها، سواء كانت في حقوق الله تعالىٰ أم في حقوق الناس، فمن صحب مجرمًا عاصيًا لا بد أن يتأثر به ويتعلم منه أو يُحسَب في سلكِهم ومن جماعتهم، فهو في الحالة الأولىٰ يخسر دينَه وآخرتَه، وفي الثانية يخسر دنياه وثقةَ الناس فيه، فيكون وبالًا عليه وسيندم علىٰ ذلك أشد الندم، فليس من صفات العقلاء التقرب من أهل المعاصي.

قال الله تعالىٰ: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٦٧]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

والوصية الرابعة: الشفقة علىٰ أهل الفقر والفاقة، واللطف بهم، وهي من أبرز صفات النبي ﷺ حيث كان معروفًا بشفقته علىٰ جميع البشر، وخاصة فقراء المسلمين منهم، فيوصي الحسن البصري ابنَ آدم أن لا يحقرَ أخاه وإن كان فقيرًا ومعدومًا من حظوظ الدنيا، لأن كل إنسان في حقيقته فقير، وإن كان الغني مستغنيا بماله عن الحاجة إلىٰ غيره، لكنه فقير إلىٰ مولاه سبحانه، إلىٰ رحمته ومغفرته في الآخرة، فكونه قد حاز من الدنيا نصيبًا لا يعني نجاتَه في الآخرة، لأنه في النهاية يأكل

رزقَ مولاه في الدنيا، وهل سيأكله في الآخرة؟ فكل الناس فقراء، كل حسب حاله؛ قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر:١٥].

٦١٣

لا ذل لمن رزق بالتقوى والورع

قال عبد الله بن عبيد بن عمير[١] رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا ينبغي لمن أَخذ بالتقوى ورُزق بالورع أن يَذِلَّ لصاحب الدنيا»[٢].

المعنى الإجمالي

لا يرضىٰ الله لعبده المسلم أن يعيش ذليلًا مهانًا، أو أن يمسَّ أحدٌ كرامته بسوء؛ فهو غالٍ عند الله تعالىٰ، والدين الإسلامي دين العزة والكرامة، ولم يسمح لأتباعه أن يضعوا جباههم في الأرض إلا حين تعنو للحي القيوم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وما سوىٰ ذلك فشموخ وعزة واستعلاء في وجه الباطل وأهله.

ولا ينبغي لمن رزقه الله إيمانًا وورعًا وتقوىٰ أن يذل نفسه لصاحب دنيا؛ فطلب الحاجات والأرزاق بالعزة، وما قدره الله لعبده من خير سيأخذه، ولو كان في قمم الجبال، أو في أعماق البحار، أو طبقات الأرض السفلىٰ.

(١) عبد الله بن عبيد بن عمير، أبو هاشم، الليثي، المكي، روىٰ عن عائشة وابن عباس وعدة، وعنه ابن جريج والأوزاعي، توفي سنة ١١٣هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ١٥٧)؛ الوافي بالوفيات (١٧/ ١٦٣).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٣٥٦).

وليكن جواب المؤمن لأهل الدنيا ما قاله نبي الله سليمان ﷺ، حين أرسلت إليه بلقيس هدية؛ لترىٰ نبوته من ملكه، فأجاب لها بما قاله الله تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ [النمل:٣٦].

وقدوة العبد المسلم هو رسول الله ﷺ؛ فلقد حاول المشركون استمالته إليهم، وأن يترك ما هو عليه من الدعوة إلىٰ الإسلام مقابل أن يعطوه شيئًا من الدنيا؛ فعرض عليه عتبة بن ربيعة الرئاسة وعقد اللواء، والتزويج بعشر نسوة من أجمل النساء، وجمع المال ما يستغني به هو وعقبه من بعده، لكن رسول الله ﷺ لم يرد منهم شيئًا سوىٰ الإيمان بالله ورسوله(١).

(١) ينظر: دلائل النبوة لأبي نعيم (٢/ ٢٠٣٩)؛ وإمتاع الأسماع بما للنبي ﷺ من الأحوال والأموال والحفة والمتاع لتقي الدين المقريزي (٤/ ٣٤٢).

٦١٤

علامة حب الدنيا

قال سفيان الثوري رحمه الله: «إني لأعرف حب الرجل للدنيا بتسليمه على أهل الدنيا»(١).

المعنى الإجمالي

يُعرف الصالحون بحبهم لأهل الدين والخير وملازمتهم والصبر معهم، وحين أراد النبي ﷺ أن يفرد مجلسًا يخصُّ أشراف قريش تألفًا لهم، وطمعًا في إسلامهم، وذلك بعد شرطهم لإسلامهم واستجابتهم أن يكون لهم منه مجلسٌ مخصوص. فأمر الله تعالىٰ نبيه ﷺ بالصبر مع الصادقين من المستضعفين، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٢]. وقال تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٢٨].

فإذا كان هذا النهي لرسول الله ﷺ وهو لم يرد إلا مصلحة الدين والدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، فكيف بمن لا يجد راحته وأنسه إلا حين يؤدي سلامه وتحيته لأهل

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٧/ ٣٧).

الدنيا، ولا يجعل لإخوانه من أهل الخصاصة والدين شيئًا من الاهتمام؟

وليس هذا السلوك عند أهل الدنيا مع نظرائهم فحسب، بل هو حاصل لدىٰ بعض المتدينين ممن لم يترسخ الإيمان بقيمه الكاملة في قلوبهم، فتشرق بذلك أقوالهم وأفعالهم، وهذا إن دلَّ علىٰ شيءٍ فإنه إنما يدل علىٰ محبتهم للدنيا، وتعظيم أهلها، وهو مظهر من مظاهر الضعف الإيماني.

٦١٥

عزة أهل البصائر

قال صالح بن عبد الجليل رَحِمَهُ اللَّهُ: «ينظر أهل البصائر إلى ملوك أهل الدنيا بالتصغير لهم، وينظر إليهم أهل الدنيا بالتعظيم لهم والغبطة»(١).

بيان المفردات

البصائر: جمع بصيرة، وهي: اسمٌ لما اعتقد في القلب من الدين وحقيقة الأمر. ويقال للفِراسة الصادقة: فِراسة ذات بصيرة. والبصيرة: العبرة، يقال: أما لك بصيرةٌ في هذا؟ أي: عبرةٌ تعتبر بها.(٢)

المعنى الإجمالي

أهل البصائر والمعرفة والدراية بالدين، ومن رزقهم الله بصيرة واعية، وفراسة كاشفة للأمور على حقائقها ليس للدنيا في أعينهم أي قيمة، بل ينظرون إليها وإلى أهلها بالتصغير؛ لعلمهم أنه «لو كانت الدنيا تعدِل عند الله جناح بعوضة، ما سقى

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ٣١٧).

(٢) العين للخليل بن أحمد (ص: ١١٧- ١١٨).

كافرًا منها شربة ماء»[(١)]، كما في الحديث. فهم ينظرون إلىٰ أهل الدنيا بما يتناسب وحجمهم، فلا يعظمون ما هان علىٰ الله؛ كما ورد في الحديث في بيان هوان الدنيا علىٰ الله: أن النبي ﷺ مر بالسوق داخلًا من بعض العالية والناس كنَفَيه[(٢)]، فمرَّ بجَدْيٍ أسكَّ[(٣)] ميت، فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال: «أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟» فقالوا: ما نُحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: «أتحبون أنه لكم؟» قالوا: والله لو كان حيًّا كان عيبًا فيه لأنه أسك، فكيف وهو ميت! فقال: «فوالله، للدنيا أهون علىٰ الله من هذا عليكم»[(٤)].

وأما من ملأ حبُّ الدنيا قلبَه وفكره فإنه ينظر إلىٰ ملوك الدنيا بالتعظيم والغبطة؛ لعدم معرفته بحقيقة الدنيا، وهذا ما حكاه القرآن عن نظر المخدوعين بالدنيا إلىٰ قارون، قال تعالىٰ: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [القصص:٧٩]، هذا موقف أهل الدنيا، وأما أهل العلم والإيمان فقد كان نظرهم مختلفًا، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص:٨٠].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٥/ ٢٣٠) برقم: (٤١١٠)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ١٥٠) برقم: (٢٣٢٠)، وقال: صحيح غريب.

(٢) كنفيه؛ أي: جانبيه، والكنف: الجناح والناحية. ينظر: المحيط في اللغة للصاحب بن عباد (٢/ ٥٤).

(٣) أسكّ: صغير الأذن، والسّكك: أشدّ ما يكون من صغر الأذن وضمورها، وقد وصف به الصمم. ينظر: جمهرة اللغة لابن دريد (٢/ ١٠٠٨)؛ الجراثيم لابن قتيبة (١/ ١٩٥).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٢١٠) برقم: (٢٩٥٧).

٦١٦

عدم الاتكال على الناس

قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: «ليس العبادة عندنا أن تَصُفَّ قدمَيْك وغيرك يفُتُّ لك، ولكن ابدأ برغيفيك فأَحْرِزْهما ثم تعبَّدْ»[١].

بيان المفردات

يفُتُّ: فتَّ الشيءَ: كسَره، وفُتات الشيء: ما تكسَّر منه، والفتوت والفتيت من الخبز[٢]. والمراد من يكسر له الخبز ويقوم بقوته حتى يتعَبَّد هو ولا ينشغل عنه بطلب الرزق وفتِّ الخبز.

المعنى الإجمالي

من مفهوم العبادة الشامل السعي لطلب الرزق كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك:١٥]، وأمر الله تعالى بأكل ما رزق عباده حلالا طيبا، فقال تعالى: ﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ [المائدة:٨٨].

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٩/ ٢٦٤).

(٢) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (١/ ٢٥٩).

والأمر بالسعي في الأرض لكسب الرزق، والأكل مما رزق الله حلالا طيبا، وأن تكون تقوىٰ الله تعالىٰ مصاحبة للعبد في سعيه وكسبه وأكله وشربه، وكل أعماله؛ وذلك حتىٰ لا يقع العبد عبدا لغير الله تعالىٰ، فينتظر إلىٰ أعطيات الناس وهباتهم وصدقاتهم.

والزهد ليس شعارًا ولا لباسًا بل هو من العبادات الفعلية التي تحتاج من العبد زهدًا في الدنيا، وزهدًا مما في أيدي الناس، فلا يكون العبد زاهدًا وهو يركن علىٰ غيره في مأكله ومشربه وملبسه.

إن العبد لا يشعر بلذة الزهد، وعزة الزاهد، وحلاوة العبادة والمناجاة، وتدفق معاني الدعاء علىٰ لسانه إلا بعد تحقق اكتفائه من الطعام والشراب، ما يسد به حاجته عن الآخرين، وبغير ذلك يكون مملوكًا لغيره من البشر، يمنون عليه بما أعطوه من فتات موائدهم، وما تصدقوا به عليه من أوساخ أموالهم.

٦١٧

المؤنس والرفيق في الدنيا

قال حاتم الأصمُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنْ أردتَ الصاحبَ فاللهُ يكفيك، وإن أردتَ المؤنسَ فالقرآن يكفيك، وإن أردت العِبْرة فالمقابر تكفيك، وإن لم تكفك هذه فالموت يكفيك»(١).

المعنى الإجمالي

هذه الحكمة تتحدث عن الأمور الثلاثة التي ينبغي للعبد أن يهتم بها في دينه؛ الأمر الأول الذي يوصي به حاتم: هو اتخاذ الإنسان ربَّه سبحانه صاحبًا له ورفيقًا لا يفارقه في جميع الأحوال، فمن يبحث عن صديق للمجالسة أو صاحب للمصاحبة فعليه أن يستحضر وجودَ الله تعالىٰ ويكتفي بمعيته، وقد قال سبحانه: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر:٣٦].

والأمر الثاني: أن يأنس بالقرآن تلاوةً وتدبُّرًا، ويكتفي به مؤنسًا في الوحشة وشفيعًا يوم القيامة، وقد قال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر:٢٣]،

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ١٢٣).

والقرآن أحسن الحديث وأجمل الكلام، فهو خير مؤنس لمن تدبَّره، كما قال سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤]، وقال ﷺ: «اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه»[١].

والأمر الثالث: أن يعتبر الإنسان بمن مات ويأخذ الموعظة مما فات، فمن أراد العبرة تكفيه المقابر، وهناك يفهم الإنسان حقيقة الحياة الدنيا ويرىٰ زوالها السريع، وكيف صار الذين كانوا يتقاتلون عليها، وقد قال ﷺ: «أكثِروا ذكرَ هاذِمِ اللذات: الموت»[٢]، وقال ﷺ: «نهيتُكم عن زيارة القبور فزُورُوها»[٣]، فعند ذكر الموت ورؤية المقابر تأتي العبرة.

ثم عقَّب حاتم علىٰ هذه الوصايا بأن من لم يكتف بهذه الوصايا ولم يقم بها، فلا يُصلِحه شيء، فالموت أفضل له وأرْوَح.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ١٩٧) برقم: (٨٠٤).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٣/ ٣٠١) برقم: (٧٩٢٥)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ١٤١) برقم: (٢٣٠٧)، وقال: حديث حسن غريب؛ وابن حبان في صحيحه (٢/ ٢٠٦) برقم: (١١٦٠).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ٦٥) برقم: (٩٧٧).

٦١٨

تعليق القلب بالله تعالى

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أنت بين اللّه وخلقِهِ؛ فإن علَّقتَ قلبَك بهم خذلوك، وإن علَّقتَه باللّه خدموك»[١].

المعنى الإجمـالي

يقول يحيىٰ بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مخاطبا ابن آدم: أنت بين الله تعالىٰ وبين خلقِه، فإما أن تعلِّقَ قلبَك بالله أو بخلقِه، والاختيار عندك، لكن اعلم أنه يجب أن تتعلق دائمًا بالله وحده وتقطع طمعَك ورجاءَك عن الناس، لأن الله تعالىٰ إن توكلتَ عليه وعلقتَ قلبَك به، يجعل خلقَه يخدمونك ويقومون برعايتك، جزاء منه ومكافأة علىٰ حسن عملِك، لكن إن تعلقت بالناس وطمعتَ فيما عندهم، فاعلم أنهم سيخذلونك عندما تكون في أشدِّ حاجةٍ إليهم، لأنهم عندما خدموك كان ذلك بأمر الله وتدبيره، لكنك لما تخليت عن الله حال اللهُ سبحانه بينك وبينهم، حتىٰ تدرك عجزَك وفقرَك إلىٰ الله وحده.

قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ازهَدْ في الدنيا يُحبَّك اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وازهد فيما في أيدي الناس

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ١٢٨).

يحبَّك الناس»[1]، والزهد في الدنيا يدخل فيه الزهد بما في أيدي الناس، ونتيجة هذا الزهد محبة الله ثم محبة الناس للإنسان بتوجيه قلوبهم من الله إلىٰ محبته، فإذا أحب الناس إنسانًا خدموه.

ومن الآيات التي وجَّه الله فيها عبادَه إلىٰ التعلق به والتوكل عليه، قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٥/ ٢٢٥) برقم: (٤١٠٢)؛ والطبراني في الكبير (٦/ ١٩٣) برقم: (٥٩٧٢)؛ والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٤٨) برقم: (٧٨٧٣).

٦١٩

الشغل بالله تعالى

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «على قدر خوفك من الله يهابك الخلق، وعلى قدر حبك لله يحبك الخلق، وعلى قدر شغلك بالله يشتغل الخلق بأمرك»(١).

المعنى الإجمالي

الشغل بالله عما سواه مرتبة العارفين، فأما من لم يبلغ شأنَهم فالأولىٰ به مقام الخائفين(٢). وكان ذو النون المصري رحمه الله يقول: «من علامة المحب لله ترك كل ما يشغله عن الله حتىٰ يكون الشغل بالله وحده»(٣).

من أراد الله له وبه الخير شغله بطاعته، وعمَّر وقته كله بالمفيد النافع من العلوم التي تنفعه في دينه ودنياه؛ ولم يكن له من وقته نصيب في ضياع أمره، وشتات فكره فيما يعرض للعبد في الدنيا من انشغال بغير الله.

---

(١) شُعَبُ الإيمان للبيهقي (٢/ ٣٠٦)؛ وطبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص:١٠١)؛ وصفة الصفوة (٢/ ٢٩٥). وهذا الشرح يتعلق بما يخص الاستغناء بالله، وأما شرح ما يتعلق بمحبة الله فقد مر في باب محبة الله والشوق إلىٰ لقائه، الحكمة رقم: (٤٩٦)، وشرح ما يتعلق بالخوف والخشية مر في باب الخوف والخشية، الحكمة رقم: (٥٥٢).

(٢) التذكرة في الوعظ لابن الجوزي (ص: ٤٣).

(٣) البحور الزاخرة في علوم الآخرة (٣/ ١٥٦٩).

وإذا لم يشغل العبد المسلم نفسه بالشغل بالله فإنه سيكون مشغولًا بالناس، فلا يفيد نفسه ولا دينه ولا دنياه بشيء سوىٰ ضياع عمره وإتلافه فيما لا فائدة منه. لكنه حين يشغل نفسه بالله بأداء فرائضه، والاستزادة من النوافل، وأداء الحقوق لأصحابها، يكون قد تعلق بالله تعالىٰ، وشغل به؛ لأن من لم يشغل نفسه بالحق شغلته بالباطل، ومن لم يشغلها بالخير شغلته بالشر.

والعباد حين يرون شغل العبد بربه دون غيره يكون شغلا لهم فيقتدون به، وينتفعون بعلومه وآدابه، ويأخذون بوصاياه ومواعظه، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه العبد في حياته؛ ليشتغل الناس به في حياته وبعد مماته بذكر محاسنه، وقراءة علومه التي ينتفعون بها.

٦٢٠

الاكتفاء بغير الكافي افتقار

قال إبراهيم القصار[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «من اكتفى بغير الكافي افتقر من حيث استغنى»[(٢)].

بيـــان المفردات

الكافي: اسم من أسماء الله الحسنىٰ، وهو اسم فاعل مِن: كفىٰ يكف، فهو كافٍ، فالله عَزَّ وَجَلَّ كافٍ عباده، لأنه رازقهم وحافظهم ومصلح شؤونهم. كفيتُ الرجل الأمر أكفيه وكفايةً: إذا قمتَ به دونه[(٣)].

المعنى الإجمـــالي

صحة إيمان العبد بهذا الاسم الجليل تتحقق بألا يكون في ألوهيته وعبادته لله شرك؛ فلا ينبغي أن تكون العبادة إلا له، ولا الرغبة إلا إليه، ولا الرجاء إلا منه[(٤)].

إن من ظنَّ أنه مكتفٍ بغير الله الكافي، وأنه يستطيع أن يوصل نفسه إلىٰ الغنىٰ

---

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن داود الرقي، من جلة مشايخ الشام، من أقران الجنيد، صحبه أكثر مشايخ الشام وكان لازما للفقر. توفي سنة ٣٢٦هـ. ينظر: طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٢٤٥).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٢٤٦).

(٣) اشتقاق أسماء الله للزجاجي (ص: ٨٢- ٨٣).

(٤) المنهاج في شعب الإيمان للحليمي (١/ ١٩٠).

وسد الحاجة والعزة والرفعة، فقد وقع في فقره وحاجته وذلة نفسه وهوانه علىٰ الله تعالىٰ.

ومن يعتقد أنه يكتفي من الناس بما يجده من أعطياتهم وهباتهم وصدقاتهم، دون أن يحركه إيمانه إلىٰ الاكتفاء بما عند الله الكافي سبحانه، ودون أن يجد حرجًا في سؤاله للناس، فإنه يجد فقرا واسعا بابه، وحاجة غير مقضية.

إن الله تعالىٰ لا يرضىٰ لعبده أن يسأل الناس حاجته، أعطوه أو منعوه، لقد رأىٰ النبي ﷺ رجلًا يسأل الناس، فقال: «والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب علىٰ ظهره، خير له من أن يأتي رجلا فيسأله، أعطاه أو منعه»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ١٢٣) برقم: (١٤٧٠).

٦٢١

العزة بغيرالله ذلٌّ

قال إبراهيم القصَّار رحمه الله: «من تعزَّز بشيءٍ غير الله فقد ذلَّ في عزِّه»[١].

بيـان المفردات

تعزَّز: مأخوذ من العزّ، وهو خلاف الذلّ، ويأتي بمعنى القلة، تقول: عزَّ الشيء يعزّ: إذا قلَّ حتى لا يكاد يوجد، والعزُّ: الشدة والقهر[٢].

المعنى الإجمالي

إن العباد كلهم يطلبون العزة، ولا يبغون عنها بدلا، لكنهم يختلفون في طلبها، وفي معرفة مصدرها؛ فمنهم من يطلبُ العزة من مظاهر الدنيا كالمال أو المنصب والجاه والسلطان، أو من المؤهلات الأكاديمية، أو من قوة الجسم والعقل، فمن فعل ذلك فلن يجد بغيته في العزة الحقيقية، وإن رأى عزةً وخوفًا من الناس فإنها عزة مصطنعة تزول بزوال سببها، فينفض عنه الناس إن غاب ماله ومنصبه وجاهه وسلطانه، أو لم يكن ذا قدر كبير من العلم، أو ضعف وهزل جسمه، وافتقد ملكات

(١) طبقات الصوفية (ص: ٢٤٧).

(٢) غريب الحديث لابن قتيبة (١/ ٥٥٢)؛ ومقاييس اللغة لابن فارس (٤/ ٤٠)؛ والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٣/ ٨٨٥)؛ وتاج العروس للزبيدي (١٥/ ٢٣٢).

عقله في التذكر والتفكير. ويبقى العزيز من أطاع الله، وطلب رضا الله، وجعل محبة الله منطلق كل أقواله وأفعاله.

ولقد أوضح الله سبحانه في كتابه الكريم أن من يريد العزة فلا يطلبها من غير الله؛ لأنه لن يجد إلا الذلة والهوان؛ قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر:١٠].

ولما كان المنافقون يوالون الكافرين طلبا للعزة منهم، فقد بشرهم الله بالعذاب الأليم، وكان سبب موالاتهم للكافرين وابتغائهم العزة منهم كافيا لعذابهم في النار، قال تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٣٨-١٣٩].

ولما وصف المنافقون من أهل المدينة أنفسهم بالعزة، ووصفوا الرسول ﷺ ومن معه بالذلة، ولم يعلموا أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وصفهم الله بعدم العلم، فقال تعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [المنافقون:٨].

٦٢٢

الاكتفـاء بالله تعالى

قال الشبلي رحمه الله: «المُنعِم يكفيك عن النعمة، والنعمة لا تكفيك عن المنعم، والواحد يكفيك عن الجميع، والجميع لا يكفيك عن الواحد»(١).

المعنى الإجمـالي

هذه حكمة جليلة تربط العبد بربِّه وتقطعه عن غيره مهما كان في عينه كبيرًا ومرموقا. وموضوع هذه الحكمة يدور حول أربعة أمور:

الأمر الأول: أن الله سبحانه هو المنعم، فوجوده يكفي عن النعمة، فهو سيعطيك النعم وإن شاء أغناك عنها، فإذا استحضر الإنسان هذا الأمرَ من نفسه يستغني عن كل موجود مخلوق، وإن كان في ظروف صعبة وشدة، حتى لو كان مكبَّلًا بالقيود ومسجونًا بين أربعة جدران، إذا استذكر أن الله يراه ويعرف حاله، لا يشعر بقطع النعم عنه، وأن النعم تكون في المحن، فالمنعم يكفي ويغني عن وجود النعم. قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر:٣٦].

والأمر الثاني: هو أن النعمة لا تكفي عن المنعم، وإن كانت في الظاهر صورتها صورة النعمة، لكن الله يجعلها غصَّة على صاحبها بأن ينزع منها توفيقَه وبركتَه،

(١) تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق للفاريابي (ص: ٩٣).

فعند ذلك يفهم الإنسان أن وجود النعم لا تغني عن المنعم. قال تعالىٰ: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [فاطر:٢].

والأمر الثالث: أن الخالق الواحد يكفي العبدَ عن جميع الخلق، فإذا استعان بالله يكفيه حاجتَه، ولا يُحوِجه إلىٰ الخلق، بينما لو استعان بالناس جميعًا في قضاء حاجاته، إن كان الله تعالىٰ لم يشأ له ذلك لا يستطيع أحد أن يقضيها عنه. قال النبي ﷺ: «وإذا استعنت فاستعن بالله، وإذا سألت فاسأل الله»(١).

والأمر الرابع: أن جميع الخلق لو استعان بهم الإنسان لا يكفونه ولا يغنون عن الواحد الأحد، لأن أفعالهم تجري وفق إرادة الله، فإذا لم يرد الله أن تُقضىٰ حاجتُه، لا يستطيع أحد أن يقضيها، كما أنه لو أراد الناس له سُوءًا لا يكفيهم إلا الله الواحد سبحانه. قال النبي ﷺ: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت علىٰ أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»(٢).

(١) أخرجه الترمذي في جامعه برقم: (٢٥١٦)؛ وأحمد في مسنده برقم: (٢٧١٣)؛ قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
(٢) ينظر التخريج السابق.

٦٢٣

الاعتماد على الله والإخلاص له

قال عبد القادر الجيلاني[(١)] رحمه الله: «كن مع الحق بلا خلق، ومع الخلق بلا نَفْس، ومن لم يكن كذلك لم يَزَل في تخبيط ولم يَزَل أمْره فُرُطًا»[(٢)].

بيان المفردات

تخبيط: من خبَط يخبِط، خبط البعير الأرض بيديه: إذا ضربها، وقد خبط الطينَ: إذا اضطرب فيه، وخبَّط بالتشديد: أخطأ، والتخبيط: عدم التحقق في النقل، والتشويش والاضطراب[(٣)].

فُرُطًا: الفرَط: العجلة، وكان أمره فُرُطًا؛ أي: متروكًا، وقال أبو الهيثم: أمْره فُرُط؛ أي: متهاوَنٌ به مُضيَّع. وقال الزّجّاج: أي كان أمره التفريط، وهو تقديم العجز.

(١) عبد القادر بن موسىٰ بن عبد الله، أبو محمد، الحسني، محيي الدين، الجيلاني أو الكيلاني أو الجيلي، الحنبلي، مؤسس الطريقة القادرية، من كبار الزهاد والمتصوفين، ولد سنة ٤٧١هـ في طبرستان ثم انتقل إلىٰ بغداد برع في أساليب الوعظ، وتفقه وسمع الحديث، وقرأ الأدب، من كتبه: الفتح الرباني، وفتوح الغيب، والغنية، توفي سنة ٥٦١هـ. ينظر: فوات الوفيات (٢/ ٣٧٣)؛ الأعلام للزركلي (٤/ ٤٧).

(٢) الرسالة التبوكية لابن القيم (١/ ١٥).

(٣) ينظر: جمهرة اللغة لابن دريد (١/ ٢٩١)؛ الأضداد لابن الأنباري (ص:٣٧١)؛ تكملة المعاجم العربية رينهارت بيتر آن دوزي (٤/ ٢٠).

وقال غيره: ندَمًا[١].

المعنى الإجمالي

يتكلم الشيخ عبد القادر الجيلاني ﷺ في هذه الحكمة عن مرحلة من المراحل التي يصل فيها السائر إلىٰ الله ﷻ، وهي مرحلة الفناء عن النفس، وهو الفناء المأمور به الذي جاءت به الرسل؛ بأن يفنىٰ بعبادة الله عن عبادة ما سواه؛ وبطاعته عن طاعة ما سواه، وبالتوكل عليه عن التوكل علىٰ ما سواه، وبرجائه وخوفه عن رجاء ما سواه وخوفه، وأن تستعين بالله علىٰ حل مشاكلك، ولا تستعين بأحد من الخلق، فهم لا يملكون نفعًا ولا ضرًا؛ وهذا معنىٰ قوله: «كن مع الحق بلا خلق»؛ إذ إن فساد الخُلق إنّما ينشأ من توسُّطِ الخَلق بينك وبين الله[٢].

ومعنىٰ قوله: «ومع الخلق بلا نفْس»: أن تكون مخالطة السالك للناس تعاونًا علىٰ البر والتقوىٰ، ومن أجل القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا ينبغي أن تكون مخالطته لهم تامة؛ بحيث يخوض معهم فيما لا ينفع ولا يعني مما يخوض به العامة، وإنما يعزل نفسه عن ذلك، فهو يخالطهم من أجل القيام بالواجب لمحض النصيحة والإحسان ورعاية الأمر[٣]؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة:٢]، وقال: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٤].

(١) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (١٣/ ٢٢٦).
(٢) ينظر: مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (٨/ ٣٣٨).
(٣) ينظر: الرسالة التبوكية لابن القيم (١/ ١٥).

٦٢٤

الله هو الأعز الأجل

قال ابن الجوزي رحمه الله: «كلُّ عَزِيز وَإِن عزَّ وجلَّ فَالله أعزُّ مِنْهُ وَأجَلّ، وكلُّ فَائتٍ وَإِن عَظُمَ وَكَثُر فهو بالنّسبة إلى ما يفوت من الله أصغر وأقلّ»(١).

بيـان المفردات

العزيز: هو القوي الغالب الذي لا يُقهر(٢).

جَلّ: جَلَّ فلان: عَظُم قدْرُه(٣).

المعنى الإجمـالي

فالله هو القوي العزيز، ومهما بلغت قوة الإنسان وسلطته فما هو إلا عبد من عباد الله، وملكه وعزته وسلطانه هبة وعطاء من الله، ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران:٢٦].

وهؤلاء قوم عاد أُعطوا القوة والبسطة في الأجسام، فطغوا وتجبروا، وظنوا

(١) التذكرة في الوعظ لابن الجوزي (ص: ١٥٣).

(٢) لسان العرب لابن منظور (٥/ ٣٧٤)؛ تاج العروس للزبيدي (١٥/ ٢٣٢).

(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٤/ ١٦٦٠).

أنهم بلغوا من القوة مبلغًا لم يصل إليه أحد، ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت:١٥]، فأرسل الله عليهم ريحًا عاتيةً أهلكتهم، فما أغنت عنهم قوتهم شيئًا، فأين قوتهم من قوة الله؟!

ويوم القيامة تظهر هذه الحقيقة جلية، وينكشف حال كل قوي متجبر في الدنيا، ويظهر له زيف قوته، فيخضع الجميع للمَلِك الجبار سبحانه، عن أبي هريرة ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله الأرض، ويطوي السماوات بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأرض»(١).

كذلك كل ما يفوت الإنسان في هذه الدنيا من أنواع النعيم فهو بالنظر إلىٰ ما يفوت من نعيم الآخرة صغير تافه، لا مجال للمقارنة بينهما؛ فنعيم الدنيا زائل فانٍ، ونعيم الآخرة باق إلىٰ الأبد، ونعيم الدنيا مليء بالمكدِّرات والهموم، ونعيم الآخرة خالٍ من كل شائبة، ولذته ومتعته لا تدخل في عقول البشر وتصوراتهم، عن أبي هريرة ﵁، عن النبي ﷺ: يقول الله تعالىٰ: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ: مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سمعتْ، ولا خَطَر علىٰ قلب بَشر، ذُخْرًا، بَلْهَ مَا أُطْلِعْتُمْ عليه، ثُمّ قرأ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٧]»(٢)، فكيف يُترَك نعيم الآخرة الذي هذا صفته لِوَهْمِ مُتعةٍ رخيصةٍ سريعة الزوال!

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ١٢٦) برقم: (٤٨١٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ١١٦) برقم: (٤٧٨٠).

٦٢٥

سؤال غير السيد قُبْحٌ

قال ابن الجوزي رحمه الله: «لا تسألوا سوى مولاكم؛ فسؤال العبد غير سيِّده تشنيع عليه»(١).

بيـان المفردات

التشنيع: هو التقبيح، يقال: شنَّع عليه الأمر تشنيعًا أي قبحه(٢).

المعنى الإجمـالي

يرشد رحمه الله إلى أمر مهم يُربِّي في نفس العبد العزة، والإباء، والاستغناء عن الخلق بالخالق، وهو عدم سؤال أيٍّ من الناس، والزُّهد فيما في أيديهم، والاستغناء عن ذلك بسؤال الله الواحد الأحد، ملك الملوك، المتصرف في كل شيء، والمقدر لكل شيء، وبيده وحده خزائن كل شيء.

إن سؤال الغير فيه إظهار الذُّل من السائل، واعتراف منه بقدرة المسؤول على الإجابة، ولا يصلح الذُّل إلا لله بالعبادة والمسألة، ولا يقدر أحد على الإجابة سوى الله.

(١) المدهش لابن الجوزي (ص: ٢٦٧).

(٢) تاج العروس للزبيدي (٢١/ ٢٩٥).

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء:٣٢] دليل علىٰ وجوب سؤال الله سبحانه، فهو يحب أن يُسأل، وفي قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، وقوله ﷺ: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»[1]، إشارة إلىٰ الترفع عن سؤال الناس، وإلىٰ عبادته وحده وعدم سؤال غيره، والاستعانة به دون غيره.

وقد ورد أن النبي ﷺ بايع جماعة من أصحابه ﵃ ألا يسألوا الناس شيئًا، وكان أحدهم يسقط سَوطه أو خِطام ناقته فلا يسأل أحدًا أن يناوله إياه[2].

(١) أخرجه الترمذي في جامعه برقم: (٢٥١٦)؛ وأحمد في مسنده برقم: (٢٧١٣)؛ قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٣/ ٨٣) برقم: (١٦٤٢)؛ وابن ماجه في سننه (٤/ ١٢٥) برقم: (٢٨٦٧).

٦٢٦

ثمرات التحقُّق بالعبودية لله تعالى

قال ابن الجوزي رحمه الله: «من لم يعتز بِطَاعَة الله لم يزل ذليلاً، وَمن لم يسْتَشْفِ بِكِتَاب الله لم يزل عليلاً، وَمن لم يسْتَغْن بالافتقار الى الله فَهُوَ الدَّهْرَ فَقِيراً[١]، وَمن لم يتَحَقَّق بالعبودية لله فَهُوَ لكل شَيْء عبد»[٢].

المعنى الإجمالي

قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر:١٠]، من أراد أن يكون عزيزًا فليطلب العزة بطاعة العزيز سبحانه، فهو الذي يُعزُّ ويُذلّ، وهل تُرجى العزة لمن عصى الملك؟ بل إن المؤمن يصل إلى منتهى العزة عندما يُذل نفسه لخالقه كمال الإذلال، ولذلك عندما يضع المؤمن جبهته -وهي أعز الأعضاء وأشرفها- على مواطئ الأقدام في السجود، يصل إلى أعلى درجات القرب من الله؛ ففي الحديث: «أَقرَبُ ما يكونُ العبد مِن ربِّهِ وهو ساجد»[٣].

ومن طلب شفاء نفسه وقلبه من الوساوس والشبهات والحسد والقلق بغير القرآن فلن يزيده ذلك إلا مرضًا واضطرابًا وحَيْرة؛ لأنه لا شفاء من هذه الأمراض

(١) كلمة فقيرًا هنا: مفعول به لفعل محذوف تقديره: يعيش فقيرًا.

(٢) التذكرة في الوعظ لابن الجوزي (ص: ٣٨).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٤٩) برقم: (٤٨٢).

إلا بكلام الله، قال تعالىٰ: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء:٨٢]، والقرآن شفاء كذلك لأمراض الأبدان؛ ألم يأتِك نبأ النفر من الصحابة الذين مروا علىٰ قوم وقد لُدِغ زعيمهم، فرقاه أحدهم بفاتحة الكتاب فبرِئ[١]؟

الاستغناء بالله ﷻ يكون بالافتقار والتذلل والتسليم له سبحانه، وأن يستشعر العبد في كل ذرة منه فاقَتَه وحاجته التامة لربه، ومن استغنىٰ بالله أغناه، ومن طلب الغنىٰ بغيره افتقر أبد الدهر؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر:١٥].

ولا بد لمن أراد أن يعيش حرًّا أن يكون عبدًا للواحد سبحانه، فتمام الحرية يكون بتمام العبودية لله تعالىٰ، ومن استكبر عن عبادة الله لا بد أن يعبد غيره[٢]، وسيكون عبدًا لشهواته وأهوائه ولكل ما يحقق له المتعة العاجلة الزائلة، ومن يلهث وراء شهواته ستصيبه التعاسة، جاء في الحديث: «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شِيكَ فلا انْتَقَشَ»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ١٨٧) برقم: (٥٠٠٧).

(٢) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (١٠/ ١٩٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٣٤) برقم: (٢٨٨٧).

٦٢٧

تسخير الأكوان للإنسان

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكوِّن، فإذا شهدته كانت الأكوان معك»[1].

المعنى الإجمالي

خلق الله تعالىٰ الكون، وأقام نظامه علىٰ سنن ثابتة يسير عليها، قال تعالىٰ: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٣٦-٤٠]، فالله سبحانه هو الخالق المكوِّن، والنظام الذي يسير وفقه الكون مخلوق مدبَّر من خالقه.

والواجب علىٰ المسلم أن تكون نظرته وفهمه للكون والحياة علىٰ هذا الأساس وهذا الاعتبار، فيكون توجهه وخضوعه إلىٰ الله سبحانه الذي يشاهد آثار قدرته وعظمته في كل شيء، وحينئذ يكون هذا الكون مسخَّرا مطوَّعا لخدمته،

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١٠٧).

قال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٣]، وبهذا الفهم فإن المسلم يعطي هذه الأكوان قدرها الحقيقي، فهي أسباب أجراها الله تعالىٰ، وليس لها قيام ذاتي يلزم منه تأليهها وتعظيمها، أو الخوف منها أو الرغبة إليها، وهكذا تكون الأكوان معينة ومساعدة له علىٰ عبادة مولاه.

وأما إذا اقتصر نظره علىٰ المخلوقات، وانحصر تفكيره في الأسباب والمسببات، وتوقف عندها ودار معها حيث دارت، وتصرف وكأنها هي المؤثرة بذاتها، وإذا أراد فعل شيء من الأشياء التمسه في الأسباب الظاهرة له ناسيا رب الأسباب، وإذا وقعت مصيبة أو حادثة نسبها للأسباب وكأن الأسباب هي التي أحدثتها، فالمطر ينزل بسبب المنخفض الجوي، والزلزال يحدث بسبب التصدّع الأرضي، والأمراض تنتشر بسبب تلوث الهواء، والغنىٰ يحصل بالعمل الدؤوب، فمن اقتصر نظره علىٰ هذا فهو مقيد مكبّل في هذه الحدود، عبد لهذه المخلوقات، سواء كانت عبودية مطلقة كما هي عند من لا يؤمن بما وراء الأسباب أصلا، أو انغماسا في ملاحظة الأسباب مما يجعل القلب متعلقا بها بدلا من التعلق بخالقها.

٦٢٨

من توكل على الله لا يخيب ولا يُهان

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «إلهي، كيف أخيب وأنت أملي، أم كيف أُهانُ وعليك مُتَّكَلي!»[(١)].

بيــان الـمفردات

الخَيْبة: الحِرمان وعدم نيل المطلوب[(٢)].

الـمعنى الإجمـالي

حين يقف المؤمن بين يدي الله، ينطلق مناجيا ربه، ويجري على لسانه من الدعاء ما يعكس المعاني الإيمانية التي يستحضرها في قلبه؛ فاللسان مرآة القلب، إذا استقر الشعور الصادق في القلب نطق به اللسان عفوا من غير تصنّع ولا تكلّف، وفي هذه المناجاة يبدأ الإمام ابن عطاء الله بنداء إلهه واستحضار مقام العبودية والخضوع له.

فيتساءل متعجبًا عما لا يمكن أن يكون أبدًا، ويقول ما معناه: كيف أُحرَم وقد وضعتُ أملي في الله الذي لا تخيب عنده الآمال؟! وكيف لا أحصل على

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١٥٠).

(٢) لسان العرب لابن منظور (١/ ٣٦٨).

مطلوبي وقد أَويتُ إلىٰ ركن الله الحصين؟! وفي هذه المناجاة تجديد لحسن الظن بالله، وقد قال الله تعالىٰ كما جاء في الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي»(١).

كذلك يتعجب ويتساءل: كيف يحلّ الذل والهوان عليّ وقد وكّلتُ أمري إلىٰ الله؟! كيف لا أثق بك وأنا أستشعر معنىٰ قولك: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]؟، كيف لا وأنت صاحب العزة تعِز من تشاء: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر:١٠]؟، ﴿ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:٢٦].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ١٢١) برقم: (٧٤٠٥)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٦٢) برقم: (٢٦٧٥).

٦٢٩

العز الذي لا يفنى

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «إنْ أردْتَ أنْ يكونَ لك عِزٌّ لا يَفنَى، فلا تستَعِزَّنَّ بِعِزٍّ يَفنَى»[١].

بيان المفردات

العزة: هي الترفُّع عن المهانة وعن الذُّلّ للآخرين، ومن ثَمَّ فهي تختلف عن التكبر الذي هو التسامي على الآخرين[٢].

المعنى الإجمالي

والعزة من الخصال المحمودة، في حين أن التكبُّر من الخصال المذمومة. والإنسان مفطور على الاعتزاز، لكنه مفطور على الضعف أيضا؛ قال تعالى: ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء:٢٨]، ومن هنا احتاج الإنسان حتى يمارس عزتَه إلى ما يعينه على ذلك. وبعبارة أخرى: إلى حصنٍ يَقِيه الوقوعَ في آفات الذل والمهانة للآخرين؛ ضعفه يعرضه للذل والمهانة، وفطرته تشدُّه إلى الاعتزاز، ولا بد له في ذلك من عون. وهذا الأمر الذي يعالجه ابن عطاء الله في هذه

(١) الحكم العطائية (ص: ٣٦).

(٢) ينظر: الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٣/ ٦٤).

الحكمة[١].

العز الذي لا يفنىٰ هو العز بالله والغنىٰ بطاعة الله، ويكون العز بالله تعالىٰ بتعظيمه وإجلاله، وهيبته ومحبته ومعرفته، وحسن الأدب معه في كل شيء وعلىٰ أيِّ حال، ويكون بالرضا بأحكامه. والعز بطاعة الله يكون بالمبادرة إلىٰ امتثالِ أمرِهِ واجتنابِ نهيِهِ، والإكثارِ مِن ذكرِه.

وأما التعزُّز بالعز الذي يفنىٰ، فهو التعزز بالمخلوق: كتعزز ملوك الجور ومن انتسب إليهم بكثرة الأتباع والأجناد، وكالتعزز بالأموال والجاه في غير محله، وبالرياسة، وغير ذلك مما ينقطع ويَبِيد. فمن تعزز بهذا مات عزُّه واتصل ذلُّه، فإن التعزز بالمخلوق يعقبه الذل عاجلًا أو آجلًا. وهذا هو معنىٰ الحكمة[٢].

قال تعالىٰ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر:١٠]. وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة:٥٦]. وقال أيضا: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون:٨].

قال الشاعر:

اجعلْ بربِّك شأنَ عزِّك يستقرُّ ويثبُتُ فإنِ اعتززتَ بمَن يموت فإن عزَّك ميِّتُ[٣]

---

(١) ينظر: الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٣/ ٦٤).

(٢) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ٢١٩-٢٢١).

(٣) شرح الحكم العطائية للشرنوبي (ص: ٧٩).

٦٣٠

علوُّ قيمة العبد عند ربه

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «جَعَلَك في العالَمِ المتوسِّطِ بين مُلكِهِ ومَلَكُوتِهِ؛ لِيُعلِمَك جلالةَ قدرِكِ بين مخلوقاتِهِ، وأنَّك جوهرةٌ تَنطَوِي عليها أصدافُ مُكَوَّناتِهِ»(١).

المعنى الإجمـالي

قد عظَّم اللهُ سبحانه هذا الإنسانَ، وجعله نخبةَ الأكوان؛ اجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره: فيه مُلكٌ وملكوتٌ، ونور وظلمة، وغيب وشهادة، وقدرة وحكمة، وحسٌّ ومعنىٰ. فقد جعل اللهُ الإنسانَ ناشئًا في العالم المتوسط، بين مُلكِهِ -وهو عالم الأشباح- أي: بشريته، وملكوتِهِ -وهو عالم الأرواح- أي: روحانيته؛ فليس مُلكيًا فقط، فيكون كالبهائم والجمادات، ولا ملكوتيًّا فقط، فيكون كالملائكة، ولكن جعله مركَّبًا من مُلك وملكوت، وجمع بين الظاهر والباطن، وبين الجسمانية والروحانية، وقد سخَّر له جميعَ مخلوقاته لنفعه؛ لتظهر مزيَّتُه بالمجاهدة والمشاهدة، ولِيُعلِمَه جلالةَ قدرِهِ بين مخلوقاته. قال تعالىٰ: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية:١٣](٢).

---

(١) الحكم العطائية (ص: ٧٠).

(٢) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ٥١٨)؛ وتعليقات يوسف الحاج علىٰ الحكم العطائية (ص: ٧٠).

قال الله تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين:٤].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء:٧٠].

ثم المطلوب منه إذا علِمَ هذا أن يكون في علاقته مع الله، والنهوض بما كلَّفَه به وائتمنه عليه، علىٰ مستوىٰ هذا القدر الذي رفعه اللهُ إليه، وأن يبذل ما في وسعه من جهدٍ ألا تنحطَّ به غرائزه إلىٰ الدُّون، كي لا يعاقبه اللهُ فيَهويَ به بعد تلك الرفعة إلىٰ أسفل سافلين(١).

(١) الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٥/ ٢٢٤).

٦٣١

تفريغ القلب مما سوى الله

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «فَرِّغ قلبك من الأغيار يملأْه بالمعارف والأسرار»(١).

بيـان المفردات

الأغيار: جمع غَير، والمقصود: كل ما سوىٰ الله تعالى.

المعنى الإجمـالي

القلب هو محل العواطف والمشاعر، فالحب والكراهية، والمهابة والتعظيم، والخوف والشوق، والأنس والوحشة، كل هذه المشاعر تسكن في القلب، ومن خصائص القلب أنه لا يمكن أن تجتمع فيه مشاعر متناقضة متضادة في محل واحد، فلا يمكن أن يكره شيئا معينا وأن يحب هذا الشيء نفسه من حيث الجهة نفسها في وقت واحد، قال تعالىٰ: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦ ﴾ [الأحزاب:٤].

وحب الله ومعرفته وتذوق أسرار عبادته، لا يمكن أن يجتمع في القلب مع حب الشهوات والملذات؛ فلا يمكن لهذه الأنوار والمعارف السامية أن تجتمع مع الأدران والأوساخ القلبية، فالقلب الذي طبع عليه بسبب الآثام والذنوب ينحجب

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٩٥).

عنه فقه المعاني الدقيقة، قال تعالىٰ: ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة:٨٧]، بل قد ينحجب عنه علم البديهيات وإدراكها، قال تعالىٰ: ﴿ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة:٩٣].

ومما هو معلوم معروف في علم التربية والسلوك، أن التخلية قبل التحلية، وبقدر التصفية تكون الترقية، فمن أكثر من ذكر الله، وداوم علىٰ تلاوة آياته، واشتغل بعبادته وطاعته، وملأ وقته في الأوساط التي تقرب منه مثل مجالس العلم النافع وحلقات الذكر، وابتعد عن المعاصي والأوزار، بل لم يجعل المتع هي شغله الشاغل حتىٰ لو كانت من المباحات، من طهر قلبه بمثل هذه الوسائل فقد صار مهيَّئًا لتحل فيه معرفة الله، فيمتلئ قلبه بمحبة الله، ويفهم الأشياء من حوله بمعناها الصحيح والغاية من خلقها، وجعل الله له نورا يرىٰ به الحق والهدىٰ.

والمعارف والأسرار الواردة في العبارة قد تكون بمعنىٰ واحد، ويحتمل أن تكون الأسرار أبلغ من المعارف أو أن المعارف هي العلوم والأسرار هي الأذواق لتلك العلوم(١).

٦٣٢

توجيه الهمة إلى الله تعالى

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «لا تتَعَدَّ نية همتك إلى غيره، فالكريم لا تتخطاه الآمال»(١).

المعنى الإجمالي

الله سبحانه هو أكرم الأكرمين، وكل شيء خزائنه بيده، يداه مبسوطتان بالعطاء، يعطي بغير حساب، ومهما كان طلب الإنسان في نظر الإنسان كثيرا فهو عند الله قليل، ومهما رأى الإنسان حاجته عسيرة فهي على الله يسيرة، فمَن وقف على باب مولاه الكريم أكرمه، ومن تعلق به لم يخب أمله. قال أبو حامد الغزالي رحمه الله: «الكريم هو الذي إذا قدر عفا، وإذا وعد وفى، وإذا أعطى زاد على منتهى الرجاء، ولا يبالي كم أعطى ولمن أعطى، وإن رفَعْتَ حاجة إلى غيره لا يرضى، وإذا جُفي عاتب وما استقصى، ولا يُضيع من لاذ به والتجأ، ويغنيه عن الوسائل والشفعاء، فمن اجتمع له جميع ذلك لا بالتكلف فهو الكريم المطلق، وذلك لله سبحانه وتعالى فقط»(٢).

فمن عرف أن الله هو أكرم الأكرمين، محّض توجهه إليه، وأظهر فقره بين يديه،

---

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٥٢).

(٢) المقصد الأسنى للغزالي (ص: ١١٧).

وعلّق أمله به وحده، وإذا نزلت به حاجة لجأ إلىٰ الله ﷻ؛ قال رسول الله ﷺ: «من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تُسَدّ فاقتُه، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل»(١).

والمقصود هو أن لا تتجاوز نية المسلم وعزمه كرم الله وعطاءه، لأنه هو وحده المعطي والنافع؛ ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر:٢]، وأما جريان المسلم مع الأسباب التي أقام الله تعالىٰ الكون عليها مثل أن الدواء سبب للشفاء، وأن السعي سبب للحصول علىٰ الكسب، فجريان المسلم مع هذه الأسباب لا حرج فيه ما دام موقنا في قلبه بأن الله هو المالك الرازق.

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٢/ ٤٣) برقم: (١٦٤٥)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ١٥٤) برقم: (٢٣٢٦).

٦٣٣

عِزُّ العبودية لله تعالى

قال ابن القيم رحمه الله: «كفى بك عِزًّا أنّك له عبدٌ، وكفى بك فخرًا أنَّه لك ربٌّ»(١).

المعنى الإجمالي

إنّ أوّلَ أمرٍ في القرآن الكريم في سورة البقرة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ [البقرة:٢١] يأمرُ بعبادةِ اللهِ تعالىٰ، وإفرادِها له وحدَه لا شريكَ له، والعبودية هي الغايةُ القصوىٰ، والمطلبُ الأسمىٰ، والمقصودُ الأعلىٰ من الخلْقِ، وهي قُوتُ القلوبِ، وغذاءُ الأرواحِ، وقُرَّةُ العيونِ، وسُرورُ النفوسِ(٢)، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦].

والأمر بالعبودية لله تعالىٰ يتضمن أن يكون الإنسان عبدًا لله تعالىٰ، وهذه العبودية مِن البشر للبشر ذُلٌّ، ومِن البشر لله تعالىٰ عِزٌّ وتشريف، ولذلك وصف الله تعالىٰ نبيَّه في أشرف المقامات بالعبودية لمّا عرجَ به إلىٰ السماء ﴿ سُبۡحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلًا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ﴾ [الإسراء:١]، وفي مقام

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٥٠).

(٢) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٣٦٥).

إنزال القرآن ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف:١]، ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال:٤١][١].

فكلّما امتلأ قلبُ العبدِ للهِ تعالىٰ حُبًّا، وله سبحانه ذلًّا وتعظيمًا، ولأوامرِه وشرعِه انقِيادًا وعملًا، كمُلَتْ فيه العبوديَّةُ للهِ تعالىٰ، فعَزَّ العبدُ بذلك وشَرُف، والعكس بالعكس، قال تعالىٰ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨].

وما أحسن قول القاضي عياض رحمه الله:

وممـــا زادني شـــرفًا وعـــزًّا ... وكِدْتُ بأخْمُصي أطأُ الثُّريا

دخـولي تحـت قولـكَ يـا عبـاديْ ... وأنْ صـيَّرتَ أحمـدَ لـي نبيًّـا[٢]

---

(١) ينظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ١٠)؛ مدارج السالكين لابن القيم (١/ ١٥٧).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للملا قاري (١/ ٩).

٦٣٤

فراسـة المؤمـن

قال ابن القيم رحمه الله: «يا أيها الأعزل! احذَرْ فراسةَ المتقي؛ فإنه يرى عورةَ عَمَلِك مِن وراءِ سِترٍ «اتَّقُوا فراسةَ المؤمن»[(١)]»[(٢)].

بيـان المفردات

الأعزل: الذي لا سلاح معه[(٣)].

الفِراسة: بالكسر، من قولهم: تفرَّستُ فيه خيرًا، وتفرَّس فيه الشيءَ: توسَّمه، فالرجل إذا كان فارسًا بعَيْنه ونظَرِه يقال عنه: بَيِّن الفِراسة، ويقال: إن فلانًا لَفارِسٌ بذلك الأمر: إذا كان عالمًا به، وهو المراد هنا[(٤)].

(١) أخرجه الترمذي في جامعه برقم: (٣١٢٧)؛ والطبراني في الأوسط برقم: (٧٨٤٣)؛ قال الترمذي: حديث غريب.

(٢) الفوائد لابن القيم (ص: ١٠٦).

(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٥/ ١٧٦٣)؛ والمفردات للراغب الأصفهاني (ص: ٥٦٥).

(٤) لسان العرب لابن منظور (٦/ ١٥٩-١٦٠).

المعنى الإجمالي

إن مَن لم يتحصَّن بذكر الله وطاعته، صار أعزل بلا سلاح، فلا يستطيع أن يتقي المخاوف والوساوس من النفس والشيطان، بخلاف المتقي الذي حصَّن نفسَه وزكَّاها، فإذا ورد هذا العاصي على المتقي فإنه يرى آثار المعاصي عليه وعوراتِ عملِه من خلال الفراسة والإلهام التي متَّعه اللهُ بها، فصاحب الفراسة يرى بعين البصيرة ما لا يراه الناظر بعين البصر.

وقد قال النبي ﷺ في الحديث: «اتقوا فِراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله»، ثم قرأ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر:٧٥]»[١]. والمتوسمون هم المتفرِّسون[٢]، وقال ﷺ في حديث آخر: «إنَّ لله ﷻ عبادًا يَعرِفون الناسَ بالتوسُّمِ»[٣]، وتفسير معنى الفراسة في كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ يأتي بمعنيين؛ أحدهما: ما دلَّ ظاهرُ هذا الحديث عليه، وهو ما يوقعه اللهُ تعالى في قلوب أوليائه، فيعلمون أحوال بعض الناس بنوعٍ من الكرامات وإصابة الظنّ والحدس، والثاني: نوع يُتعلم بالدلائل والتجارب والخِلقَة والأخلاق، فيعرف بها الإنسانُ أحوالَ الناس[٤].

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٢٠٠) برقم: (٣١٢٧)، وقال: حديث غريب.
(٢) وهذا قول مجاهد في تفسير هذه الآية. ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٤٣).
(٣) أخرجه البزار في مسنده برقم: (٦٩٣٥)؛ والطبراني في الأوسط برقم: (٢٩٣٥)؛ قال الهيثمي: إسناده حسن. ينظر: مجمع الزوائد (١٠/ ٢٦٨).
(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٣/ ٤٢٨).

٦٣٥

كل الأشياء صَدَفٌ وأنت الدُّرُّ

قال ابن القيم ﷺ: «يا مَن غُذِّي بِلِبانِ البرِّ، وقُلِّبَ بأيدِي الألطاف! كلُّ الأشياءِ شجرةٌ وأنت الثمرةُ، وصورةٌ وأنت المعنى، وصَدَفٌ وأنت الدُّرُّ، ومَخِيضٌ وأنت الزُّبْدُ»(١).

بيـان المفردات

اللِّبان: بالكسر، الرضاع، وبالفتح: الصدر، وبالضم: الصمغ والكُنْدُر، مأخوذ من اللَّبَن، لكنه لا يقال: هو أخوه بلبن أمه، إنما يقال: بلبان أمه؛ لأنه لم يُسمَع من العرب(٢).

قُلِّب: فعل مضاعف من قَلَب، بمعنىٰ: صرفه من وجه إلىٰ وجه، والمصدر: التقليب، وتقليب الشيء: تغييره من حالٍ إلىٰ حالٍ(٣).

---

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ١٠٩).

(٢) ويرىٰ ابن السكيت فيما نقل عنه ابن فارس أنه لا يقال: بلبن أمه، وإنما اللبن الذي يشرب من ناقة أو شاة أو غيرهما من البهائم، وتعقبه ابن فارس أن ذلك غير منكر، لأنه مأخوذ من اللبن المشروب، لكن لا يقال: بلبن أمه، إنما يقال: بلبان أمه. ينظر: مقاييس اللغة (٥/ ٢٣٢)؛ المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة (٢/ ٨١٤)؛ لسان العرب لابن منظور (١/ ٧٣٦).

(٣) المفردات للراغب الأصفهاني (ص: ٦٨١).

صدَف: صدفُ الدرَّة: غشاؤها، والواحدة: الصَّدَفَة(١).

الدُّرُّ: جمع دُرَّة، وهي اللؤلؤة، يقال: الكوكب الدري، أي: الثاقب المضيء، نسب إلىٰ الدر لبياضه(٢).

مخيض: هو اللَّبَن الذي أُخرِج زُبْدُه، من المخض، وهو التحريك الشديد، فهو مخيض وممخوض(٣).

الزُّبْد: ما خَلُص من اللبن إذا مُخِض، والقطعة منه زبدة(٤).

المعنى الإجمالي

هذه الحكمة تتحدث عن قيمة الإنسان ومكانته عند ربه، ويخاطب ابن القيم في هذا الكلام ابنَ آدم، حيث قال قبل ذلك: «... هل عرفتَ قيمةَ نفسك! إنما خُلِقت الأكوانُ كلُّها لك»(٥)، ثم ذكَّره بنِعم الله تعالىٰ عليه وعنايته به منذ ولادته، فقال: يا مَن غُذِّي وأُطعِم من ضرع البر والخير، وقلَّبه من حال إلىٰ حال وأنبته الله في مراحل النموِّ بأيادي اللطف والشفقة، انظر إلىٰ من حولك، فكل شيء شجرة وأنت الثمر، وكل شي صورة وأنت المعنىٰ الذي تعطيه تلك الصورُ، وكل شيء صدفة، وأنت اللؤلؤة التي تكون مكنونة تحتها، وكل شيء لبن منزوع الزبدة وأنت الزبدة.

---

(١) مختار الصحاح للرازي (ص: ١٧٤).

(٢) مختار الصحاح للرازي (ص: ١٠٣).

(٣) المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة (٢/ ٨٥٧).

(٤) لسان العرب لابن منظور (٣/ ١٩٢).

(٥) الفوائد لابن القيم (ص: ١٠٩).

مصداق هذا الكلام في آيات كثيرة ذكر فيها تكريم الإنسان، مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦-٨]، وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤]، وفي قصة آدم وسجود الملائكة دلالة علىٰ شرف الإنسان ومكانته.

بـاب القدر

٦٣٦

الجزاء من جنس العمل

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لكلِّ زارعٍ مثلُ ما زرع؛ لا يسبقُ بطيءٌ بحظِّه، ولا يُدرِك حريصٌ ما لم يُقدَّر له»[1].

المعنى الإجمالي

إن الله عز وجل حكيم عدل، لا يظلم أحدًا مثقال ذرة، يجزي من أحسن بالحسنىٰ، ويجزي المسيء بما عمل، ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، فمن عمل خيرًا وجد خيرًا، والله لا يضيع أجر من أحسن عملًا، ومن عمل شرًّا وجد شرًّا، ولا يظلم ربك أحدًا، وما كان الحظُّ وشرف النسب سبيلًا ولا سببًا في الوصول إلىٰ المجد والتفوق، بل إن الأمر يعود إلىٰ الجد والعمل، فمن عمل واجتهد وجد ثمرة عمله، ومن تقاعس وكسل، واعتمد علىٰ شرف نسبه وفضل آبائه فلن يجني شيئًا.

قال النووي تعليقًا علىٰ حديث: «من بطَّأ به عملُه لم يُسرع به نسبه»[2] معناه: من كان عمله ناقصًا لم يُلحقه بمرتبةِ أصحاب الأعمال، فينبغي ألا يتَّكل علىٰ

---

(١) الزهد لابن أبي الدنيا (ص: ١٨٢)؛ حلية الأولياء لأبي نعيم (١/ ١٣٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٧١) برقم: (٢٦٩٩).

شرف النسب وفضيلةِ الآباء ويُقَصِّرَ في العمل[١].

وكذلك فإن الذي يحرص على العمل والأخذ بالأسباب لن يدرك ما سعى إليه وطلبه إلا إن كان مقدَّرًا له في علم الله، مهما جد وبذل، فكل شيء مقدر مقسوم، وما على الإنسان إلا أن يأخذ بالأسباب، ثم يتوكل على الله، والرزق لا يسوقه إليك حرص حريص، ولا يمنعه عنك كراهة كاره، جاء في الحديث: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجَفَّت الصُّحُف»[٢].

(١) شرح النووي على مسلم (١٧/ ٢٢-٢٣).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٨٤) برقم: (٢٥١٦). وقال: حسن صحيح.

٦٣٧

الإيمان بالقدر دليل التوحيد

قال عبد الله بن عباس ﵄: «الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن كذَّب بالقدر نَقَض تَكذيْبُه توحيدَه، ومن آمن بالقدر صدَّق إيمانُه توحيدَه»(١).

المعنى الإجمالي

القدر خيرٌ وشرٌّ حلوٌ ومرٌّ سراء وضراء، والحياة كلها مبنية على هذا التدبير والتقدير، فما من قدر قدَّره الله في أرض الله إلا بعلمه وإذنه، فمن آمن بهذا النظام الإلهي والتقدير الرباني صدق إيمانه وتوحيده لله تعالى، وهدى الله قلبه للإيمان والرضا بعد قضاء الله وحكمه، «فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطاه لم يكن ليصيبه»(٢)، يقول الله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن:١١].

وقال الله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ [الحديد:٢٢]، إن من علم أن ما عند الله معقود لا محالة، لم يتفاقم جزعه عند فقده؛ لأنه وطَّن نفسه على ذلك، وكذلك من علم أن بعض الخير واصل

(١) السنة لعبد الله بن أحمد (٢/ ٤٢٢)؛ ومدارج السالكين لابن القيم (١/ ٤١٢).

(٢) جامع البيان للطبري (٢٣/ ٤٢١).

إليه، وأن وصوله لا يفوته بحال، لم يعظم فرحه عند نيله(١).

ومما يوضح المعنىٰ في الآية أيضًا أن الضمير في﴿ نبرأها ﴾ اختلف المفسرون علىٰ من يعود؟ فقيل: علىٰ المصيبة، وقال آخرون: علىٰ الأرض، وقال آخرون: علىٰ الأنفس، وهي كلها معان صحاح؛ لأن الكتاب السابق أزلي قبل هذه كلها(٢).

والإيمان بالقدر نظام لتوحيد العبد لربه ﷻ؛ فمن كذَّب بالقدر فقد نقض تكذيبه صدق توحيده لله تعالىٰ، بل جزاؤه النار؛ كما جاء عن الرسول ﷺ أن جزاء المكذب بالقدر النار، فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «لا يدخل الجنة عاقٌّ ولا منانٌ ولا مكذِّبٌ بالقدر»(٣).

وطعم الإيمان وحلاوته وصدقه لا يتأتىٰ إلا بالإيمان بالقدر فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يجدُ عبدٌ طعم الإيمان حتىٰ يؤمن بالقدر كله»(٤).

(١) الكشاف للزمخشري (٤/ ٤٧٩).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥/ ٢٦٨).

(٣) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (٢/ ٤٥٢) برقم: (١٢٢٧).

(٤) أخرجه أبو داود في مسنده (١/ ١٤٢) برقم: (١٦٥).

٦٣٨

تقدير الله

قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: «من لم يصلح على تقدير الله لم يصلح على تقدير نفسه»(١).

المعنى الإجمالي

إن تقدير الله تعالىٰ سابق لخلقه؛ كما روىٰ عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»(٢).

وعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «أول ما خلق الله القلم، فقال: اكتب، قال: رب وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلىٰ يوم القيامة»(٣).

وإن العبد المؤمن حين يقرأ هذه الأدلة يزداد يقينه بتقدير الله وتدبيره لكل خلقه، وتيسيره وتسخيره ما في السماوات والأرض جميعا منه لعباده، ويبرز أثر إحسان الله بعباده إحسانه في تدبير أمورهم، ومعاشهم، وقضاء حوائجهم، وكذا ما

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٧/ ٢٧٨)؛ وشعب الإيمان للبيهقي (١/ ٣٩١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٤٤) برقم: (٢٦٥٣).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ٢٢٥) برقم: (٤٧٠٠).

يكون في معادهم بعد رجوعهم إليه، وتدبير الله لا يتوقف علىٰ الأمور الظاهرة التي يلمسها العبد فهناك من التدبير والتقدير واللطف ما لا يعلمه إلا الله اللطيف الخبير.

قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ [الأنبياء:٤٢].

لكن من لم يصلح لتدبير الله، ويشعر بالرضا والسكون، فإنه كذلك لن يصلح لتدبير نفسه؛ فنفسه لا ترضىٰ بالتدبير الذي يعده العبد، بل تتعارض معه؛ فإن من لم يرض ويسعد ويطمئن ويصلح لتقدير الله فإن الله لن يجعله يصلح لتقدير نفسه كذلك.

٦٣٩

قلوب المقربين والأبرار

قال السَّرِيُّ السَّقَطي رحمه الله: «قلوب المقربين مُعلَّقة بالسوابق، وقلوب الأبرار مُعلَّقة بالخواتيم؛ هؤلاء يقولون: بماذا يُخْتَم لنا؟ وأولئك يقولون: ماذا سبق من الله لنا؟»[(١)].

المعنى الإجمالي

جعل الله عباده المؤمنين مراتب ودرجات؛ فمنهم السابقون المقربون، ومنهم أصحاب اليمين، ومنهم المقتصدون في الطاعات، ولكلٍّ جزاؤه عند الله تعالىٰ. وقد ذكر الله مراتبهم وجزاءهم في مواضع من كتابه الكريم.

إنَّ قلوبَ المقربين معلقةٌ بما سبق لهم في علم الله تعالىٰ من الهداية والإيمان والصلاح، فإنَّ من سبقت له من الله الحسنىٰ فهو الفائز بجنة الله، والناجي من عقاب الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١-١٠٣].

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ١٢١).

وقد كان السلف يشتد خوفهم لعدم معرفتهم بما كتبه الله في الكتاب السابق؛ ورد أنه مرض رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، فدخل عليه أصحابه يعودونه، فبكىٰ، فقيل له: ما يُبكيك يا أبا عبد الله؟ ألم يقل لك رسول الله ﷺ: «خذ من شاربك، ثم أقِرَّه حتىٰ تلقاني»؟ قال: بلىٰ، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله قبض قبضةً بيمينه، وقال: هذه لهذه ولا أبالي، وقبض قبضة أخرىٰ بيده الأخرىٰ، فقال: هذه لهذه ولا أبالي» فلا أدري في أيِّ القبضتين أنا[1].

وهذا مالك بن دينار ؒ يضع رأسه في محرابه، ثم يقول: «إلَه مالِكٍ! قد علمتَ ساكن النار من ساكن الجنة، فأي الرجلين مالك؟ ثم يبكي»[2].

والأبرار يتعلقون بالخواتيم، ينظرون كيف تختتم أعمالهم وأعمارهم؛ فهم خائفون من سوء الخاتمة، إذ الأعمال بالخواتيم، وقد جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وإنه من أهل النار، ويعمل بعمل أهل النار،فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة». وفي رواية: «وإنما الأعمال بالخواتيم»[3].

فخاتمة السُّوءِ تكونُ بسبب دسيسةٍ باطنة للعبد لا يطّلع عليها الناس؛ من جهة عمل سيء، ونحو ذلك، وكذلك قد يعمل الرجلُ عملَ أهل النَّارِ وفي باطنه خصلةٌ خفيةٌ من خصال الخير، فتغلِب عليه تلكَ الخصلةُ في آخر عمره، فتوجِب له حسنَ الخاتمة.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩/ ١٣٥) برقم: (١٧٥٩٤). وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، ينظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي (٧/ ١٨٦).

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٦٠).

(٣) الروايتان في صحيح البخاري؛ الرواية الأولىٰ (٥/ ١٣٣) برقم: (٤٢٠٧)، والثانية: (٨/ ١٢٤) برقم: (٦٦٠٧).

هذا سفيان الثوري لما حضرته الوفاة جعل يبكي، فقال له رجل: يا أبا عبد الله، أراك كثير الذنوب، فرفع شيئًا من الأرض فقال: «والله لَذنوبي أهون عندي من ذا، إني أخاف أن أُسْلَب الإيمان قبل أن أموت»[1].

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٧/ ١٢).

٦٤٠

موافقــة القدر ومنازعتــه

قال عبد القادر الجيلاني ﵀: «كثيرٌ من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، إلا أنا؛ فإني انفتحتْ لي منه رَوْزَنَةٌ، فنازعتُ أقدارَ الحق بالحق للحق، والرجل من يكون منازعًا للقدر، لا من يكون موافقًا له»(١).

بيــان الـمفردات

رَوْزَنَة: فارسية مُعَرّبة، تعني: الكوَّة والنافذة في الجدار(٢).

الـمعنى الإجمــالي

هذه الحكمة الجليلة قالها الشيخ العارف القدوة عبد القادر الجيلاني في موضوع القضاء والقدر وعلاقته بالأسباب، فهو يذكر أن الرجال أو الناس إذا وصلوا إلىٰ موضوع القضاء والقدر توقفوا عن الكلام فيه لدقته وخشية الخطأ فيه، لكنه لم يفعل ذلك لوضوح المعنىٰ عنده، فالإيمان بالقضاء والقدر لا يتعارض مع الأخذ بالأسباب، فإن الأسباب هي من قدر الله، كما جاء في الحديث الشريف:

(١) نقله ابن تيمية وابن القيم في عدة مواضع من كتبهما؛ ينظر: مجموع الفتاوىٰ (٢/ ٤٥٨)؛ (٢/ ٣٠٦)، (١٠/ ١٥٨)؛ ومدارج السالكين لابن القيم (١/ ١٩٩)؛ وطريق الهجرتين (ص: ٦٧).

(٢) ينظر: توضيح المشتبه لابن ناصر الدين الدمشقي (٤/ ٢٤١)؛ والمحيط في اللغة للصاحب ابن عباد (٩/ ٣٩)؛ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (١٩/ ٣٣).

«يا رسول الله، أرأيت أدويةً نتداوىٰ بها ورُقىً نسترقي بها، أترُدُّ قدرَ الله؟ فقال: إنها من قدر الله»(١)، وفي رواية: «هي من قدر الله»(٢)، يعني: أن الله تعالىٰ ربط الأسباب بالمسببات، فحصوله عند وجود الأسباب من جملة القدر، فيشرع الإنسان أن يأخذ بأسباب التغيير.

وهذا معنىٰ منازعة القدر التي ذكرها الجيلاني ونسبها إلىٰ الرجل الحق، وفي رواية: «إلىٰ الولي»، وهي كما قال سيدنا عمر بن الخطاب لأبي عبيدة رضي الله عنهما: «نَفِرُّ من قدر الله إلىٰ قدر الله»، أي: نفرّ من قدر الطاعون بعدم الدخول إلىٰ مواطنه أخذًا بالأسباب، كما قال بعدها: «أرأيت لو كان لك إبل هَبَطَتْ واديًا له عدوتان: إحداهما خصبة، والأخرىٰ جدبة، أليس إن رعيت الخصبةَ رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟»(٣).

قال الإمام ابن تيمية: «وهذا الذي قاله الشيخ تكلم به علىٰ لسان المحمدية، أي: أن المسلم مأمور أن يفعل ما أَمَر اللهُ به، ويدفع ما نهىٰ عنه، وإن كانت أسبابه قد قدرت فيدفع قدرَ الله بقدر الله»(٤).

وقال: «والعبد مأمور بأن يجاهد في سبيل الله، ويدفع ما قُدِّر من المعاصي بما يقدر من الطاعة، فهو منازع للمقدور المحظور بالمقدور المأمور لله تعالىٰ، وهذا دين الله الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل صلوات الله عليهم أجمعين»(٥).

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٣/ ٥٨١) برقم: (٢٠٦٥)؛ والحاكم في مستدركه (٤/ ١٩٩) برقم: (٧٥٢٤)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤/ ٤٩٨) برقم: (٣٥٤٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ١٣٠) برقم: (٥٧٢٩)؛ ومسلم في صحيحه (٧/ ٢٩) برقم: (٢٢١٩).

(٤) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (٢/ ٤٥٨).

(٥) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (٨/ ٣٠٧).

وقال في موضع آخر: «والذي ذكره الشيخ رحمه الله هو الذي أمَر اللهُ به رسولَه»[١].

وقال الإمام ابن القيم: «وراكبُ هذا البحرِ -أي: القدر- في سفينة الأمر، وظيفته مصادفة أمواج القدر ومعارضتها بعضَها ببعضٍ وإلا هلك، فيرُدُّ القدرَ بالقدر، وهذا سير أرباب العزائم من العارفين، وهو معنىٰ قول الشيخ العارف القدوة عبد القادر الكيلاني...»، إلىٰ أن قال: «وإذا طَرَقَ العدوُّ من الكفار بلدَ الإسلام طرقوه بقدر الله، أفيَحلُّ للمسلمين الاستسلام للقدر وترك دفعه بقدرٍ مثلِه، وهو الجهاد الذي يدفعون به قدر الله بقدره»[٢].

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ١٥٨)، (٢/ ٣٦٧).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ١٩٩-٢٠٠)؛ طريق الهجرتين له (ص: ٦٧).

٦٤١

حُكْم الأزل سابق

قال ابن عطاء الله السكندري ﵀: «جَلَّ حُكم الأزل أن يَنْضاف إلى العِلل»(١).

بيان المفردات

جَلّ: عظُم قدْره.

الأزل: القِدَم، وما لا أوّل له.

العلل: جمع علة، وعلة كل شيء: سببه(٢).

المعنى الإجمالي

المسلم مأمور بالتوكل على الله تعالى في كل شؤونه؛ قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التغابن:١٣]، كما أن المسلم مأمور بالأخذ بالأسباب بعد التوكل على الله؛ قال رجل للنبي ﷺ: أُرسل ناقتي وأتوكل؟

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٥٦).

(٢) المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة (١/ ١٦) (٢/ ٦٢٤).

قال: «اعْقِلها[١] وتوكل»[٢].

والأسباب في حقيقة الأمر ليست فاعلا حقيقيا بذاتها، بل هي طُرق أقامها الله وجعلها موصلة إلىٰ مسبَّباتها، فالأحكام الأزلية القديمة التي قدَرها الله سبحانه قبل خلق الخلائق هي سابقة ومتقدمة في الوجود علىٰ الأسباب والعِلل، ولذلك فإن هذه المقادير قَدْرها أعظم وأكبر من أن تسند إلىٰ الأسباب إسنادا حقيقيا.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧] نُفِي عن القتل أنه واقع من قبل المؤمنين وأُسند إلى الله سبحانه، وكذلك الرمي أثبت للنبي ﷺ ثم نُفي عنه، والمقصود أن الفاعل الحقيقي والخالق للأسباب هو الله تعالىٰ.

وتدل هذه الحكمة علىٰ أن قلب المؤمن ينبغي أن يبقىٰ متعلقا بالله ﷻ، وأن يستحضر دائمًا أن الأسباب إنما حصلت بتقدير الله وأمره، ولذلك تكون رغبته إلىٰ الله ورهبته منه.

---

(١) **اعقلها**: أي اربطها وأوثقها.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٥١٠) برقم: (٧٣١)؛ والحاكم في مستدركه (٣/ ٦٢٣) برقم: (٦٦٧٩).

٦٤٢

خضوع الهمم للأقدار

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «سَوابِقُ الهِمَمِ لا تَخرِق أسوارَ الأقدار»[١].

بيان المفردات

سوابق، جمع سابقة، وهي: المتقدمة.

الهمم جمع همة، وهي: قوة انبعاث القلب في طلب الشيء والاهتمام به[٢]. فالهمم السوابق هي: قُوَىٰ النفس التي تنفعل عنها الأشياء بإرادة الله تعالىٰ، وتكون للولي كرامة، ولغيره -كالساحر- إهانةً[٣].

المعنى الإجمالي

أن ما قدَّره الله ﷻ في الأزل لا تخرِق أسوارَه المحيطةَ به سوابقُ الهِمَم، أي: الهمم السوابق. وفيها تشبيه للأقدار بمدينةٍ لها أسوار في الصيانة والحفظ[٤].

---

(١) الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٥٨).

(٢) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ٣٤).

(٣) شرح الحكم العطائية للشرنوبي (ص: ١٧).

(٤) شرح الحكم العطائية للشرنوبي (ص: ١٧).

فيجب علىٰ الإنسان أن يعتقد أن الهمم أسباب عادية لا تأثير لها، وما ينشأ عنها إنما هو بقضاء الله تعالىٰ وقدره، فيكون عندها لا بها. فإرادة الإنسان خلافَ ما أراده الله تعالىٰ لا تُجدِي نفعًا، ولا تأثير لها في الحقيقة، حتىٰ يظُنَّ أنها توجِب له رفعًا(١).

فمهما كانت همة الإنسان عالية، فهناك قدر لا تستطيع الهمةُ أن تخرقَه، فلا بد من التسليم لله ﷻ، وأن يعرف أن هناك قدرًا هو الذي يحكم، وعليه أن يعمل قيامًا بالتكاليف ومراعيًا الأهدافَ وعلىٰ قدر الطاقة. والشيخ هنا لا يقول لنا: لا تتحركْ همُمُكم نحو المعالي، فليس هذا مرادًا، ولكن يقول: سلِّموا لله بعد أن تبذلوا كلَّ جهودِكم في تحقيق المطلوب الشرعي مع التسليم لله ﷻ إذا لم يتحقق المطلوب(٢).

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢]. وقد يحصل التأثير للهمة القوية وإن كان صاحبها ناقصا، كالساحر والعائن، ومع ذلك لا يحصل ذلك إلا بقدر الله وقضائه، كما أخبر سبحانه.

وقال ﷻ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]. وقال سبحانه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان:٣٠].

وقال النبي ﷺ: «كلُّ شيءٍ بقضاءٍ وقدرٍ، ولو هذه»، وضرَبَ بأصبعِهِ السبابةِ علىٰ حَبلِ ذراعِهِ الآخَرِ(٣).

---

(١) تعليقات يوسف الحاج أحمد علىٰ الحكم العطائية (ص: ٥٨)؛ وينظر: المرجع السابق (ص: ١٧).

(٢) مذكرات في منازل الصديقين والربانيين لسعيد حوىٰ (ص: ٢٠٦-٢٠٧).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٦/ ١٤٧) برقم: (٦٠٤٦)؛ وفي سنده رواة غير معروفين. ينظر: مجمع الزوائد للهيثمي برقم: (١١٨٩٨).

٦٤٣

الأنفاس أقدار

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «ما من نفَسٍ تُبديه إلا وله قدر فيك يُمْضيه»[١].

المعنى الإجمالي

عمر الإنسان الذي يحياه هو مجموع ما يَمضي عليه من تعاقب الليل والنهار، ومرور الساعات، وتجدُّد الأنفاس، وكل نفَس يُبديه الإنسان، وكل حركة أو سكْنة له، وكل ما يجري معه منذ ولادته إلىٰ أن يموت، إنما يجري ويكون علىٰ وفق ما قضاه الله وقدّره منذ الأزل، قال تعالىٰ: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان:٢]، ﴿ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ أي هيأه لِمَا أراد به من الخصائص والأفعال اللائقة به ﴿ تَقْدِيرًا ﴾ بديعًا لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه كتهيئة الإنسان للفهم والإدراك والنظر والتدبر في أمور المعاد والمعاش واستنباط الصنائع المتنوعة ومزاولة الأعمال المختلفة إلىٰ غير ذلك[٢]، والنفس وهو أسهل الأشياء وأهونها محكوم بقدر الله فغيره مما هو أكبر منه أولىٰ بدخوله تحت أقدار الله.

---

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٢٨).

(٢) روح المعاني للآلوسي (٩/ ٤٢٣).

والإيمان بالقضاء والقدر حين يمتلئ به قلب المؤمن يفجر فيه طاقة إيجابية هائلة دافعة إلى الطاعات، فكل نعمة تحصل في حياة الإنسان، وكل عبادة يقوم بها، إنما تجري بفضل الله السابق وتقديره، فيستلزم ذلك أن يكون قلب الإنسان مستغرقا في شكر الله والاعتراف بفضله، ويردد في نفسه مثلما قال أهل الجنة: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف:٤٣].

كما أن الإيمان بالقدر يشكّل للإنسان حامية من الخوف والهلع، حافظة من وساوس «لو» و«ليت»، فلن يصيب الإنسان إلا ما كتب عليه، ولن يؤخر الأجل شيء أو يقدمه، وحين يستحضر المسلم ذلك، تطمئن نفسه ويهدأ باله، ولا يحسب حساب إنسان، ولا يخاف إلا من الله، فما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه، ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾.

والمعنى الذي يؤكده ابن عطاء الله رحمه الله في هذه الحكمة، هو أن يبقى المسلم مستحضرا لتقدير الله وحكمته مع كل نفَس من أنفاسه، وكل لحظة من لحظاته، فهو دائرٌ بين فضل الله وعدله، لا يخرج عن مشيئته، ولا يكون إلا ما أراد سبحانه.

٦٤٤

ألطاف الأقدار

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «مَن ظنَّ انفكاكَ لطفِهِ عن قَدَرِه، فذلك لِقصورِ نَظرِه»(١).

بيان المفردات

انفكاك: الانفكاك يأتي بمعنىٰ الزوال والمفارقة والانتهاء(٢).

اللطف: يأتي بمعنىٰ الدقة والخفة والرفق في الأمور، والأخير هو المقصود هنا(٣).

نظَره: النَّظَر: تَقْلِيب البصر والبصيرة لإدراك الشيءِ ورؤيَتِهِ، وقد يُراد به التأمُّل والفحْص، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفَحْص، وهو الرَّوِيَّةُ(٤).

المعنى الإجمالي

اللطيف هو الذي يعلم دقائق المصالح وغوامضها، ثم يسلك في إيصالها إلىٰ المستصلَح سبيلَ الرفق دون العنف. وغموض المصالح ودقتها قد تقتضي السير بها

(١) الحكم العطائية (ص: ٦٣).
(٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ٦٤٣؛ ولسان العرب لابن منظور (١٠/ ٤٧٧).
(٣) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ٧٤٠).
(٤) المصدر السابق (ص: ٨١٢).

إلىٰ صاحبها في طريق ظاهرُه الشدة والابتلاء(١)، فمن ظنَّ وحكَّم ظنَّه بأن اللطف لم يقترن بالمقدور وينفكَّ عنه، فذلك الظن الفاسد صادرٌ عن قصور النظر علىٰ ما هو الحالة الراهنة في الوقت، دون أن يرمق عواقب الأمور أو يُمعِن النظرَ فيما قارنه من المصالح ودفعِ ما هو أعظمُ منه ضررًا وأكثر خطرًا(٢).

ونظرا إلىٰ أن العبرة في الأمر بالعاقبة، لا بظاهره وما يبدو منه، فإن الرعاية كلما دقَّ إلىٰ الإنسان سبيلُها وخفي مظهرُها تكون أقعد في معنىٰ اللطف به. هذه الرعاية التي تخفىٰ من حيث الصورة والمظهر، وتتحقق جليلة من حيث الواقع والنتيجة، من أبرز صفات الله ﷻ التي يعامل بمقتضاها عبادَه. قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ [الشورىٰ:١٩](٣). ومِن أعظمِ إحسانِ الله وبِرِّهِ: كونُ لطفه لا ينفكُّ عن قدره؛ وبهذا حَكَم النقلُ والعقلُ. أما العقل: فما من مصيبةٍ تنزل بالعبد إلا وفي قدرة الله ما هو أعظم منها، وقد وُجِد ذلك. وأما من جهة النقل: فقد ورد في ثواب الأمراض والأوجاع أحاديث كثيرة وآيات قرآنية في مدح الصابرين(٤).

قال ﷺ: «ما يصيب المؤمنَ من وَصَبٍ ولا نَصَبٍ، ولا سَقَمٍ ولا حَزَنٍ، حتىٰ الشوكة يُشاكُها، وحتىٰ الهمَّ يُهِمُّه إلا كفَّر به سيئاته»(٥).

فقد يُبتلَىٰ العبدُ بالمصائب ويكون له فيها منافع من تكفير السيئات ورفع الدرجات، وهذا كله من اتصال لطفه بقدره.

(١) المقصد الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ للغزالي (ص: ١٠١)؛ الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٣/ ٣٣٣).
(٢) شرح الحكم العطائية للكندي الدوعني (ص: ٤٤٤).
(٣) الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٤/ ٢٣٣-٢٣٤).
(٤) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ٢٥٧).
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ١١٤) برقم: (٥٦٤١).

٦٤٥

الابتلاء بالذنب

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «يا آدمُ، لا تجزَعْ من كأسِ زَلَلٍ كانت سببَ كَيْسِك؛ فقد اسْتُخْرِجَ منك داءُ العُجب، وأُلْبِسْتَ خِلْعةَ العبوديَّة»[١].

بيان المفردات

الكَيْسُ: حُسن الفهم والسلوك، والتَّأَنِّي للأمور، وهو خلافُ الحُمْق، ويأتي بمعنىٰ العقل، والجُود، والظُّرْف[٢].

المعنى الإجمالي

إنَّ الذَّنبَ إذا اقترنتْ به التَّوبةُ قد يكون أنفعَ للعبد من كثيرٍ من الطَّاعات، وهذا معنىٰ قول بعض السَّلف: قد يعملُ العبدُ الذَّنبَ فيدخل به الجنَّةَ، ويعملُ الطَّاعةَ فيدخلُ بها النَّارَ. قالوا: وكيف ذلك؟ قال: يعمل الذَّنبَ فلا يزال نُصْبَ عينيْه، كلما ذكَره أحدَثَ له توبةً واستغفارًا وندمًا، فيكونُ ذلك سببَ نجاته. ويعملُ الحسنةَ، فلا تزال نُصْبَ عينيْه، كلَّما ذكرها أورثته عُجْبًا وكِبْرًا ومِنَّةً، فتكون سببَ هلاكه[٣].

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٥١).

(٢) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٣/ ٩٧٢)؛ مجمل اللغة لابن فارس (ص: ٧٧٥)؛ مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ١٤٩)؛ لسان العرب لابن منظور (٦/ ٢٠٠).

(٣) ينظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٢٤٢).

ولذلك إذا أراد اللهُ بعبدٍ خيرًا ألقاه في ذنبٍ كسَره به، وعرَّفَه قدرَه، ونكَّسَ به رأسَه، واستخرجَ به منه داءَ العُجْب والكِبر والمنّة عليه وعلىٰ عباده، فيكونُ هذا الذَّنبُ أنفَع للعبد من طاعاتٍ كثيرةٍ، تُوجِب له كِبرًا وازدراءً بالنّاس، ويكون بمنزلة شُربِ الدَّواء ليستخرجَ به الدَّاءَ العُضالَ. فالله بحكمته قد يبتلي الإنسانَ بالذَّنب ليُصلح حالَه، وما حصل الاجتباءُ لآدم عليه السلام إلا بعد المعصية والتوبة منها، قال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه:١٢٢]، أي: بعد أن أذنب وتاب؛ اجتباه ربُّه، فتاب عليه وهداه[١].

لعـــلَّ عتبَــك محمـــودٌ عواقبُـــه   وربَّمـا صـحَّتِ الأجسـامُ بالعِلَـلِ[٢].

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٤٦٢-٤٦٤)؛ موقع الإسلام سؤال وجواب (٧/ ٣٤٤).

(٢) ينظر: الأمثال السائرة من شعر المتنبي للصاحب بن عباد (ص: ٤٦).

باب حسن الفهم عن الله

٦٤٦

الابتلاء بالنعمة

قال سلمة بن دينار رحمه الله: «كل نِعمة لا تُقَرِّب من الله عز وجل فهي بليَّة»[(١)].

المعنى الإجمالي

إن النعم التي يتفضل الله بها على عباده ينبغي أن تدفعهم دفعًا إلى محبة الله وزيادة القرب؛ فالإنسان أسير الإحسان، وأما العبد الذي تأتيه النعمة تلو الأخرى، وهو غارق في شهواته وغيه، بعيد عن ربه، لا يفكر إلا كيف يصرف تلك النعم في إشباع المزيد من نزواته وأهوائه، فذلك عبد قد ختم الله على قلبه، وهو بذلك يستدرجه ليزداد بطرًا وكبرًا، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

قال صلى الله عليه وسلم: «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج»، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام:٤٤]"[(٢)].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأحقاف:٢٦].

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٢٣٠).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨/ ٥٤٧) برقم: (١٧٣١١).

إن العبد الذي يشكر الله تعالىٰ علىٰ نعمه، هو عبد عرف فضل الله عليه، وهذا يزيده رفعة عند ربه ﷻ، ومن ثم تتوالىٰ عليه نعم الله، وقد وعد الله بالزيادة لمن شكر فقال: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٧].

٦٤٧

قد يكون المنع هو العطاء

قال سلمة بن دينار رحمه الله: «نعمة الله فيما زَوى عني من الدنيا أعظم من نعمته عليَّ فيما أعطاني منها، إني رأيته أعطاها قومًا فهلكوا»(١).

بيان المفردات

زوى: زوىٰ عنه كذا: عدَله وصرَفه عنه، وزوىٰ: إذا قبض، والمقصود هنا: منع عني(٢).

المعنى الإجمالي

يوازن العبد في النعم التي منحه الله، والمنح التي منعها الله عنه، فيرىٰ أن ما زوي عنه وجُمع ولم يُعطهْ أعظمُ منةً ونعمة وفضلًا من الله من تلك التي أعطيها؛ ذلك أن المنع قد يكون في العطاء، وقد يكون العطاء في المنع. يقول الله تعالىٰ عن حكمته في تقديره لرزق العباد: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورىٰ:٢٧].

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٢٣٣).

(٢) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (١٣/ ١٩٠).

وتوضيح هذا الأمر يكون بما ورد في الحديث القدسي عن النبي ﷺ عن الله ﷻ أنه قال: «إن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الغنىٰ، لو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من الغني من لو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، لو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الصحة، لو أسقمته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا السقم، لو أصححته لأفسده ذلك، وذلك أني أدبر أمر عبادي بعلمي بقلوبهم، إني عليم خبير»(١).

فالله تعالىٰ لا يسأل عن حكمه ولا حكمته، يمنع العبد شيئًا من الدنيا لأنه لو بسط الله الغنىٰ وأعطاه كل شيء لفسد وبطر وأشر، فمنعه يجعله يدخل مع السائلين المتضرعين. فكم من أناس أعطوا نعم الله فبدلوها كفرًا بالله، فأهلكهم الله بعقوبته وعدله، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم:٢٨].

(١) ذكره ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء (ص: ٩) برقم: (١)؛ والكلاباذي في بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار (ص: ٣٧٧). وينظر: المعجم الأوسط للطبراني (٢/ ١١٩٢).

٦٤٨

ما هي العصمة؟

قال عون بن عبد الله ﵀: «إن من العصمة أن تطلب الشيء من الدنيا ولا تجده»[(١)].

بيان المفردات

العصمة: أن يعصمك الله من الشر، أي: يدفع عنك. واعتصمت بالله، أي: امتنعت به من الشر[(٢)].

المعنى الإجمالي

إن ما أعطاه الله من خيرٍ لعبده المسلم في جعله مسلمًا موحدًا لله وحده لا يوازيه ويساويه ويدانيه شيءٌ من أشياء الدنيا؛ فلو ربح العبد دينه وخسر دنياه فهو من الفائزين الرابحين الناجين، لكن لو أعطي الدنيا بما فيها، ولم يكُ مسلمًا، فما تغني عنه دنياه من الله شيئًا.

إن الله تعالىٰ ذكر في القرآن الكريم من هم الفائزون؟ ومن هم الخاسرون؟ الفوز الحقيقي، فقال عن الفائزين: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥]،

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٤/ ٢٤٣).

(٢) كتاب العين للخليل بن أحمد (١/ ٣١٣).

ويلحظ القارئ لهذه الآية التزهيد من الدنيا، والترغيب في الآخرة؛ فإن صلاح العبد وربحه وفوزه لا يكون بما يجمعه من حطام الدنيا؛ فهي متاع الغرور، وقد لا يصل العبد إلىٰ كل ما يرغب فيه، وما تشتهيه نفسه في هذه الدنيا، لا لعجز، أو قصور في سعيه وكده، ولكن لأن الله منع عنه ذلك، وعصمه من شرها، كي لا ينشغل بها عن طاعة الله، ليعطيه خيرا منها، وهي جنة عرضها السموات والأرض.

وقال عن الخاسرين: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الزمر:١٥]، وفي الحديث عن عمرو بن العاص ﷺ قال: كنا عند رسول الله ﷺ يوما آخر حين طلعت الشمس، فقال رسول الله ﷺ: «سيأتي أناس من أمتي يوم القيامة، نورهم كضوء الشمس»، قلنا: من أولئك يا رسول الله؟ فقال: «فقراء المهاجرين، والذين تُتقىٰ بهم المكاره، يموت أحدهم وحاجته في صدره، يحشرون من أقطار الأرض»[١].

قد يطلب العبد المؤمن من الله شيئًا من دنياه فلا يجده، فلا يأسىٰ عليه ولا يحزن، لمعرفته التامة أن في حرمانه من هذا الشيء عصمةً له من انفتاح الدنيا وزهرتها عليه، فيصل إلىٰ غنىٰ يطغيه، بل يكفيه ما يبلغه إلىٰ الآخرة.

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١١/ ٢٣١) برقم: (٦٦٥٠).

٦٤٩

الشاغــل عن الله مشــؤوم

قال أبو سليمان الداراني ﷺ: «كل ما شغلك عن الله من أهلٍ أو مالٍ أو ولدٍ فهو عليك مشؤوم»(١).

المعنى الإجمــالي

الانشغال عن طاعة الله تعالىٰ تبعد العبد عن الله، وليس شرطًا أن يكون الشاغل عن الطاعة لله شيئًا بعيدًا غريبًا، فقد يكون الشاغل من أقرب الناس وأحبهم إلىٰ القلب؛ فمن شغله أهله وماله وولده عن طاعة الله فقد شُغِل عن الله؛ ولذا فقد عدَّ الصالحون كل شاغل من الشواغل قريبًا كان أم بعيدًا مشؤومًا؛ لأنه يعود عليه بالخسارة والخسران. قال الله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون:٩].

ولقد عبر الله عن التشاغل بالإلهاء فقال ﷻ: ﴿ أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ [التكاثر:١]، وأصبح مفارقة النبي ﷺ في خطبة الجمعة، والاستجابة للتجارة لهوًا ولعبًا(٢)؛ لانشغالهم بالدنيا عن الآخرة، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [الجمعة:١١].

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٩/ ٢٦٤)؛ والرسالة القشيرية (١/ ٦١).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٣٨٦).

٦٥٠

سعــة الكون وضيقــه

قال ابن عطاء الله السكندري ﵀: «إنما وَسِعَك الكون من حيث جُثمانِيَّتك، ولم يسعك من حيث ثبوت رُوحانيتك»[(١)].

بيــان المفردات

جُثمانيتك: أو جُسمانيتك: جسدك[(٢)].

روحانيتك: أي روحك.

المعنى الإجمــالي

انتماء الإنسان وحاجاته نابعةٌ من طبيعة تكوينه، فالإنسان مكون من الجسد والروح، والجسد هو الجانب المحسوس المتعلق بالأرض ومكوناتها، والروح هي من أمر الله ﷻ وهي متعلقة بالعالم العلوي وما فيه.

فأما حاجات الجسد ورغباته فيمكن إشباعها والحصول عليها من خلال هذا الكون الذي سخره الله للإنسان، فالجسد من الأرض وإليها، هي ميدانه وفيها حياته،

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٩٩).

(٢) لسان العرب لابن منظور (١٢/ ٩٩).

قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٣-٥٥].

وأما حاجات الروح وغذاؤها، وراحتها وانسجامها، وأُنسها وفرحها وسرورها، كلٌ من هذه الحاجات الروحية يضيق عنها الكون بما فيه، لأن الروح من عند الله ﷻ: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السجدة:٩]، فالروح ليست صادرة من هذا الكون كما أنها ليست منتهية إليه، فابتداؤها بنفخة من الله سبحانه، وانتهاؤها بعد موت الإنسان بالصعود إلىٰ بارئها.

وقد ضل سواء السبيل من يظن أنه يمكن له تلبية حاجاته الروحية وتغذيتها عن طريق المُتع والملذات والأشياء الدنيوية، لأن ذلك لن يثمر إلا مزيدا من تغذية الجسد وغمسه بالشهوات وتثاقله إلىٰ الأرض، فيصبح جسدا لا روح فيه، يعيش ليأكل ويشرب، ويرتع ويلعب، قد انطمست روحُه وانسجنت في هذه الحدود المادية الضيقة.

فغذاء الروح لا يُستمد إلا من عند خالقها، بذكر الله صباحا ومساءً وفي كل حين، وفي التفكر في آيات الله المبثوثة في الكون، والتدبر لآيات الله وكلامه، ودعاء الله ومناجاته، وتصفية القلب من أدناس المعاصي، فإذا تم ذلك سمَت الروح وارتفعت، واتسعت في رحاب عالمها الواسع الذي تضيق عنه حدود هذا الكون المحسوس بكل ما فيه، وحينئذ يحل علىٰ صاحبها الهناء والاطمئنان الغامر ولو ضاقت عليه الدنيا بأسرها.

٦٥١

لا حجـاب للحق سبحانـه

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «الحق ليس بمحجوب عنك، وإنما المحجوبُ أنت عن النظر إليه؛ إذ لو حجَبَه شيءٌ لسَتَرَه ما حجبه، ولو كان له ساترٌ لكان لوجوده حاصر، وكل حاصرٍ لشيءٍ فهو له قاهر، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾»[١].

بيـان المفردات

الحجاب والستر بمعنىٰ واحد[٢]، لكن معنىٰ الحَجب في العرف يُشعر بالرفعة والعظمة، ولا يشعر بحصر المحجوب، ومعنىٰ الستر علىٰ العكس[٣].

المعنى الإجمـالي

الله ﷻ هو الحق المبين، وهو الخالق الظاهر الذي ظهرت آلاؤه وآياته في كل شيء، وهو القريب لمن أراد الوصول إليه، فمن أراد أن يدعوه في أي ساعة من ليل أو نهار فأبواب رحمته مفتوحة للسائلين، ولا يحتاج العبد واسطة بينه وبين الله، فمتىٰ دعوته وجدته سميعًا مجيبًا، ومتىٰ ناجيته وجدته قريبا، ومتىٰ تفكرت في آياته

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١٠٠).

(٢) لسان العرب لابن منظور (١/ ٢٩٨).

(٣) شرح الشرقاوي بهامش شرح النفزي (١/ ٣١).

دلتك عليه، ومتىٰ تفكرت في نِعَمه قادتك إلىٰ شكره، فصفاته سبحانه ظاهرة في كل شيء، والتعرف عليه متاح في كل وقت وزمان، بل إن كل ما في الكون شاهد علىٰ حقانيته وعظمته، دالّ عليه منتهٍ إليه، ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد:٣].

بل إن وجود الحجاب الذي يحجب الله تعالىٰ عن خلقه مستحيل لأنه يلزم منه منع الحق وانحصاره وراء الستر، وهذا فيه قهر له عما يريد، تعالىٰ الله عن ذلك علوا كبيرا، فالله ﷻ هو القاهر فوق عباده.

فتبين من هذا أن المحجوب إنما هو هؤلاء الناس أنفسهم، كما جاء في الحديث: «حجابه النور، لو كشَفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه»(١)، فهذا الحجاب النوراني يحجب الخلق عن رؤيته سبحانه في الدنيا، فإذا شاء يوم القيامة كشف الحجاب عن أهل الجنة فيرونه كما يرون القمر ليلة البدر. وكذلك الخلق حجبتهم سيئاتهم وشهواتهم عن القرب من الله تعالىٰ، كما جاء في الحديث: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكِت في قلبه نُكْتة(٢)، فإن هو نَزَع(٣) واستغفر وتاب صُقِلت(٤)، فإن عاد زيد فيها، فإن عاد زيد فيها حتىٰ تعلوَ فيه، فهو الران الذي ذكر الله: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين:١٤]»(٥)، فالذنب بعد الذنب، والغفلة المتواصلة، ذاك هو الحجاب الذي يحول بين المرء ووصوله إلىٰ القرب من ربه.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ١١١) برقم: (١٧٩).

(٢) النُّكتة: أثر قليل كالنقطة، شِبه الوسخ في المرآة والسيف ونحوهما. النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٥/ ١١٤).

(٣) نزَع عن كذا: انتهىٰ عنه. مختار الصحاح للرازي (١/ ٢٧٣).

(٤) الصقل: الجلاء. لسان العرب لابن منظور (١١/ ٣٨٠).

(٥) أخرجه الترمذي في جامعه (٥/ ٣٥٩) برقم: (٣٣٣٤)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٣١٦) برقم: (٤٢٤٤).

٦٥٢

العطـاء في المنع

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك»(١).

المعنى الإجمـالي

لا يخلو أن يكون الإنسان في الظاهر من نعمة وعطاء أو من منعٍ وحرمان، فالنعم مثل وفرة المال، وتمام الصحة، وقرة العين في الأهل والأولاد والذرية، والمركب الهنيء، والبيت الواسع، والعافية والمعافاة في سائر الأمور، والمنع يكون علىٰ خلاف ذلك بأن يبتلىٰ الإنسان بالفقر أو المرض أو الضيق والحرج في أموره الأخرىٰ.

وكل من حالتي العطاء والمنع هي ابتلاء من الله سبحانه للإنسان؛ لأن هذه الدنيا بكل ما فيها هي مرحلة اختبار، وهي منزلٌ مؤقت لن يدوم فيه الإنسان، وسينتقل بعده إلىٰ دار الآخرة التي هي دار المقام الأبدي، ويخطئ الإنسان حين ينظر إلىٰ النعم أو المصائب علىٰ ظاهرها فقط، قال تعالىٰ: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴾ [الفجر: ١٥-١٦].

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٦٤).

فما يكون نعمةً في ظاهر الأمر قد يكون نِقمة في الحقيقة، فالمال هو نعمة في الظاهر، لكنه في الحقيقة نقمة ووبال علىٰ صاحبه إذا استعمله في معصية الله، وكذلك حال الصحة وسائر النعم، ففي هذه الحالة تكون هذه الأمور نعمة في الظاهر، لكنّها حرمان في الباطن، فالحرمان كلّ الحرمان أن يُحجب المرء عن طاعة ربه، ويأتي يوم القيامة فارغ الكف من العمل الصالح، والحرمان كذلك أن يشتغل الإنسان بالمعاصي والمحرمات والغفلة، حتىٰ إذا جاء وقت الحساب عض أصابع الندم.

وما يكون منعا في الظاهر قد يكون نعمةً في الحقيقة، فقد يبتلىٰ الإنسان بقلة في المال أو مرض في البدن، لكن يكون ذلك سببا لتوجه الإنسان إلىٰ جناب مولاه، حيث يستشعر أنه ليس له غيره من معين، ولا يجد أمامه من الشواغل والموانع التي تحجبه عن الطريق إلىٰ الله، فيكون فقير اليد لكنه غني القلب، أو سقيم الجسد لكنه قوي الروح.

فينبغي أن نفهم حكمة الله في توزيع النعم والمصائب أنها تكون بحكمة الله وتقديره، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورىٰ:٢٧]، وأن المنع من الله قد يكون عطية ومنحة إلهية كما منع موسىٰ الرؤية فكان المنع عين العطاء.

٦٥٣

عطاء الله وعطاء الخلق

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «العطاء من الخلق حرمان، والمنع من الله إحسان»[(١)].

المعنى الإجمالي

قسم الله سبحانه الأرزاق بين الناس، وأباح ما يجري بينهم من معاملات وأخذ وعطاء ما لم يكن فيها محذور شرعي، والمسلم قد يعطي الأعطية والهدايا لغيره، أو قد يكون هو الآخذ للعطاء من غيره، وكل ذلك يدخل في دائرة التصرفات المباحة، لكنْ في تصور المؤمن وفهمه فإن الله سبحانه وتعالى وحده هو النافع والضار والمعطي والمانع، وما يجري علىٰ أيدي الناس من عطاءات هو من باب الأسباب الظاهرة فقط، ولذلك يبقىٰ المؤمن مستحضرا دائما أن كل نعمة حصلت له فإنها من الله تعالىٰ، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣].

وكون هذه النعم من الله تعالىٰ في حقيقة الأمر لا يعني أن المسلم لا يشكرها أو يكافئ صاحبها؛ بل علىٰ العكس من ذلك، فشكر أصحاب النعم ومكافأتهم هو من باب الأخذ بالأسباب، وقد أرشدنا الشرع إليه؛ قال ﷺ: «من لا يشكر الناس

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٦٥).

لا يشكر الله»[١]، وجاء في الحديث: «ومن صنع إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا الله له حتىٰ تروا أن قد كافأتموه»[٢].

لكن إذا توهم الإنسان أن هؤلاء المنعمين المعطين ينفعون أو يضرون من تلقاء أنفسهم، وتعلق قلبه تعلقا كليا بهم، وظن أن الفضل منهم وبهم، فحينئذ يكون عطاؤهم حرمانا له من الاتكال علىٰ الله، والافتقار إليه، والإيمان بأنه النافع الرازق الوهاب.

أما ما يأتي للمسلم من جناب مولاه فهو عطاء دائما؛ فإذا كان العطاءُ نعمةً في الظاهر وشكرها الإنسان ولم يستعملها في غير ما يرضي الله تكون علىٰ الإنسان نعمة في الظاهر والباطن، وكذلك الحال فإن ما يأتي علىٰ الإنسان من الله تعالىٰ من منْعٍ وحرمان في الظاهر، فإنه في الحقيقة عطاء في الباطن؛ لأنه يذكّر المسلم بالفقر إلىٰ ربه والاضطرار إليه علىٰ الدوام، ولأنه وسيلة لنيل الحسنات ورفع الدرجات، ولأنه صارف للشواغل والملهيات ومعين علىٰ التوجه إلىٰ الله بالطاعات والقربات.

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٨/ ١٩٨) برقم: (٣٤٠٧)؛ وأبو داود في سننه (٤/ ٤٠٣) برقم: (٤٨١١)؛ والترمذي في جامعه (٣/ ٥٠٥) برقم: (١٩٥٤).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٨/ ١٩٩) برقم: (٣٤٠٨)؛ وأبو داود في سننه (٢/ ٥٢) برقم: (١٦٧٢).

٦٥٤

الوصول إلى الله ﷻ بمحض رحمتـه

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «لو أنَّك لا تَصِلُ إليه إلا بَعدَ فَناءِ مَساوِيك ومَحْوِ دَعاوِيك لمْ تَصِلْ إليه أبدًا، ولكنْ إذا أراد أنْ يُوصِلَكَ إليه غطَّى وصفَكَ بِوصفِهِ وغطَّى نَعْتَك بِنَعْتِهِ، فَوَصَلَكَ إليه بِما مِنه إليك، لا بما مِنكَ إليه»[(١)].

بيـان المفردات

مساويك: هي المعاصي والطبائع المرذولة والنقائص والعيوب وكل ما لا يليق من الأفكار والسلوكيات التي قد تصدر عن الإنسان.

دعاويك: الدعاوي: هي اعتداد الإنسان بما قد يصدر عنه من طاعات[(٢)].

المعنى الإجمـالي

لو أنك لا تصل إلىٰ الله تعالىٰ إلا بعد فناء مساويك، أي: زوال وانتهاء عيوبك، وبعد محوِ دعاويك، أي: إنهاءِ والقضاء علىٰ دعاويك التي تدعيها من نسبة الأعمال إلىٰ نفسك، لم تصل إليه أبدًا، لأن المساوئ والدعاوي من طبعك. لكن الله تعالىٰ

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٩٦).
(٢) الحكم العطائية شرح وتحليل (٣/ ٤١٢).

إذا أراد أن يُوصلَك إليه غطَّىٰ وصفَك بوصفه، أي: أظهر لك من صفاته السَّنية ما تغيب به عن صفاتك البشرية، فأوصلك إليه بمحض فضله وإحسانه، وليس بسعيك وجهدك وطاعتك. قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النور:٢١]. وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة:٥٤][١].

والذي يُنبِّه إليه ابنُ عطاء الله في هذه الحكمة، هو أن الإنسان قلّما يستطيع التجرُّدَ والتخلُّصَ من مساوئه ودعاويه. والشأن في الإنسان أن يكون عرضةً للوقوع في الأخطاء والمحرَّمات، فإن صلح أمره واستقام علىٰ النهج القويم، فالشأن فيه إذنْ أن يُمتِّعَ نفسَه بالدعاوي العريضة. وهو في كلا الحالين متنكب في نقائص وعيوب خطيرة، ولعل هذا بعض ما يدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]. وهو داخل في قول رسول الله ﷺ: «كل ابن آدم خطَّاء، وخير الخطَّائين التوَّابون»[٢].

فإذا توقف وصول الإنسان إلىٰ الله علىٰ التخلص من هذه النقائص التي هي من شأنه، فإنه لن يصل إليه أبدًا، لأن وصوله إليه متوقف -والحالة هذه- علىٰ ما لا قِبَلَ للإنسان به ولا قدرة له عليه. فوصول العبد إلىٰ الله ﷻ ليس باستحقاق منه إليه، وإنما هو بتفضُّلٍ منه تعالىٰ إليه. وهذه هي الحقيقة التي أوضحها وأكَّدها

(١) شرح الحكم العطائية للشرنوبي (ص: ١٠٣).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٧٣) برقم: (٢٤٩٩)، وقال: حديث غريب؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٣٢١) برقم: (٤٢٥١)؛ والدارمي في مسنده (٣/ ٩٠٠) برقم: (٢٧٥٦). قال ابن عدي: غير محفوظ. ينظر: الكامل في الضعفاء لابن عدي (٦/ ٣٥٣).

رسول الله ﷺ[١]، إذ قال: «سدِّدوا، وقارِبوا، وأبشروا؛ فإنه لا يُدخِل أحدًا الجنةَ عملُه، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قال: ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني اللهُ بمغفرةٍ ورحمةٍ»[٢].

---

(١) ينظر: الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٣/ ٤١٢-٤١٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٧٣٠)؛ ومسلم في صحيحه برقم: (٧٣٨).

٦٥٥

فهم حقيقة المنع

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «متى فَتَح لك باب الفهم في المنع عاد المنع عين العطاء»(١).

المعنى الإجمالي

لا بد أن يفهم المسلم كل ما يجري في الكون علىٰ معناه الصحيح، وهذا الفهم الصحيح إنما يكون من خلال معرفته لصفات الله سبحانه وتعالى، وتدبره لآيات كتابه، وتعلمه لسنة نبيه، وتفكره فيما حوله من الدلائل والعلامات، واستشعاره بقلبه لحقائق الأمور، فلا يكتفي المسلم بالوقوف علىٰ ظواهر الأمور دون التفكر والفهم لما تنطوي عليه من حقائق.

وحين يبتلىٰ المسلم في ماله أو جسده، أو يحرم من بعض النعم في ظاهر الأمر، فإنه إذا فهمها علىٰ المعنىٰ الصحيح سيدرك أنها عطاء من الله عز وجل، فإن الله سبحانه وتعالى قد كتب كل شيء منذ الأزل وقدر المقادير بحكمته وعلمه، قال تعالىٰ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٦٤).

فإذا عرف المسلم أن من صفات الله سبحانه أنه القهار، وأنه المانع، وأنه مالك الملك، الوهاب الرزاق الغني المغني، وأنه الشافي، وأنه العدل، إذا عرف هذه الصفات واستشعر معناها علم أن هذه المصائب في الظاهر هي وسيلة ليتعرف علىٰ الله أكثر، وليعلم ويوقن أن الله هو القهار المانع وأنه لا حول ولا قوة إلا به، لذلك لا يتوجه إلا إليه بالشكوىٰ، ولا يعوّل إلا عليه في دفع البلوىٰ.

وحين يقرأ المؤمن في القرآن قصص الأنبياء الذين ابتلوا فصبروا، وفهموا معنىٰ الابتلاء فرضوا بقضاء الله وقدره، مثل قصة نبي الله أيوب ﷺ، فإن ذلك يكون له مساعدا ومعينا علىٰ فهم حقيقة المنع والحرمان، بأن هذا المنع إذا كان مقربا للإنسان إلىٰ ربه، مبعّدا للصوارف والشواغل التي تلهيه عن طاعة الله، فإن ذلك في الحقيقة إنما هو نعمة وعطاء.

وفي الحكمة السابقة زيادة بيان وتوكيد لهذا المعنىٰ.

٦٥٦

تمـام النعـم

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «مِن تمامِ النعمة عليك أن يرزُقَك ما يكفيك ويمنعَك ما يُطغِيك»[(١)].

المعنى الإجمـالي

من تمام نعمة الله عليك أن يرزقك ما يكفيك، من غير زيادة ولا نقصان، فإن في الزيادةِ عن الكفايةِ عرضةً للطغيان. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦-٧]. وفي النقصان عن الكفايةِ عرضةٌ للاشتغال عن طاعة الله تعالىٰ والتعرضُ للسؤال[(٢)].

ومما يؤكد هذه الحقيقة، أن مجالس العلم والوعظ لا يحضرها إلا من يتمتعون من الدنيا بالكفاية فما دونها، وأما الأغنياء والمُترَفون فلا يُرىٰ منهم أحد إلا قليلًا، والسبب في ذلك أن لسان حال المترفين يقول: شغلتنا أموالنا وأهلونا، وإن لنا في تجاراتنا وصناعاتنا لشغلًا عن هذه المجالس. أما أصحاب الكفاية فما دونها فليس عندهم أيُّ عائق عن حضور تلك المجالس. وقد نسي أولئك المترفون ما ذكره الله تعالىٰ من قصة قارون وما أنعم عليه من المال الذي كان سبب طغيانه،

(١) الحكم العطائية (ص: ١١٨).
(٢) شرح الحكم العطائية للشرنوبي (ص: ١٤٨-١٤٩).

وقد قال له قومه: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٦-٧٧]. فما كان من جوابه على هذه الوصية الربانية إلا ما أملاه عليه طغيانه وإعجابه بنفسه، حيث قال كما ذكره القرآن حكايةً عنه: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص:٧٨](١).

وقد كان النبي ﷺ يستعيذ مما يُشغِل القلبَ ويُنسِي الربَّ فقرًا أو غنىً. قال ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا»(٢).

وقال ﷺ: «خير الذكر الخفي، وخير الرزق ما يكفي»(٣).

وقال أيضًا: «قد أفلح من أسلم، ورُزِق كفافًا، وقَنَّعه الله بما آتاه»(٤).

---

(١) الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٥/ ٦٩-٧٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٠٢) برقم: (١٠٥٥).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٧٦) برقم: (١٤٩٥)؛ وابن حبان في صحيحه (١/ ٣٥٤) برقم: (٤٤٢).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٠٢) برقم: (١٠٥٤).

٦٥٧

تــودّدُ المالك إلى الـمملوك

قال ابن القيم رحمه الله: «ليس العَجَبُ من مملوكٍ يتذلَّلُ للّه ويتعبَّدُ له ولا يملُّ من خِدمَتِهِ مع حاجتِهِ وفقرِهِ إليه، إنَّما العجبُ من مالكٍ يتحبَّبُ إلى مملوكِهِ بصنوفِ إنعامِهِ، ويتودَّدُ إليه بأنواعِ إحسانِهِ مع غِناهُ عنهُ»[١].

المعنى الإجمــالي

إنَّ محبةَ اللّه ﷻ مِن أعظمِ القربات، وأفضلِ الطاعات، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة:٥٤]، وهي فرضٌ علىٰ كُلِّ مؤمن، قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥]، ولا عجبَ في محبّةِ العبدِ لربّه، وهو الإلهُ الذي تألهه القلوب، وهو صاحبُ المَنِّ والإحسان، والإنسانُ في الأصل جُبل علىٰ حُبِّ مَن أحسن إليه، بل العجبُ كُلّ العجبِ أنْ يتودّد الربُّ إلىٰ عباده، وأنْ يُحبَّهم مع غناه عنهم، وشدةِ افتقارهم إليه، فليس العجبُ من قوله: ﴿ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة:٥٤]، إنما العجبُ من قوله: ﴿ يُحِبُّهُمۡ ﴾ [المائدة:٥٤]، وليس العجبُ من فقيرٍ مسكينٍ يُحِبُّ محسنًا إليه، إنما العجبُ من محسنٍ يُحبُّ فقيرًا مسكينًا[٢]، وليس العجبُ من فقير يتقرب إلىٰ غني، ولكنَّ

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٥٠).
(٢) ينظر: الفوائد لابن القيم (١/ ٩٨).

العجبَ من غني يتودد إلىٰ فقير، وليس العجبُ أن يتقرب الضعيف إلىٰ قويٍّ، ولكنَّ العجبَ أن يتقرب القوي إلىٰ الضعيف، وليس العجبُ أن يتقرب الذليلُ إلىٰ العزيز، ولكن العجبَ أن يتودد العزيز إلىٰ الذليل، فالفقير يتقرب من الغني كي يأخذ منه، والغني يتقرب للفقير إنعامًا وإكرامًا منه إليه[1]، ولذلك قال بعض السلف: «ليس الشّأن في أن تُحِبَّ اللهَ، بل الشّأن في أن يحبّك الله»[2]. فاشتغالُ العبد بما يرضي الربَّ ليس مما يُعجبُ منه، بل الذي يُعجبُ منه أن الربَّ ﷻ يسعىٰ في رضا عبده، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴾ [الضحىٰ:٥].

كان أبو يزيد البسطامي يقول في مناجاته: «إلهي لستُ أعجبُ من حبي لكَ، وأنا عبدٌ حقير، وإنما أعجبُ من حبكَ لي وأنتَ ربٌّ جليل، تُحبُّ عبدًا ذليلًا»[3].

---

(١) ينظر: شرح كتاب الفوائد لعمر عبد الكافي (١٠/ ١٣).

(٢) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٤١٢)؛ روضة المحبين لابن القيم (ص: ٣٧٤).

(٣) ينظر: الروض الفائق في المواعظ والرقائق لشعيب الحريفيش (ص: ٢٣٤).

بـاب حسن الظن بالله

٦٥٨

ظنُّ المؤمن والمنافق بالله تعالى

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن المؤمن أحسن الظنّ بربه فأحسن العمل، وإن المنافق أساء الظنّ بربه فأساء العمل»(١).

المعنى الإجمالي

إن حسن الظن بالله عبادة من العبادات التي يؤجر عليها العبد؛ إذ يقينه بالله بما وعد وأعطىٰ لعباده من الأجور، وبمغفرته لهم علىٰ سوء أفعالهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الشورىٰ:٢٥]، وعن عمرو بن عبسة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء إلىٰ النبي ﷺ شيخ كبير يدعم علىٰ عصا له، فقال: يا رسول الله، إن لي غدرات وفجرات، فهل يغفر لي؟ قال: «ألستَ تشهد أن لا إله إلا الله؟» قال: بلىٰ، وأشهد أنك رسول الله، قال: «قد غُفر لك غدَراتك وفَجَراتك»(٢).

وإذا ظن العبد بربه حسنًا كان له كما يحب، فليظن العبد بربه ما يشاء، قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالىٰ: أنا عند ظن عبدي بي»(٣).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٨٧).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢/ ١٧١) برقم: (١٩٤٣٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ١٢١) برقم: (٧٤٠٥)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ٦٢) برقم: (٢٦٧٥).

وليس حُسن الظن بالله تعالىٰ بعصيانه وترك طاعته، أو بجحوده ونكرانه وترك عبادته، أو بالإقلال في الأعمال اعتمادًا وركونًا إلىٰ حسن الظن بالله، بل حسن الظن بحسن العمل، وإتقانه وإجادته علىٰ الوجه الذي يحبه الله ويرضاه. ولا يزال المؤمن عاملًا الأعمال الصالحة، ويحسنها ويخلصها، ويرجو ثوابها، ويخشىٰ ردها وعدم قبولها.

أما المنافق فإنه لا يثق بالله ولا يحسن الظن به؛ فلا يعمل من الأعمال إلا القليل، ويأتي العمل مكرهًا كسولًا، ويكون طابع عمله الرياء والسمعة وحب الثناء؛ فإن رآه الناس في الطاعة نشط لها وبذل جهدًا كبيرًا، وإن كان خاليًا لم يفعل شيئًا، بل بارز الله بمعاصيه.

٦٥٩

التواكل على حسن الظن خِداع

قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: «من حَسُنَ ظنُّه بالله عز وجل ثم لا يخاف الله فهو مخدوع»(١).

المعنى الإجمالي

إن من حسن الظن بالله الدوام على طاعته، ومن احتج بترك العمل بأنه يحسن الظنَّ بالله فهو كاذبٌ في دعواه، فمن أحسن الظن بالله تعالى وهو مصرٌّ على الذنوب والمعاصي، غير خائف من الله ولا من لقائه، فما كان حسن ظنه إلا بلسانه فقط.

يقول ابن القيم رحمه الله: «ولا ريب أنّ حسن الظن إنّما يكون مع الإحسان، فإنّ المحسن حَسَن الظن بربه أنّه يجازيه على إحسانه، ولا يخلف وعده، ويقبل توبته. وأما المسيء المصرّ على الكبائر والظلم والمخالفات، فإنّ وحشة المعاصي والظلم والإجرام تمنعه من حسن الظن بربه، وهذا موجود في الشاهد، فإنّ العبد الآبق المسيء الخارج عن طاعة سيده لا يحسن الظن به.

ولا يجامع وحشةَ الإساءة إحسانُ الظنّ أبدًا، فإنّ المسيء مستوحش بقدر إساءته، وأحسنُ الناس ظنًّا بربّه أطوعُهم له، كما قال الحسن البصري: «إنّ المؤمن

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٣٨٢).

أحسن الظنَّ بربّه فأحسن العمل، وإنّ الفاجر أساء الظنَّ بربّه فأساء العمل»[١]، وكيف يكون محسنَ الظن بربه من هو شارد عنه، حالّ مرتحل في مساخِطِه وما يُغضبه، متعرض للعنت، قد هان حقّه وأمره عليه فأضاعه، وهان نهيه عليه فارتكبه، وأصرَّ عليه؟!»[٢].

(١) المصنف لابن أبي شيبة (١٩/ ٥٣٦) برقم: (٣٧٩٢٥).

(٢) الداء والدواء لابن القيم (ص: ٤٤- ٤٥).

٦٦٠

حسن الظن بالله تعالى

قال ابن عطاء الله السكندري ﵀: «لا يعظُم الذنبُ عندك عظمةً تَصُدُّك عن حُسنِ الظن بالله تعالى؛ فإنَّ مَن عرَفَ ربَّه، استصغر في جنبِ كرمِهِ ذنبَه»[(١)].

المعنى الإجمـالي

إنَّ العبد لو نظر إلىٰ نفسه ورأىٰ تقصيره في حق ربه، وتفريطه في جنب الله، لذابَ خجلًا ومات كمدًا. وهذه نتيجة إيجابية لمشاهدة العبد تقصيره تجاه ربه، لكن قد تكون النتيجة عكسية، فبدل أن يدفعه هذا الحزنُ والخوفُ إلىٰ باب الله والتوبة ورجاء فضله ومغفرته، يكون سببًا لقطع أمله بالله وسوء الظن فيه، فيضحك عليه الشيطانُ، وقد تمكَّن منه ومن عقله وفكره، لأنه في حال كان يريد أن يقلع عن المعاصي وينيب إلىٰ ربه، إذ وقع في ذنب أعظم من ذلك، وهو سوء الظن بالله، وأن الله لن يغفر له، وأن باب رحمته ومغفرته قد سُدَّ أمامه، فلا فائدة من التوبة، ولا حاجة إلىٰ الطاعة. فهذا من كيد الشيطان، يُغوِي به عبادَ الله.

فدوام الحزن وقوة الخوف رُبما -بتسلط إبليس وتلاعبه بعقل الإنسان وفكره- يكون سببًا في سوء ظنه بربه. قال تعالىٰ: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النحل:٩٤].

---

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٤٨).

وقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو لم تُذنِبُوا لذَهَبَ اللهُ بكُم، ولَجاء بقومٍ يذنبون فيستغفرون اللهَ، فيَغفِر لهم»(١). فدل الحديث على أن مشاهدة الكرم أفضل عند الله من مشاهدة الانتقام(٢).

قال الله ﷻ: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ ﴾. وهذه أرجىٰ آية في كتاب الله.

وقال سبحانه: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠]. فالأولىٰ في الرجاء، والثانية في الخوف، وبدأ الله تعالىٰ بالرجاء قبل الخوف، وأكثر الآيات القرآنية خُتمت بوصفه تعالىٰ غفورًا رحيمًا، والقليل منها وصفته تعالىٰ بأنه عزيز ذو انتقام(٣).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٩٤) برقم: (٢٧٤٩)؛ وابن خزيمة في صحيحه برقم: (١٩٠١).

(٢) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ٣٤٦).

(٣) ينظر: الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٢/ ٢١٨-٢١٩).

بـاب اليقين والثقة

٦٦١

استبطـاء الرزق

قال الحسن البصري رحمه الله: «ما أنصفَ ربَّه عبدٌ اتهمه في نفْسِه، واستبطأه في رزقِه»[١].

بيـان المفردات

أنصف: الإنصاف: هو العدل، وأنصف: إذا أخذ الحقَّ وأعطىٰ الحقَّ، وتفسيره: أن تعطيه من الحق كالذي تستحقه لنفسك، ويقال: أنصف من نفسه[٢].

المعنى الإجمـالي

أن العبد الذي يظن أن الله تعالىٰ حرمه من نعمِه التي أنعم بها علىٰ الآخرين، وأنه منع منه رزقَه الذي أعطاه لغيره من عباده، ليس منصفًا مع الله، فالعبد الذي يوجِّه مثل هذا الاتهام إلىٰ ربه لم يعطِ ربَّه حقَّه، وهو يريد أن يُعطَىٰ حقَّه، ظنًّا منه أنه مظلوم، ألا يعرف أن الأرزاق والخيرات مِلك لله تعالىٰ، يعطي منها من يشاء، ويترك مَن يشاء، والذي أعطاه إنما أعطاه بمحض فضله تعالىٰ، وليس لاستحقاق العبد ذلك.

(١) آداب الحسن البصري لابن الجوزي (ص: ٥٧).
(٢) تاج العروس للزبيدي (٢٤/ ٤١٣).

قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، اتقوا الله وأجمِلوا في الطلَب؛ فإن نفسًا لن تموت حتىٰ تستوفي رزقَها، وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأَجْمِلوا في الطلب، خذوا ما حلّ، ودعوا ما حَرُم»[1].

فلا يحق للعبد أن يتهم ربَّه إذا منع منه رزقَه، قال الله تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران:٢٦].

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٣/ ٢٧٥) برقم: (٢١٤٤)؛ والبزار في مسنده (٧/ ٣١٤) برقم: (٢٩١٤)؛ والحاكم في المستدرك (٢/ ٥) برقم: (٢١٣٥)؛ والبيهقي في السنن الكبرىٰ (١١/ ١١) برقم: (١٠٥٠٣).

٦٦٢

قلة اليقين

قال إياس بن معاوية(١) رحمه الله: «إفراط الحرص من قلة اليقين»(٢).

بيان المفردات

الإفراط: تجاوز الحد في الأمور(٣).

المعنى الإجمالي

مما ابتلى الله به آدم عليه السلام وبنيه الحرص وطول الأمل؛ فجاء الشيطان إلى آدم موسوسًا من مدخل الحرص وطول الأمل، قال الله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه:١٢٠]، وأخبر النبي ﷺ عن ذلك فقال: «لا يزال قلب الكبير شابًّا في اثنتين: في حب الدنيا وطول الأمل»(٤).

(١) إياس بن معاوية، أبو واثلة، قاضي البصرة، صاحب الحِكَم والأحكام الماضية، العلامة، يروي عن أنس وابن المسيب وسعيد بن جبير، وعنه شعبة وحماد بن سلمة، توفي سنة ١٢١هـ. ينظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ١٢٣)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (٥/ ١٥٥).

(٢) الأمثال والحكم للماوردي (ص: ١٩٦).

(٣) التقفية في اللغة لأبي بشر البندنيجي (ص: ٥٢٤).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٩) برقم: (٦٤٢٠).

والمراد بشدة الحرص أن يبالغ العبد في التلهف إلىٰ كل شيء، وأن يقتل نفسه قلقًا وحسرة علىٰ ما لم يقدره الله. وليس معنىٰ شدة الحرص ألا يكون لدىٰ العبد المؤمن حرصٌ في أموره، فالحرص علىٰ أداء الأشياء علىٰ وجهها الأكمل، أو ما يقاربه مطلوبٌ شرعًا.

لكن ما ليس مقبولًا أن يظل العبد يندب تعثر حظه، ومخالفة قصده، فالأمور كلها تجري بقدر الله وتدبيره، فإن شدة الحرص تدل علىٰ عدم ثقته ويقينه بوعد الله وقضائه وقدره. فما زاد الإفراط في الحرص شيئا، ولا أبقىٰ علىٰ ما أراد الله فناءه وزواله.

٦٦٣

الرجل يُعرَف بما في قلبه

قال شقيق البلخي رحمه الله: «إذا أردت أن تعرف الرجل فانظر إلى ما وعده الله ووعده الناس؛ فبأيهما يكون قلبه أوثق؟»[(١)].

المعنى الإجمالي

من أراد أن يعرف نفسَه أو أن يعرف رجلًا آخر، فلينظر إلىٰ ثقته بما عند الله تعالىٰ وبما عند الناس، فإذا وجد الإنسانُ نفسَه تثق بما وعد الله أكثر من ثقتها بما وعد الناس، فليطمئن، لأنه علىٰ طريق صحيح، وكذلك إذا رأىٰ إنسانا آخر يثق بما وعد الله أكثر من ثقته بالناس، فهذا من توفيق الله له، لكن إن وجد من نفسه أو أن إنسانا ما يثق بما عند الناس وبما وعدوه، ويغفل عن وعد الله تعالىٰ، فليعلم أنه علىٰ طريق خطأ، وسيؤدي به إلىٰ المهلكة إن لم يراجع نفسَه ويجدِّد توكُّلَه علىٰ الله، ويترك الناس وشأنهم.

العارف بالله يُعرفُ بوثوقه بما عند الله، فإنه لا يمكن - بأي حال من الأحوال- أن يُقارِنَ ما بأيدي المخلوقين بما عند الله؛ لأنه إن فعل ذلك يكون قد اهتز إيمانه ويقينه، وثقته بما عند الله، والمتقون موقنون يقينًا لا يخالطه شكٌّ ولا ريبٌ أن ما عند الله خيرٌ وأولىٰ وأبقىٰ لعباده؛ فالله أصدق حديثًا وقيلًا، وأوفىٰ بعهده؛ كما قال

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٥٦).

تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١]، ويعرفون أن ما بأيدي المخلوقين هو من عند الله تعالى، فكيف لهم أن يطلبوا ما أعطاه الله لخلقه من خلقه، ولا يطلبونه ممن خلقهم وأعطاهم؟ بل كيف يثقون بما وعد الناس، ولا يثقون بوعد الله، وهو ﷻ لا يخلف وعده؛ كما قال تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم:٦-٧]، وقال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [الزمر:٢٠].

٦٦٤

خير الدنيا والآخرة في خمس خصال

قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «خير الدنيا والآخرة في خمس خصال: غنى النفس، وكَفُّ الأذى، وكسب الحلال، ولباس التقوى، والثقة بالله عَزَّوَجَلَّ على كل حـال»(١).

المعنى الإجمـالي

جُمِعَ خير الدنيا والآخرة في خمس خصال؛ الخصلة الأولىٰ: غنىٰ النفس، ومعنىٰ هذه الخصلة أن الغنىٰ ليس بما يملكه العبد من كثرة العَرَضِ؛ فقد يملك مالًا كثيرًا، وخيرًا وفيرًا، لكن ذلك المال والخير لا يظهر أثره علىٰ العبد، فلا تزال نفسه متشوِّفة إلىٰ الكثير؛ فهو يشعر بالحرمان المستمر وإن أُعطيَ شيئًا كثيرًا؛ قال رَسُول الله ﷺ: «ليس الغِنَىٰ عن كثرة العَرَضِ، إنَّما الغنىٰ غنىٰ النَّفْسِ»(٢).

والخصلة الثانية: كف الأذىٰ عن الناس جميعهم دون تمييز بينهم؛ إذ المسلم يحمل رسالة الخير والرحمة للعالمين كما حملها النبي ﷺ من قبلُ.

وكفُّ الأذىٰ يكون بالقول أو العمل؛ فقد تكف الأذىٰ عن كلمة جارحة تجرح وتصيب الناس بندوب، وجروح عميقة غائرة، وقد يرفع العبد الأذىٰ من طريق

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١٧٠).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٩٥) برقم: (٦٤٤٦)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ١٠٠) برقم: (١٠٥١).

الناس فيجعله الله من أهل الجنة، فعن النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لقد رأيت رجلًا يتقلَّب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي الناس»(١).

والخصلة الثالثة: كسب الحلال، ومعنىٰ ذلك أن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا، فلا يدخل العبد جوفه، أو أجواف من يعولهم طعامًا أو شرابًا حرامًا، ولا يكسوهم من حرام.

وقد حثَّ الله تعالىٰ عباده أن يأكلوا مما في الأرض حلالًا طيبًا، فقال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ [البقرة:١٦٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ [المائدة:٨٨].

والخصلة الرابعة: لباس التقوىٰ، ومعنىٰ ذلك أن تكون التقوىٰ لباسًا لا شعارًا، فالله تعالىٰ قد أخبر أنه أنزل علىٰ بني آدم من اللباس والرياش ما يوارون به سوءاتهم، من اللباس والزينة، لكنه وصف لباس التقوىٰ بأنه خيرٌ، فقال تعالىٰ: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف:٢٦].

والخصلة الخامسة: الثقة بالله ﷻ علىٰ كل حال؛ ذلك أن الثقة بالله تعالىٰ، لا يحدها زمانٌ أو مكانٌ، ولا تكون في ظرف دون آخر، بل هي علىٰ كل حال، لقد قالها النبي ﷺ لصاحبه أبي بكر ﷺ في غار حراء، قال تعالىٰ: ﴿ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة:٤٠]، وقال الله عن موسىٰ ﷺ وقد أدركه فرعون وجنوده، قال تعالىٰ: ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء:٦٢]. فإذا كان البشر يثق بعضهم ببعضٍ في أحوال كثيرة، وقد تكون ثقتهم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٣٤) برقم: (١٩١٤).

ليس لها أساس وقرار مكين، فكيف بالله الكريم الذي لا يُخلِفُ وعده، ولا يتأخر أمره، ولا يهزم جنده، ولا يُذَلُّ أولياؤه.

وإنك لتعجب من كثير من المسلمين عند إخبارك لهم بقدرة الله المطلقة، وعلمه الذي لا يعزب عنه شيءٌ، فإذا بهم يقولون: نعم نعلم، لكن! وهذه كلمة لها بُعدُها الخطير؛ فهي تدل على ضعف الثقة بالله تعالى الخالق البارئ المصور جلَّ في علاه.

٦٦٥

علامة قوة اليقين

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «من قوة اليقين ترك ما يُرى لما لا يُرى»[(١)].

المعنى الإجمالي

إن من معاني اليقين أن يترك العبد ما يراه من المنكرات والشهوات، لينال جزاء تركه وثمرة صبره في جنة الله تعالىٰ، ويتمثل يقين العبد في قوة استحضاره لعالم الغيب أكثر من عالم الشهادة، فيؤمن بالغيب الذي أخبر الله عنه في القرآن الكريم، وأفاض النبي ﷺ بذكره في سنته المطهرة.

ويؤمن العبد المؤمن بالغيب الذي جعله الله علامة لإيمانه، فلا يكون له كمال الإيمان وتمامه إلا به، كما قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة:٣]، ومن إيمانه بالغيب إيمانه بالجنة التي جعلها الله للمتقين وعدًا مأتيًا، قال تعالىٰ: ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴾ [مريم:٦١]، وقال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر»[(٢)].

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٢٩٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١١٨) برقم: (٣٢٤٤)؛ ومسلم في صحيحه (٨/ ١٤٣) برقم: (٢٨٢٤).

٦٦٦

من مـوانع اليقين

قال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله: «حرام على قلبٍ أن يَشمَّ رائحة اليقين وفيه سكونٌ إلى غير الله تعالى»(١).

المعنى الإجمـالي

اليقين بالله تعالىٰ تسليم كامل لله تعالىٰ دون التفات أو ركون أو اطمئنان لغير الله تعالىٰ، فإن من سكن وركن واطمأن لغير الله تعالىٰ فأنىٰ له أن يكون ذا يقين، أو يشم رائحة اليقين؛ ذلك أن من مظاهر هؤلاء القوم الذين لا يوقنون استخفافُهم بالله وآياته، ووعده لعباده المؤمنين الموقنين، فهم متمسكون بالحقائق المادية المحضة دون أن يكون في تفكيرهم اليقين بصدق وعد الله لرسله وعباده المؤمنين؛ ولذا فقد أمر الله نبيه ﷺ بالصبر، ونهاه أن يستجيب لاستخفاف الذين لا يوقنون؛ فهم ليسوا علىٰ يقين بما عند الله تعالىٰ، قال ﷻ: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم:٦٠].

(١) الزهد والرقائق للخطيب البغدادي (ص:٥٩)؛ والرسالة القشيرية (١/ ٣١٨).

٦٦٧

حقيقـة اليقين

قال الجنيد رحمه الله: «اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يحول ولا يتغير في القلب»[١].

المعنى الإجمـالي

اليقين: هو اطمئنان القلب للحقائق والعلوم، ورفض للشكوك والرِّيب، ولو كانت بمقدار ضئيل، واليقينُ هو عُلُوٌّ في الإيمان وعزةٌ بالتمسك به، ولو ظهر للناس أن الباطل يصول صولته ويجول جولته؛ لعلم صاحب اليقين أن الباطل مهما انتفش وعلا ريشه فإنه سيذهب ويزول كما يزول الزَّبَدُ الطافي على ماء السماء، قال تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد:١٧].

اليقين هو استقرار للعلم والحقائق الإيمانية الصادقة، فلا تنقلب ولا تحول ولا تزول، فالله تعالى لما أرى عزيرًا آياته في إحيائه وحماره، وبقاء طعامه لم يتغير أو يتعفن، مع لبثه مائة عام، تغيرت فيها الأجيال، ومات الأحياء، وكبر الصغير، وهرم الفتى، فما زاده ذلك إلا إيمانًا إلى إيمانه ويقينًا إلى يقينه، فلم يتحول

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٣١٩).

ولم يتغير، قال الله تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة:٢٥٩].

٦٦٨

قلة الاهتمـام للغد علامـة اليقين

قال أبو عثمان الحيري رحمه الله: «اليقين قلة الاهتمام لغد»[١].

المعنى الإجمالي

لليقين صوره ومظاهره، ومن صوره ومظاهره أن صاحب اليقين لا يهتم بغده، ومقصود ذلك: ألَّا يقلق العبد ذو اليقين من أين يأتيه رزقه؟ ومن أين يأتيه الفرج والمخرج؟ وما يحصل له في غده من خير أو شر؟ لأن الأمر كله قد قدَّره الله.

إن مما يعطينا اليقين بالله خالق كل شيء، وهو على كل شيء وكيل، ما نراه من توكل ويقين الطير على الله تعالى، ويظهر ذلك في أمرين، الأول: أنه يسعى ليومه الذي هو فيه دون غيره، والثاني: أنه لا يخشى من نفاد ما لديه ليقينه بأن الله الذي أعطاه اليوم لن يتركه غدًا وما بعده. فعن النبي ﷺ يقول: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خِماصًا، وتروح بِطانًا»[٢].

لقد جعل الله تعالى ما يكون في الغد من الخمسة الأشياء التي اختص بها بعلم الغيب، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٣١٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٣٩٤) برقم: (٤١٦٤).

[لقمان:٣٤]، لكن الاهتمام بالغد يكون في محاسبة النفس ومجاهدتها؛ حتىٰ تستقيم علىٰ طاعة الله، وتكون مستعدة للقائه، حتىٰ لا ترجع إليه وهي خالية من الخير والبر. قال الله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ ﴾ [الحشر:١٨].

٦٦٩

الوثوق بما في يد الله

قال أبو الحسن بن بنان[(١)] رحمه الله: «علامة سكون القلب إلى الله تعالى أن يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده»[(٢)].

المعنى الإجمالي

إن القلوب الخاوية من الإيمان، والمنقطعة صلتها بربها، تحسب كل نجاحاتها بالمقياس المادي، وبما تملكه من الدنيا، وتثق بذلك ثقة مطلقة، لكن القلوب المؤمنة المطمئنة تطمئن إلىٰ ما يعطيه الله من الخير والفضل، وما يصرفه من الشر والسوء، وتعلم علما صادقا لا ريب فيه أن ما ينزله الله من خزائنه أوثق وأكمل مما في أيديها؛ لأن ما في يد العبد عرضة للهلاك والنفاد، وما عند الله باق.

إن القلب لا يسكن وهو خالٍ من الإيمان، أو أن يكون الإيمان به دخنٌ وضعفٌ وريبٌ، فلا يسمىٰ المؤمن مؤمنًا حقًا ذا يقينٍ تامٍ بالله تعالىٰ إلا عند سكون قلبه ورضاه واطمئنانه؛ ذلك أن سكون القلب يكون بالنظر إلىٰ أن الله عالم قادر،

---

(١) أبو الحسن بن بُنان بن محمد الحمال الزاهد الواسطي، نزيل مصر وشيخها، من كبار مشايخ مصر ومقدميهم، صحب الخزاز والجنيد، وثَّقه ابن يونس، مات في رمضان سنة ٣١٦هـ. ينظر: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة للسيوطي (١/ ٥١٢).

(٢) طبقات الأولياء لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٤٣).

فيركن العبد إلىٰ مولاه، ويثق بأن ما عند الله خالقه باقٍ، وما عند نفسه أو عند البشر ينفد وينتهي كما قال تعالىٰ: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل:٩٦]، إن ما أعطي العبد من فضل الله ورزقه قليلٌ من كثيرٍ، ونقطة من فيض الكريم الغني الجواد، فهو يغمره بسعة نعمه وجوده، فيزداد العبد قربًا من ربه وثقة واطمئنانًا.

٦٧٠

اليقين والتوحيد

قال أبو الحسين الوراق رحمه الله: «اليقين ثمرة التوحيد، فمن صفا في التوحيد صفا له اليقين»[(١)].

المعنى الإجمالي

يؤمن العباد بربهم، لكنهم يتفاوتون في الإيمان حسب تصديقهم بالله، ويقينهم بما وعدهم؛ ويكون لليقين أثره على الأعمال؛ ولذلك جعل الله أهل الإيمان يزدادون إيمانًا إلى إيمانهم، ويقينًا إلى يقينهم، فقال تعالى: ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ﴾ [المدثر:٣١].

فمن كان في توحيده صافيًا نقيًا صفا يقينه، وهذا توحيد الأنبياء والمرسلين ومن كان على سننهم من الصحابة والتابعين، ومن كان في توحيده ضعيفًا فإن يقينه يضعف بضعف إيمانه ويقينه، وانظر إلى قوة يقين موسى عليه السلام بربه المولى والنصير، وضعف يقين بني إسرائيل الذين كانوا معه، لما أتبعهم فرعون وجنوده بغيًا وعدوًا، فكان البحر أمامهم، وفرعون وجنوده من ورائهم، قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢].

---

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٢٣٠).

٦٧١

أثر اليقين في البلاء والنعمة

قال النهرجوري رحمه الله: «إذا استكمل العبد حقائق اليقين صار البلاء عنده نعمة، والرخاء مصيبة»(١).

المعنى الإجمالي

إن الإيمان حين تكتمل أركانه لدى العبد، وتظهر حقائق اليقين كلها لديه، يعلم أن بعض الأمور تبدي الخير في ظاهرها، لكنها تحوي في باطنها شرًا وبلاء ومحنة، وأن بعض الأمور تبدي الشر والبلاء في ظاهرها، لكنها تحوي في باطنها خيرًا ورحمة وفضلًا ومنحًا ربانية عظيمة، ولا يعلم كل ذلك إلا الله تعالى. وهذه المرحلة لن يصل إليها إلا المقربون المجاهدون لأنفسهم ذوو اليقين الصادق بالله تعالى، وإلا فمن ذا الذي يصير عنده البلاء نعمة والرخاء مصيبة.

إن من رزقه الله اليقين يخشى على نفسه من توالي الرخاء والنعم دون أن يبتلى ببلية، وليس في ذلك تمنيا للبلاء والامتحان، ولكنَّ بقاءه دون ابتلاء يعده مصيبة، وإن أصيب بمصيبة وببلية يرى ذلك رفعة ونعمة من الله تعالى، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ فقال: «الأنبياء، ثم

---

(١) الرسالة القشيرية (١/ ٣٢٠- ٣٢١).

الأَمْثَلُ فالأَمْثَل، فيبتلىٰ الرجل علىٰ حسب دينه، فإن كان دينه صُلْبًا اشتدّ بلاؤه، وإن كان في دينه رِقّة ابتلي علىٰ حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتىٰ يتركه يمشي علىٰ الأرض ما عليه خطيئة»(١).

إن أهل اليقين يعلمون أن الكره والحب للأمر قد لا يكون مطابقًا لما أحبوه أو كرهوه؛ فالله يعلم وهم لا يعلمون، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١٦]، ولما حدثت حادثة الإفك، أخبر الله رسولَه ﷺ وصحابته ﷺ أن ما حسبوه شرًا فيه خير لهم، قال تعالىٰ: ﴿ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡ ﴾ [النور:١١]، فيظهر لهم من حقائق اليقين ما لا يظهر لغيرهم.

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٠٣) برقم: (٢٣٩٨)، وقال: حديث حسن صحيح؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ١٥٢) برقم: (٤٠٢٣)؛ وأحمد في مسنده (٣/ ٨٧) برقم: (١٤٩٤)؛ والدارمي في مسنده (٢/ ٩٢١) برقم: (٢٨٢٥).

٦٧٢

نور اليقين

قال أبو بكر الوراق رَحِمَهُ اللَّهُ: «اليقين نور يستضيء به العبد في أحواله فيبلغه إلى درجات المتقين»[١].

المعنى الإجمالي

يصل المؤمن بإيمانه إلىٰ درجة اليقين حين يكون إيمانه قد خالط بشاشة قلبه، فلم يعد في قلبه سوىٰ التصديق المطلق بالله تعالىٰ، وبكل ما جاء به رسول الله ﷺ عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥].

إن اليقين نور يبدد كل ظلمات الشك والريب في قلب العبد، فيكون الإيمان مبنيًا علىٰ الصدق واليقين، وليس اليقين وصفًا عاديًا يمكن للعبد ان يصل إليه وفي قلابه أدنىٰ شك في الأصل الذي انبثق منه إسلامه وإيمانه؛ فهو يؤمن بأن الله حق وأن ما دونه باطل، حتىٰ لو اجتمع كل ضُلَّال الأرض ليضلوك عن الله وآياته وسبيله لا يخرج عن يقينه؛ فقد ملأ اليقين قلبه نورًا فظهر علىٰ كافة أقواله وأفعاله. قال الله

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٢٣٦)؛ وطبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ١٨٣).

تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الحج:٦٢].

ويوقن برسول الله ﷺ وبكل ما جاء به من الشرع، فلا يقدم قولا غير قوله، ولا فعلا غير فعله، ولا نهجًا وطريقًا غير نهجه وطريقته. قال الله تعالىٰ عن صحابة رسول الله ﷺ: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٢٢]، وكلما ازداد يقين العبد بربه في عطائه، ووعده ووعيده، تصديقًا وتسليمًا بما أخبر به رسوله ﷺ كلما ازداد ارتقاؤه في درجات المتقين.

٦٧٣

المسلم لا يشك في وعد الله

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «لا يُشَكِّكَنّك في الوعد عدم وقوع الموعود وإن تعين زمنه؛ لئلا يكون ذلك قدحًا في بصيرتك، وإخمادًا لنور سريرتك»(١).

بيان المفردات

التشكيك في الشيء: هو التردد في الوقوع وعدمه.

الوعد: الإخبار بوقوع الشيء في محله.

الموعود: المخبَر به.

القدح في الشيء: التنقيص له والغَضُّ من مرتبته.

البصيرة: القوة المهيئة لإدراك المعاني.

السريرة: القوة المستعدة لتمكن العلم والمعرفة.

إخماد الشيء: خفاؤه بعد ظهوره(٢).

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٥٠).

(٢) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ٤٢ - ٤٣).

المعنى الإجمالي

كل وعد من الله سبحانه هو حق لا شك فيه، ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢]، ومن أمثلة ذلك وعد الله بنصر عباده المؤمنين والتمكين لهم في الأرض، وإهلاك الظالمين ورد مكرهم عليهم، والحياة الطيبة لمن آمن وعمل صالحًا.

لكن أحيانا يرىٰ بعض الناس الصورة الظاهرة للواقع الذي يعيش فيه، فيتوهم أن وعد الله لم يتحقق، فيقرأ مثلا قوله تعالىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور:٥٥] ثم ينظر إلىٰ الواقع ويتساءل لماذا لا يتحقق هذا الوعد؟ ولماذا لا يزال يرىٰ الكافرين يتسلطون علىٰ المؤمنين؟ بل قد يبلغ هذا التوهم بالإنسان أن يشكك بوعد الله في قرارة نفسه.

والمؤمن بالله ﷻ وبصدق موعوده يعلم جازما أن وعد الله حق لا شك فيه، ويعلم كذلك أن تحقق الوعد في الواقع مرتبط بعلم الله الواسع الذي هو أوسع من علمه، فقد يرىٰ الإنسان أن شروط تحقق هذا الوعد قد حصلت أو أن وقته قد حان بحسب علمه، لكنْ يكون في علم الله تعالىٰ أنّ هذه الشروط لم تتحقق، ومن أمثلة ذلك ما حصل مع نوح عليه السلام حين أراد الاستشفاع لابنه: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود:٤٥] لكن أخبره الله تعالىٰ بأن ابنه لا يستحق ذلك؛ ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود:٤٦].

فإذا وقع في قلب الإنسان شك في وعد الله سبحانه، كان ذلك قادحًا ومنقصًا من إدراكه وبصيرته، ومخمدًا وطامسًا لنور قلبه وسريرته وإحساسه.

٦٧٤

تخفيف ألم البلاء

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «لِيُخفِّفْ ألمَ البلاءِ عليك عِلْمُك بأنه سبحانه هو المُبْلِي لك، فالذي واجهتْك منه الأقدارُ هو الذي عوَّدَك حُسْنَ الاختيار»[١].

المعنى الإجمالي

عِلمُك بأنه سبحانه هو المُبتَلِي لك يُخفِّف ألَمَ البلاءِ عنك، أي: يكون هذا العلم سببًا للتخفيف عنك، فإن الذي واجهتْك منه الأقدارُ، أي: الأمور المقدَّرة عليك من مرضٍ ونحوه، هو الذي عوَّدك حسنَ الاختيار، أي: اختيار الأمر الحسن الذي يُلائمك. فاتَّهِمْ نفسَك إذا ظنَّتْ خلافَ ذلك، وسلِّم الأمرَ تَسلَمْ، فإنَّ مولاك الحكيمَ أعلمُ بمصالحك منك. قال تعالىٰ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦][٢].

ليس فيما يُعزِّي المسلمُ نفسَه تجاه المصائب التي قد يُبتلَىٰ بها عزاءٌ أفضل وأقوىٰ من الثقة بحكمة الله ورحمته، ولا تعظُم المصيبةُ في نفس المبتلىٰ بها إلا

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٦٣).
(٢) شرح الحكم العطائية للشرنوبي (ص: ٨٨).

لأحد سببين:

أحدهما: جحوده بوجود الله الذي بيده كل شيء.

ثانيهما: غياب ثقته بحكمة الله ورحمته ولطفه. فكما عوَّدك اللهُ علىٰ ما تُحب، فاصبرْ له علىٰ ما يحب(١).

قال الله ﷻ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

وقال عزَّ من قائل: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور:٤٨].

وهذه الحكمة تسليةٌ للسالكين إلىٰ الله تعالىٰ، فإنه من عرف أن البلايا من مولاه الذي هو أرحمُ به من والدتِهِ ووالدِهِ، كيف يبقىٰ له إحساس بالألم؟ أم كيف لا يتلذَّذ به؟ كما يتلذَّذ بالنعمة سائرُ الناس(٢).

(١) الجملة الأخيرة من كلام الشيخ أحمد زروق، نقلها عنه البوطي من شرحه للحكم. ينظر: الحكم العطائية شرح وتحليل للبوطي (٤/ ٢٢٤)، (٤/ ٢٣٢).

(٢) شرح الحكم العطائية للشرنوبي (ص: ٨٧).

٦٧٥
أنين الشكوى

قال عبد الرزاق القاشاني ﵀: «كثرة الأنين لقلة اليقين»[(١)].

بيان المفردات

الأنين: من أنَّ الرّجُل يَئِنُّ أَنِينًا: إِذا تأوّه من الوَجع، والأنين: صوتُ التوجّع أو التأوّه ألمًا[(٢)].

المعنى الإجمالي

النّاس يتفاوتون في إيمانهم تفاوتًا عظيمًا، وهذا التفاوت يكون بحسب ما في قلوبهم من قوة اليقين في الله، والتصديق به وحُبّه ورجائه وخشيته والتوكل عليه والتسليم لحُكمه والرضا بقضائه وقدره ونحو ذلك، وهناك علامات يعرف بها الإنسانُ مدىٰ قوةَ إيمانه ويقينه بالله، منها الرضا بالقضاء والقدر وعدم الأنين والشكوىٰ عند نزول البلاء.

(١) آداب الطريقة وأسرار الحقيقة في رسائل الشيخ عبد الرزاق القاشاني (ص: ١٠١).
(٢) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (١٥/ ٤٠٣)؛ مقاييس اللغة لابن فارس (١/ ٣١)؛ معجم لغة الفقهاء للقلعجي (ص: ٩٤).

وصبرُ الإنسان علىٰ ما يصيبه من المصائب والبلايا واجبٌ عليه، ويكون ذلك بعدم إظهار الأنين والجزع أو التسخطّ والشكوىٰ، لا بالقول ولا بالفعل. قال ابن القيم رحمه الله: الصبرُ واجبٌ بإجماع الأمة، وهو نصفُ الإيمان، فإن الإيمانَ نصفان: نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكرٌ[1]، فمن لزم الصبرَ عند البلاء لم يتسخط علىٰ القدر ولم يعترض عليه، وإن كان متألمًا في نفسه.

وكان السَّلف رحمهم الله يكرهون حتىٰ أنينَ المريض؛ لأنه يُترجم عن الشّكوىٰ بلسان الحال[2]، جاء عن عبد الله ابن الإمام أحمد قال: لمّا مرض أبي واشتد مرضُه ما أنَّ، فقيل له في ذلك، قال: بلغني عن طاووس أنه قال: أنينُ المريض شكوىٰ الله عز وجل، قال عبد الله: فما أنَّ حتىٰ مات[3].

فكثرة الأنين تنافي حُسنَ الظَّن بالله تعالىٰ المأمور به في قوله ﷺ: «لا يموتنَّ أحدُكم إلا وهو يحسنُ بالله الظّنَّ»[4]، وتُضاد الصبرَّ الواجبَ عند نزول البلاء والمرض الذي يكون باعترافِ العبد للّه بما أصابه منه، واحتسابِه عند الله رجاءَ ثوابه[5]، وحَبْسِ النفس عما لا يحسن فعله ولا يجمل، وحبسِ اللسان عن الشكوىٰ إلىٰ غير الله، والقلبِ عن التسَخُّط، والجوارحِ عن لطم الخدود، وخمشِ الوجوه، وشَقِّ الثياب، ونحو ذلك، وأن يرضىٰ العبد عن الله فيما يفعله به ممّا يحبّ وقوعَه، ومما يكره، فإذا وقع من العبد عكس ذلك كان متلبِّسًا بالنقائص، لأنَّ من شكا ما به إلىٰ مخلوقٍ مثله، كان قد شكا ربَّه إلىٰ بعض مخلوقاته، فمَثَلُه كمثل من شكا من

(١) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٤٤٥).
(٢) ينظر: غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب للسفاريني (١/ ٤٥٥).
(٣) ينظر: الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث لأحمد بن عبد الكريم (ص: ٢٠٨).
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ١٦٥) برقم: (٢٨٧٧).
(٥) ينظر: الصبر والثواب عليه لابن أبي الدنيا (ص: ٨٥).

يرحمُه ويلطف به ويعافيه وبيده ضَرُّه ونفعُه، إلىٰ من لا يرحمُه وليس بيده نفعٌ ولا ضَرٌّ. ولا شك بأن شكاية الضّارّ النافع الذي بيده أزمة الأمور، إلىٰ من لا يضر ولا ينفع من عدم المعرفة وضعف الإيمان واليقين(١).

وما أجمل قول القائل:

وإذا عَرَتْكَ بليَّةٌ فَاصْبِرْ لها ... صبرَ الكريم فإنَّه بك أعلمُ
وإذا شَكَوْتَ إلىٰ ابن آدمَ إنَّما ... تشكو الرحيمَ إلىٰ الّذي لا يرحمُ(٢)

وهنا لابد من الإشارة إلىٰ أنَّ الأنينَ المذموم في هذه الحكمة لا يُقصد به الأنينُ الطبيعي الذي يكون عند توجّع وألم جسدي، ذلك لأنَّ الأنينَ من ألم المرض والتَّأوّه قد يغلب الإنسانَ، ولا يكون في مقدور ابن آدم تركُ الأنين عند الوجع حين يشتدُّ به، فهذا ليس فيه ما يخالف الشرع ما لم يصاحبه الجزع والتسخُّط، كما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «بل أنا وارأساه»(٣).

---

(١) ينظر: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم (١/ ٥٢٣)؛ تسلية أهل المصائب لمحمد المنبجي (ص: ١٦٢).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٤٦١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ١١٩) برقم: (٥٦٦٦).

٦٧٦

ثمرة الصَّبر واليقين

قال ابن القيم رحمه الله: «الصَّبرُ لقاحُ اليقين؛ فإذا اجتمعا أورثا الإمامةَ في الدين»[(١)].

بيان المفردات

الصبر: لغة: الإمساكُ في ضِيق، والمنعُ، والحَبسُ، والكَفّ[(٢)]. واصطلاحًا: «حَبسُ النَّفْس عن الجَزَع، واللسانِ عن التَّشكّي والتسَخُّط، والجوارحِ عن لطمِ الخدود وشقِ الجيوب ونحوهما»[(٣)].

اليقين: لغة: العلمُ وزوالُ الشك[(٤)]. واصطلاحًا: «طمأنينةُ القلب واستقرارُ العلم فيه»[(٥)].

الإمامة: مصدرٌ من الفعل «أَمَّ»، يقال: أَمَّ القومَ وأَمَّ بهم: تقدَّمهم، وهي الإمامةُ، والإمامُ: كُلُّ مَن ائتَمَّ به قومٌ، سواء كانوا علىٰ الصراط المستقيم أو كانوا ضالِّين[(٦)].

---

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٢٨٩).

(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني (ص: ٤٧٤).

(٣) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم (١/ ١٥).

(٤) الصحاح تاج العربية وصحاح اللغة للجوهري (٦/ ٢٢١٩)؛ مختار الصحاح للرازي (ص: ٣٤٩).

(٥) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (٣/ ٣٢٩).

(٦) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (١٥/ ٤٥٧)؛ لسان العرب لابن منظور (١٢/ ٢٤)؛ القاموس المحيط للفيروز آبادي (ص: ١٠٧٧).

المعنى الإجمالي

الصبرُ يكون بحبسِ النَّفْسِ علىٰ طاعة الله، وحبسِها عن معصية الله، وحبسِها عن التَّسخُّطِ من أقدار الله[١]، وهو من أصعبِ المنازل وأوحشها في طريق المحبَّة، وأنكرها في طريق التوحيد[٢]، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]، وهو واجب بإجماع الأمة[٣]، بل هو من صفات عبادِ الرحمن التي استحقوا بها الجنةَ العالية، ولقوا فيها التحية والسلام[٤]، قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٧٥]. وقال علي رضي الله عنه: «إنَّ الصَّبرَ من الإيمانِ بمنزلةِ الرَّأسِ من الجَسَدِ؛ إذا ذهب الصبرُ ذهب الإيمانُ»[٥].

فإذا كان الصبرُ من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فيكون اليقينُ من الإيمان بمنزلة الرّوح من الجسد، فبه تفاضل العارفون، وفيه تنافس المتنافسون، وإليه شمّر العاملون.

وإذا تزوّج الصّبرُ باليقين، وُلِد بينهما حصولُ الإمامة في الدّين[٦]، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤]، فالله ﷻ جَمَعَ بين الصَّبْر وَاليَقِين إِذ بهما سَعَادَة العَبْد، وبفقدهما فقدُ

(١) ينظر: شرح العقيدة الواسطية لابن العثيمين (١/ ٤١٥).
(٢) ينظر: منازل السائرين للهروي (ص: ٤٩)؛ مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٤٦٢).
(٣) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٤٥٥).
(٤) ينظر: تفسير ابن كثير (٥/ ١٥٦).
(٥) ينظر: سنن سعيد بن منصور (٦/ ٧٧).
(٦) ينظر: مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (٣/ ٣٥٨)؛ قاعدة في الصبر لابن تيمية (ص: ٩٤)؛ مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ١٧٠).

سعادته، فإنَّ القلب تطرقه طوارقُ الشَّهَوَات المُخَالفَة لأمر الله، وطوارقُ الشُّبُهَات الْمُخَالِفَة لخبره، فبالصَّبر تُدفع الشَّهَوَات، وباليقين تُدفع الشُّبُهَات، فَإِن الشَّهوَة والشبهة مضادتان للدّين من كل وجه، فَلَا ينجو من عَذَاب الله إِلَّا من دفعَ شهواته بالصبرِ وشبهاته بِاليَقِينِ، وَلِهَذا أخبر سبحانهُ عَن حبوطِ أعمالِ أهل الشَّهوات والشبهات، فقال تعالىٰ: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ﴾ [التوبة:٦٩]، فهذا الاستمتاع بالخَلاق هو استمتاعُهم بنصيبهم من الشَّهَوَات، ثمَّ قال: ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ﴾ [التوبة:٦٩]، وهذا هو الخَوْض بالباطلِ في دين الله، وهو خوض أهل الشُّبُهَات، ثمَّ قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [التوبة:٦٩]، فعَلَّقَ سبحانه حبوطَ الأعمال والخسران باتِّبَاع الشَّهَوَات الَّذي هو الاستمتاع بالخَلاق، وباتباع الشُّبُهَات الَّذي هو الخَوْض بالباطلِ(١).

(١) ينظر: رسالة ابن القيم إلىٰ أحد إخوانه (١/ ١٦-١٩)؛ مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ١٧٠).

٦٧٧

الثقةُ بالله راحةٌ وسعادةٌ

قال ابن القيم رحمه الله: «يا آدمُ! لا تَجزعْ من قولي لك: ﴿ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا ﴾؛ فلكَ ولصالح ذُرِّيَّتِكَ خلقْتُها»[١].

المعنى الإجمالي

إنَّ حُسْنَ الظَّن بالله تعالىٰ من العبادات الجليلة التي ينبغي أن يملأ المؤمنُ بها قلبَه في جميع أحواله ويستصحبها في حياته، يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «والذي لا إلهَ غيرُه ما أُعطيَ عبدٌ مؤمنٌ شيئًا خيرًا مِن حُسْن الظَّنِ بالله تعالىٰ، والذي لا إلهَ غيرُه لا يُحسنُ عبدٌ باللّه الظَّنَّ إلا أعطاه اللّهُ عز وجل ظنه، ذلك بأنَّ الخيرَ في يده»[٢].

وما أروع حُسن الظّن بالله حين يُوقن المؤمنُ أنَّ بعد الكسر جبرًا، وأنَّ بعد العُسر يُسرًا، وأنَّ بعد التعب راحة، وبعد الدمع بسمة، وبعد المرض شفاء، وبعد الدنيا جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين[٣]، فلا يستوحشُ العبدُ مِنْ ظاهرِ الحال، لأنه متيقّنٌ بأنَّ اللهَ جل جلاله ما حَرَمه إلا ليُعطيَه، ولا أمرضَه إلا ليَشفيَه، ولا أفقرَه إلا ليُغنيَه، ولا أماتَه إلا ليُحييَه، وما أخرجَ أبويْه من الجنة إلا ليُعيدَهما

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٥١).

(٢) ينظر: حسن الظن بالله لابن أبي الدنيا (ص: ٩٦).

(٣) ينظر: مقال بعنوان: (حسن الظن بالله عبادة وسعادة) موقع إسلام ويب.

إليها علىٰ أكملِ حال، كما قيل بلسان الحال: يا آدمُ لا تجزعْ من قولي لك: اخرُجْ منها، فلكَ خلقتها وسأعيدكَ إليها. فالربُّ تعالىٰ يُنعم علىٰ عبده بابتلائه، ويعطيه بحرمانه، ويصحه بسَقمه، فلا يستوحش عبدُه من حالةٍ تسوؤه أصلًا، إلا إذا كانتْ هذه الحالة تغضبه عليه، وتبعده منه(١).

لا يُوحِشَنَّكَ ذاكَ العَتْبُ إنَّ لَه ... لُطفًا يُرِيكَ الرِّضا في حالةِ الغضب(٢).

(١) ينظر: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم (١/ ١٠٩).
(٢) ينظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢/ ٨٣٠).

بـاب التوكل على الله

٦٧٨

الرضا باختيار الله

قال الحسن بن علي[(١)] رضي الله عنهما: «من اتكل على حسن اختيار الله له، لم يتَمَنّ غير ما اختار الله له»[(٢)].

المعنى الإجمالي

ما يعطيه الله لعبده من خير، وما يصرفه عنه من شر، وما يقدره له من مقادير غيبه، وتدبير خلقه الذي يعلم أمرهم كله، لا بد أن يقابله العبد المؤمن بالرضا والتسليم لاختيار الله؛ لأن العبد مهما رأىٰ أن في اختياره خيرا له في عاجل أمره، فإن الله تعالىٰ الذي خلق فسوَّىٰ، والذي قدَّر فهدىٰ، يعلم ما يحتاجه عبده، وما يقرب عبده منه ﷻ، وما يبعده عنه، وما يسوءه وما يفرحه، وما فيه خير له في الدنيا والآخرة، وما فيه شر وسوء له في عاجل أمره وآجله.

ولذلك فقد ذكر الله أنه يخلق ويختار ما يشاء، وما ينبغي لعبد أن يكون له الخيرة في أمره كله، قال تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ

(١) الحسن بن علي بن أبي طالب، أبو محمد، القرشي الهاشمي المدني، الشهيد، الإمام السيد، ريحانة رسول الله ﷺ وسبطه، وسيد شباب أهل الجنة، مولده سنة ٣هـ، حدَّث عن جده ﷺ أحاديث، وعن أبيه وأمه رضي الله عنهم، ومناقبه كثيرة، توفي سنة ٤٩هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٢٦٢)؛ شذرات الذهب لابن العماد (١/ ٢٤٣).

(٢) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (٢/ ٣٤٤)؛ سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٢٦٢).

ٱلْخِيَرَةُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [القصص:٦٨]، و(ما) موصولة: أي يختار الأمر الذي فيه خيرتهم، وقد يكون أجابك وعيَّن لذلك وقتًا هو أصلح لك وأنفع، فيعطيك ذلك في الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد، وقد يؤخر لك ذلك لدار الكرامة وهو خير وأبقى[١].

والتوكل على الله يقتضي الرضا باختيار الله وحسن اختياره لعبده؛ ذلك أن العبد يعلم أن حسن اختيار الله له خير له من اختياره لنفسه، فلا يتمنى شيئًا أن يتحقق له بعد تفويض أمره لله إلا ما اختاره الله له، فالله يعلم ما يصلح العبد ويفسده، وما ينفعه وما يضره، وما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

---

(١) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ٤١)،

٦٧٩

الاستعانة بالله

كتب الحسن البصري رحمه الله إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «لا تستعنْ بغير الله، فيَكِلَك الله إليه»(١).

المعنى الإجمالي

الاستعانةُ بالله تعالىٰ والتوكل عليه منجاةٌ للعبد من الوقوع في مصائد الشيطان وحبائله؛ إذ إن الاستعانة بالله والتجاء القلب إليه وإقباله عليه في حركاته وسكناته، هو أولىٰ ما تلبَّس به الإنسان ليحصل له الدخول في ضمان ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر:٤٢]، فهذه الإضافة هي القاطعة بين العبد وبين الشياطين، وحصولها بسبب تحقق مقام العبودية لرب العالمين.

إن المسلم يقرأ في كل صلاة من صلواته بفاتحة الكتاب، وفيها يقرأ قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥]، وقد جاء ذكر اختصاص الله تعالىٰ بالاستعانة بعد ذكر اختصاصه سبحانه وتعالى بالعبادة؛ ذلك أن العبادة شاملة لحياة الإنسان كلها، ومن عبادته لله أن يستعين به.

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي (١/ ٤٨٢).

وذُكرت الاستعانةُ في القرآن الكريم مقرونة بالصبر؛ فأمر الله عباده بالاستعانة بالصبر والصلاة، فقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٣]، وأمر موسىٰ ﷺ قومه أن يستعينوا بالله تعالىٰ، وأن يصبروا؛ كي يجعل الله لهم العاقبة، فقال تعالىٰ: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف:١٢٨].

ومن يستعن بغير الله تعالىٰ، ويركن إلىٰ غيره، فقد جعل آفة من الآفات ومانعا من الموانع بينه وبين هداية الله وتوفيقه؛ وكما قيل لمن يركن إلىٰ غير الله: «إن ركنت إلىٰ العلم أنسيناكه، وإن ركنت إلىٰ الحال سلبناك إياه، وإن ركنت إلىٰ المعرفة حجبناك عنه، وإن ركنت إلىٰ قلبك أفسدناه عليك، فلا يركن العبد إلىٰ شيء سوىٰ الله البتة، ومتىٰ وجد قلبه ركونا إلىٰ غيره فليعلم أنه قد أُحيل علىٰ مُفلس، بل مُعْدَم، وأنه قد فُتح له الباب مكرا، فليحذر ولوجه، والله المستعان»(١).

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ١٧٩).

٦٨٠

أنواع التوكل

قال شقيق البلخي رحمه الله: «التوكل أربعة: توكل على المال، وتوكل على النفس، وتوكل على الناس، وتوكل على الله»(١).

المعنى الإجمالي

من توكل على الله وقاه وكفاه وكان حسيبه وكفيله، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]، ومن توكل على نفسه أوكله الله إليها، ومن توكل على ماله قَلَّ، ومن توكل على جاهه وسلطانه ذَلَّ، ومن توكل على الناس خذلوه وما نفعوه، بل ضروه.

ومن توكل على غير الله، فيما لا يقدر عليه إلا الله، كالتوكل على الموتى والغائبين ونحوهم في دفع المضار، وتحصيل المنافع والأرزاق والأولاد، فقد أشرك بالله الشرك الأكبر(٢).

فكل من توكل على غير الله خاب، وخُذِلَ من جهته، وكل من استنصر بغير الله خُذِلَ: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء:٢٢]، والله تبارك وتعالى غني

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ٦١).

(٢) موسوعة فقه القلوب لمحمد بن إبراهيم التويجري (٢/ ١١٨٠).

حميد، يحسن إلىٰ عباده مع غناه عنهم، يريد بهم الخير، ويحسن إليهم، ويكشف الضر عنهم، لا لجلب منفعة إليه من العبد، ولا لدفع مضرة، بل رحمة منه وإحسانًا[١].

(١) موسوعة فقه القلوب للتويجري (٣/ ٢٧٨٢- ٢٧٨٣).

٦٨١

حقيقة التوكل

قال شقيق البلخي رحمه الله: «التوكل أن يطمئن قلبك بموعود الله»(١).

المعنى الإجمالي

من تأمل في أسماء الله الحسنىٰ وصفاته العلىٰ يجد راحة واطمئنانًا في نفسه؛ فيثق العبد بوعد الله لأنه يقرأ قول الله تعالىٰ في جزائه: ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴾ [مريم:٦١]، فيطمئن، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الروم:٦]، فيزداد اطمئنانًا ويقينا بالله، وتوكلا عليه، فحين يقرأ قوله تعالىٰ: ﴿ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ﴾ [الطلاق:٧]، يعلم أن الله سيغير حاله وحال أمته من العسر إلىٰ اليسر، ومن الضعف إلىٰ القوة، ومن الخوف إلىٰ الأمن.

ويصبح العبد المؤمن يرىٰ ما كان يؤمن به غيبًا يراه حقيقة (عين اليقين)؛ وذلك عند دخوله الجنة، قال الله عن قول أهل الجنة: ﴿ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٦٤).

[الزمر:٧٤]، ويطمئن بنصر الله تعالىٰ بعد أن بذل ما استطاع بذله؛ لأنه يعلم أن الله تعالىٰ قد جعل وعدًا لعباده بالنصر، فقال تعالىٰ: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم:٤٧].

٦٨٢

التوكـل على الله

قال معروف الكرخي رحمه الله لرجل: «توكل على الله حتى يكون جليسك وأنيسك وموضع شكواك»(١).

المعنى الإجمـالي

أمر الله تعالىٰ في كتابه الكريم بالتوكل عليه، فقال ﷻ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء:٨١]، وقال أيضًا: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان:٥٨]، وجعل التوكل جزءًا من عبادته فقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٢٣].

والتوكل أن يعلم العبد أن أخذه بالأسباب لا ينافي التوكل، وأن وثوقه بالأسباب ونسيان الله شرك، وتركه للأسباب جهل وضعف، والسلامة في التوكل كما قال ابن عطاء عنه: «أن لا يظهر فيك انزعاجٌ إلىٰ الأسباب مع شدة فاقتك إليها، ولا تزول عن حقيقة السكون إلىٰ الحق مع وقوفك عليها»(٢).

(١) التوكل علىٰ الله لابن أبي الدنيا (ص: ٦٤)؛ وطبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٨٣)؛ وحلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ٣٦٠).

(٢) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٣٠٠).

ومن تمام التوكل أن يفوض العبد أمره كله لله؛ فهو جليسه وأنيسه في خلوته، وهو من يشكو إليه حاله التي لا يعلمها إلا هو؛ إذ لا يقدر البشر أن يملكوا للعبد نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا. ولا يكشف الضر عن العبد إلا الله، ولا يأتيه بالخير والفضل إلا هو سبحانه وتعالى.

٦٨٣

التوكــل الكــاذب

قال بشر الحافي رحمه الله: «يقول أحدهم: توكلت على الله تعالى، يكذب على الله تعالى، لو توكل على الله تعالى لرضي بما يفعل الله تعالى به»[1].

المعنى الإجمــالي

التوكل على الله ينبغي أن يحلى بالصدق مع الله، والثقة في التوكل عليه؛ فهو سبحانه وتعالى الذي خلق الأسباب ويسَّرها، وهو الذي يعلم ما يمكن للأسباب أن تفعله من نتائج.

إن العبد عند أخذه بالتوكل على الله مطلقا، يجب عليه أن يفوض أمره لله تعالى تفويضا مطلقا؛ فإنه إن فعل ذلك، ورأى ما كان يؤمله حاصلا حمد الله وشكره، وإن لم يكن منه شيء رضي بما رضيه الله له.

لو صدَّق فِعلُ العبدِ قولَه لكان من المتوكلين الصادقين في توكلهم؛ فقد كان رسول الله ﷺ سيد المتوكلين يبذل أسبابًا، ثم يثق بالله تعالى، وهو راض عن ما يقدره الله، فعل ذلك في حياته كلها، في هجرته، وما حصل من لحاق سراقة بن مالك برسول الله ﷺ وصاحبه أبي بكر رضي الله عنه وقد كان ذلك بعد أخذهما بكافة الأسباب الشرعية المقدرة، وفي دعوته.

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٩٩).

فإذا كان المسلم يتخذ من رسول الله ﷺ قدوة له وأسوة، فينبغي أن تكون أفعاله منسجمة مع أقواله في توكله على الله، لا أن يقول إنه من المتوكلين، فإذا اختار الله له أمرًا، وفعل به ما يشاء، فلم يرض بأمر الله وفعله واختياره، فهذا التخالف بين القول والفعل يعد كذبا في وصف العبد لنفسه بأنه متوكل على الله تعالى.

٦٨٤

حقيقـة التوكـل

قال السَّريّ السَّقَطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التوكل الانخلاع من الحول والقوة»[١].

المعنى الإجمـالي

علَّم رسول الله ﷺ أمته أن يكثروا من قول: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، ثم فسَّر معناها لهم، فقال: «أتدرون ما تفسيرها؟ لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بعون الله»[٢]. ومن معانيها: أنه: «لا حيلة لأحد، ولا تحول لأحد، ولا حركة لأحد عن معصية الله، إلا بمعونة الله، ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله، وكل شيء يجري بمشيئة الله، وعلمه وقضائه وقدره. غلبت مشيئته المشيئات كلها، وغلب قضاؤه الحيل كلها. يفعل ما يشاء، وهو غير ظالم أبدًا».[٣]. فإذا كان العبد على هذه الحقيقة الإيمانية والتفويض والاستسلام لعلام الغيوب فإنه يعيش حياة عبد مطيع لله تعالى، لا يملك من أمر نفسه شيئًا.

(١) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٥٤).
(٢) أخرجه البزار في مسنده (٥/ ٣٧٤) برقم: (٢٠٠٤)؛ والبيهقي في السنن الصغير (١/ ١٧).
(٣) شرح الطحاوية لابن أبي العز (٢/ ٦٥٢- ٦٥٣).

لقد تمثل نبي الله يوسف ﷺ الانخلاع من الحول والقوة، والتبرأ منها، والتحول من حوله وقوته إلىٰ حول الله وقوته، وذلك في تبيينه أن الله ﷻ هو الذي يصرف عنه كيد النسوة، قال تعالىٰ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣].

إن الواجب علىٰ العبد المسلم أن ينصرف ويبتعد عن التعلق بحوله وقوته، وينقلب ويتحول إلىٰ حول الله قوته؛ فهو مالك الأمر ومدبره، ولو تعلق العبد بحوله وقوته، ونسيَ ذا القوة والبطش الشديد ﷻ، فإن الله يجعله يهلك في ضعف نفسه، وقلة حيلته؛ ولذا فقد ذكَّر الله من يعبدون غيره أن من يعبدونهم من دون الله لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولا تحويلا من حال إلىٰ حال، وإنما الذي يملك كل ذلك هو الله وحده، قال تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء:٥٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ [سبأ:٢٢].

٦٨٥

الفرح بتدبير الله

قال ابن عطاء الأدمي ﵀: «الفرح في تدبير الله لنا، والشقاء كله في تدبيرنا»[(١)].

المعنى الإجمالي

يوقن العبد المسلم أن الله ربُّ كل شيء وخالقه ومليكه، والمدبر لأحواله، والمتصرِّف في ملكوته كيف شاء. والعبد المسلم مخلوقٌ من مخلوقات الله في هذا الكون الفسيح الذي يدبر الله فيه أمره من سمائه إلىٰ أرضه. قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ﴾ [يونس:٣]، فالفرح في الرضا بتدبير الله؛ فهو تدبير اللطيف الخبير الذي قال سبحانه: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام:١٠٣]، وقال أيضا: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك:١٤].

إن العبد المؤمن إذا ركن إلىٰ تدبير الله له، يسر له مطلوبه، وما يعطيه الله من فضله وكرمه بتدبيره، وما يصرفه عنه بعلمه وتقديره، فيورث ذلك في قلبه الفرح، وفي لسانه الثناء الدائم لله تعالىٰ، وفي أعماله يظهر الرضا والتسليم.

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ١٩٦).

ومن لم يسلم قياد أمره إلىٰ من يدبر أمره وأمر كل المخلوقات فإن الله يوكله إلىٰ نفسه فيضل ويشقىٰ؛ فالشقاء والعناء في اتكال العبد علىٰ تدبيره.

٦٨٦

المتوكل راضٍ بحكم الله

قال أبو عمرو ابن نجيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «المتوكل: الذي يرضى بحكم الله تعالى فيه»(١).

المعنى الإجمالي

العبد المتوكل على الله حق توكله يرضى بحكم الله تعالى، فإن كان ساعيًا لطلب رزقٍ وقد بذل أسبابه، وقصد مطلوبه، لكنه ما وصل إلى ما كان يطمع إليه، عليه أن يرضى بحكم الله وتدبيره، فقد يُغْلِقُ الله عليه بابًا لعلمه وحكمه، ويفتح له أبوابًا بفضله ورحمته.

وقد يسعى المؤمن إلى نصر الله تعالى، وهو يوقن ويعلم أن الذي بيده النصر والخذلان هو الله تعالى، فلا يتباطأ عن بذل كل الأسباب الشرعية المتاحة له، فإن لم يكن النصر قريبًا محققًا، فيرضى بحكم الله؛ لأن الله لن يتره عمله، ولن يضيع أجره، وما تأخير نصر الله عنه إلا لحِكَمٍ يعلمها الله تعالى.

(١) طبقات الصوفية لأبي نعيم (ص: ٣٤٠).

إن المؤمن يرضىٰ بكل أحكام الله، فلا يعترض أو يتسخط أو يكثر من التذمر والشكوىٰ، فإن الله يعلم أنينه وخفقات قلبه، ويعلم ما يصلحه وما يفسده، وما يقربه من الله وما يبعده، وما هو خيرٌ له في الدنيا والآخرة.

٦٨٧

أعظم حجاب بين العبد والحق

قال أبو محمد الراسبي(١) رَحِمَهُ اللَّهُ: «أعظم حجاب بينك وبين الحق اشتغالك بتدبير نفسك، واعتمادك على عاجزٍ مثلِك في أسبابك»(٢).

المعنى الإجمالي

إن من كمال توحيد الله وحسن التوكل عليه ألا ينشغل العبد بتدبير نفسه ناسبا الفضل لها، بل يبذل ما في وسعه، وهو يعلم أنه ما كان له أن يجد شيئا من تلك الأسباب إلا بإذن الله وتوفيقه، وإن وجد العبد نفسه فاقد الحيلة لتدبير أمره، فلا يلجأ إلا إلىٰ من بيده الأسباب، ولا يسأل الناس شيئًا، فإنهم عاجزون مثله.

وإن من الحجب المانعة والمبعدة عن تدبير الله، والموصلة إلىٰ الخذلان للعبد أن يوكل الله العبد إلىٰ نفسه، فيظن العبد أنه يسعىٰ بتدبير أمر نفسه، ويرتب أحوالها وفق المصلحة التي يعلمها، وما علم المسكين أن الله إن تركه منشغلًا

(١) عبد الله بن محمد أبو محمد الراسبي البغدادي، الشيخ القدوة، الزاهد، من جلة مشايخ بغداد، صحب ابن عطاء والجريري، أخذ عنه أبو عبد الرحمن السلمي، توفي سنة ٣٦٧هـ. ينظر: طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص٣٨٠)؛ تاريخ الإسلام للذهبي (٨/ ٢٧٠).

(٢) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٣٨٠).

بنفسه فقد تركه إلىٰ ذنب وعجز وتقصير وخطيئة، وإن اعتمد علىٰ عبد مثله اعتمادًا كليًا في تدبير أمره، فقد اعتمد عاجز علىٰ عاجز، وضعيف علىٰ ضعيف، وأنىٰ لعاجز وضعيف أن يدبر ويعين عاجزًا وضعيفًا مثله.

٦٨٨

بدايــة التوكل ونهايتـه

قــال أبــو عــلي الــدقاق رحمه الله: «التوكــل بدايــة، والتســليم واســطة، والتفويض نهاية»(١).

الـمعنى الإجمــالي

يفسر أبو علي الدقاق مراتب التوكل الثلاث فيقول: «فالمتوكل يسكن إلىٰ وعده، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه، وصاحب التفويض يرضىٰ بحكمه»(٢).

وللتوكل ثلاث مراتب: بداية؛ وهي أن يحسن العبد توكله علىٰ الله؛ لعلمه وإيمانه ويقينه وثقته واطمئنانه وركونه واستعانته بالله تعالىٰ؛ فالله يعلم الأمر كله، وقادر علىٰ كل شيء، ولا يعجزه شيءٌ في السماوات ولا في الأرض، وبيده خزائن ومقاليد السماوات والأرض؛ فلذا يتوكل العبد علىٰ ربه حق التوكل.

وقد ربط الطحاوي بين التسليم والاستسلام لله تعالىٰ وبين التوحيد له، فقال: «ولا تثبت قدم الإسلام إلا علىٰ ظهر التسليم والاستسلام، فمن رام علم ما حظر عنه علمه ولم يقنع بالتسليم فهمه حجبه مرامه عن خالص التوحيد وصافي المعرفة وصحيح الإيمان فيتذبذب بين الكفر والإيمان والتصديق والتكذيب والإقرار

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٣٠٢).

(٢) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٣٠٢).

والإنكار، موسوسا تائها شاكا، لا مؤمنا مصدقا ولا جاحدا مكذبا»[١].

والتفويض ألطف إشارة وأوسع معنىٰ من التوكل؛ فإن التوكل بعد وقوع السبب، والتفويض قبل وقوعه وبعده، وهو عين الاستسلام، والتوكل شعبةٌ منه[٢]. وقد حكىٰ الله عن عاقبة مؤمن آل فرعون بعد تفويضه أمره لله تعالىٰ، فقال تعالىٰ ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾ [غافر: ٤٤-٤٥]، وقيل: من وقع في ميدان التفويض يزف إليه المراد كما تزف العروس إلىٰ أهلها[٣].

---

(١) متن الطحاوية (ص: ٤٣).

(٢) منازل السائرين للهروي (ص: ٤٥).

(٣) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٣٠٨).

٦٨٩

الفرق بين التوكل والتسليم والتفويض

قال أبو علي الدقاق رحمه الله: «التوكل صفة المؤمنين، والتسليم صفة الأولياء، والتفويض صفة الموحدين»[(١)].

المعنى الإجمالي

التوكل من صفات المؤمنين قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال:٢]، وأخبر ﷻ أن الشيطان ليس له سلطان علىٰ عباده المؤمنين المتوكلين فقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل:٩٩]، وجعل الله ما عنده في الدار الآخرة خيرًا للمؤمنين المتوكلين، فقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الشورىٰ:٣٦]، وجعل الله التوكل علامة من علامات الإيمان، فحض عباده علىٰ التوكل، فقال ﷻ: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة:٢٣].

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٣٠٣).

والتسليم صفة الأولياء الصالحين، وهم من جمعوا بين صفتي الإيمان والتقوىٰ كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

والتفويض صفة الموحدين الذين عرفوا أن أمورهم كلها قبل أسبابهم وبعده بيد الله تعالىٰ، فما مثلهم إلا «كمثل الصبي حال التربية يفوض أمره إلىٰ والديه، ويثق بهما مسترخيًا من كدِّ التخيُّرِ، فلا يتخير لنفسه مع تفويضه إلىٰ من يختار له»(١).

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية لابن مفلح (٢/ ٢٤٤).

٦٩٠

الفنـــاء عن الخلق والهوى والإرادة

قال عبد القادر الجيلاني رحمه الله: «افْنَ عن الخلق بحكم الله، وعن هواك بأمره، وعن إرادتك بفعله، حينئذ يصلح أن تكون وعاءً لعلم الله»(١).

المعنى الإجمـالي

إن العبد لا يصلح أن يكون وعاءً لعلم الله عز وجل الذي يوصل إلىٰ مرضاته إلا إذا كان متجردًا عن أهوائه ورغباته وإرادته إلىٰ ما يريده الله، فيكون هواه تبعًا لما جاء به الشرع؛ كما ورد في الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكون هواه تبعًا لما جئت به»(٢).

والفناء عن الخلق يكون بترك الاعتماد عليهم واليأس مما في أيديهم، وترك التردد عليهم وطلب العون منهم، فلا يكون للإنسان مراد إلا الله، ولا يلتجئ إلىٰ أحد سواه، ولا يطلب العون إلا منه، فلا طاعة للعباد في معصية الله تعالىٰ، ولا ينبغي التعلق بهم في جلب منفعة ولا دفع مضرة.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (١٠/ ٤٩٠).

(٢) أخرجه البغوي في شرح السنة (١/ ٢١٣) برقم: (١٠٤)؛ وابن أبي عاصم في كتاب السنة (١/ ١٢) برقم: (١٥). وقال النووي: حديث حسن صحيح، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح. ينظر: الأربعون النووية (ص: ١٣).

وأما الفناء عن الهوىٰ بالأمر؛ فهو أن يكون فعله موافقًا للأمر الشرعي لا لهواه، لا يقصد إلا ما يحبه الله ويريده، وجميع المعاصي إنما تنشأ من تقديم هوىٰ النفس علىٰ أمر الله وحكمه، قال تعالىٰ: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [القصص:٥٠].

وأما قوله: «وعن إرادتك بفعله»؛ أي: لا تريد مرادا لم تؤمر بإرادته، فأما ما أمرك الله ورسوله بإرادتك إياه فإرادته إما واجب وإما مستحب، وترك إرادة هذا إما معصية وإما نقص.

ويغلط كثير من السالكين فيظنون أن الطريقة الكاملة ألا يكون للعبد إرادة أصلًا، وهذا غلط؛ فهذا غير مأمور ولا مقدور، فإن الحي لا بد له من إرادة، والإرادة التي يحبها الله ورسوله ويأمر بها أمر إيجاب أو أمر استحباب لا يدعها إلا كافر أو فاسق أو عاص إن كانت واجبة، وإن كانت مستحبة كان تاركها تاركًا لما هو خير له(١).

(١) ينظر: مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (١٠/ ٤٩٤-٤٩٥).

٦٩١

مناجاة المضطرين

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «إلهي، أغنني بتدبيرك لي عن تدبيري، وباختيارك لي عن اختياري، وأَوْقِفْني على مراكز اضطراري»(١).

بيان المفردات

مراكز الاضطرار: الحالات التي يرتكز ويستقر فيها شعور الإنسان بالافتقار والحاجة إلىٰ الله(٢).

التدبير: لغة: النظر في أدْبار الأمور وعواقبها، لتقع علىٰ الوجه المحمود، والمراد به هنا: التقدير الجاري علىٰ وفق الحكمة والوجهِ الأتمّ الأكمل(٣).

المعنى الإجمالي

أول ما بدأ به الإمام ابن عطاء رحمه الله مناجاته هذه هو نداء الله بصفة الألوهية، وفي هذا استحضار لمعنىٰ الإخلاص في العبودية. وإضافة لفظ «إله» إلىٰ ضمير المفرَد المتكلم بقوله: «إلهي» يجعل الداعي مستحضرا أنه واقف في مناجاة الله بلا واسطة ولا حجاب بين العبد وربه.

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ١٤٧).
(٢) ينظر: شرح الحكم العطائية للسندي (ص: ١٣٢).
(٣) روح المعاني للآلوسي (٦/ ٦٣).

والله سبحانه هو الخالق المدبر؛ قال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد:٢]، فكل ما يصيب الإنسان من نفع أو ضر فهو جار بتدبير الله وتقديره، وقد جرىٰ استحضار هذه المعاني علىٰ لسان إبراهيم عليه السلام حين قال: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ [الشعراء: ٧٨-٨١].

أمّا أخذ الإنسان بالأسباب فإنه وظيفة أمر الله الإنسان بأدائها، وليس تدبيرا في الحقيقة وإنما هو في ظاهر الأمر فقط، فالإنسان يأخذ بالأسباب ويسعىٰ في الأعمال المختلفة، لكن النتائج لا تكون إلا وفق ما أراده الله تعالىٰ وقدره. ولذلك فإن ابن عطاء الله رحمه الله يسأل الله في هذا الدعاء أن يجعله مستحضرا ومشاهدا أن الله سبحانه هو المدبر الحقيقي وحده، وأن كل شيء إنما يكون بتقديره ومشيئته.

ودعاء الاستخارة المعروف والذي فيه: «فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم»(١) ينمي معنىٰ تفويض العبد الاختيار إلىٰ الله، والشعور بأن الإنسان عاجز وأن الله سبحانه هو القادر، وأن العبد مفتقر ومضطر إلىٰ عون الله في جميع شؤونه.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٥٦) برقم: (١١٦٢).

٦٩٢

الطلب بالله تعالى

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: «ما توَقَّفَ مَطْلَبٌ أنت طالِبُه بِربِّك، ولا تَيسَّرَ مطلبٌ أنت طالِبُه بِنفسِك»[١].

بيان المفردات

التوقف: الحبس والتعذُّر.

المطلَب: ما يُطلَب قضاؤُه[٢].

المعنى الإجمالي

ما تعسَّر مطلب من مطالب الدنيا والآخرة أنت طالبُه بربك، أي: بالاعتماد عليه والتوسُّل إليه. فمتىٰ أنزلتَ حوائجَك به فقد تمسكتَ بأقوىٰ سببٍ، وفزتَ بقضائها من أفضاله بغير تعبٍ. ولا تيسَّر لك أمرٌ إذا اعتمدتَ في طلبه علىٰ نفسك، وعلىٰ حولِك وقوتِك، بل تعسَّرتْ عليك المطالبُ ولم تتحصَّل علىٰ بُغيتِك[٣].

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لابن عطاء الله السكندري (ص: ٦١).

(٢) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ١٠٠).

(٣) شرح الحكم العطائية للشرنوبي (ص: ٣٨).

قال الله تعالىٰ حاكيًا عن سيدنا موسىٰ عليه السلام: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨]. فكل من استعان بالله وصبر في طلب حاجته كانت العاقبة له، وكان من المتقين.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]؛ أي: كافيه كلَّ ما أهمَّه.

وقال النبي ﷺ لعبد الرحمن بن سَلَمَة رضي الله عنه: «لا تسألِ الإمارةَ، فإنك إنْ أُوتِيتَها عن مسألةٍ وُكِلتَ إليها، وإنْ أُوتِيتَها مِن غيرِ مسألةٍ أُعِنتَ عليها»[١]. وعلامة الطلب بالله هو الزهد في ذلك الأمر والاشتغال بالله عنه، فإذا جاء وقته يكون بإذن الله. وعلامة الطلب بالنفس هو الحرص والبطش إليه، فإذا تعذَّر عليه انقبض وتغير عليه، وهذا ميزان من كان طلبه بالله وطلبه بنفسه[٢].

فيقول ابن عطاء الله: إذا عرضتْ لك حاجةٌ من حوائج الدنيا وأردتَ أن تُقضَىٰ لك سريعًا فاطلُبْها بالله ولا تطلبْها بنفسك؛ فإنك إذا طلبتَها بالله تيسَّر أمرها وسهل قضاؤها، وإن طلبتَها بنفسك صَعُبَ قضاؤها وتعسَّر أمرُها، ولا يتوقف ويُحبَس أمرٌ طلبتَه بربك، ولا يتيسر ويسهل أمر طلبتَه بنفسك[٣].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٢٧) برقم: (٦٦٢٢)؛ ومسلم في صحيحه (٥/ ٨٦) برقم: (١٦٥٢).

(٢) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ١٠١).

(٣) إيقاظ الهمم لابن عجيبة (ص: ١٠١).

باب الرضـــا

٦٩٣

ثمرات الرضا وعلاماته

قال الحسن البصري رحمه الله: «مَن أُعطي درجةَ الرضا كُفِي المُؤَنَ، ومَن كُفِي المؤنَ صبرَ على المِحَن»(١).

المعنى الإجمالي

هذه الحكمة تتحدث عن ثمرات الرضا بالقضاء والقدر، وهذه الدرجة لا ينالها كل إنسان، فمن وصل إلىٰ هذه الدرجة، كفاه الله مؤنةَ حلِّ مشكلاتِه وقضاء حاجاتِه، فرضاه عن ربِّه، وتيقنه أنه ما نزل إلا بأمر ربِّه، فلا يكشفه إلا ربُّه، يكفيه المؤن. قال تعالىٰ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن:١١].

وعلامة هذا الرضا تظهر في الصبر علىٰ المحنة النازلة به. ومرتبة الرضا أعلىٰ من مرتبة الصبر، لأن الإنسان ربما يصبر علىٰ البلاء مع أنه ليس راضيًا بما حلَّ به، فليس له ثواب الرضا، وصبره علىٰ البلاء الذي نزل به شديد عليه، بخلاف الذي أعطي الرضا، فإنه كفي المؤنة والتعب، وأعانه ذلك علىٰ الصبر في المحن.

(١) آداب الحسن البصري لابن الجوزي (ص: ٣٨).

وقد أثنى الله تعالى على الصابرين الذي صبروا عن رضا بقضاء الله، قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]، وقال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥]، والمخبتون هم المطمئنون، الراضون بقضاء الله، المستسلمون لأمره.

٦٩٤

الرضا جنة الدنيا

قال عبد الواحد بن زيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا»[1].

المعنى الإجمالي

يختلف المسلم والكافر في نظرتهما إلى خالقهما، وما أوجده ﷻ من قضائه وقدره في كونه؛ فيكون المسلم راضيًا صابرًا مطمئنًّا، ساكنًا وقورًا، لا يستبد به الحزن، ولا يحرفه عن طريقه ووجهته، بينما يكون الكافر غير راض بما قسمه الله، فإن أصيب بمصيبة أو ابتلي ببلية لم يهدأ له قرار، ولم يستسلم لما قدره الله؛ لأنه لا يعلم عن الله وقدرته شيئًا.

عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله، أي العمل أفضل؟ قال: «الإيمان بالله وتصديق به وجهاد في سبيله»، قال: أريد أهون من ذلك يا رسول الله، قال: «السماحة والصبر»، قال: أريد أهون من ذلك يا رسول الله. قال: «لا تتهم الله في شيء قضى لك به»[2].

(١) الرضا عن الله بقضائه لابن أبي الدنيا (ص: ١٣)؛ وحلية الأولياء لأبي نعيم (٦/ ١٥٦)؛ والرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (٢/ ٣٤٢).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧/ ٣٩٠) برقم: (٢٢٧١٧). قال الهيثمي: وفي إسناده ابن لهيعة. ينظر: مجمع الزوائد للهيثمي (١/ ٣٨٤).

قد يصبر العبد لكنه لا يرضىٰ، وهذا الفعل لا يرتقي بالعبد لأن يكون داخلًا في باب الله الأعظم، ومستريحًا في جنة الدنيا؛ وذلك لأن هناك فرقًا بين الرضا والصبر، وهو: أن الصبر كف النفس وحبسها عن التسخط مع وجود الألم، وتمني زوال ذلك، وكف الجوارح عن العمل بمقتضىٰ الجزع، والرضا: انشراح الصدر وسعته بالقضاء، وترك تمني زوال ذلك المؤلم، وإن وُجد الإحساس بالألم، لكن الرضا يخففه لما يباشر القلب من روح اليقين والمعرفة، وإذا قوي الرضا فقد يزيل الإحساس بالألم بالكلية(١).

جنة الدنيا التي من حُرمها فقد حُرم لذة ما في الدنيا، ولذتها تكون براحة الضمير وهدوئه وسكونه؛ وذلك أن العبد يعلم أن ما يجري عليه وعلىٰ غيره من المخلوقات قد جعله الله في كتاب مبين، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر:٤٩]، فيعيش مطمئنًا، فلا قلق ولا أمراض تصيبه، ولا خوف يقتله.

(١) موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية للمغراوي (٨/ ٤٥٦).

٦٩٥

حقيقة الرضا

قال الحارث المحاسبي رحمه الله: «الرضا: سكون القلب تحت مجاري الأحكام»[(١)].

بيان المفردات

الرِّضا: لغةً: ضد السُّخط، والرضا بالشيء: الركون إليه وعدم النفرة منه[(٢)].

واصطلاحًا، عرفه ابن خفيف بأنه: سكون القلب إلى أحكامه، وموافقة القلب بما رضِيَ اللهُ به واختاره[(٣)]. وكلام المحاسبي في هذه الحكمة هو تعريف آخر للرضا.

المعنى الإجمالي

مجاري الأحداث هي أحكام الله وأقداره التي ينفذها على عباده، وسكون القلب عند جريانها دليل على الوصول إلى منزلة الرضا.

إن الرضا حالة قلبية تدل على قوة الإيمان واليقين بأن ما يختاره الله لعبده أفضل مما يختاره العبد لنفسه، فمن وصل إلى هذه المرحلة فقد عرف ربَّه حق المعرفة.

(١) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (٢/ ٣٤٤).

(٢) ينظر: لسان العرب لابن منظور (١٤/ ٣٢٣).

(٣) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (٢/ ٣٤٣).

ومقام الرضا يجعل صاحبه ينال من الله تعالىٰ قوة يستطيع بها أن يغلب الأحداث والمصائب، فالبلاء ينزل، والمصيبة تقع، والقلب ساكن مطمئنٌّ بالله، راضٍ بما قدّر، موقنٌ أن الخير فيما اختاره الله.

جاء في الحديث: «إن عِظَم الجزاء مع عِظَم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضيَ فله الرضا، ومن سخِط فله السُّخط»(١).

قيل للحسين بن عَلِي بن أبي طالب رضي الله عنهما: «إن أبا ذر يقول: الفقر أحبُّ إلَيَّ من الغنىٰ، والسَّقَم أحبُّ إليّ من الصحة! فقال: رحم الله تعالىٰ أبا ذر! أمَّا أنا فأقول: من اتَّكل علىٰ حُسن اختيار الله تعالىٰ له لم يتَمَنَّ غير ما اختاره الله عز وجل له»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ٢٠٢) برقم: (٢٣٩٦)، وقال: حسن غريب.

(٢) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (٢/ ٣٤٤).

٦٩٦

ارضَ عن الله يرضى عنك

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «إذا كنت لا ترضى عن الله كيف تسأله الرضا عنك!»[(١)].

المعنى الإجمالي

إذا كان العبد المؤمن يحب رضا الله عنه، فعليه أن يرضىٰ عن الله؛ وذلك برضاه عن كل أحكام الله القدرية والشرعية؛ إذ من غير المقبول أن يطلب العبد رضا ربه ومولاه، وهو غير راض عنه.

فالمؤمن يقبل علىٰ الله بكليته، ويعجل إليه بالأعمال الصالحة، كما قال تعالىٰ عن موسىٰ عليه السلام: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه:٨٤]، فإذا رضي الله عن عبده فلن يتركه لنفسه وشهواتها، ولا للشيطان ونزغه وهمزه ونفخه ونفثه، ولا للشبهات تتوارد عليه من كل جانب، بل ينقذه من كل ذلك.

ذكر الله سبحانه وتعالى رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار، ورضاهم عنه؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٢٩٣).

رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة:١٠٠]، فهم قد تعلموا من رسول الله ﷺ الصبر علىٰ كل ما يلاقيهم بسبب تمسكهم بدينهم، وصبرهم علىٰ إيذاء أعدائهم لهم، وصبرهم ورضاهم عن الله في كل اختيار اختاره لهم.

٦٩٧

البلاء وحقائق الرضا

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «عند نزول البلاء تظهر حقائق الصبر، وعند مكاشفة المقدور تظهر حقائق الرضا»(١).

المعنى الإجمالي

يقول الإنسان أنه يتمتع بالصبر والجلد ومهما نزل به من البلاء والمصيبة فلن يُخرِجَه ذلك من صبره وحلمه، لكن عند نزول البلاء عليه تظهر حقيقة هذه الدعوىٰ، كذلك يدعي أكثرُ الناس أنهم راضون بما قضىٰ اللهُ لهم، وأيًّا كان المقدور لن يضجروا منه، لكن عند وقوع المقدور ومكاشفة قضاء الله تعالىٰ تنكشف حقيقة هذه الدعوىٰ.

إن المقادير التي قدرها الله علىٰ عباده، قد كتبها في اللوح المحفوظ قبل أن تخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. كما قال رسول الله ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه علىٰ الماء»(٢).

(١) جواهر التصوف ليحيىٰ بن معاذ (١٠٦). وهذا الشرح يتعلق بما يخص الرضا، وأما شرح ما يخص الصبر فقد مر في باب الصبر، الحكمة رقم: (٥٨٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٤٤) برقم: (٢٦٥٣).

قد يدعي الصبر أدعياء، لكن البلاء بالشر والخير فتنة وامتحان، قال تعالىٰ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٥]، والحكمة من الابتلاء بالشر والخير لتتكشف حقائق الصبر، وتظهر حقائق الرضا، وتظهر معادن المؤمنين من الإيمان بقضاء الله وقدره، والرضا بما قضاه الله وقدَّره، وذلك حين يعاين المؤمنون القدر، بنزوله عليهم وتحققه في حياتهم، فتظهر حقيقة كل مؤمن تجاه قدر الله.

ومن حكم الله في أقداره أن يجعل البلاء علىٰ مقدار إيمان العبد؛ فإن كان في إيمانه قوة وصلابة كان بلاؤه عظيمًا، ومن ضعف إيمانه ضعف بلاؤه، حتىٰ يمشي العبد علىٰ الأرض وما عليه خطيئة، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ فقال: «الأنبياء، ثم الأمثل، فالأمثل، فيبتلىٰ الرجل علىٰ حسب دينه، فإن كان رقيق الدين ابتلي علىٰ حسب ذاك، وإن كان صلب الدين ابتلي علىٰ حسب ذاك، قال: فما تزال البلايا بالرجل حتىٰ يمشي في الأرض وما عليه خطيئة».

وفي الحديث: «إنما الصبر عند الصدمة الأولىٰ»[(١)]، وفي الحديث أيضًا: «اتق المحارم تكنْ أعبدَ الناس، وارضَ بما قسمَ اللهُ لك تكنْ أغنىٰ الناس»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٧٩) برقم: (١٢٨٣)؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ٤٠) برقم: (٩٢٦).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ١٤٠) برقم: (٢٣٠٥)، وقال: حديث غريب؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٢٩٩) برقم: (٤٢١٧)؛ وأحمد في مسنده (١٣/ ٤٥٩) برقم: (٨٢١٠).

٦٩٨

الرضا بما قسم الله تعالى

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «من لم يرضَ عن الله في الممنوع لم يَسلَم من الممنوع»[(١)].

المعنى الإجمالي

إن العبد إذا لم يرض عن ربه فيما منعه من الأشياء، وقع في المحظور شرعًا، فالممنوع الأول هو الممنوع قدرًا، والثاني هو الممنوع شرعًا. وبيان ذلك أن العبد الذي كان يريد تحصيل أمرٍ أو يحصِّل نعمةً من النعم، أو كان في نعمٍ ثم أخذها الله منه ومنعه من فضله، يجب عليه أن يستسلم لحكم الله، ويعتقد بيقين أن الله لا يريد له إلا الخير، وليس له إلا ذاك، فالخير فيما وقع، والخير فيما اختاره الله، لكنه إن لم يرض عن الله تعالىٰ فيما قضىٰ عليه من المنع والحرمان، سيكون سخطه سببًا لنزول عقوبة إلهية عليه، فلن يسلم من ممنوع، أي: الوقوع في المكروه شرعًا.

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب:٣٦].

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٤٠).

وقال سبحانه: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف:٣٢]، أي: الرضا بما قسم الله لهم، ولزوم تقوىٰ الله والتوكل عليه فيما قضىٰ عليهم أفضل لهم من متاع الدنيا وحطامها، فمَن سلَّم لأمر الله سلِم من مقتِ الله، وأكرمه الله بفرج قريب، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

٦٩٩

عدم الاعتراض على حكم الله

قال أبو علي الدقاق رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليس الرضا أن لا تُحِسَّ بالبلاء، إنما الرضا أن لا تعترض على الحُكم والقضاء»[(١)].

المعنى الإجمالي

هناك فرق بين الإحساس بالبلاء وبين الرضا بالقضاء، وترك الاعتراض على الحكم والقضاء، فإحساس العبد بما ابتليَ به شيءٌ فطريٌّ؛ فالإحساس بفقدان قريب يُشعر بلوعة وحزن، وألمٍ وبكاءٍ، دون رفع لصوت بالنياحة، فعن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن ابنة للنبي ﷺ أرسلت إليه، وهو مع النبي ﷺ وسعد وأُبَيّ، نحسب: أن ابنتي قد حُضِرَتْ، فاشْهَدْنا، فأرسل إليها السلام، ويقول: «إن لله ما أخذ وما أعطى، وكل شيء عنده مسمى، فلْتَحتسب ولْتصبر»، فأرسلت تقسم عليه، فقام النبي ﷺ وقمنا، فرُفع الصبي في حجر النبي ﷺ ونفسه تَقَعْقَعُ، ففاضت عينا النبي ﷺ، فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «هذه رحمة وضعها الله في قلوب من شاء من عباده، ولا يرحم الله من عباده إلا الرحماء»[(٢)].

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٣٤٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ١١٧) برقم: (٥٦٥٥)؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ٦٣٥) برقم: (٩٢٣).

لقد حزن النبي ﷺ على موت ابنه إبراهيم، ودمعت عيناه، لكنه قال بعد ذلك: «إن العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»(١).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٤٣٩) برقم: (١٢٤١).

٧٠٠

الرضا والقناعة

قال عبد الرزاق القاشاني رحمه الله: «الرِّضا فرحٌ يمتدّ، والقناعةُ غنى لا ينفد»[١].

المعنى الإجمالي

إنَّ الرضا مقامٌ عزيز، ومنزلةٌ عالية، فهو من أعلى مقامات المقرّبين، ومنزلٌ من منازل السائرين والسالكين، وحياة المحبين ونعيم العابدين، وهو من أعظم أعمال القلوب[٢]، قال عبد الواحد بن زيد: «الرّضا بابُ اللهِ الأعظم، وجنَّة الدنيا، ومُستراح العابدين»[٣].

فالرضا هو: «سرور القلب بِمُرّ القضاء»[٤]، وسُكونه إلى اختيار الرِّب[٥]، و«استقبال الأحكام بالفرح»[٦]، و«ارتفاع الجَزَع في أيِّ حُكم كان»[٧].

(١) آداب الطريقة وأسرار الحقيقة في رسائل الشيخ عبد الرزاق القاشاني (ص: ١٠٧).
(٢) ينظر: فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب (٦/ ١٩٢).
(٣) الرضا عن الله بقضائه لابن أبي الدنيا (ص: ٥١).
(٤) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي (ص: ١٠٢).
(٥) ينظر: آداب النفوس للمحاسبي (ص: ١٥١).
(٦) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي (ص: ١٠٢).
(٧) الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (٢/ ٣٤٤).

والإنسان إذا رضي بقسمة الله كان أسعد الناس، قال النبي ﷺ: «وَارْضَ بما قَسَم اللهُ لك تَكُنْ أغْنىٰ النَّاس»(١)، لأنّ العبدَ إذا عَلِمَ أنَّ الله كافٍ جميع عباده، استراحَ من تَعِبه، وأزال الهمومَ والأكدار عن قلبه، فيدخل جنةَ الرِّضا والتسليم، ويهب عليه من روح الوصال وريحان الجمال نسيم، فيكتفي بالله، ويقنع بعلم الله، ويثق بضمانه(٢).

ومن المقامات المتعلّقة بالرضا هو القناعة، لأنَّ العبد إذا رضي بما قَسَم الله له تتولد لديه القناعة، وهي: الاقتصار علىٰ ما سنح من العيش، والرّضا بما تسهّل من المعاش، وترك الحرص علىٰ اكتساب الأموال وطلب المراتب العالية مع الرّغبة في جميع ذلك وإيثاره والميل إليه وقهر النّفس علىٰ ذلك والتّقنّع باليسير منه(٣).

والقناعة بما قدَّره الله تعالىٰ من النِّعم الجليلة التي ينعم الله بها علىٰ أصحاب القلوب السليمة، والنفوس المطمئنة، وقد مدح الله المؤمنين بالقناعة والعفاف والرضا بالمقدور، فقال سبحانه: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٧٣]، وقد دعا النبيُّ ﷺ بالفلاحِ والفوزِ لمن رزقه الله القناعةَ، فقال: «قد أفلحَ من أسلم، ورُزق كَفَافًا، وقنَّعه الله بما آتاه»(٤).

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤/ ١٤٠) برقم: (٢٣٠٥)؛ وابن ماجه في سننه (٥/ ٢٨٥) برقم: (٤١٩٣).

(٢) ينظر: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة (٥/ ٧٩).

(٣) ينظر: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم لمجموعة من المؤلفين (٨/ ٣١٦٨).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٠٢) برقم: (١٠٥٤).

فطوبى لمَن عاش راضيًا عن الله تعالى، قانعًا به، مُسَلِّمًا له بكل ما جرى به القلم، وصدقتْ الحكمةُ القائلة: القناعة كنز لا يفنى، لأن الإنسان بقناعته يستشعر أنه غنيٌّ عن كل شيء، فتعزف نفسُه عن حطام الدّنيا رغبة فيما عند الله[١].

وما أحسن قول الإمام الشافعي رحمه الله:

رأيـــتُ القناعـــةَ رأسَ الغِنَـــى ... فصِـــرْتُ بأذيالِهـــا مُمتَسِـــكْ
فـــلا ذا يرانِـــي علـــى بابِـــهِ ... ولا ذا يرانِـــي بِـــه منهَمِـــكْ
فصِـــرْتُ غنِيًّـــا بِـــلا دِرْهَـــمٍ ... أمُـــرُّ علَـــى النـــاسِ شـــبهَ الملـــكْ[٢]

(١) ينظر: شرح رياض الصالحين للحطيبة (٨/ ٣٧).
(٢) ديوان الإمام الشافعي (ص: ١٠٢).